بسم الله الرحمن الرحيم

المعهد الوطني العالي لأصول الدين
الجزائر

محمد بن يوسف أطفيش

ومنهجيته في تفسيره التيسير

رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية

إعداد
محمد علي علواني

إشراف
الدكتور الهاشمي التيجاني

1411هـ / 1990-1991

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم .

المقدمة :

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا . الآية 1 /الكهف والصلاة والسلام على نبيه الأمين الذي كان خير مطبق لتعاليمه ، وخير مبلغ لتشريعاته ، وعلى آله وأصحابه الذين اقتدوا آثاره في الاستنارة بهديه ، حتى أصبحوا به سادة العالم ، وأئمة الهدى .

ولكن ما ان انحرف المسلمون ، وأعرضوا عن الالتزام بتعاليم كتاب الله حتى أصبح داء الجهل والتخلف ، والأخلاق السيئة تتفشى بينهم ، فجعلوا منه كتابا يتلى تلاوة لا تتجاوز حناجرهم ، ومصدر معارف يحشون بها أدمغتهم ، فامتلأت مكتباتهم بكتب التفاسير التي أخطأت معظمها مقاصد القرآن ، وحادت عن المنهجية الفعالة القادرة على تحقيق هذه المقاصد في واقع الانسان ، والا فكيف نفسر ضعف آثارها في الفرد المسلم والمجتمع الاسلامي ؟

وهذا ما دعاني الى هذه الدراسة التي أعتبرها منطلقا للتفكير في وضع منهجية فعالة ، وناجحة ، وعلى الأقل ، لفت نظر الباحثين الى بعض نقاط الضعف والقوة في التفاسير السابقة ، وقد يتساءل القارئ لم وقع اختياري – في هذه الحالة – على تفسير يمثل مدرسة اسلامية معينة ، وينتمي الى منهجية التفسير بالرأي السلفية ؟

وسرعان ما يزول هذا التساؤل ، اذا عرف القارئ أسباب اختياري لهذا التفسير بالذات ، وتتمثل فيما يلي :–

1) النتيجة التي حققها المفسر في تكوين نخبة من المفكرين والمصلحين ، وأثره في النهضة الاصلاحية .

2) دراسة المنهجية السابقة لمعرفة مساويها ومحاسنها للاستفادة منها ، والتفسير المختار وان كان يمثل مدرسة التفسير بالرأي السلفية غير أننا نجد فيه بعض بصمات المدرسة الاصلاحية ومدرسة التفسير بالمأثور .

3) عرضه لأهم آراء المدارس الاسلامية في أمهات المسائل .

4) اخترت تفسيره " التيسير " بالذات لاعتباره :–

أ . التفسير الأخير الذي بلغ فيه المفسر درجة النضج العلمي فقد يكون بذلك عصارة فكره وتجربته .

.../...

ب. لم يتعرض أي باحث لدراسته بطريقة مفصّلة وذلك حتى نهاية بحثي .
جـ. ألفه من أجل التدريس ، وهذا الغرض يسمح لي بالاطلاع على منهجية تدريس هذه المادة في عصره للوصول الى وضع منهجية حديثة لتدريس هذه المادة لما لهذا الموضوع من علاقة باختصاصي في ميدان العمل .

5) قلّة دراسات تفاسير الاباضيّة ، رغم أهميتها جعلتها لا تحتل مكانتها في مكتبات العلوم الاسلاميّة ، ولا يقبل عليها الدّارسون ، وبما أنني ابن بيئة المفسّر ، وكنت طالب علم التفسير عند أحد تلاميذه ، أرى أن ذلك عامل مساعد لي على هذه الدراســة .

وهذه الأسباب هي التي دعتني الى اختيار عنوان البحث على النّحو التالي :

" أمحمّد بن يوسف أطفيـــش ومنهجيّته في تفسيره التّيسيــر " المتعرض أولا لدراسة جوانب من شخصيّة المفسّر ، ثم تناول منهجيّته في تفسيره بالبحث ، والتي أعنيّ بها الطّريقة التي سلكها لتدريس هذه المادة وتوضيحها ، ولم أركّز كثيرا كغيري من الباحثين في هذه الموضوعات على ناحية المضمون ، بل حاولت الجمع بينه وبين الشكل أي طريقة تقديم المادّة ، واخترت بذلك كلمة " المنهجية " على " المذهب " .

ولعلّ تصميم البحث يعطي صورة أكثر وضوحا تثبت ما ذهبت اليه .

فقبل التعرض لتصميم الموضوع ، رأيت من المفيد أن أتقدّم أمام القارئ صورة ولو موجزة عن نشأة المذهب الاباضيّ ، ولمحة عن أسسه في التّفكير ، وعن تفسيره ومفسّريه واتجاهاتهم ، حتّى أبني بحثي على قاعدة واضحة ، وأضع القارئ في جو الموضوع مستغنيا عن موضوع علوم القرآن التّي اعتاد الباحثون في هذه الدراسات التّمهيد بها باعتبارها قد لاكتها أقلام كثيرة ، وهذا يتنافى مع رغبتي في محاولة تقديم الجديد في المضمون والمنهجيّة بقدر المستطاع ، والابتعاد عن الاجترار .

ثم سلطت بعض الأضواء على عصر المفسّر في جوانبه الثلاثة : السّياسيّة والاجتماعية والفكرية ، لأنه لا يعقل تقديم دراسة موضوع أو شخصية مجرّدة عن بيئتها ومحيطها ، وإلا لا تكون الأحكام مبنيّة على قواعد سليمة ، ورأيت من الضروري تحليل شخصيّة المفسر مكتفيا في ذلك بدراسة شبه سيكولوجية واجتماعيّة معرضا عن بعض الجزئيات التي لا تخدم الهدف من الدراسة ، مع تخصيص فصل كامل لابراز آثار هذه الشخصيّة وجهادها .

.../...

وإذ هذه الدراسة لشخصية المفسّر ارتأيت التعريف بتفاسيره الثلاثة، والدوافع لتأليفها، عاقداً مقارنة بسيطة بينها، مبيّناً فيها المميّزات الخاصة والمشتركة بينها، متوصلاً إلى بيان أسباب عدم انتشارها.

وقبل الدخول في صميم الموضوع، رأيت أنّ المنهجية السليمة تقتضي مني تقديم عرض موجز لآراء الباحثين في تفاسيره والمصادر المعتمدة لتأليفها.

وبعد هذا التصور الشامل للمدرسة الاسلاميّة الّتي ينتمي اليها المفسّر، والبيئة التي عاش فيها، وعوامل تكوين شخصيته، ومساهماته، وبعض مواصفات تفاسيره، ووجهات نظر الدارسين لها، والمصادر المعتمدة، شرعت ـ في الباب الثالث ـ في دراسة طريقته في التّفسير مقتصراً على كتابه " التّيسير " من حيث أسلوب تناول هذه المادة، والمصادر التي استعان بها في الشرح والتوضيح، مع ضرب أمثلة عن كيفية استغلال هذه المصادر، ثم انتقلت الى استعراض مواقفه من بعض المسائل والمدارس الاسلاميّة والفرق.

ولابراز مكانة تفسيره، عقدت مقارنة بسيطة بينه وبين تفسير تأثر به واتبع نفس المنهجيّة، وتفسير أقدم منه ولكن مؤلفه جزائري، وتفسير يمثّل وجهة نظر عصره، وفي الختام استخلصت بعض النتائج، ولخّصت بعض القضايا التي استنتجتها في معرض بحثي.

وقد اعتمدت في هذه الدراسة المتواضعة المنهج الاستقرائي، باستقراء النصوص ومحاولة استنتاج المعلومات منها، مستعملاً ـ أحياناً ـ أساليب: التحليل والمقارنة والنقد حسبما يقتضيه الموضوع، وان كنت لم أستغن عن المنهج التاريخي في عرض بعض الآراء، مع نقدها إذا لزم الأمر ذلك، ومقارنتها بغيرها للوصول الى حكم، ومن هنا تبدو صعوبة الدراسة، لا سيّما لمن يسعى الى تحقيق عمل جاد، ويلتزم قدر المستطاع بالموضوعية، وينشد اكتشاف جوانب جديدة، ومن أجل هذا الهدف الأخير تحاشيت الاكثار من عرض آراء الغير واقتباسها، وبل الاطلاع على بعض الدراسات الشبيهة خوفاً من التأثر، وهو الّذي فرض عليّ انتهاج منهج الاستقراء، واعتماد النّصوص مستخدماً فكري قصد الوصول الى نتائج دقيقة تلقي أضواء على أهداف

.../...

بحثي ، وقد أصل بذلك الى نتائج تتفق مع غيري أو تختلف معه .

والعائق الثاني هو قلة المصادر والمراجع المعينة على ذلك ، بالاضافة الى جدة الموضوع الذي لم يطرقه باحث من قبل بهذه الطريقة ، ولم تقدم دراسات مفصلة فيه باستثناء بعض الدراسات التي أشرنا اليها في البحث أو تلك التي قدمها زميلي في القاهرة ، لكنها جاءت بعد انتهائي من البحث ، مع العلم بأنني قد سبقته في اختيار الموضوع والشروع في تحريره فكان من غريب الصدف أن وقع اختيارنا على موضوع واحد دون اتفاق مسبق ، وكان أول اتصالي به بعد أن وضعت تصميم موضوعي وشرعت في جمع المادة ، وقد استفسرته ـ يومئذ ـ عن التفسير الذي اختاره ففهمت من اجابته أن اختياره وقع على " هميان الزاد " وفي هذه الحالة استمررت في دراسة تفسير " التيسير " مبينًا له أسباب اختياري له ، ولكن قد فوجئت عند سماعي لمناقشة رسالته أنه درس كتاب " التيسير " وكنت ـ حينئذ ـ قد أنهيت بحثي الذي كلفني وقتا طويلا ، وجهودا مضنية وأموالا طائلة .

وهذه الصعوبات وغيرها كادت تنال من عزيمتي لولا تشجيع فضيلة أستاذي المشرف وتوجيهاته القيمة وبعث الثقة في نفسي ، فقد كان ذلك لي بمثابة الشحنة التي زادتني اصرارا على اتمام بحثي ، بالاضافة الى انتظار أساتذتي واخواني لهذه الدراسة بفارغ الصبر ، وما قدمه لي بعضهم من يد مساعدة .

فرغم صعوبة الحصول على المراجع والمصادر ، فان المنهج المختار تطلب مني في الحقيقة الاقتصار على مؤلفات المفسر والتركيز عليها ، أما ما عداها من مراجع فكانت مساعدة لي على اتمام ما أجده ناقصا ، أو في بلورة بعض الأفكار ، أو في الاستدلال بما جاء فيها لاثبات رأي ومصيصة لي على التحقيق لا غير .

فهذه باختصار الدوافع التي حفزتني الى كتابة هذا البحث ، والخوض في موضوع شيق وصعب ، دون أن أنسى رغبتي الأكيدة في خدمة كتاب الله ومساهمتي المتواضعة في محاولة وضع منهجية تساعد على نشر تشريعاته وتعليماته لتصبح ضوابط تنظم حياة الانسان وتنقذه من ضلالته .

.../...

- هـ -

وأرجو أن أكون ببحثي هذا ، قد وضعت احدى اللبنات في صرح المجتمع الاسلامي المستقبلي ، وتمتين أواصره بالتقريب بين مدارسه، فان كنت قد أصبت فذلك من فضل الله عليّ وتوفيقه ، وان كنت قد أخطأت فذلك منّي ومن الشيطان الذي استعيذ بالله منه .

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم ، ويتقبله منّي ويسدد خطاي ويوفقني لما فيه خير هذه الأمّة انه سميع قريب وبالاجابة جدير والحمد لله رب العلمين .

والله الموفق

مختصرات و ملاحظات

مختصرات:

نفس المرجع	ن م
المصدر نفسه	م ن
صلّى الله عليه وسلّم	(ص) في بعض المواضع
الطّبعة (في فهرس المراجع والمصادر أو الهوامش)	حرف ط // //

ملاحظات:

- التاريخ الموجود بين قوسين أمام علم من الأعلام هو تاريخ الوفاة .
- اعتمدت في ترقيم الآيات الكريمة مصحف قراءة ورش عن نافع وفي كتابتها الرّسم العثماني .
- تفاديا للتّكرار واثقال الهوامش خرّجت الأحاديث في فهرسها وعرفت بعض الشّخصيات في فهرس الأعلام .
- العبارة أو الكلمة المكتوبة بين قوسين في فهرس الأحاديث النّبوية الشّريفة وفي عمود مصدره هي العبارة أو الكلمة الواردة في نفس الحديث بالمرجع المذكور في نفس العمود مقابلة لما ورد في الحديث الذي ساقه المؤلف .
- الرّقم المكتوب قبل اسم السّورة أو بعده هو رقم الآية .

التمهيد

الإباضية والتفسير عندهم

— 0 — نشأة المذهب الاباضي — 0 —

ان الحديث عن نشأة المذهب الاباضي يسوقنا الى الحديث عن الخوارج ، هذا التيار الذي ظهر نتيجة ظروف عاشتها الامة الاسلامية في بداية تجربتها بالخلافة . وان ذهب الباحثون مذاهب مختلفة في تحديد مفهوم الخروج ، مما نتج عن ذلك اختلاف في زمن ظهور هذا التيار ، وبداية تكوينه ، ووضوح ملامحه غير أننا نستطيع من الآراء المختلفة استخلاص اتجاهين رئيسيين . (1)

1) الاتجاه السياسي :

هذا الإتجاه يرى ان التيار الخارجي حركة خرجت على الامام الحق الذي بايعته الامة، أو أنكرت عليه حكما من أحكامه ، غير أن في هذا الاتجاه من يحصر هذه الحركة في الخروج على علي بن ابي طالب ، وبذلك يرى ان بداية هذا التيار كان في وقعة الجمل (2) ، وعند البعض في وقعة التحكيم (3) ويتزعم هذه الفكرة الشيعة ، اما الفئة الثانية فتذهب الى ابعد من ذلك فترى ان كل حركة تنكر على الامام أو تخرج عليه ، تعتبر حركة خارجية.

ولذلك ترى ان أوّل بذرة لهذه الحركة ظهرت في عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلم وبالضبط في قضية ابن الثديية (4) ومن جملة من يرى هذا الرأي عمار طالبي (5) ، وينسبه الى أهل السنة والجماعة ولا سيما الاشاعرة (6)، والمعتزلة (7).

---

1) أبو عمار آراء الخوارج الكلامية 1/ ص 15 — 43 دراسة مستفيضة حول الموضوع لعمار طالبي .

2) ن.م. ص 27 . 28.

3) ن.م. ص44

4) أنظر القضية بالتفصيل في ن.م. من ص 35 — 46.

5) م. ن

6) ن.م. ص 23

7) ن.م. ص 26.

و هناك فئة ثانية ترى أنّ الخارجية حركة قامت ضد أئمة الجور ، و المنحرفين عن مبادئ الكتاب و السّنة ، و يكون الخروج في مفهومها ، حركة تقوم بثورة لتصحيح مسار الخلافة و اعادتها الى عهدها الاول ، و يمكن استخلاص هذا المفهوم من جواب عبد الله بن اباض لعبد الملك بن مروان ، عند براءته من ابن الازرق (1) و جماعته قائلا : ".. لقد كانوا على الاسلام فيما ظهر لنا حين خرجوا ، ولكنهم ارتدوا عنه وكفروا بعد اسلامهم"(2) ثم يقول متحدثا عن امام الضلالة : " فهو الذي يحكم بغير ما انزل الله " الى أن يقول : " فذلك كفر كما سمّى الله ونهى عن طاعتهم و أمر بجهادهم"(3).

الاتجاه الديني :

يستخلص مفهومه للخروج من الكتاب و السنة ، فالرأي الاول يعطي لمفهوم الخروج المعنى الوارد في القرآن الكريم (4) و يرى انه مرادف للجهاد في سبيل الله و الجماعة التي تخرج في سبيل الله يطلق عليها اسم الخوارج ، و يمثل هذا الراي بعض علماء الاباضية على وجه الخصوص ، ولهذا الرأي ارتباط وثيق براي الفئة الثالثة في الاتجاه السياسي السابق الذكر ، غير ان هؤلاء يعطون لمفهوم الخروج معنى دينيا أساسه القرآن الكريم ، و يرى بعض هؤلاء أنّ هذا المفهوم تغيّر بانحراف الجماعة المنشقّة عن المحكمة (5) و ذلك حين أصبحت كلمة الخوارج تطلق على الفئة المنشقّة فانقلبت بذلك من المدح الى الذّم . (6)

---

1) هو نافع بن الازرق امام فرقة الازارقة من الخوارج .
2) أبو الربيع سليمان البارو ني — مختصر تاريخ الاباضية ص 25 .
3) ن . م . ص 26 قوله كما سمى الله اشارة الى قوله تعالى " و من لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرو ن " الاية 46 من سورة المائدة وكذلك " هم الظالمو ن (47) ن ص " و هم الفاسقون (48) " ن . س .
4) مثال ذلك قوله تعالى : " و لو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة " 46 التوبة .
5) فرقة رفضت التحكيم في وقعة صفين أنظر التفصيل في فجر الاسلام ص 256 ، 257 .
6) محمد بن يوسف أطفيش رسالة (أن لم تعرف الاباضية) ص 23 ، 26 عوامش بقلم عبد الله بن حميد السّالمي .

أما الرأي الثاني استمد مفهومه من السنة النبوية ، يرى أن الخوارج مرادف في معناه (الاصطلاحي) الإطلاحي لكلمة المروق من الدين ، وكل حركة في نظره تنحرف عن الدين و تخرج عن الأمة تعتبر حركة خارجية ، وقريب من هذا الرأي من يحكم على الخوارج بانهم أصحاب بدع و هوى و من جملة من ينتمي الى هذا الرأي جمهور الاباضية ، و اغلب السلف و الصحابة والتابعين و من تمسك بظاهر الحديث (1).

و لذلك تنكر الاباضية اطلاق اسم الخوارج على المحكمة ، وترى أن ذلك ظلم و تعسف رمت به السلطة الحاكمة – آنذاك – الى التشنيع بحركتهم و تشويه سمعتها باعتبارها تمثل حركة المعارضة للنظام الحكم (2).

نستخلص مما سبق ان مفهوم الخوارج تبعا للرأي الاول في الاتجاه السياسي ينطبق على الاباضية بدون منازع و على من رفض التحكيم والفصل عن علي ، وبل وقف الاباضيون منذ عهد عثمان مع الحركات المناوئة للحكم و هذا ما يفهم من جواب ابن اباض ، ان صحت نسبته اليه ، غير ان حشر الاباضية مع الخوارج بالمفهوم الثاني في الاتجاه السياسي و الديني يعتبر من التناقضات الواضحة لأن الاباضية نفسها تنكر أشد الانكار الخروج على الامام الحق (3) و اكبر دليل على ذلك ما جاء في جواب ابن اباض بعد تعريفه بامام الهدى فقال : " و هؤلاء أولياء المؤمنين الذين أمر الله بطاعتهم و نهى عن معصيتهم. " (4)

---

1) آراء الخوارج — 1 / 19، 22، 30 أبو اسحاق (النقد الجليل) ص 20، 22، 23 ن. ك مسألة الآذان (مجلة المنهاج) العدد 3، 4 / 29. أبو يعقوب (الدليل و البرهان) 2 / 32.
2) مجلة المنهاج / 29 علي يحي معمر (الاباضية بين الفرق) ص / 353 ؛ 354 نقلا عن أبي اسحاق، سالم بن حمود (أهدى المنهاج في تمييز الاباضية) ص 18 محمد علي دبوز (تاريخ المغرب الكبير) 3 / 170.
3) مسألة الآذان (مجلة المنهاج) / 29 ن. ع.
4) مختصر تاريخ الاباضية ص 26.

كما انهم يتبراو ن من الحركة التي انفصلت عن المحكمة و ذ هبت الى تاو يل ايات الله لتجد لنفسها مبررا للا عتداء على غيرهم من المسلمين ، و قد اطلقوا على هو لاء الخوار ج أو المارقين(1) من هنا يتبين لنا أن الا باضيـة حركه نشأت كغير ها من الحركات و المذاهب الاسلا مية بصفة عامة في خضم تحولا ت المجتمع الا سلا مي ، و الا ضطرابات التي تركت — مع الا سف الشديد — تأثيرات سلبية على بنية المجتمع الا سلا مي ، ولا أخال باحثا نزيها و موضو عيا في حكمه ينكر أن هذه الاضطرابات كانت من العوا مـل الا ساسية المؤ دية الى ظهور المدّارس الفقهيـــة المختلفـة ، التي عاشتها من قريب او من بعيد تأثراً و تأثيرا ، ومن نتائج ذلك الجفو ة والعداوة التي كانت و لا تزال بعض آثارها بين مختلف المذ اهب الا سلا مية.

و من الا دلة التي تثبت ما ذ هبت اليه اختلافات المذ اهب في أمـر الخلا فة ، و قواتها او ضعفها بحسب علاقة معتقداتها بمبادئ الخلافات المتداولة على العالـم الاسلا مي (2).

و من هذا المفهو م يظهر لنا ان المذ هب الا باضي تبلورت معتقداته ، وتميزت عـن غيرها لما انقسمت حركة المحكمة القائمـة على أساس مبادئ واضحة في الخلا فـة الا سلا ميـة الى متطرفين و معتدلين .

فالاتجاه المعتدل من هذه الحركة تمثله الا باضية غير أن جذور هذه الحركة تكو ن ممتدة الى عهد عثمان بن عفا ن و لا اقو ل الى عهد الرسول صلى الله عليه و سلم كما يرى أصحـاب الراي الثاني في الا تجاه السياسي (3) لا ننا لا نجد في مصادر الا باضيـة ما يدل على تاييد هـم و رضاهـم بموقف ذي الخو يصرة تجاه رسو ل اللـه (ص) (4).

---

1) اهدى المناهج في تمييز الاباضية/ 19 ، مسالة الا ذان (مجلة المنهاج) ن ع/ 28 .
2) فجر الا سـلا م ص 252 .
3) ارجـع الى ص 1 .
4) اراء الخوار ج — 1 / من ص 36 — 43.

بينما نجد دليلا واضحا في جواب ابن أباض على نفس رأيه الصريح تجاه الأحداث التي عاشتها خلافة عثمان(1) ، واستنكاره لانحراف الخلافة عن المبادئ التي سار عليها الشيخان (أبو بكر وعمر) من قبله (2).

نستخلص مما سبق ان المذهب الاباضي تبلورت اراؤه ومبادئه في الخلافة وعلاقاته مع غيره من المذاهب الأخرى من خلال رؤيته ومواقفه تجاه الأحداث التي عاشتها الأمة الاسلامية ، فهو بذلك مذهب سياسي له وجهة نظره تجاه نظام الحكم ، وهذا لا يمنع أن يعد مذهبا فقهيا كغيره من المذاهب الفقهية الأخرى على اساس انه من الصعب — في تلك المرحلة التاريخية — الفصل بين السياسة والدين ثم ان وجهة نظره في الحكم استمدها من الكتاب والسنة.

ولم تكن الأحداث العامل الوحيد الذي ساهم في نشأة هذا المذهب وميزه عن غيره ، بل أن الاجتهاد الذي كان منهج أئمته الأسلاف ، لا سيما امامه جابر ابن زيد وتلميذه أبو عبيدة مسلم ابن أبي كريمة وغيرهم كان عاملا اساسيا آخر في تحديد مبادئه ، ومما نتج عن ذلك اختلافات جوهرية — احيانا — بين علماء المذهب أنفسهم.

ولعل هذا ما دفع علي يحي معمر الى القول : " أن المذهب الاباضي في نشأته كغيره من المذاهب الاسلامية ، امام من ائمة المسلمين يتكون اتباعه من تلاميذه ، وبالنسبة الى الاباضية فامامهم جابر بن زيد أخذ عنه تلاميذه كعبد الله بن اباض وابي عبيدة بن ابي كريمة " (3).

---

1) الصحابي الجليل ، الخليفة الثالث من الخلفاء الراشدين .
2) مختصر تاريخ الاباضية من ص 18 — 27 .
3) الاباضية بين الفرق الاسلامية / 353، 354 .

والنقطة الثانية التي نرى ضرورة الاشارة اليها هي ان كل مذهب فقهي من المذاهب الاسلامية المعروفة ، تجد له وجهة نظره الخاصة تجاه الاحداث التي عاشتها الأمـــة الاسلاميـة المؤدية أحيانا الى الغلو في حكمه على مخالفيه ، مما نرى من الضروري النظر في كل ما كتب ، وانتهاج طريقـة المحدثين في انتقاء الاخبـار الصحيحـة من الموضوعيـة واعادة صياغـة تاريخ الفرق الاسلاميـة باعتماد مصادرها في النقد ، وقد تفطن بعض الباحثين المعاصرين الى هذه الظاهرة من هؤلاء مثلا ، ابو اسحاق الذي يقول في مقـال له بمجلة المنهاج : " وما يدرينا انَّ ما نراه منسوبا الى كثير من الفرق الاسلاميـة من تهيل الدعايـة الفاجـرة المحرمة ما لم نقف على نصوصها في كتبهـم وانمـا يحكيها الخصـــم عنهـم وازداد يقينـا في هذا همـا آراءالمؤلاء القوم من الاباطيل ، التي يعزونها لاصحابها " (1)

ويرى عمـار طالبي : " أن الامويين والشيعة غلوا في التنقيص من شان الخوارج ، وفي الوقيعة بهـم ، وفي اتهامهـم أن بالباطل ، وان بالحق ، ولم يتورعوا في وضع الاحاديث في ذمّ الخـوارج ". (2)

اذا بلغ الحد الى درجة وضع الاحاديث للايقـاع بالخصـم ، وتشويه سمعته فان افتـراء الاقاويل ، واخبار من باب المباح في نظر هؤلاء والمذهب الاباضي لم ينـج من ذلك باعتباره في نظر اصحاب المقالات ، ومعظـم المؤرخين فرقـة من فرق الخـوارج مع أنَّ اصحابه يرون ان هناك اختلافا جوهريا بينهـم وبيـن من سمّوهـم خوارج . (3)

فقضيـة انكـار التحكيم لم تكـن القاسـم المشترك بينهما فحسب ، بل هو رأي بعض التابعين الكبـار مثل الحسن البصري . (4)

---

1) مسألة الاذان ، مجلة المنهاج العدد 3،4/1 3.
2) آراء الخوارج 1/ 33.
3) مسألة الاذان — مجلة المنهاج ن، ع/ 29.
4) آراء الخوارج 1/ 21.

فلسنا بذلك نريد نفي الخارجية عن الاباضية او اثباتها لان ذلك يحتاج الى دراسة مستقلة في ضوء ما ذكرناه سابقا ، وانما نريد ان نلفت النظر الى الاخطاء في منهجية الابحاث التي تعالج مثل هذه الموضوعات ، وندعو الى دراسة موضوعية علمية تتوخى اثبات الحقائق التاريخية والى وضع حد للخلافات الناتجة معظمها عن المبالغات في الاخبار والاتهامات المتبادلة والتي كانت ولا تزال تدمش المجتمع الاسلامي ، وتنخر عظامه ، وتزعزع كيانه كلما حاول ان يسترجع وحدته العقائدية.

وفيما تقدم نكون قد حاولنا أن نحدد تحديدا نسبيا أسباب نشأة المذهب الاباضي وسنحاول فيما يلي التعرف الى التفكير الاباضي .

<u>التفكير الاباضي :</u>

بحكم نشأة المذهب الاباضي في بيئة يغلب عليها طابع الراي في التفكير وهي بيئة العراق التي تمتاز بهذه الخاصية ، وبحكم تصديه للدفاع عن مبادئه ، اضافة الى معتقداته التي تعتمد تاويل بعض الآيات ، فاننا يمكننا اعتباره مذهبا يعتمد الرأي والعقل في التفكير ، حتى يستطيع مناظرة المدارس الفقهية التي تخالفه الراي كمدرسة المعتزلة ، والخوارج ، والشيعة ، وغيرها ، ويحاول أن يقنعها بصحة معتقداته ، وهذا ما دعا عمار طالبي الذي يعتبر الاباضية فرقة من فرق الخوارج الى قوله : " وأنّ ما ذكرناه من النصوص الكثيرة ولنا غيرها ، لكفيل ببيان مدى الغلو في الحكم على الخوارج بأنهم بنداة لا أنظار لهم ولا فكر ولا مقالات منظمة ، وانهم أهل تشامر ، واصحاب نمر. "(1)

واسلوب الجدل الذي اتخذه منهجا للرد واثبات صحة مبادئه يفرض عليه تفكيرا معينا يعتمد العقل لدحض حجج مخالفيه واثبات صحة أدلته ، كما يتطلب من المناظر دراسة خاصة والاحاطة بمسائل الخلاف ، ولعل هذا ما يبرز شغف العلماء والطبقة المثقفة بتعلم أساليب الجدل والمناظرات واتقانها والتزود بعلم الكلام ، وهذا ما يفسر ظاهرة اهتمام الاباضيين بالفقه وعلوم الشريعة بصفة عامة للمحافظة على كيانهم امام تيارات دينية وثقافية مختلفة. (2)

---

1) ن.م. ص 107.
2) ابراهيم بحاز، ص 311، 333 — 341.
(الدولة الرستمية)

ولا يعني هذا أن المذهب الاباضي يطغى عليه الطابع العقلي كالمعتزلة ، فقد كان ولا يزال لا يهمل النصوص التي يعتبرها أدلة قاطعة انطلاقا من ايمانه بان الكتاب والسنة مصدران أساسيان في التشريع ، وأن الخصم لا يسلم بصحة الراي الا اذا استمد منهما أدلته ، وقد اكد عمار طالبي هذا الاتجاه عند الاباضية في حديثه عن مصدر ثقافة بن أباض قائلا : " ومن ثم فان مذهبه ، مذهب سلفي في هذه التعاليم التي أخذها عنهما وتلقاها عنه أصحابه من بعده . (1)

وجواب بن أباض يبين مما لا مجال فيه للشك تمسك هؤلاء بالقرآن الكريم واعتباره مصدر تشريع واقناع فاستشهد لاثبات صحة آرائه بآيات عديدة حتى قال فيه البرادي : " وكتاب عبدالله بن اباض كتب به الى عبدالملك بن مروان جوابا عن كتابه اليه يشتمل على النقض والرد وتبيين الاعتقادات والاحتجاج بآيات القرآن . "(2) ثم يدعو عبد الملك بن مروان الى سوق أدلة من القرآن إن اراد الرد على جوابه ويقول في ذلك : ". . ثم اكتب الي ان استطعت بجواب كتابي انزع عليه بينة من كتاب الله اصدق به قولك ". (3)

ويؤكد صاحب الدليل والبرهان أسبقية الشرع على العقل ، واعتماد هذا الاخير على الاول في حديثه عن اجتهاد الرأي قائلا : " واما العقل فلا حظ له في جواز الاذن الا بعد ما ورد به الشرع ". (4)

نستخلص مما تقدم من النصوص أن المذهب الاباضي يعتمد في تفكيره النصوص واستخدام الراي للتعمق في فهمها ، فهو بذلك يريد التوفيق بين مدرستين مختلفتين ، مدرسة الراي بالعراق ومدرسة الاثر بالحجاز ويؤكد هذا الحكم عمر وخليفة النامي في قوله : " "فالمذهب الاباضي بالنظر الى تأسيسه ونشأته من أقدم المذاهب الفقهية الاسلامية وهو نتاج مدرسة العراق و البصرة خصوصا ، على أنه وان اثر بمدرسة العراق فاستخدم علماؤه الرأي والقياس أيضا على تردد من بعضهم خصوصا جابر بن زيد ، وابا عبيدة ، الا أن تأسيسه على يدي جابر بن زيد وهو محدث صاحب أثار جعل منهجه يطبع فقه المذهب أو يغلب عليه ، ويحد من تاثير مدرسة الراي التي عظم خطرها في العراق . (5)

---

1) أراء الخوارج 1/ 197 .
2) ن م . 2/ 283 .
3) مختصر تاريخ الاباضية ص 27 .
4) الدليل والبرهان 2/ 59 .
5) ابن خلفون — اجوبته — مقدمة بقلم عمرو خليفة النامي ص 10 .

ويشاطره محمد الشيخ بلحاج في رايه عند حديثه عن منهج المجتهدين الاباضيين موضحا ذلك في قوله : " ان الفقهاء المجتهدين الاباضيين نحوا منحى وسطا بين مدرسة أهل الأثر والحديث بالحجاز وما جاورها ، وبين مدرسة الراي واهل العقل بالعراق "(1) اذا كان هذا هو منهج الاباضية في الاجتهاد والجدل فما هو منهجهم في تفسير القران الكريم ؟.

التفسير بالراي عند الاباضيـــة:

راينا فيما سبق ان الاباضية اباحوا اجتهاد الراي في الفقه كغيرهم من اغلب المذاهب الاسلامية بشروط تتوفر في المجتهد وكذلك لا يختلفون مع غيرهم في اباحة تفسير القران بالرأي فنجد صاحب الدليل والبرهان يقرر ذلك صراحة في معرض حديثه عن اجتهاد الراي قائلا : مذاهبهم في التفسير تفسير القرآن وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا كلا ول سائغ لهم كلما ذهبوا اليه على الشرط المتقدم م.(2)

وصاحب كتاب قناطر الخيرات يذهب الى ابعد من ذلك ، فيرى أن التفسير بالراي أمر لا يمكن الاستغناء عنه مع سوق الاسباب الداعية الى ذلك ، والادلة المباحة لاستخدام هذه المنهجية في التفسير فيرى : " من زعم ان لا معنى للقرآن إلا ما ترجمه ظاهر التفسير فهو مصيب في الاخبار عن حدّ نفسه ، ولكنه مخطئ في رد كافّة الخلق الى درجته ، بل الاخبار والآثار تدل على أن معنى القرآن متسعا (3) لارباب الفهم ."(4)

وبعد عرضه لادلة من الآثار والاخبار يضيف قائلا : " فكل هذا يدل على أن في فهم القرآن مجالا متسعا ، وان المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك . " وإثر ذلك يسوق وجوه اباحة التفسير بالراي متوصلا — في الاخير — الى هذا الحكم العام . " وجاز لكل عالم ان يستنبط من القرآن بقدر فهمه وعقله "(5) غير انه يبين — إثر ذلك — وجوه النهي عن تفسير القرآن بالراي ، مع وضع بعض الشروط لمن يسلك هذه المنهجية في التفسير ، ومن جملتها الاطلاع على التفاسير لا سيما فيما يتعلق بغريب القران مع ضرب أمثلة لذلك .(6)

---

1) محمد الشيخ بلحاج (الاجتهاد في المذهب الاباضي) ص 29 .
2) الدليل والبرهان 1/34 .
3) الصحيح ، متسع ، او " أن لمعاني القرآن متسعا "
4) اسماعيل الجيطالي ، قناطر الخيرات 3/385 .
5) ن م ، 385،386 .
6) ن م ، 386 — 390 .

فاذا كان المصنف لم يضع الشروط المشارة اليها الا في باب اثبات وجه النهي عن التفسير بالراي ، فان ابن الشيخ يضع شروطا من الصعب توفرها في عالم لا سيما في عصر يؤمن بالتخصص نتيجة اتساع العلوم والفنون ، ومن هذه الشروط مثلا : الالمام قدر الامكان بتاريخ الامم والشعوب الماضية ، الاطلاع والتفتح على العلوم الكونية المعاصرة دراسة العلوم النفسية والتربوية . (1)

فهذه الشروط لا تتوفر الا في عالم يملك قدرة عقلية واطلاعا واسعا بالاضافة الى غيرها من الشروط العادية التي ذكرها ، تجعلنا نتعرض الى قضية طالما شغلت الباحثين ووضعت تفاسير الاباضية في قفص الاتهام باعتبارهم خوارج في نظر هؤلاء ، وهذه القضية هي بدعة التاويل التي تكلم لها عمار طالبي باسهاب يغنينا عن بحثها من جديد ، فهو يزعم في اول بحثه لهذه البدعة التي يراها انها اصل كل البدع " ان الخوارج هم اول من فتح باب التاويل في تاريخ الفرق الاسلامية ، وفي تاريخ هذه الملة " (2).

وفي الاخير يثبت هذا الزعم في قوله : ".. وانما هم اصحاب تاويل ، بل انهم من اوائل من فتح بابه للمسلمين ، على مصراعيه "(3) وفي معرض حديثه عن هذه البدعة يسوق رايا يقرر فيه صاحبه " بان الخوارج قالت بالتحسين والتقبيح العقليين "(4) دون ان يثبت هذا الراي او يفنده .

هذا راي الباحثين المعاصرين في هذه القضية ، اما راي الاباضية انفسهم فنجده في رد ابي اسحاق على متهم الاباضية بالمتبدعة لا سيما في نفي الرؤية فيقول : " وتاويل المتشابهات بما يليق بكمال الله وجلاله ، ولا يخرج عن المعاني العربية البلاغية التي هي احدى دلائل الاعجاز في القرآن ، فان خلف اصحاب المذاهب الاربعة وكثيرا من سلفهم والمعتزلة ، والزيدية وسائر معتدلة الشيعة ، واصحاب البلاغة على الاطلاق والمتكلمين على وجوب التاويل وهو الذي يدعو اليه سياق الآية ، وهو القرينة التي نصبها الله للدلالة على المعنى المجازي كما ورد في بعضها مما هو صريح المعنى " (5).

---

1) ابن الشيخ (القرآن تفسيره ومفسروه عند الاباضية) ص 41 — 49 .
2) اراء الخوارج — 1/ 103 .
3) ن.م. / 114 .
4) ن.م. / 112 . انظر ... ص 64
5) رسالة الاذان — مجلة المنهاج العدد 3،4 / 26 .

أما فيما يخص قضيه التحسين و التقبيح يقول علي يحي معمر عند تعرضه لأصول الاباضية في العقيدة: " الحسن ما حسنه الشرع والقبيح ما قبّح الشرع "(1).

من الآراء السابقة نلاحظ تناقضاً واضحاً بين متهم و محاول تبرئة نفسه من التهمة و يحتمل أن يكون هذا الاختلاف ناتجاً عن سببين أولهما اختلاف الآراء في المدلول الاصطلاحي لتأويل القرآن (2)، و ثانيهما في نسبة الاباضية الى الخوارج.

واذا تصفحنا آراء علماء الاباضية اتضح لنا نفيهم للقول بالتحسين والتقبيح العقليين و عدم انكارهم للتأويل الصحيح للقرآن الكريم الذي هو" صرف اللفظ عن المعنى الراجح الى المعنى المرجوح لدليل يقترن به "(3). أو هو كما حدده ابن رشد في قوله: " هو اخراج دلالة اللفظ من الدلالة الحقيقية الى الدلالة المجازية من غير أن يخل في ذلك بعادة لسان العرب في التجوز من تسمية الشيء بتسميته أو سببه ألخ .. "(4)

فالتعريف الأول هو تعريف المتأخرين من علماء الشريعة و التعريف الثاني هو تعريف علماء البلاغة العربية، ولعل مفهوم أبي اسحاق للتأويل أقرب الى تعريف ابن رشد له.

و من هنا نرى تقيد مفسري الاباضية بالنصوص وارتباطهم الوثيق بها، و اشتراط عدم تجاوز معانيها سواء في اجتهاد الرأي أو في التأويل، و سنحاول دراسة هذه القضية عند تعرضنا لصلب موضوع بحثنا.

فيكفي أن نشير الى جواز الاباضية تأويل القرآن، ولكن بالمفهوم الذي اتفق عليه الجمهور ولعل نسبة الاباضية الى الخوارج — سواء صح ذلك أو لم يصح — هي التي جعلت الباحثين يحكمون عليهم حكمهم على الخوارج دون أن يبينوا الفوارق و الاختلافات التي تميز كل طائفة ثم أننا نستبعد أن يخرج مفسرو الاباضية عن التأويل الصحيح الى التأويل الفاسد، إلا اذا كان الخطأ صادراً عن التفسير، للسبب الذي ذكرناه آنفاً، ولكونهم شديد التمسك بالكتاب والسنة و لأنهم يخطئون التقول على الله، حتى يبلغ بصاحب الدليل والبرهان الى الانكار على من يجعل القرآن دليلا على غرض صحيح و يعتبر ذلك — في نظره — من تفسير القرآن وفق الهوى و الميل (5) و هذا التحرج يجعلنا نتساءل عن مدى مساهمة الاباضية في حركة تفسير القرآن الكريم ؟

---

1) الاباضية دراسة مركزة في أصولهم و تاريخهم ص 60.
2) أنظر هذا الاختلاف في التفسير والمفسرون محمد حسين الذهبي 1/17، 18 مباحث في علوم القرآن، مناع القطان من ص 277 — 280.
3) ن م. الاول 1/13 و الثاني ص 279.
4) ابن رشد فصل المقال ص 34
5) الدليل والبرهان 3/336، 387.

أسباب قلة التفسير عند الاباضية :

كاد يتفق الباحثون على ضآلة التفسير عند الاباضية بالمقارنة الى تفاسير المدارس الاسلامية الأخرى ، وبل يرون أن عدد تفاسيرهم التي بين أيدينا لا تتجاوز اصابع اليد الواحدة ونحن نضيف الى ذلك أن هذا العدد الضئيل من التفاسير التي وصلتنا غير متداولة ، ولم تجسد يدا أمينة لتحقيقها ، واخراجها الى الوجود ليستفيد منها القرّاء والباحثون ، فلا تحظى بالاطلاع عليها وتصفحها الا طبقة من الباحثين والقرّاء مع صعوبة قراءة معظمها لرداءة الطبع أو قدم النسخ ، وهذا يدعونا الى التساؤل عن أسباب ذلك ؟

لعّل أول سبب من اسباب قلّة تصدّي الاباضية لتفسير القرآن لا سيما اوائلهم هو خوفهم من التقول على الله ، والوقوع في الخطأ ، وقد علّل بذلك — محمد حسين الذهبي بتحريمهم للكذب واعتباره جريمة تكفّر صاحبه ويقول في ذلك : " .. يرون أن الكذب جريمة من اكبر الجرائم وبه — عند جمهورهم — يخرج الانسان من عداد المؤمنين ، فلعل هذا دعاهم الى عدم الخوض في تفسير القرآن ، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه "(1).

والتحرج من القول في كتاب الله رأي بعض الصحابة والسلف، مثل أبي بكر الصديق (2) ، ولم تكن الاباضية ولا الخوارج أول من وقف هذا الموقف من التفسير ، ثم أن نصوص الاباضية التي استشهدنا ببعضها — تدّل على إباحة تفسير القرآن بالرأي ، الذي يعتبر من أخطر منهجية في التفسير ، وأقربها الى الوقوع في الخطأ ، ومن هنا نخلص الى القول بأن اذا كان هذا السبب من أسباب قلة انتاج التفسير عند الاباضية فلا يعتبر في نظرنا سببا رئيسيًا .

والسبب الثاني الذي نستخلصه من الاحداث التاريخيّة هو اتلاف تفاسير الاباضية أو ضياعها (3) مما دعا شريفي بلحاج الى القول : " أن التفسير الاباضي في القرون الماضية امّا ضئيل لا يكاد يمثّل شيئا مهمًا واما مفقود لم يصلنا الاّ أخباره أو عناوين كتبه . وبهذا لا يمكننا أن نتحدث عن وجود تفسير حقيقي قديم يعطينا الصّورة المشرفة التي نتصورها لانتاج الاباضية الرائع في ميادين العلوم الاخرى " (4).

ويبرر ذلك علي يحي معمر بالملاحقات السياسية للاباضية ومطاردتهم ومضايقتهم بشتى الاساليب والصور ، واحراق الكتب والمكتبات بالاضافة الى التعصب المذهبي الذي دفع بعض الفقهاء الى تحريك أجهزة السلطة ضد آثار مخالفيهم(5).

---

1) التفسير والمفسرون 2/217، 218 .

2) القرآن تفسيره ومفسروه ص 16 — 18 .

3) التفسير ومناهجه عند الاباضية محاضرة ص 2 / محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير 3/ 144 .

4) ن ٠ م ٠ الاول / 10 .

5) الاباضية ، دراسة مركزة في اصولهم وتاريخهم ص 36، 37 .

لكنه اثر ذلك يعترف بجهل الا باضية انفسهم لكثير من كتبهم نتيجة العوامل التالية :—

1) حرص مالكي المخطوطات وخوفهم من ضياعها .
2) ظروف الانتقال من مكان الى آخر هروبا بالنفس.
3) التعصب المذهبي الانغلاقي .
4) عدم وجود منظمة تتكفل بنشر هذا التراث. (1)

نرى ان هذه العوامل قد تصدق على العلوم الشرعية الاخرى ، التي تعرضت الى التلف لا سيما عند احراق مكتبة المعصومة بتيهرت (2) لان كتب السير والطبقات التي وصلتنا والمؤلفات التي تحدثت عن آثار الرستميين والاباضيين بصفة عامة ، لم تذكر من كتب التفسير إلا ما هو معروف لدينا ، والتي سنتعرض لها فيما بعد .— غير ان شهادة ابي زكريا التالية تدل على ان التفسير حظي كغيره من العلوم الاخرى بالتأليف وذلك عند ذكره للعلوم التي اشتملت عليها بيت الرستميين في قوله : " .. وكان بيت الرستميين بيت العلوم في فنونه من الاصول والفقه والتفسير وعلم اختلاف الناس وعلم النحو والاعراب والفصاحة وعلم النجوم " (3).
واذا اخذنا بعين الاعتبار اهمية ترتيب العلوم التي ذكرها نجد ان التفسير يحتل المرتبة الثالثة بعد الاصول والفقه ، فقد رأينا فيما سبق سبب اهتمام الاباضية بهذين العلمين وسنجد هذا السبب نفسه ينطبق على ما الفوه في التفسير عند تعرضنا لمنهجيتهم فيه ، غير ان السلاح القوي الذي يصمد امام المدارس المنافسة ، هو علم الاصول والفقه لان فيهما تظهر آراء المذهب ومعتقداته ووجوه الاختلاف.

الى ان النص الذي استشهد به ابو اسحاق للدلالة على غزارة التأليف في جبل نفوسة احد معاقل الاباضية والذي نقله عن ابن خلدون لم يشر فيه هذا الاخير الى التفسير ، فاكتفى بالتنويه بهم في فقه الدين وتمهيد عقائده وفروعه واجادة التأليف والترتيب (4).

من هنا نستبعد وجود انتاج اباضي في التفسير غزير تعرض للتلف والاحراق ، لان التفاسير التي ضاعت بالفعل مثل تفسير عبد الرحمن بن رستم ، وأبي يعقوب لم تهمل ذكرها كتب السير والطبقات ، ثم ان مؤرخي الاباضية قديما وحديثا لم يتحدثوا عن تفسير يذكر تعرض للضياع باستثناء ما هو معروف لديتا ، ولكن — مع ذلك — نبقى متفائلين ، لعل الابحاث ستكشف لنا يوما تفاسير اخرى ومفسرين اباضيين .

---

1) ن.م.ن.
2) ابو زكريا (سير الائمة) ص 66
3) ن.م. ص 113.
4) ابو زكريا الجناوني (التعريف بكتاب الوضع ومؤلفه) بقلم أبي اسحاق ص 09.

ولعل السبب الذي جعل الاباضيين عاجزين عن التصدي للتفسير هو طبيعتهم البدوية واحتفاظهم بخصائصها، وبعدهم عن مركز الحضارة (1) لا سيما أسلافهم لأن التفسير يتطلب من صاحبه مستوى فكري معين وثقافة واسعة، وعقلية البدوي تتسم بالبساطة والفطرة والعجز عن فهم الارتباط بين العلة والمعلول، ولا تنظر الى الاشياء نظرة شمولية. (2)

على الرغم من أن القرآن نزل بلغة العرب الا أن فهمه يتطلب درجة عقلية خاصة تتفق ورقي التفكير في القرآن وعمقه. (3)

غير أن هذا السبب لا ينطبق على جميع الاباضيين في مختلف أزمنتهم وامكنتهم فقد اعتنق هذا المذهب أجناس مختلفة، وعرف حضارة راقية، ونشأ في مراكز حضارية كالبصرة كما امتاز بتفكير سام سمح له بمناظرة مختلف المدارس الاسلامية مما يمكن لنا ان نحكم على عدم أهمية هذا السبب الذي لا يصلح تعميمه على جميع الإباضيين.

والسبب الرابع الذي يمكن أخذه بعين الاعتبار هو اشتغال الاباضيين منذ نشأتهم بالحروب من جهة، في فترات معينة، والدفاع عن كيانهم من جهة أخرى بمواجهة خصومهم ومناظرتهم مما لم يسمح لهم ذلك بالبحث والتصنيف الا فيما يساعدهم على مواجهة الخصم والمحافظة على كيانهم مثل اهتمامهم بالفقه، والاصول، وعلم الكلام.

تحدثنا كتب التاريخ والسير والمقالات عن الحياة المضطربة التي عاشها الاباضيون في فترات تاريخية معينة، بالاضافة الى الملاحقات التي تعرضوا لها مما لم يعرفوا فترات تذكر من الاستقرار التي تسمح لهم بالتأليف في مختلف الفنون لا سيما في التفسير وحتى في عصورهم الذهبية، لم يعرفوا استقرارا حقيقيا، فقد تجندوا للتصدي الى خصومهم، وكتب السير تذكر لنا المناظرات التي كانت قائمة بينهم والتي بلغت أحيانا درجة اراقة الدماء بين الطرفين (4)

1) التفسير والمفسرون 2/217.
2) فجر الاسلام ص 39 — 43.
3) ن.م. ص 196.
4) سير الائمة ص 71، 72.

ونستخلص مما تقدم أنه لا يمكن حصر اسباب قلة انتاج الاباضية في التفسير في سبب واحد فقد كانت هناك أسباب مختلفة منها ما ذكرناها ، ومنها ما يمكن أن تكون خافية عنا الآن ما وصل الينا من تفاسيرهم وما هو مشهور منه ولكنه ضاع ، يمثل نسبة معتبرة بمقارنتها بتفاسير غيرهم مع الأخذ بعين الاعتبار عدد معتنقيه .
ثم أن الاباضية اذا لم يعرفوا تفسيرا منظما في نطاق واسع ، فقد كان القرآن شغلهم الشاغل تلاوة ودراسة واحتجاجا به في اقناع خصومهم واثبات صحة آرائهم ، ثم لا نتصور انهم عاشوا بمعزل عن ثقافات غيرهم ، ولم يضربوا كما يتصور — ربما البعض — جدارا حديديا يمنعون به تسرب آراء المدارس الأخرى وانتحاجها ، بل لا نبالغ حين نقول : " بأن الاباضيين سايروا حركة التفسير منذ نشأتها الى يومنا هذا ، وتأثروا بها وأثروا فيها والدليل على ذلك نبوغ مفسرين اباضيين في عصور مختلفة ، فمن هؤلاء المفسرين ؟ وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفقرة التالية :—

<u>مفسرو الاباضية :</u>

رغم قلة انتاج التفسير عند الاباضية وفقدان معظمه الا أننا نعترف بمساهمتهم في حركة التفسير منذ نشأتها الى عصرنا هذا ، ويمكن تقسيم هؤلاء المفسرين الى طبقتين أساسيتين : طبقة القدماء ، وطبقة المعاصرين .
سنحاول تسليط بعض الأضواء على كل مفسر مركزين على الجوانب التي لها علاقة بتكوين شخصيته ، ومحاولين دراسة بعض آراء الباحثين المتعلقة بتفاسيرهم ، مكتفين بما تتوفر لدينا من النصوص لأن الدراسة كهذه تحتاج الى التنقيب عن المخطوطات في المكتبات العامة والخاصة ، وتتطلب من الباحث جهدا ووقتا كما انها صالحة بأن تكون موضوعا مستقلا ، ربما سنتفرغ اليه مستقبلا بحول الله .

<u>طبقة القدماء :</u>

1) <u>جابر بن زيد</u> : رائد هذه الطبقة التابعي المشهور واحد كبار تلاميذ ابن عباس وامام هذا المذهب ابو الشعثاء جابر بن زيد الفراهدي الذي صنفه الدرجيني في الطبقة الثانية (50هـ-100هـ)(1) ، اختلف في عام ولادته ، والقول الراجح انه ولد في سنة 21 هـ أو 22 هـ يعني هذا انه عاش في القرن الاول الهجري الذي عرف اهتماما كبيرا بدراسة القرآن الكريم ، والسنة النبوية باعتبارهما مصدري التشريع لا سيما القرآن الذي يمثل الوثيقة الايديولوجية الاساسية للدين الجديد ، غير أن هذه الدراسة لم تتميز بعد عن باقي العلوم الشرعية الاخرى ولعل هذا هو السبب الذي دعا شريفي الى القول : لا يمكن ان يعد من المفسرين

---

1) طبقات المشائخ 2/ 205 .

الا تجـوزا " (1)

والسبب الثاني هو اهمـال بعض كتب طبقات المفسرين ذكره في عداد المفسرين بالاضافة الى ندرة الرواية عنه لا سيما في ميدان التفسير . كل هذه الاسباب وان لم يشر اليها شريفي في محاضرته أدت الى تجاهل هذا المفسـر التابعي .

غير ان بعض أدلة اخرى تؤكد — على الاقل — أهلية هذا التابعي في ميدان التفسير ان لم نقل مساهمتـه ، ومن بينها .

أ. شهادة أستاذه عبدالله بن عباس الذي يقول فيه : " لو ان اهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لاوسعهم علما عما في كتاب الله "(2) بالاضافة الى شهادة ابن حبّان اذ يعتبره من أعلـم الناس بكتاب الله . (3)

ب. عدّته جماعة من الباحثين من بين المفسرين ، ومن هؤلاء ابن تيمية الذي اعتبره من مدرسة ابن عباس المشتهرة بعلمها بالتفسير (4) ويصفه صاحب معجم المفسرين بقوله : " تابعي ثقـة ، فقيه مشهور ، مفسر من الائمة "(5) وينقل عن صاحب تاريخ التراث العربي قوله : " لم تناقش مصادر ترجمته قضية آثاره ، ولكنها تتفق على وصفـه بانه عالـم عظيـم وقد يكون ممن ألفوا في التفسير . "(6) ويعتبره سليمـان داود من كبـــار أئمـة التابعين في التفسير . (7).

جـ. نقل عنه كبار المفسرين مثل ابن جرير الطبري ، وابي حيان ، وهاروي عنه من احاديث في اسباب نزول بعض الايات وغيرها . (8)

د. تاليفه الديوان اشتهر به حسب روايات كتب الطبقات والتاريخ والسير ، وان ضاع وفقد (9) والادلة التي تثبت تضلعه في كتاب الله ، وتلقيه العلم عن ابن عباس ، واكثر الصحابة تجعلنا لا نشك في احتواء ديوانه على جزء من التفسير على الاقل لا سيما في العهد الذي الفه فيه والذي لم تعرف فيه العلوم الشرعية التصنيف والتخصيص بالمفهوم الذي عرف فيما بعد .

---

1) التفسير ومناهجه — محاضرة ص 03

2) عادل نويهض (معجم المفسرين)1/ 123 (النقد الجليل للعتب الجميل)ص10 ابراهيم بيوض وابراهيم بن سعد العبري (اجوبة وفتاوي)ص42 هوامش رقم1 (من كتاب الله) عوض عما في (كتاب الله).

3) معجم المفسرين 2/ 123.

4) التفسير والمفسرون 1/ 101.

5) معجم المفسرين 1/ 123.

6) م . ن .

7) سليمان داود (مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الاسلامية) ص 94 مجلة الاصالة العددان 49، 50.

8) الربيع بن حبيب (الجامع الصحيح) 3/ 30 — 33.

9) سير الائمة المقدمة بقلم اسماعيل العربي ص4/ الاباضية دراسة مركزة ص 15.

ولعل فقدان ديوانه هو الذي جعل بعض الدارسين يغضون الطرف عن هذا المفسّر ويهملون ذكره في عداد المفسّرين التابعين ، غير أنّ الأدلة التي سقناها تجعلنا على الأقل نعترف بأهلية هذا التابعي في التفسير وتضلعه فيه :

والقضية الثانية المطروحة حول هذه الشخصية هي انتماءه المذهبي ، فقد ذكر ابن حجر نقلا عن داود بن أبي هند عن عزرة قوله : " دخلت على جابر بن زيد فقلت أن هؤلاء القوم ينتحلونك يعني الاباضية، قال : أبرأ الى الله من ذلك " (1)

ففي الواقع أنّ جابر بن زيد لم يتظاهر بانتمائه المذهبي ، فهو كغيره من بعض التابعين الأعلام ، يعزو بعض الباحثين ذلك الى مكانته العلمية ، والخوف من بطش الأمويين والقضاء عليه يعتبر خسارة للدعوة الاباضية (2) بينما يرى محمد علي دبوز أن نسبة المذهب الى عبد الله بن أباض عوض جابر بن زيد مكيدة من الحكام — في حدّ تعبيره — لئلا يكثر اتباع هذا المذهب نظرا لشهرة الرجل (3) ويعني هذا أنه لم يخف آراءه ، بل كان ينشرها بين تلاميذه علانية ، مما جعل الحجاج ينفيه الى عمان مسقط رأسه . (4)

واذا قارنا هذه الآراء بالرأي الأوّل الذي ينفي نسبة جابر الى الاباضية نجد التوفيق بينهما صعبا ، لا سيما وأن صحت هذه الآراء ، فنجد من جهة — اعلان جابر براءته من الاباضية ، ومن جهة أخرى ادعاء الاباضية نسبة هذا الرجل اليهم ، لكننا لو نتصفح كتاب الجامع الصحيح للربيع بن حبيب الذي يعتبر أعلى مصدر في الحديث بالنسبة للاباضية، نلاحظ أن معظم الأحاديث رواها الربيع عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد ، ولا سيما الأحاديث التي تساق شواهد لاثبات رأي من آرائهم (5)، أضف الى ذلك أنّ أعلام هذا المذهب تلقوا تعليمهم على جابر بن زيد ومن الطبيعي أن يتأثروا بآرائه وتعاليمه وعلى رأس هؤلاء أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة الذي تقلّد الامامة بعد أستاذه (6).

ويرى بعض الدّارسين أن البراءة أن صدرت عنه يكون القصد منها التقية لا غير ، محافظة على مكانته العلمية ، وثقة أهل الحديث فيه (7) ونحن نرى وان صحت البراءة فان المذهب الاباضي يرتكز أساسه على آراء جابر ، ويتجلّى ذلك في مؤلّفات الاباضية، لا سيما فيما رووا عنه من أحاديث وما استشهدوا به من أقواله فاعتبروه اماما لمذهبهم ، فمن هذه الزاوية — على الأقل — يمكن اعتبار آراء جابر ممثلة لمبادئ المذهب الاباضي وتفسيره أحد تفاسيرهم .

---

1) ابن حجر تهذيب التهذيب 2/ 38 . 2) بحاز الدولة الرستمية ص 75 .
3) تاريخ المغرب الكبير 3/ 138 . 4) ن م . ص 147 ، 148، 149 .
5) مسنده (الجامع الصحيح) أنظر 3/ من ص 2 — 37 .
6) تاريخ المغرب الكبير 3/ 144 ، 145 — 150 .
7) الدولة الرستمية ص 74 أنظر الهوامش رقم 06 .

أبو عبيدة معمر بن المدني التميمي :(110هـ ،209هـ).

اختلف الباحثون في انتمائه المذهبي ، فمنهم من نسبه الى الخوارج ومنهم من يرى أنه يقول بالقدر ، كما يرى بعضهم أنه صفري وتلحقه مجموعة بالاباضية ودليلهم في ذلك انشاد أشعار الخوارج والحديث عنهم وعن أخبارهم ، ومفاخرهم في تقديرو إعجاب ، ومدحه للنظام .(1)

غير أن شريفي ساق أدلة تنفي انتماءه إلى الاباضية يمكن حصرها فيما يلي :-

1 . رغم شهرته الواسعة لم يذكره مؤرخو الاباضية ، ولا كتاب السير و الطبقات.

2 . خلو كتابه (مجاز القرآن) من ذكر علم من الأعلام الاباضية سواء الذين سبقوه أو عاصروه .

3 . تنويهه بالشاعر قطري بن الفجاءة زعيم من زعماء الازارقة ، ويضيف الى ذلك سلوكه الشاذ الذي يتنافى مع طبيعة الاباضية و أخلاقهم آنذاك .(2)

كما يحاول محمد فؤاد سزكين تحليل الحاق نسبته الى الفرق المذكورة آنفا ، ونسبة آبائه الى اليهودية بذكره معاصريه له نتيجة سلوكه الشاذ نحوهم ويرى أن كتابه (مجاز القرآن) يخلو من أي دليل يثبت هذه الميول .(3)

غير أن الباحثين يجمعون على تضلعه في علوم عصره حتى قال الجاحظ فيه : "لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم من أبي عبيدة" (4) كما يرون أنه ساهم مساهمة فعالة في اثراء المكتبة العربية بمؤلفات نفيسة تدل على باعه الطويل في مختلف العلوم لا سيما في القرآن والتاريخ و الأنساب واللغة ومن هذه المؤلفات التي تعالج موضوع القرآن مجاز القرآن ، اعراب القرآن ، معاني القرآن ، غريب القرآن ، بحار القرآن.

يستخلص مما تقدم أن أبا عبيدة لم يتعرض في كتبه لا سيما المجاز إلى آراء الاباضية لذلك لا يمكن اعتباره مفسرا أباضيا لأن دراستنا لا تتناول الا من تعرض في تفاسيره إلى آراء الاباضية و أجمع الباحثون على انتمائه لهذا المذهب.

ثم انـنا نشك في اباضية أبي عبيدة للأدلة المذكورة سابقا وكما دلل محمد فؤاد سزكين رأيه في تعامل معاصريه عليه كما أن إنشاده بالخوارج — إن صح ذلك — وذكرهم باعجاب لا يكفي دليلا قاطعا لتحديد هوية شخصية ما لا سيما شخصية أبي عبيدة المعروفة بالتحديات لقيم معاصريه وخروجه عن المألوف لديهم .

1) أبو عبيدة مجاز القرآن مقدمة بقلم محمد فؤاد سزكين 1 / 9،10 .
2) التفسير والمفسرون محاضرة ص 4، 5 .
3) مجاز القرآن مقدمة بقلم محمد فؤاد سزكين 1 / 11 .
4) ن م . 1 / 12 .

عبدالرحمن بن رستم :(171هـ)

من جملة العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية هذا المفسّر :—

1) نشأته في بيئة عربية اسلامية رغم أنّه من أصل فارسي ، فكان مولده بالعراق و نشأته بالقيروان و مواصلة تعليمه بالبصرة ، فهذه الحواضر كانت قواعد لنشر الفكر العربي الاسلامي بالمشرق و المغرب.(1)

2) ثقافته التي تلقاها في القيروان ثم بالبصرة في العراق احدى أشهر مدارس اللغة والشريعة .

3) تعرفه الى الفكر الاباضي باتصاله بأحد دعاته الاوائل في المغرب الا و هو سلمة بن سعد و تأثره به ، كما لا يستبعد أن يكون قد اطلع على آراء الخوارج في موطن نشأتـــه والتي كان عكرمـــة يدعو اليها(2) ، الا أن لمدرسة أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة الامـــام الثاني للاباضية أدرا كبيرا في اتجاه المفسر ، و تكوينه حتى أجازله أن يفتي بما سمـــع منه وما لم يسمعه (3)، فأصبح أحد دعاته الكبار الذين عوّل عليهم في تأسيس دولة تديـــن بهذا المذهب و تطبق في حكمها المبادىء التي استمات من أجلها .

4) تقلده للمناصب المختلفة فقد عينـــه أبو الخطاب المعافري — أحد أقرانه في الدراسة بالبصرة — عاملا على القيروان بعد ممارسته للقضاء ، ثم اختير أول امـــام للدولة الرستمية الناشئة (4) ، و تتفق كتب السير و التاريخ على قدرته الفائقة و حنكته في تسيير أمـــور هذه الامامـــة و تنظيمها (5) مما دعـــا بصاحب معجـــم المفسرين الى وصفه بقوله :" كان من فقهـــاء الاباضية و زاهدا و متواضعا ، على جانب عظيـــم من الحلم و العمـــل والعدل "(6)

5) شخصيته التي تجمع بين جمال خلقه و خلقته ، ولعل هذا الجمال اكتسبه عن طريق الوراثة لانتسابه الى الاسرة المالكية في الفرس(7) ، و لتكوينه أثر كبير في أخلاقـــه ، و تحديد ملامح شخصيته الاسلامية ، و قد اكسبته الحروب و تقلبه في المناصب الشجاعة و الحزم (8) ، و لا ننسى تأثير العقيدة الاباضية في سيرته و التي ترى أن الايمان اقرار و قول و عمـــل .

---

1) سير الائمة ص 35 ، 36 الدولة الرستمية ص 95 .
2) سير الائمة ص 36 ،(مجهودات الدولة الرستمية) ص 82 محاضرة .
3) تاريخ المغرب الكبير 332/3 .
4) معجـــم المفسرين 365/1 ، مختصر تاريخ الاباضية،ص83 — 87 تاريخ المغرب الكبير312/3 .
5) سير الائمة ص 54 ،مختصر تاريخ الاباضية ص 37 ،المغرب الكبير 310/3 — 313
الاباضية في الجزائر 131/1 .
6) معجـــــــــم المفسرين 365/1 .
7) سير الائمة ص 35 ، 36 أخبار عبد الرحمن بن رستـــم بن بهرام .
8) تاريخ المغرب الكبير 313/3 — 315 .

نستنتج ممّا تقدم أن هناك عدّة عوامل لعبت دورها في تكوين شخصية المفسّر، وجعلته يدعو الى مبادئ الاباضية بحماس ويجسدها في دولة خلدت ذكراها عبر العصور، فجمع بين الامام المحنك السياسي والعالم المجتهد الذي ألّم بعلوم الشريعة حتى عدّه محمد علي دبوز من " كبار العلماء في عصره، ومن الائمة في الدّين وفي العلوم الشرعية وفي اللغة العربية وأسلوبه في رسائله ومواعظه، يدّل على فصاحته وعلو كعبه في العربية، وكانت له البراعة القوية والدّراية الواسعة بعلم الفلك والنجوم ." (1)

يبقى الآن السؤال المطروح هو هل كان متضلعا في التفسير، وما هي الأدلة التي تثبت انتماءه الى زمرة المفسرين؟

لا نجد سوى نصّ واحد يثبت مساهمة عبد الرحمن بن رستم في التفسير، وهو الذي أوركته كتب الطبقات والسّير مع اختلاف بسيط بينها وقد ذكر الوادي هذا النص في تقييده لمؤلفات الاباضية قائلا :" وذكر عن الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد العاصمي اللواتي أنّه لقي سليمان بن مدرار الدفوسي، وقد قدم من قلعة حماد فأخبره أنه ترك في سوق القلعة كتابا في تفسير القرآن من تأليف الامام عبد الرحمن ألخ .." وذكر أطفر ايراد هذا النص قوله : " وكتاب الامام عبد الرحمن في تفسير القرآن يذكرونه ولم ير ". (2)

فقد شدّ أبو محمد الرّحال الى القلعة لاقتناء الكتاب، ولكنه أخبر بأنه بيع ولا أمل في الحصول عليه (3)، وذكر علي يحي معمر نقلا عن البارونيّ قوله متحدثا عن مفسّرنا :"كان رحمه الله مشهورا بالعلم محدودا في فحول العلماء الراسخين، له تفسير جليل القدر، تكلم عليه المؤرخون ولا وجود له الآن، وله ديوان خطب نفيسة يذكر أن له رسائل متعددة وجوابات كثيرة مفيدة في فنون العلم، بعضها موجود وبعضها مفقود .(4)

فلا شك أن البارونيّ يقصد من المؤرخين كتاب الطّبقات والسّير، فمن هنا نرى أنّ النص الوحيد المشار اليه سابقا هو المعتمد الوحيد في اثبات تفسير لعبد الرحمن بن رستم، والذّي تناقلته كتب السّير والطبقات وبعدها كتب التاريخ والدّراسات، فلا نعتقد إن ذلك كاف لاثبات هذا التفسير والتأكد من وجوده فلا بد - اذن - من الإستناد الى معطيات أخرى ومنها مصادر ثقافته التي أشرنا اليها آنفا والدّالة على قدرتها وكفاءتها في تأهيل خريجيها للتصدي لتفسير القرآن، كما لا يستبعد أن يكون قد تلقى مادة التفسير في مساجد القيروان والبصرة في حلقات من اشتهر بهذا العلم، ولا سيما وأن المغرب قد عرف أحد أئمة التفسير الذي هو عكرمة مولى بن عباس لأننا لا نتصور أن شخصية كعبد الرحمن بن رستم عاشت منغلقة

---

1) تاريخ المغرب الكبير 312/3 .
2) آراء الخوارج (الموجز الملحق للتراّدي) 289/2 .
3) ن م. 289/2، طبقات المشائخ 471/2، الدولة الرستمية ص 300، 301 .
4) الاباضية في الاجزائر 63/1، الأزهار الرياضية 98/2 .

على نفسها وفي اطار مذهبها ، ولم تتصل بأعلام ذلك العصر في المشرق والمغرب والشيء الذي يؤكد الاتصال بين المدارس الفقهية ، المناظرات التي تجري بينها ولا سيما ما كان منها بين الاباضية وغيرها .

فيؤدنا لا يمكن أن نجزم — في هذه المرحلة المبكرة — بأنه فسر القرآن آية آية من أوله الى آخره على النحو المعروف في كتب التفاسير .

كما أن اهتمام الرستميين بالتفسير ، يجعلنا نحتمل قيام أول امام لهم بتأليف كتاب فيه ، خاصة وأنه يتمتع بقدرة علمية ، وقد سبق أن أشرنا الى أن هذا العلم يحتل مرتبة مرموقة في الدولة الرستمية حتى عد من العلوم التي تقع فيها المناظرات بين الفرق (1) باعتبار القرآن المصدر الأول للتشريع ، وتساق منه الأدلة لاقناع الخصم .

لكل هذه الاعتبارات يمكن احتمال وجود هذا التفسير ، واعداد صاحبه من بين المفسرين على أن يبقى الأمر احتمالا ، مالم تظافر على أدلة أخرى تؤكد ذلك .

<u>أبو الحواري محمد بن الحواري :</u>

ظهر في القرن الثالث الهجري عالمان في عمان هما أبو المؤثر الصلت بن خميس الخروصي وتلميذه أبو الحواري محمد بن الحواري ، كل واحد منهما حسب المصادر الاباضية نال شهرة واسعة في الميدان العلمي وتخرجت على يده نخبة من العلماء الفطاحل ، وترك تآليف تشهد بباعه الطويل في المعرفة (2) ، وقد صنف سالم بن حمود الأول في الطبقة الثانية والثاني في الطبقة الثالثة (3) ، وبذلك يكون أبو المؤثر عاصر حملة العلم عن أبي عبيدة الى المشرق مثل محمد بن محبوب الذي وصفه عبدالرحمن بكلي في قوله :" كهف من كهوف العلم واحد مجتهدي الأمة " (4) .

فليس من المستبعد أن يكون العالمان قد استفادا من ازدهار العلم في عصر هما بعمان كما تأثرا بالظروف السياسية السائدة آنذاك بحيث كان أبو المؤثر أحد أعضاء مجلس الشورى الذي بايع الامام الصلت بن ملك الخروصي (مدة امامته 237 — 272) وأرخ لتلك الحقبة في كتابه (الأحداث والصفات) أما الثاني فقد تعرض لملاحقات القرامطة وحكموا عليه بالاعدام وان لم ينفذ . (5)

---

1) أنظر ص 13 من هذا البحث .
2) قواعد الاسلام م 1/ 80، 358، 359 أنظر الهوامش .
3) أهدى المناهج ص 40، 41 .
4) قواعد الاسلام م 1/ 51 أنظر الهامش .
5) م . ن .

فقد نسب البرادي كتاب تفسير الخمسمائة آية في الحلال و الحرام الى أبي المؤثر (1)، أما بقية الدارسين فقد نسبوه الى أبي الحواري (2) باستناد شريفي الذي يحتمل أن يكون أصل الكتاب للأستاذ رواه تلميذه مستدلا بقوله : " .. فنحن نجد في كثير من الأحيان يقول : (أبو الحواري) قال أبو الحواري " كأن ما قبل ذلك لغيره " (3).

فاذا كنا نجهل السند الذي اعتمده البرادي في نسبة الكتاب الى أبي المؤثر، فانه من جهة أخرى يعتبر أقدم مصدر من الواجب أخذه بعين الاعتبار في التحقيق، ونجد في المقابل النسخة التي احتفظت بها المكتبة تنسب التفسير الى أبي الحواري (4)، فكيف نستطيع التوفيق بين الرأيين ؟.

قبل الاجابة عن هذا السؤال، يجدر بنا أن نعترف في البداية، بعجزنا في الوقت الراهن من اصدار حكم قاطع مبني على أساس علمي، لأن ذلك يحتاج الى دراسة معمقة، وبحث طويل فنكتفي — في هذه العجالة — بسرد بعض الاحتمالات التي يمكن أن نستنتجها من خلال النصوص المتوفرة لدينا.

1) احتمال شريفي بأن الكتاب من تأليف أبي المؤثر، فلم يقم أبو الحواري الا بروايته و زيادة بعض الاضافات التي نسبها اليه بقوله : " قال أبو الحواري و ان كان هذا الدليل غير كاف لاثبات ذلك لأن هذه الطريقة تبدو معروفة لدى المؤلفين القدماء، و ربما للفصل بين كلامهم وكلام غيرهم بعد الاستشهاد به، لأنهم كانوا يجعلون الحالات المستعملة حديثا في التأليف أو لبيان أهمية رأي أو فكرة ينفرد بها المؤلف، أو قد تكون هذه طريقة النساخ في التدوين.

2) قد يكون الكتاب لأبي المؤثر، غير أن ورود أقوال أبي الحواري فيه أدت الى نسبته اليه ولعل ما يؤكد هذا الاحتمال ما جاء في مقدمة الكتاب: " هذا الكتاب فيه تفسير خمسمائة آية في كتاب الله تبارك و تعالى في الحلال و الحرام... وفيها رد الفقيه العالم العلامة أبي الحواري رحمه الله و رضي عنه " (5).

---

1) آراء الخوارج (موجز ملحق للبرادي) 2/286.
2) قواعد الاسلام 1/ 9 35 الهوامش.
3) التفسير و مناهجه، محاضرة ص 06.
4) نسخة مصورة في مكتبة الشيخ أطفيش بني يسقن تحت رقم 2ج/ و نسخة أخرى بمكتبة جامعة الجزائر تحت رقم : 101868 — 101878.
5) ن م، مقدمة الكتاب بقلم الناشر سالم بن حمد ص 1.

3) ربما ألف أبو المؤثر كتابا بهذا العنوان ، ثم تأثر به تلميذه فألف كتابا مشابها مع تغيير عنوانه ، لأنّ النسخة المنسوبة الى أبي الحواري تحمل العنوان التالي : " الدّراية وكنز الغاية في منتهى الغاية وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية "(1).

لكن شريفي يحتمل أنّ هذا العنوان من وضع بعض الفقهاء أو النّساخ الذين ولعوا بالسجع في عناوين الكتب.(2)

ومهما كانت الاحتمالات فان النسخ التي بين أيدينا تنسب الكتاب الى أبي الحواري ، والمؤلف معروف بهذا الكتاب وغير أن قول البرادي يجعلنا نعترف على الأقل بفضل أبي المؤثر ربّما في تأليف كتاب شبيه به أو في الاشتراك في تأليفه ، أو على التأثير في تلميذه ، مما ترك في المؤلف يفتح عين الكلمة بمساته .

هـــود بن محكــم الهواري :

في النصف الثّاني من القرن الثالث الهجري نبغ في المغرب مفسّر ، بقي أثره خالدا الى يومنا هذا يتمثل في تفسيره للقرآن الكريم فان ثبتت صحة نسبته اليه فيعتبر من أوائل التفاسير بين أيدي المسلمين (3) وان سبقه عبد الرحمن بن رستم لكن تفسيره ضاع ، وأملنا أن تكون قد احتفظت به احدى المكتبات.

نشأ مفسّرنا ، وتربى في بيت علم وقضاء ، وقد تولى أبوه تعليمه وتربيته بما يتمتع به من درجة علمية عالية ومكانة مرموقة في عهد الامام أفلح بن عبد الوهاب ، وقد أسندت اليه وظيفة القضاء رغم امتناعه ، وعدم اقتناع الامام بأهليته نظرا لنشأته البدوية فقد كان ـ مع ذلك ـ في مستوى هذه المسؤولية .(4) .

ولمّا شبّ المفسّر ألف عدّة كتب أشهرها تفسيره على طريقة السّلف (5) ، فهذا الكتاب توجد منه نسخ محفوظة (6) وقد ثار حول نسبته اليه خلاف ، فجميع النسخ تجمع على نسبة التفسير الى صاحبه ، لكن الدّراسة التي يقوم بها حاليا الاستاذ شريفي لتحقيق

---

1) ن م ص ن .
2) التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 06 .
3) عبد الرحمن الثعالبي (الجواهر الحسان) مقدمة بقلم عمار طالبي 1 /ص.أ (الوضع) التعريف بكتاب الوضع بقلم أبي اسحاق ص10 ، 11 .
4) معجم المفسرين 2 / 713 ، الاباضية في الجزائر 1 /من 133 ــ 138 ترجمة محكم الهواري ، الأزهار الرياضية 2 / من 206 ــ 209 .
5) الاباضية في الجزائر 1/ 138 .
6) التفسير والمفسرون 2/ 216 ، التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 8 الهوامش.

هذا الكتاب وطبعته بينت له أنّ أصل الكتاب " لمؤلّف مشرقي الأصل سبقه فجاء هو واختصر الكتاب ولم يضف فيه الّا شيئا قليلا لا يكاد يذكر " (1) وهذا المؤلّف هو يحي سلام بن أبي ثعلبة أبو زكريا البصري (2)، وهذا الرأي في انتظار اثباته او نفيه لا يزال يثير التساؤلات ويجعل الدّارسين في موقف حرج (3)، وقد حاولت أن أتعرف الى الأدلة التي اعتمدها شريفي لكن هذا الأخير رفض الأدلاء بها الا بعد اتمام التحقيق وصدور الكتاب.

ونجد الباروني في كتابه "الأزهار الرياضية" ينسب الى والد المفسّر محكم الهواري تفسيرا لعله التفسير المنسوب إلى ابنه ويفهم ذلك من قوله : " صاحب التفسير المشهور" عند معرض حديثه من اجماع أهل الشورى على اختياره لتوليه وظيفة القضاء في عهد الامام أفلح (4).

وكلمة (المشهور) تدل على أنّ المقصود هو التفسير المعروف وليس غيره، وقد تكون نسبته الى الوالد عوض الابن من باب الخطأ لا غير، لأنّ كتب السّير والطّبقات لم تعد محكم الهواري من المفسّرين، ولم تذكر له تفسيرا أو على الأقل خاض في هذا العلم.

أمّا الخلاف الدائر حول نسبة الكتاب الى هود بن محكم الهواري، لا نجد له تفسيرا الا في احتمال أمرين : 1) أمّا اختصار لكتاب يحي بن سلام مع اضافات قليلة.

2) امّا نقله حرفيا مع توضيح رأي الاباضيّة فيما اختلفوا فيه مع غيرهم، ففي كلتا الحالتين يبدو أن صحة نسبة الكتاب الى هود بن محكم الهواري ثابتة للأدلة التّالية :-

1) اذا استثنينا أعلام التفسير ورواده نجد المفسّرين ينقلون عن غيرهم. (5) ولا يضيفون الا بعض الملاحظات، لا تخدو أن تكون تعليقات أو استنتاجات أو تصويبات أو تعقيبات ورغم ذلك لم يذكر أحد نسبتها الى أصحابها.

2) حسب صاحب معجم المفسّرين فان مخطوط يحي بن سلام في التفسير غير كامل، وروى عن الجزري أنّه عاش فترة من الزمن في تونس، يدرّس عنه الناس تفسيره، ويقال فيه : "ليس لأحد من المتقدمين مثله " (6) لكن كتب السّير والطبقات تروي لنا عن اتصال هود بن محكم به أو بأحد تلاميذه، أو على الأقل بتداول كتابه في الامامة الرستميّة.

---

1) التفسير ومناهجه ص 68.
2) الدولة الرستمية أنظر الهوامش رقم 16 ص 302.
3) القرآن تفسيره ومفسّروه ص 36،(الدولة الرستمية) ص303.
4) الأزهار الرياضية 2/211.
5) القرآن تفسيره ومفسروه ص 29.
6) معجم المفسرين 2/730،731.

3) قام أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي زمنين (324هـ 399هـ) باختصار تفسير يحي ابن سلام لكن — رغم ذلك — فقد نسب اليه ، وعد من المفسرين . (1)

كما اقتبس ... فخر الدين الرازي تفسيره ، لا سيما الجانب البياني والاعجاز البلاغي للفظ من رائد المفسرين بالدراية جار الله الزمخشري ، ولم يخف آراء الأشعريين في العقيدة ، ولم يتجرأ أحد على انكار نسبة التفسير المعروف عنه اليه .

4) تفسير هود بن محكم الهواري يصور وجهة نظر الأباضية في بعض المسائل التي اختلفوا فيها مع غيرهم (2) ، فمن هذه الزاوية على الأقل — تمكن نسبته الى صاحبه واعتباره تفسيرا يمثل آراء الأباضية ، وطريقة تفسيرهم لبعض الآيات المتعلقة خاصة بالعقيدة .

5) لقد ذكرت كتب الطبقات والسير تنافس رجلين على امتلاك هذا التفسير (3) ووردت في قضيتهما نسبة الكتاب إلى المفسّر وأعطت لنا صورة واضحة عن قيمة الكتاب وتداوله بين الناس .

فمهما يكن من أمر فان تفسيره الذي يحمل طابعا خاصا على الأقل وجهة نظر مذهبه ، يعطينا صورة عن ثقافة صاحبه واهتمامه بالتفسير ، فلم يبق على الباحث الا تحقيق هذا الكتاب ، والتعرف الى مدى تأثير المفسر بغيره ، وما اقتبسه منهم والى الجوانب التي تمثل آراءه وشخصيته .

---

1) ن م . ص 558 .
2) الدولة الرستمية ص 303 .
3) أنظر الحادثة بالتفصيل في كتاب (طبقات المشائخ) 2/345 .

محمد بن يانس :

لم تذكر مصادر الأباضية ولا غيرها تفسيرا لهذه الشخصية ، غير أن ما جعلنا ندرجه ضمن قائمة المفسرين ، ونعده ممن أدلى دلوه في هذا الميدان ومن المتضلعين فيه العوامل التالية :—

1) ما تناقلته كتب السير والطبقات من أخبار علماء جبل نفوسة له (1) ليقوم مقام مائة عالم في التفسير ، لمناظرة المعتزلة ، في عهد الأمام عبدالوهاب بن عبد الرحمن ، لما استنجد بالجبل ، وتصورلنا هذه الحادثة دماثة أخلاقه وزهده وتواضعه وحفظه لكتاب الله ومكانته العلمية المرموقة ، اذ عرض عليه أحد أقرانه المختصين في علم الكلام أن يتقدم للمناظرة فأجابه بقوله :" تقدم أنت ولست بأعلم مني "(2).

2) اعترافه بمقدرته في التفسير، فقد روى الدرجيني في طبقات تخصصه في هذا العلم ، وتطوعه لمناظرة المعتزلة فيه (3) وما يدل على ذلك ـ أيضا ـ قوله للأمام :" أما أنا يا أمير المؤمنين فقد كفيتك فنون التفاسير ان شاء الله ". (4)

3) تلقيه العلم على معظم حملة العلم الى المغرب مثل عاصم السدراتي وغيره ، ولا يخفى علينا أن هؤلاء تلقوا تعليمهم في معاهد البصرة احدى مدارس التفسير لا سيما على أبي عبيدة الأمام الثاني للأباضية (5) والمفسر نفسه يعترف ـ حسبما ذكره أبو زكريا بأنه أخذ التفسير من الثقات وذلك في قوله :" أما أنا فقد أخذت تفسير القرآن كله من الثقات ، وعلمته عنهم الا حرفا واحدا أو حرفين فان اضطررت أجد مخرجا "(6).

ومهما كانت درجة صحة هذه الروايات الا أن ما يفهم منها نبوغ هذا العالم في علم التفسير ، ومما يؤكد ذلك ازدهار علوم الشريعة في جبل نفوسة في عهده ، ولا يتصور أن يخلو هذا العلم الذي تناول المصدر الأساسي للتشريع — من علماء ونابغين فيه ، واذا كانت المصادر الأباضية لم تذكر له تفسيرا ، فقد يكون مصيره كمصير كثير من مصادر الأباضية أو كان يقوم بالتفسير دراسة لا تأليفا .

---

1) جبل يقع في شمال ولاية طرابلس الغرب بالجماهيرية العربية الليبية من بين سكان مدنه الأباضيون .
2) الأزهار الرياضية 2/ 118 — 123 .
3) طبقات المشائخ 2/ 58 .
4) سير الأئمة 69 .
5) الأباضية في الجزائر 1/ 136 — 138 .
6) سير الأئمة ص 67 ، طبقات المشائخ 2/ 58 .

يوسف
أبو يعقوب بن ابراهيم ميساد السدراتي الورجلاني (500، 570هـ/1106، 1175م).

كانت ثقافة هذا المفسر العميقة والمتنوعة انعكاسا واضحا لتكوينه ورحلاته وقد ظهرت على وجه الخصوص في كتابه (الدليل والبرهان)، وقد شبهه علي يحي معمر نقلا عن أبي اليقظان بدائرة معارف اسلامية مصغرة (1) وقد يكون تفسيره صورة لهذه الثقافة، ذكره البرادي من تآليف الاباضية، كما ذكر بأنه اطلع على جزء منه ووصفه بقوله: " لم أر سفرا أضخم منه . . . ولم أر أبلغ منه في اعراب، ولا في لغة، ولا تصريف، ولا في فقه، ولا في اختلاف في قواعد الدين، ولا في غير ذلك من علوم القرآن ."(2) وقد يكون البرادي صادقا في وصفه هذا وغير مبالغ للاعتبارات التالية :—

1) قيام المفسر برحلات لطلب العلم يكون بلا شك قد اتصل فيها بعلماء عصره، وتلقى تعليمه في مدارس متعددة تذكر منها (قرطبة) من أهم الحواضر العلمية في المشرق، ثم في ورجلان على كبار علمائها مثل أبي عمار الكافي .

2) قيامه برحلات دراسية منها رحلته الى أواسط افريقيا حتى كاد يصل الى خط الاستواء، وقد ذكر هذه الرحلة في كتابه (الدليل والبرهان) قائلا: " . . وصلت أنا بنفسي الى قريب من خط الاستواء، وليس بيني وبينه إلا مسيرة شهر ." ويذكر فيه بعض عادات سكان المنطقة(3) .

3) شهادة معاصريه — لا سيما — من الأندلسيين فتلقيبهم إياه بالجاحظ ليس من قبيل المصادفة، بل لغزارة علمه، ولحدة ذكائه، وهذا في حداثة سنه .

4) تآليفه المتداولة في الوقت الحاضر تشهد بسعة ثقافته، وتنوعها، وطريقة تفكيره المعتمدة أسلوب الإقناع ومن أهمها (الدليل والبرهان) الذي يجمع فيه مختلف الفنون والعلوم المعروفة وقتئذ مثل : " . الحكمة الفلسفة، الإلهيات، علم الكلام، المنطق، الهندسة، الفلك(4) مستعينا في الشرح وسوق الحجج بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والآثار .

---

1) الاباضية في الجزائر 1/231 .
2) آراء الخوارج (أنظر ملحق البرادي) 2/293 .
3) الدليل والبرهان 3/216 .
4) الاباضية في الجزائر 1/من 229 — 233، معجم المفسرين 2/808، 809 .

5) شهادة البرادي نفسه ، واعجابه بتفسيره ، ووصفه لبعض محتوياته فتبدو من شهادته قيمة هذا التفسير الذي يعكس مكانة المفسر العلمية و تضلعه في مختلف العلوم إلا أنه يرى أن هذا التفسير ضاع ، و يعزو ذلك الى ضعف اهتمام أهل المذهب — أنذاك — بالبحث و يقول في ذلك : " و من ضعف بحث أهل هذا المذهب و التغافل عنه حتى الدرس وذهب و لم توجد منه عندهم نسخة واحدة" غير أنه يذكر — قبل ذلك — بأنه سفرا في بعض بلاد أريغ في تفسير الفاتحة و سورة البقرة و آل عمران (1) و قوله الأول يدل على تأسفه لفقدان النسخة الكاملة لهذا التفسير ، و يذكر علي يحي معمر بأن خزائن ألمانيا تحتفظ بجزء من هذا التفسير ، كما ذكر عريفي نقلا عن المستشرق شاخت " أنه عندما زار مدن الوادي (وادي ميزاب) لتقصي مكتباتها سنة 1953 أخبره بعض السكان أنهم سمعوا أثناء الحرب العالمية الثانية حديثا من اذاعة روما ، ذكر فيه صاحبه هذا الكتاب ، وقال أنه موجود ببعض مكتبات ألمانيا ."(2) و يرى أن من ذلك الوقت و بعض الشباب يقومون بمساع للعثور عليه لكن دون جدوى (3) ، ويذكر سليمان داود أن حسن حسني عبد الوهاب أطلع عليه في المكتبة الوطنية لمدينة ليبزيج بألمانيا الديمقراطية .(4)

و من خلال هذه الشهادات و النصوص يتبين لنا أن بعض أجزاء التفسير يحتمل وجودها محفوظة في بعض مكتبات أوروبا و حتى في المكتبات الخاصة المهجورة ، التي لم تجد أيادي أمينة لتنفض الغبار عنها ، أو منعت بعض هذه الأيادي من الوصول اليها خشية اتلاف محتوياتها .

أما الشيء المؤكد أن أبا يعقوب يعدل في عصره دائرة معارف و أنه بلغ درجة من المعرفة تخول له التصدي للتفسير ، فلا يستبعد أن يكون قد ترك لنا تفسيرا قيما يعدل ثقافة صاحبه و اتجاهه ، و أسلوبه في التفكير .

---

1) آراء الخوارج (أنظر ملحق البرادي) 2 / 293 .
2) التفسير و مناهجه ، محاضرة ص 09 أنظر الهوامش رقم 03 .
3) م ، ن .
4) سليمان داود ، التفسير و مشاهير المفسرين ، محاضرة ص 14 .

ملاحظة : رواية عن أبي اليقظان يذكر علي يحي معمر بأن حسن حسني عبد الوهاب أطلع على كتاب في التاريخ يسمى فتوح المغرب ، أنظر الحادثة بالتفصيل في كتاب الاباضية في الجزائر 1/ 231 .

طبقــة المعاصريــن :

كغيره
وقد مرّ التفسير الاباضي بفترة الركود والانحطاط ، فمنذ أن خفت نور العلم وانتشر ظلام الجهل ، لم تذكر لنا كتب السير والطبقات مفسراً نبغ في أوساط الاباضية وكل موهبة يجود بها الزمان الا وتفرّغ إلى التدريس واصلاح المجتمع عن طريق الوعظ والارشاد وتأليف كتب في الشريعة ، الى أن استفاقت الأمة الاسلامية من سباتها ، على دوي مدافع الاستعمار الأوروبي وعلى أخبار الاختراعات المتتالية والحضارة التي عرفها العالم المتحضر ، فتصدى الفكر الاسلامي لمجابهة التيارات التي حاولت أن تقضي عليه عبثاً ، ونتيجة لاحتكاك هذا الفكر بهذه التيارات ، ظهر علماء جددوا كل طاقاتهم لاحياء العلوم الاسلامية منها التفسير ، قصد ملء الفراغ الذي عرفته الحضارات ، وتغيير منهجية التفسير التي أصبحت عاجزة عن جعل القرآن يتجسّم في سلوك الأفراد والمجتمعات ، ويعصمها من التفسخ والانحلال والانجذاب نحو التيارات المنحرفة .

محمّد بن يوسف أطفيش (1236 — 1332 هـ) (1821 — 1914م).

أوّل مفسر معاصر عرفه المذهب الاباضي هو محمد بن يوسف أطفيش ، الذي هو موضوع بحثنا ، هذه الشخصية الفذة التي عرفها القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تتميز بذكاء حاد وذاكرة ثاقبة ، ممّا استطاع أن يبلغ درجة الاجتهاد عن طريق التثقيف الذاتي ، هذه الثقافة التي انعكست بوضوح على تفاسيره ، فجاءت تحمل مختلف مميزات تفاسير سابقيه وسنتعرض اليها بالتحليل في صلب موضوع بحثنا .

وقد حاول تفسير القرآن ثلاث مرات غير أنّ أحد تفاسيره الذي هو (داعي العمل) لم يكمله ، فقد تعرضت الى انتقادات لاذعة — أحياناً — منها اعتماده الاسرائيليات ، وتحيّزه الى مذهبه ، وتحامله على المذاهب الأخرى ألخ ... (1) كما نال اعجاب بعض الباحثين ، لا سيما في الجانب اللغوي والبلاغي والفقهي .(2)

وسنتعرض الى هذه الجوانب وإلى غيرها بالتفصيل في فصول هذا البحث ومن الملاحظ أن تفاسيره ، غير متداولة بشكل واسع للأسباب التي سنتبيّنها رغم أهميتها .

---

1) التفسير والمفسرون 2/ ص 321 — ص 336 ، التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 13 .
2) التفسير ومشاهير المفسرين ، محاضرة ص 20 ، التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 12 ، 13 ، القرآن تفسيره ومفسروه ص 39 — 41 ، مجلة المنهاج العدد 3 ، 4 موضوع (داعي العمل) ص 46 ، 47 .

سنكتفي بهذا التعريف الموجز لهذه الشخصية وتفاسيرها، على أن نتناولها بالبحث في الفصول اللاحقة .

ابراهيم بن عمر بيوض: (1318، 1401 هـ) (1899، 1981م) .

عاش هذا المفسّر المخضرم فترة من الاستعمار، وما عرفته من الأحداث والحركات الإصلاحية والثورية وفترة من الاستقلال، وما عرفته من التحولات في جميع الميادين، وفي الفترتين معا حاول مفسّرنا توظيف القرآن في اصلاح الفرد والمجتمع اقتداءً برواد الحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي، باعتبار أن القرآن الكريم المصدر التشريعي الأساسي للمسلمين وكتاب هداية، واذا تصفحنا حياة المفسّر نجد عدة عوامل ساهمت في تكوين شخصيته، وتوجيهها هذه الوجهة الإصلاحية التي تبرز بوضوح في منهجية تفسيره، ومن هذه العوامل :

1) اتصافه بحدة الذكاء، ودقة الملاحظة وقوة الذاكرة بحيث حفظ القرآن الكريم حفظا جيدا في سنّ مبكرة، كما حفظ الكثير من المتون في عدة علوم وقد تصدّر حلقات التدريس في معاهد شيوخه وهو في سن السادس عشر، وقبل هذا السن بعام أصبح يشارك أساتذته في ... مداولات بعض القضايا الاجتماعية .(1)

2) أثر أساتذته في تربيته، وكانوا ممن عرفوا بمسايرة الأحداث، ومنها الحركة الإصلاحية فقد أحسنوا توجيهه واعداده لمواصلة مسيرتهم، وتلقى منهم كل العناية والتشجيع.(2)

3) شغفه بالعلم والمطالعة، الى درجة أن قال فيه شريفي أحد تلاميذه : " لم أر عالما شغف بالمطالعة ومسايرة الأحداث من الكتب التي تنشر أو أحاديث من الاذاعة في مختلف العلوم والفنون كشغف أستاذنا . " (3)

ولعل هذا هو السبب الذي جعله يبلغ درجة الاجتهاد، اذا علمنا أنه لم يتلق العلم الّا في مسقط رأسه (4) شأنه شأن محمد بن يوسف أطفيش.

---

1) التفسير ومناهجه، محاضرة ص 16، أعلام الاصلاح بالجزائر 2/من ص125 — 153 .
2) أعلام الاصلاح في الجزائر 2/ من ص 77 — ص 191 .
3) التفسير ومناهجه، محاضرة ص 15 .
4) ن.م. ص 14 .

وبذلك يمكن أن نقول بأنه اعتمد على نفسه ، وهذا لا يعني انكار جهود أساتذته ، ومنهم أحد تلاميذه محمد بن يوسف أطفيش الحاج عمر بن يحي .

4) مصادر ثقافية متنوعة ، والمتمثلة في العلوم التي تلقاها على مشائخه من العلوم الشرعية المختلفة والمنطق وقواعد اللغة والبلاغة والشعر العربي ، والمصدر الثاني الكتب التي كان شغوفا بمطالعتها ، لا سيما التي تعالج قضايا الإصلاح و نضال رجالها ضد استبداد الاستعمار ألخ . . . والمصدر الثالث هي المجلات العربية والبرامج الاذاعية .
والمصدر الرابع وهو لا يقل أهمية عن سابقيه وهو لقاؤه بالمثقفين من علماء وزملائه الطلبة الذين تلقوا دراستهم في تونس (1).

5) نشأته في أحضان الحركة الاصلاحية ، ومشاركته فيها كطالب ثم كأستاذ وأخيرا كأحمد زعمائها وخوضه لمعاركها ضد التيار المحافظ والمستعمر وقد تعرض للمؤامرات والاعتقالات .(2)

وهذه بصفة عامة هي العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية المفسر ، وحددت اتجاهه الديني الاصلاحي ، ولذلك نرى أنه اكتفى بتدريس التفسير في المسجد ، و في المناسبات ولم يتجه للتأليف ، لأن مهمة المصلح الاجتماعي هي التي تفرض عليه أن يختار الطريقة التي تساعده على تبليغ رسالته ، لجميع الطبقات الاجتماعية والمستويات المختلفة ، فاسلوب مخاطبة هذه الفئات المختلفة والتأثير فيها أجدى وأنفع من التأليف الذي لا تستفيد منه إلا الطبقات المثقفة ، و يتطلب بذل الجهد .

كما أن هذه العوامل ستلقي الأضواء على منهجية هذا المفسر الذي ترك آثارا حسنة في مجتمعه ، وكانت جهوده التربوية مشهورة ولا شك أن لمنهجيته في التفسير والتوجيه دورا لا يستهان به في تحقيق ذلك .

أحمد بن محمد الخليلي :

آخر من يتصدى — حاليا — للتفسير من علماء الاباضية بسلطنة عمان أحمد بن حمد الخليلي ، فحسب الجزء الأول من تفسيره (جواهر التفسير ، أنوار من البيان التنزيل) .(3)

---

1) أعلام الاصلاح بالجزائر 2 /ص148 — ص162 .
2) ن م ، 2 / ص177 — ص183 .
3) أحمد بن حمد الخليلي — جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل ج1 .

من الحديث في هذه الشخصية بالتفصيل لم يحن وقته ملا يزال يخطو خطواته الأولى في تأليف تفسيره .

وبعد تسليط بعض الأضواء على الاباضية في مختلف العصور ، يجدر بنا — الآن — أن نتعرض لمناهجهم اعتمادا على ما وصلنا من تفاسيرهم ، وفي ضوء ما عرفنا عنهم ، وعن اتجاههم وثقافتهم بصفة خاصة .

مناهج التفسير عند الاباضية :

عرف علم التفسير مدرستين أساسيتين ، مدرسة التفسير بالمأثور ، ومدرسة التفسير بالرأي والدراية ، ولا يمكن أن نتصور مدرسة ثالثة ، لأن الانتماء الى احدى المدرستين لا يعني الاستغناء تماما عن منهجية المدرسة الأخرى ، بل من باب التغليب فقط .

واذا علمنا أن سبب نشأة التفسير عند الفرق الاسلامية ، يعود الى ظهور هذه الفرق ومحاولة كل واحدة منها ، اثبات صحة معتقداتها والدفاع عن كيانها (1) وكل فرقة تحاول أن تطبع التفسير بطابعها الخاص ، كما أن هذا التفسير عرف صراعا كبيرا مواز للصراع القائم بين الفرق المختلفة حيث أصبحت كل واحدة تحاول اثبات وجودها ، والبرهنة على مطابقة أفكارها للقرآن والسنة ، فإن من الطبيعي في هذا الجو الفكري أن ينتهج التفسير عند الاباضية منهجية مدرسة التفسير بالرأي ، وهذا لا يعني — كما يفهم — أن هؤلاء كانوا يخضعون نصوص القرآن لمعتقداتهم ، ويتخذونها وسيلة لنصرة مذهبهم ، والا فالحكم يشمل جميع المذاهب بدون استثناء ، لأن أنصار كل مذهب يرون أن مبادئهم مستمدة من الكتاب والسنة ، وأنها أحق أن تتبع ، باستثناء الفرق المعروفة بالتطرف عن أصول الاسلام .

ولهذا ليس من الموضوعية ولا من النزاهة أن نتهم هذا التفسير دون الآخر ، الا اذا أثبتنا — فعلا — زيغه عن الحق وانحرافه عن مبادئ الاسلام (2) ولا يعقل بباحث نزيه أن يتسرع الى الحكم لهذا التفسير أو المذهب أو عليهما ، أو يعتبر كل من يريد أن يستشهد بالقرآن والسنة لاثبات صحة آرائه ، يفسر القرآن حسب هواه ومذهبه ، على أن لا يجعل هذه الآراء هي الأصل ما دام كل مفسر يعتقد اعتقادا جازما أن المذهب الذي اعتنقه مطابقا للكتاب والسنة .

---

1) القرآن ، تفسيره ومفسروه ص 26 ـ 27 .
2) التفسير والمفسرون 1/ ص 363 — ص 367 (حكم هذا المؤلف على بعض التفاسير دون الأخرى لا ينبني على أساس علمي مساهما بذلك في توسيع رقعة الخلاف عوض التقريب بين المذاهب .)

ولماذا لا تنظر الى هذه الخلافات من باب اجتهاد الرأي في فهم النصوص الدينية وتفسيرها ، بهذه النظرة يمكننا القضاء على الاتهامات المتبادلة بين المذاهب الاسلامية ، التي أرى أن اطلاق مدارس اسلامية عليها أحسن وأصحّ ، لأن كلمة المذاهب أخذت بعدا يدل على التعصّب والجمود .

وما ذكرناه يعدّ من أكبر العوامل التي جعلت حركة التفسير بالرأي تزدهر ومن هذه العوامل — أيضا — تطوّر الحياة ، ومسايرة القرآن للأحداث وصلاحيته لكل زمان ومكان .

واذا تصفّحنا كتب التفاسير الاباضية ، لا نلاحظ اختلافا واضحا بينها وبين غيرها في المناهج المتّبعة في التفسير لذلك يمكن تشبيه منهجية جابر بن زيد في التفسير بمنهجية التأليف السائدة في عصره ، فقد رأى ابن الشيخ أنها قد تكون على نمط طريقة الامـــام مالك في تأليف موطئه وهي الجمع :" بين الآية القرآنية وتفسيرها والحديث النبوي ومسألة فقهية مرويّة عن مشائخه ، أو رأي اجتهادي تفرّد به "(1). معللا ذلك بعدم تمييز العلوم الشرعية وانفصال بعضها عن بعض ، وتقليد المؤلفين بعضهم بعضا في كل عصر(2) بينما نجد شريفي يعترف بصعوبة تحديد منهجيته لعدم بلوغ التأليف في عهده درجة تسمح بذلك (3)، لكن بامكاننا تصور الطريقة التي انتهجها من خلال ما روي عنه من أحاديث في موضوع القرآن الكريم .

أول ما يلاحظه أنّه كان يرجع في تفسيره الى الرسول صلّى الله عليه وسلّم ، عن طريق صحابي كابن عباس أو أحد التابعين مثل سعيد بن جبير، كما يرجع الى آراء الصحابة أو التابعين .

ولا يستبعد أن يكون قد اعتمد في تفسيره ، القرآن ، وأهل الكتاب والشعر والاستعمال اللّغوي عند العرب أسوة بأستاذه ابن عباس، وعلى غرار تلميذه الربيع بن حبيب (4) الذي يكون قد تأثر به ، وهذه المصادر تمثّل مصادر التفسير في عصر التابعين(5) وهو عصر مفسّرنا .

ومن ذلك يمكن اعتباره من المفسّرين بالمأثور ، وممن يستعين في شرح آية بأحد المصادر المذكورة آنفا . أو بأسباب النزول التي ترد في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على أن لا نتصوّر أنّه فسّر القرآن كلّه ، شأن المفسرين الذين ظهروا بعده ، وإنما كان يمـــزج بين الحديث والتفسير والفقه وقد يبدي رأيه في قضيّة ، على غرار معاصريه مـــن

---

1) القرآن تفسيره ومفسروه ص 34 .
2) ن م ، ص 34 ، 35 .
3) التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 2 ، 3 .
4) أنظر أمثلة عن ذلك في كتاب الجامع الصحيح ، الربيع بن حبيب 3/ ص 14 ـ 36 مجلد واحد .
5) ن م ، ص/ 29 التفسير والمفسرون 1/ ص 70 ، 72 .

التابعين واقتداء بأستاذه ابن عباس، أمّا بقية المفسّرين فقد انتهجوا طريقة التفسير بالرأي، غير أننا نلاحظ في تفاسيرهم اختلافا في الغرض والموضوع، ويبدو ذلك في تصنيفهم على النحو التالي :ـ 1) التفسير الفقهي، 2) التفسير العقائدي، 3) التفسير التحليلي، 4) التفسير الاصلاحي الاجتماعي .

1) التفسير الفقهي :
يمثّل هذا اللون أبو الحواري في تفسيره الخمسمائة آية في الحلال والحرام، تظهر بوضوح في موضوعاته التي لا تختلف عن موضوعات الكتب الفقهية، ولا تخرج عن فقه العبادات والمعاملات فكل موضوع يسرد فيه الآيات المتعلقة به مع الاستشهاد ـ أحيانا ـ بأحاديث نبوية شريفة، وأقوال الصحابة أو بعض التابعين لا سيما إمام المذهب جابر بن زيد أو الربيع بن حبيب مع التعرّض الى رأي الاباضية في المسائل الخلافية .
غير أنّ المفسّر ـ حسب رأي شريفي ـ لا يتعمّق في تبيانه للأحكام، ولا يحللها ولا يتعرّض لحكمها، وأسرارها، أو يحاول استنباط أحكام جديدة .(1)
كما كان يعنون كلّ فقرة بكلمة (تفسير) مع ذكر الموضوع بعدها، وذكر اسم السورة والآية أو الآيات التي يقتبسها منها . فمن الملاحظ أن منهجيته مناسبة لبساطة الكتاب وقد يكون غرض المفسّر منه جمع الآيات التي لها علاقة بكلّ موضوع مع دعمها بشواهد أخرى ـ أحيانا ـ لاثبات صحّة ما ذهب اليه أو لزيادة الايضاح، فهو يعتبر من هذا القبيل نواة هذا النوع من التفسير الذي تبلور على يد أبي بكر الرازي المعروف بالجصّاص وغيره من المفسرين(2) مع الملاحظة أنّ في القرن الثامن الهجري ألف حسين أحمد النجري كتابا سمّاه (شرح الخمسمائة آية) (3).

2) التفسير العقائدي :
وهو النوع الذي يركّز على الخلافات المذهبية في العقائد بصفة خاصة وقد يكون أبو يعقوب الورجلاني من هؤلاء المفسّرين، اذا أخذنا بعين الاعتبار طبيعة ثقافته ونوع ميوله لذاته كالدليل والبرهان مثلا بالاضافة الى وصف البرادي لمنهجيته في التفسير اذ يقول : "فاذا ذكر آية يقول : قوله تعالى الى آخر الآية فأوّل ما يذكر اعراب

---

1) التفسير ومناهجه ، محاضرة ص 07 .
2) ن م ، ص 08 .
3) التفسير والمفسّرون 3/ ص 101 ـ ص 103 .

فاذا ذكر آية يقول : قوله تعالى الى آخر الآية ، فأول ما يذكر إعراب الآية و يستقصي جميع تصاريف الفعل من الكلمة ، ثمّ الصحيح من حديث رسول الله صلى الله عليه و سلّم فيسوق الرواية من كتاب الربيع بن حبيب المعروف بالمسند ثم يسرد فيه السند ، أبو عبيدة من جابر و يذكر الحديث و لقد استقصى الخلاف الذي في الامام في قوله : " إني جاعلك للنّاس اماما " البقرة (124) فذكر مقالة الرافضة و الخالية ، و ذكر مقالات النّكار و غيرهم من جميع الفرق " (1) و يذكر في نسخة أخرى ما يلي : " ... و لم أر أبلغ منه في اعراب و لا في لغة و لا تصريف و لا في فقه ، و لا في اختلاف قواعد الدين مثل قوله تعالى : " و اذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهنّ " البقرة (124) الآية في الإمامة ، و لا في غير ذلك من علوم القرآن "(2).

و لا شكّ أنّ ضرب البرادي مثالا لتعرّض المفسّر الى الخلافات في الإمامة لدليل على قيمة المفسّر في هذا الجانب ، و تركيزه عليه ، مما استرعى انتباهه .

و من هنا نستطيع أن نقول بأنّ أبا يعقوب سلك في مؤلّفه طريقة تفسير القرآن من أولّه الى آخره ، آية ، آية ، وذلك بشهادة البرادي ، إذ ذكر في نفس المرجع بأنّه عثر على سفر في تفسير الفاتحة و سورة البقرة و آل عمران (3) ، و أنه يبدأ باعراب الآيـــة و شرحها لغويا مع التعرّض الى الجانب الصرفي ، ثم يسوق الشواهد من حديث الرســول صلّى الله عليه و سلّم، معتمدا ـ في ذلك ـ مسند الربيع بن حبيب قبل تناوله الجانب الفقهي و معالجة خلافات المدارس الاسلامية ، محللا لآراء جميع الفرق المعروفة آنذاك ، دون أن يغفل الخلافات القائمة بين علماء الاباضية و دون أن يعرض عن علوم القرآن .

و من المفسّرين الذّين يمكن ادراجهم في هذا النوع من التّفسير ، عبد الرحمن بن رستم و محمد بن يانس، ومحمد بن يوسف أطفيش في تفسيره (هميان الزّاد) .

أمّا عبد الرحمن بن رستم و محمد بن يانس ، فقد ظهرا في فترة انتعشت فيه المناظرات بين المدارس الفقهية ، وكثر فيها الجدل بحيث أنّ الأخير أختير لمناظرة الواصلية ، فمن الطبيعي أن تتأثّر منهجيّتهما بطريقة التّفكير السّائد في عصرهما .

و أما محمد بن يوسف أطفيش فسنتعرض إليه في صميـــم بحثنا .

---

1) الموجز 2 / 293 ملحق للبرادي ، أنظر الهوامش رقم 03 .
2) ن م . (نفس المكان)
3) ن م / 2 292 .

3) التفسير التحليمي :

اذا كنت قد سمحت لنفسي أن أطلق هذه التسمية على بعض التّفاسير ، لانّ أصحابها لا يتعمّقون في مسائل الخلافة ولا في المسائل الفقهية و بصفة عامة لا يهتمون بجانب دون الآخر، وكأني بهم يهدفون من تفاسيرهم تعليم القارئ و وإفادة طلبة العلم هذا العلم فيولّون للشرح و التّوضيح مبنى ومعنى الأهمية فيسلكون طريقة شبيهة بتأليف الكتب المدرسية . فمن التّفاسير التي تتّصف بهذه الخصائص تفسير هود بن محكم الهواري نجده يستهلّ تفسير سورة بذكر اسمها و نوعها مدنيّة أو مكّية ، وأحيانا عدد آياتها ، وقد يتعرّض الى أسباب النزول ، مكتفيا للتّوضيح بابراز المضمر أو المقدّر أو بذكر المرادف مثل تفسير قوله تعالى : "(فأوجس في نفسه خيفة)موسى ،(قلنا لا تخف إنّك أنت الأعلى)(أي الظّاهر)"(1) . ولا يخوض في الأعراب و البلاغة ، ويذكر ـ أحيانا ـ السّند مثل شرحه لقوله تعالى :" ثم أنشأناه خلقا آخر (قال بعضهم الشّعر، وقول الحسن : الرّوح ، وقال بعضهم ذكرا أو أنثى ، وقول الكلبي : الرّوح و هو في بطن أمّه)" (2)أهـ. نلاحظ أنّه ينقل أقوال السّابقين بذكر السند أحيانا ، واهماله أحيانا أخرى ، وكثيرا ما يشير إلى المصادر المعتمدة كالأحاديث النّبوية أو اسم الصحابي مثل ابن عباس أو التّابعين أو غيرهم ، وإذا كان يختصر في تفسيره للآيات ، فنجده يستفيض القول في الأحكام ، متعرّضا الى المسائل الفقهيّة ، ومرجّحا آراء ابن عباس و أئمّة المذهب مثل تفسيره لقوله تعالى :" الزانية و الزّاني الخ " فيرجح القول القائل بقبول شهادة الزّاني الّذي أقيم عليه الحد مستدلّا بقوله :" . ويقول ابن عباس في هذا نأخذ و عليه نعتمد ، هو قول أبي عبيدة و العامة من فقهائنا ، قال أبو عبيدة :" شهادة كلّ من أقيم عليه الحدّ جائزة إن تاب وأصلح "(3) . فنراه يستعمل عبارة (العامة من فقهائنا) و يعني بها جمهور فقهاء المذهب و هو ما يقابل جمهور أصحابنا عند فقهاء الأباضية و أما قوله (عامة النّاس كلّهم) يقصد بها جمهور فقهاء المذاهب الأخرى ، وهو ما يقابل جمهور قومنا عند فقهاء الأباضيّة و الفرق بينه و بين النّوع السابق هو عدم تعمّقه عند تحليله لمسائل الخلاف .

و من التّفاسير التي سلك صاحبها هذه المنهجية تفسير (التّيسير) لمحمّد بن يوسف أطفيش مع بعض الاختلافات بين المفسّرين ، ولعلّ من التّفاسير الّتي اختار

---

1) هود بن محكم الهواري/تفسيره مخطوط ج3 سورة(طه)الآية 67، 68 الصحيح الأعلى (أوراقه غير مرقمة) مكتبة الشيخ أطفيش بدي يسقن رقم : ب.14 .
2) ن م . سورة المؤمنون / 14 .
3) ن م . سورة النّور / 02 .

صاحبها هذه المنهجية(جواهر التفسير و أنوار من بيان التنزيل) لأحمد بن حمد الخليلي الذي شرع في تأليف أجزاءه الأولى ، فمن الصعب تحديد منهجيته بالضبط ما لم ينته منه ، فيكفي اعتباره من التفسير التحليلي ، لأنّه يحمل طابعا مدرسيا حسب الجزء الأول منه الذي تعرّض فيه إلى تعريف التّفسير و التّأويل ، وتالج فيه بعض مواضيع في علوم القرآن ، ومّهد فيه لتفسير سورة الفاتحة مبيّنا مثلا : اختلاف الفقهاء في مسألة قراءتها في صلاة الجماعة ، و قضية البسملة مع ترجيح الرّأي الذّي يراه صحيحا .(1)

نرجو اللّه عز و جل أن يوفّقه لانهاء تأليفه الّذي نأمل أن يكون من أحسن التّفاسير منهجية، وتحليقا ، ودقّة .

4) التّفسير الاجتماعي الاصلاحي :

إذا اختار محمد حسين الذّهبي تسمية هذا النّوع بـ (اللّون الأدبي الاجتماعي)(2) فإنّنا نرى أنّ هذا الاسم ينطبق على بعض التّفاسير الّتي يسمو بها أصحابها إلى أسلوب أدبي فني رفيع ، وقد لا يملك مفّسر آخر هذه الموهبة الفنية و الجانب المشترك بين هؤلاء المفسّرين الّذين يمثّلون الحركة الاصلاحية في العالم الاسلامي ، وهو توجيه تفسيرهم إلى اصلاح الطّبقات الاجتماعية ، ومحاربة الآفات أو الأمراض ، ومواجهة التّيارات الهدامّة .

و من بين هؤلاء المفسّرين الّذين لعبوا أدوارا رئيسية في الحركة الاصلاحيّة ، ابراهيم بن عمر بيوض ، وقد حاول أن يجسّم مبادئ القرآن في سلوكات الأفراد و البنية الاجتماعية و لذلك اختار أسلوبين في التفسير :—

1) أسلوب تفسيره في المناسبات .

2) أسلوب تدريس القرآن في المسجد .

و يهدف من وراء ذلك انتهاز الفرصة للتّبليغ ، وانقاذ المجتمع بفئاته المختلفة من براثن التخلف و الجهل و الانحلال .

كان أسلوبه الأوّل موجّها بالدرجة الأولى إلى الطلبة ، ولكن — مع ذلك — لم يغفل طبقة العوام محاولًا به تحقيق غرضين أساسيين : غرض تعليمي ، وآخر توجيهي ، فنجده يربط السّور ببعضها و الآيات بما قبلها لتبيان وحدة الغرض و الموضوع .

---

1) جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل ج1 .

2) التفسير و المفسرون 3/213 .

والتّداسق الّتي يمتاز بها القرآن مستعينا في الشّرح بأسباب النّزول إن وجدت، وتذليل الصّعوبات اللغويّة، وأحيانا باللّغة العامية، كما يرجع في كثير من الحالات إلى تفسير القرآن بالقرآن، والاستشهاد بالأحاديث والأشعار، والحكم، والأمثال، والمتون الفقهية. وللتأثير في المستمعين، يربط المعاني بواقعهم وبالأحداث الجارية، محلّلا طبائع النفوس البشرية كلّما وجد لذلك سبيلا.

كما أنّه لا يغفل عن الجوانب البيانية، وإبراز أعجاز القرآن في أسلوبه ومواكبته للتّطور العلمي والحضاري، فنجده عند تعرّضه للقصص القرآنية — يستغني عن التفاصيل التي كانت معظمها من نتاج الاسرائيليات، محاولا جمع النصوص القرآنية الّتي تتكوّن منها أحداث هذه القصص ووقائعها، مركّزا على جوانب الاذّكار والاعتبار، مهتمّا بالمسائل الفقهية الّتي تنظّم الأسرة والمجتمع، وتعالج موضوعات المعاملات.(1)

أمّا أسلوبه في المناسبات، فنجده يتوخّى فيه البساطة، ويعالج قضايا الساعة، كمواجهة أعداء الحركة الاصلاحية والمستعمرين (2) مستغلّا ذلك لتجنيد الأمّة حول الحركة وتوضيح أهدافها المتمثّلة في محاربة الجمود والبدع والخرافات والجهل وبناء صرح المجتمع الاسلامي على أسس سليمة ولتحقيق هذه الغايات يختار المفسر آية أو بعض آيات لها صلة بالموضوع، ثم يشرع في شرحها منتهجا نفس الطريقة السّابقة، مع عدم التّعمّق في المباحث اللغويّة والنحوية والصّرفية والبلاغية، وكل جانب لا يخدم الغرض من الدرس مركّزا على القضية التي يعالجها.

ومن خلال ما تقدّم نرى أنّ مفسّرنا كان يهتمّ بالجانب الاجتماعي الاصلاحي، ويهدف من دروسه إلى تحقيق المبادئ الّتي تبنّتها الحركة الاصلاحيّة، فلذلك لا نرى أن ابن الشيخ صالح حين شبه تفسيره بتفسير المنار من حيث المنحى الاجتماعي والحكمي، والسّياسي والاقتصادي و " بظلال القرآن " من حيث روحه وأثره في اصلاح الفرد بتعميق العقيدة في نفسه وطبع مكارم الأخلاق في سلوكه فردا وجماعة. (3)

---

1) التّفسير ومناهجه، محاضرة ص 15 — ص 17 القرآن تفسيره ومفسروه ص 41 — 44.
2) ن.م. محاضرة ص 16.
3) القرآن تفسيره ومفسروه ص 44.

هذه بصفة موجزة مناهج التفسير عند الاباضية ، نلاحظ أنها لا تختلف عن مناهج تفاسير المدارس الاسلامية الأخرى إلا من حيث أنها تمثل وجهة نظر الاباضيــة في تفسير بعض الآيات.

وهذه الاختلافات لا تعدو أن تكون وجهات نظر لعلماء بلغوا درجة الاجتهاد . فهي تمثل مع بقية آراء المدارس الاسلامية الأخرى ثروة علميــة يحق للمسلمين أن يعتزوا بها عوض أن يتخذوها أسبابا ومبررات للتفرقة والتعصب ، فمن نعم الاسلام أن أتاح لمعتنقيه حرية التفكير و الاجتهاد في حدود قواعد مضبوطة ، وأصول ثابتة لا محيد عنها .

الباب الأول

عصر المفسر، حياته، آثاره

الفصل الأول : عصره

الحياة السياسية :

عاش المفسر في فترة شيخوخة الخلافة العثمانية في العالم الاسلامي بحيث أصبح نفوذها يضعف، وتتكالب عليها الحركة الصليبية، محاولة بعث مجدها من جديد والقضاء على الحضارة الاسلامية التي بسطت سلطتها حقبة من الزمن على جزء كبير من الكرة الأرضية حتى أصبحت تهددها في مجدها وما ساعدها على تحقيق أحلامها، حالة العالم الاسلامي التي أخذت تتدهور بانسلاخ المسلمين عن مبادئ دينهم سواء في أنظمة الحكم أو معاملة الرعية، أو في أخلاق الأفراد والمجتمع، فتفشى الظلم، وانتشرت البدع والخرافات وانساق المسلمون وراء ملاذ الحضارة، ودبت أمراض التفرقة والعصبية في صفوفهم (1)، فوجد الاستعمار الغربي الأوربي ممهدة لغزو هذا العالم الذي حمل رسالة الحضارة الانسانية منذ أن بزغت شمس الاسلام في الجزيرة العربية، فأخذت الدول الأوربية تتقاسم هذا العالم، وكل واحدة تطلق يد الأخرى في جزء منه.

ولم ينقض القرن التاسع عشر حتى أصبح معظم مناطق هذا العالم تحت وطأة الاستعمار الصليبي، وقد ظهرت هذه النزعة بوضوح في حركة التبشير التي رافقت الحملات الاستعمارية لا سيما الاستعمار الفرنسي الذي نصب نفسه ممثلا للنزعة الصليبية، ولا نرى أن الحبيب الجنحاني مبالغ في اعتبار الكنيسة دعامة أساسية من دعائم السياسة الاستعمارية (2) وقد لعبت هذه الحركة دورا خطيرا في التمهيد للاحتلال، ثم في محاولة سلخ الشعب العربي المسلم من قيمه الثقافية الوطنية، ولا يخفى على أحد الدور الذي لعبه رجال الكنيسة، وعلى رأسهم الكردينال لافيجري، مستغلين كل فرصة مواتية ومستخدمين جميع الوسائل تحت غطاء التعاون والرحمة، وتقديم الخدمات لنشر المسيحية في الأوساط الشعبية بالمغرب العربي (3)، باعتباره إحدى القلاع الرئيسية التي وقفت في وجه الصليبية ولمكانة الاستراتيجي في البحر الأبيض المتوسط.

وقد عمد المستعمر إلى هذه السياسة للقضاء نهائيا على روح المقاومة في الشعب

---

1) أعلام الاصلاح في الجزائر 1/ 16.

2) د / الحبيب الجنحاني (حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في ق 19) ص 4 2) مجلة الأصالة.

3) ن م، من ص 24 ـ 32.

وقد أدرك — بما اكتسبه من تجربة عبر التاريخ — أن الاسلام هو العنصر الأساسي الذي يحرك الشعب لمقاومته وأحد العناصر الأساسية التي تميز شخصية هذا الشعب من شخصية المستعمر ولذلك رأى أنه لا يحكم القبضة عليه الا اذا جرّده من أهم مقوماته ، فجنّد رجال الكنيسة وقدّم لهم كل العون للقيام بحملة غسل الأدمغة ، وتمهيد الأرضية لتحقيق أغراضه الاستعمارية (1).

والسلاح الثاني الذي استعمله المستعمرون ، هو جلب المعمرين من أنحاء أوروبا وتشجيعهم على الاستيطان ، وقد وفروا لهم كل أسباب الاستقرار والعمل ، وان أدى الأمر الى الاستيلاء على ممتلكات الأهالي متذرعين — أحيانا — بحجج واهية ، ومستغلين كل فرصة سانحة بما فيها حجز ممتلكات الثوار والمتهمين .

كما حاولوا أن يطبعوا الحياة بطابعهم الخاص ، فاصدروا قوانين تفرض على الشعب المقهور سلوكات معينة مخالفة لمقوماته وعاداته ، فانتهجوا في تطبيقها — أحيانا — سياسة القهر وأحيانا أخرى سياسة الترغيب.

كما استخدموا وسائل أخرى من أهمها : فتح المدارس الفرنسية واجبار الأطفال على الالتحاق بها ، وفرنسة الادارة وقوانينها فاصبحت الفرنسية لغة التعليم والخبز ، وشيدوا الكنائس ومدارس يشرف عليها رجال الكنيسة ، واستولوا على المساجد والقضاء ، وحاربوا كل ما يعرقل سياستهم الادماجية (2).

وفي خضم هذه الاجراءات التعسفية ظهرت المقاومة في أشكال مختلفة ، كانت في بداية الأمر مقاومة مسلحة ، حاولت صد الغزو الاستعماري بكل ما توفرت لديها من قوة ، غير أنها سرعان ما اصطدمت بقوة أكثر عددا وعدة وتنظيما ، ووجدت نفسها تصارع عدوين : الغزاة من جهة ، والعناصر التي دبت في نفسها أمراض التخلف غير أن هذا الصراع المرير دفع بالمقاومة الى تغيير أسلوبها فلجأت الى طريقة اصلاح المجتمع المريض أولا ، واعداده للمقاومة المسلحة التي أظهرت التجربة عدم نجاعتها وعجزها عن تجديد الأمة فتكت بها أمراض عصر الانحطاط ، وهذا الأسلوب الجديد تمثل في الحركة السلفية التي ظهرت بوادرها للوجود في الفترة السابقة للاحتلال ، لكنها تبلورت في عهده . فقد اتخذت في بداية الأمر شكل الاصلاح الديني والرجوع بالاسلام .

1) ن م ، ص 26 ، 27 مجلة الاصالة عدد / محمد البهي الفكر الاسلامي الحديث ص 21 .
2) نخبة الجزائر الحديثة 1 / من ص 21 — 27 .

الى عهده الأول ، ثم تطوّرت فاهتمت بالنواحي الدينية والاجتماعية ، وبعد أن حاولت على يد بعض قادتها مثل جمال الدّين الأفغاني أن تتّجه اتجاها سياسيا أيضاً . (1)

فاستمرت هذه المقاومة تشتدّ أحيانا وتتّخذ أشكالا مختلفة وتضعف أحيانا أخرى ، كما أدّت الى ظهور نهضة فكرية سياسية بعد أن واجهت تيارين أساسيين ، تيار الغزو الأجنبي وتيار الجمود والبدع الداخلي ، فخرجت في الأخير منتصرة .

ووسط مقصّرنا جزء من هذا العالم الاسلامي ، فلذلك قد عرف هو — أيضا — هذا الصّراع قبل الاحتلال وبعده ، بحيث يرى محمد علي دبّوز أنّ وادي ميزاب في جنوب الجزائر استفاق من نومه قبل الشمال ، لقد ابتدأت فيه النّهضة منذ أوائل القرن الثاني عشر الهجري ،(2) أي منذ تلك الفترة ورجال الاصلاح يصارعون تيار التّخلف والجمود ، ولعلّ آثار هذه الحركة تجلّت في وعي هذه المنطقة حين فكر أهلها في عقد معاهدة الحماية في 29 أبريل 1853 م مع الاستعمار الفرنسي ، لمّا تبيّن لهم فشل المقاومة المسّلحة في الشمال ، والتي شاركوا فيها بحماس حسب المصادر التاريخيّة (3) ، ومن الأسباب التي دعتهم الى هذه المعاهدة اقتراب أكثر شبابهم في مدن الشمال ، وانتشار التخلف والتعصب القبليّ والمذهبيّ في الصحراء ، ورأوا أن يأخذوا بقاعدة أخف الضّررين وهي عقد معاهدة الحماية مع المستعمر الّذي وصل الى مشارف منطقتهم والّذي لا يحترم في غزوه أدنى المبادىء الانسانية والأخلاقية ومن جملة ما تنصّ عليه هذه المعاهدة احترام نظمهم الاجتماعية والمحافظة على كيانهم العربي الاسلامي ، ولكن سرعان ما وجد المستعمر — كعادته — مبرّرا لفرض حكمه العسكري على المنطقة ، وذلك سنة 1882م بدعوى أن ميزاب أصبح ملجأ الثوار وقاعدة امدادهم بالذخيرة العسكرية . (4)

وممّا تجدر الإشارة اليه ، هو أنّ الوحدة الاسلامية هي العنصر السائد آنذاك ، ولم تنتشر بعد فكرة الوحدة الوطنية ، بمفهومها الحديث وحتّى الوحدة الاسلامية لم تكن مبنية على أساس التّضامن والشّعور بوحدة المصير المشترك ، ووحدة المبادىء ، لأنّ العالم الاسلامي لا زال متأثّرا بالصراعات المذهبية والجنسية الّتي عرفها في القرون الماضية وتجلّت هذه الوحدة الاسلامية في علاقة ميزاب بالحكم العثماني أمّا علاقته بسلطانة عمان وزنجبار وبأباضي ليبيا وجربة فكانت أساسها الانتماء المذهبي على أن هذه العلاقة أخذت بعـــــدا

---

1) نجلاء عزالدين (العالم العربي) من ص 94 — 125 .

2) نهضة الجزائر الحديثة 1/36 .

3) أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر) ص 4 ، د /سعد الله (الحركة الوطنية الجزائرية) 2/216 ، 32 محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث ص 39 ، عبد الرحمن الجيلالي (تاريخ الجزائر العام) 3/386 387 .

4) نهضة الجزائر الحديثة 1/ 246 — 248 .

جديدا فأصبحت تتجه الى تكوين نواة للوحدة الاسلامية الشاملة ، و تقارب المذاهب و هذا ما سنراه من خلال اتصالات المفسر بمختلف الجهات في العالم الاسلامي (1) و هذه الرؤيا الجديدة ظهرت نتيجة للتكالب الصليبي على العالم الاسلامي دون تفريق بين هذا و ذاك و شعور الطبقة الواعية والمثقفة بضرورة التضامن ، ونبذ التعصب المذهبي الممقوت ، و هذا لا يعني التخلص الكامل من شوائب عصور الانحطاط ، لأن هذا الأمر لم يتم بعد الى حد الآن ، فمازلنا نعيش بعض الظواهر المؤسفة التي تجسد تلك الذهنيات المختلفة التي لا علاقة لها بالدين أصلا .

و هذه بصفة عامة الحالة السياسية التي عرفها محمد المفسر بين غزو استعماري واسع ، وحشي أحيانا و بين بوادر يقظة عربية اسلامية تجلت في مقاومات عسكرية و حركات اصلاحية و أمام هذا الصراع يجدر بنا نتساءل عن الحالة الاجتماعية السائدة أنذاك .

2 . الحالة الاجتماعية :

و لعل الحياة السياسية تعكس بوضوح الحالة الاجتماعية في العالم الاسلامي ،هذه الحالة التي بلغت حدها القصوى من التدهور و الانحطاط في الأخلاق و القيم و لم يشهد هذا العالم مثلها من قبل ، وكان من نتيجة غزو أوروبا له ، فوجده لقمة سائغة ، و ما غزو الاستعمار للجزائر ووقوف بعض القبائل بجانبه تمد له يد المساعدة ضد المقاومات لا سيما مقاومة الأمير عبد القادر (2) الا احدى هذه الصور لما آل اليه هذا المجتمع وقتئذ ، وتعبيرا صادقا عن التفكك الاجتماعي و الرجوع الى عهد النظام القبلي ، و سيادة التعصب العرقي و المذهبي ، وما ردود مفسرنا على الحملات ضد المذهب الاباضي الا دليل على هذا التنافر بين المذاهب الاسلامية و الذي وصل الى حد اتهام بعضها بعضا بالكفر و اباحة سفك الدماء (3) و لم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أدى كل ذلك الى انتشار الفتن و لعل أحسن من وصف منطقة ميزاب في هذا العهد يحي بكوش في قوله : " فقد كانت الفتن كثيرة في المنطقة ، وانتشر الفقر و اشتدت الحروب الطائفية واستحكمت العنصرية " (4).

ومن أسباب هذا التعصب و التفكك الاجتماعي الجهل الذي تفشى في الأوساط الشعبية،هذا الجهل تجلى في انتشار البدع والخرفات و يصور الأستاذ سعد الله حالة هذا المجتمع بدقة .

---

1) أنظر أمثلة لذلك في بحثنا هذا ص 74 .
2) كتاب الجزائر ص 56 .
3) محمد بن يوسف أطفيش (ان لم تعرف الاباضية يا عقبي) كتاب (ازهاق الباطل بالعلم العاطل).
4) يحي بكوش كتاب شرح النيل دائرة معارف في الشريعة الاسلامية ص 22 أنظر بعض الصور المأسوية لهذه العصبية في كتاب المجتمع الاسلامي . د /أحمد شلبي من ص 192 — 196 المذاهب نعمة انقلبت نقمة .

في حديثه عن أعلام القرن الحادي عشر إذ يقول : "فقد عاش خلال القرن الحادي عشر عشر و الثاني عشر الميلادي في الوقت الذي اشتدت فيه القطيعة بين العالم الاسلامي الجامد و العالم الأوروبي المتحرك ، وازدهر فيه التصوف المزعوم و الدروشة و الأمية و التخلف العقلي في المجتمعات الاسلامية ، و كثر فيه أدعياء العلم من الفئة التي كانت تسمي نفسها حامية الشريعة ، و مصابيح الظلام و هي فئة الفقهاء أو المتفقهين ، و استولى فيه على مقاليد السلطة حكام جهلة ، و طغاة غرباء عن حاجات المجتمعات الاسلامية التي يحكمونها و أحاسيسها و عشش أثناءها الفكر الخرافي حتى كاد المجتمع كله يصبح زاوية صوفية ." و يمضي الكاتب يصف الأمراض الاجتماعية المنتشرة كالايمان بالغيبيات و الروحانيات ، و استغلال سذاجة الأوساط الشعبية لابتزاز أموالها ، و نصرة الظلمة و المستبدين .(1) هذه صورة صادقة للمجتمع الاسلامي الذي أصبح مطمع الاستعمار الأوروبي و لكن هذه سنة الله في خلقه ، فالشعوب كالأفراد تمر بمراحل القوة ثم تنحدر نحو الضعف و لذلك لم يجد الاستعمار صعوبة كبيرة في الاستيلاء عليه ، و تحقيق مطامعه فيه ، و ليبقى دائما سيد الموقف ، راح يشجع الآفات الاجتماعية التي ورثها المجتمع الاسلامي عن عهد الانحطاط و يضرب كل حركة اصلاحية تحاول محاربة هذه الآفات.

فلعل أول آفة أخذ يغذيها و ينميها في هذا المجتمع المريض هي التفرقة و العصبية و يذكر محمد البهي أن تجنيد بعض الغربيين الآريين المسيحيين لابراز الخلافات المذهبية من وسائل الاستعمار في اضعاف المسلمين في اسلامهم(2) و لعل النداءات التي كانت قوات الاحتلال توجهها الى الشعب الجزائري و طبقاته تدل على زرع العصبية ، اذ ورد في أحدها مثلا العبارة التالية :" نحن الفرنسيين أصدقاءكم سنذهب الى مدينة الجزائر لنطرد منها الأتراك الذين طغوا عليكم و اضطهدوكم الخ .." (3) و نلاحظ هذا النداء يدعو الى اثارة الحزازات و الضغائن بين الأتراك الجزائريين و الدولة العثمانية قصد القضاء على كل تحالف ممكن قيامه بينهما ، و هذه هي سياسة المستعمر قديما و حديثا ، يسعى في البداية إلى فصم عرى التضامن

---

1) د / أبوالقاسم سعد الله شيخ الاسلام عبد الكريم فكون جريدة الشعب العدد 6969 السنة 24ص / 11 .

2) الفكر الاسلامي الحديث ص 21 .

3) عبد الحميد زوزو، نصوص ووثائق ص 30(نداء موجه من طرف الجيش الفرنسي الى الدراقلة أولاد الاتراك العرب القاطنين بايالة الجزائر .

بين الدول الاسلامية ثم يتفرغ الى اثارة الفتن الداخلية ، و يدل على ذلك ما كان بين أحزاب المقاومة و القبائل التي لم تكتف بالوقوف ضدها بل راحت تؤيد العدو الغاشم و تقف بجانبه بفضل سياسته (فرق تسد)، والحالة الاجتماعية المتردية التي أصبح يعيشها المجتمع الجزائري المسلم أنذاك(1) .و قد كان المستعمر في كل بقعة من العالم الاسلامي يحاول استغلال كل فرصة لاحياء النزاعات الدينية ، و العصبية الجنسية ، ومن ذلك ما ذكره الحبيب الجنحاني في أن ثورة المقرانـــي كانت رد فعل ضد سياسة التنصير، والسياسة الرامية الى بث الشقاق بين العرب و البربر(2) .

و للنجاح في سياسته هذه عمد الى سد أبواب التعلم أمام الجزائريين لا سيما التعليم العربي الاسلامي فحاول تعويضه بلغته التي تعتبر وسيلة لبث أفكـــاره ، واتجاهاته في أوساط الامـــم المستعمرة لكن دون أن يسمح لها باكتساب ثقافة تساعدها على الارتقاء في سلم الحضارة و الرقي ، فترك الاغلبية الساحقة تتخبط في الجهل و الامية فأصبحت فريسة الخرافات والبدع، مشجعا كل الهيئات التي كانت في السابق حامية الاسلام و العربية على نشر هذه الضلالات و الافكار الاتكالية و القدرية قصد تنويم هذه الطبقة التي تعتبر القاعدة العريضة لجميع الانتفاضات و الثورات و من هذه الهيئات رجال الدين و بعض الزوايا التي كانت في السابق معاقل اللغة العربية و الاســـــــلام .(3)

لئن استطاع الاستعمـــار أن ينشىء طبقة جندها لتقرير سلطته و تثبيت ولايته و حماية شخصيته (4) لكنه عجز و فشل فشلا ذريعا في القضاء على شعلة الاسلام و العربية ، و تحقيق أغـــراضه الدينية، كتجنيس هذه الامة وتنصيرها و محو مقوماتها ، رغـم محاولاته العديدة منها انشاء طبقة بورجوازية أوروبية على انقاض الطبقـــة الجزائرية تتمتع بجميع الحقوق ، و تشعر بعقدة الاستعلاء قصد تحطيم معنويات الشعب العربي المسلم ، فاستعمل لتحقيق ذلك كل الوسائل منها تفقيـــر الطبقـــة

1) للاطلاع على أمثلة أرجع الى اسماعيل العربي المقاومة الجزائرية تحت لواء الامير عبد القادر الفصل الحادي عشر (سقوط الزمالة) .
2) حركة التبشير و السياسة الاستعمارية الفرنسية الاصالة العدد 18 ص 32 .
3) أعلام الاصلاح في الجزائر 1 / ص-ص 18 — ص 21.
4) الفكر الاسلامي الحديث ص 21 .

الشعبية و تجويعها بحجز أراضيها بأسباب و بدو نها ، و غلق أبواب الرزق أمامها، فتركها تُصارع ضنك العيش و فريسة مجاعة 1868 م هو التي اعتبرها فرصة سانحة لتحقيق مآربه (1) .

و نتيجة للظلم الاستعماري ، لجأت بعض العائلات بأسرها الى الهجرة الداخلية أو الخارجية "،هروبا من المعاملات التعسفية و طلبا للعمل .

و لم يكن ميزاب بيئة المفسر أحسن حالا من المناطق الأخرى فقد مرّ بفترة مظلمة ساعد الاستعمار على امتداد ها و وقف ضد كل محاولة اصلاح ، و لعل أحسن وصف لحالة هذا المجتمع يعبر عنها أحد الباحثين في قوله :" ولد الامام القطب و نشأ في بيئة كاد ينطفئ فيها نور الهداية الالهية ، فلم يبق فيها الا بصيص من نور خافت لبعض آيات قرآنية ترتل أو أحاديث ترد د تقليدا ." ثم يمضي في وصفه لهذا المجتمع بطغيان الجهل و الجاهلية ، و سيادة عادات و تقاليد خرافية واستقراطية نسبية ، لا تولي للقيم الروحية العلمية الدينية أي تقدير و لا اعتبار ."الى درجة أن أصبح إفشاء السلام بدعة و ضلالة ، و توريث المرأة خطرا ، و تزويج طالب العلم القاء بالبنت إلى التهلكة ،لا يناصر العالم على شيء من الحق،اذا خالف أهواءهم، بل تعلق عليه معارضة و مطاردة و اخراج ، وكذيرا ما كان يلقي مصرعه قتلا أو اغتيالا ." (2)

هذه حالة الطبقة الساحقة من المجتمع الاسلامي بصفة عامة و الجزائري بصفة خاصة في عهد مفسرنا ، ولئن تعبر عن الحالة المزرية التي بلغها هذا المجتمع نتيجة عصر الانحطاط ، ومساعي الاستعمار، لكن سنرى بأنها — أيضا — فترة مخاض بالنسبة للنهضة الفكرية التي سنتعرض إليها فيما يلي :—

3) الحالة الفكرية .

تميزت الحالة الفكرية في عصر الانحطاط بالجمود و الركود و نتيجة لتدهور الأوضاع السياسية و الحالتين الاقتصادية و الاجتماعية ، وقد ساهم الاستعمار في اخماد جذوتها .

و مما هو معروف أن حياة المسلمين الفكرية مترابطة ارتباطا وثيقا بالدين

---

1) حركة التبشير ، الأصالة العدد 18 ص 22 .

2) الشيخ بلحاج ، محاضرة ص 03 مخطوطة.

الاسلامي ،فلو عدنا الى العصور الذهبية لهذه الامة لوجدنا أن العامل الديني لعب دورا كبيرا و رئيسيا في اقامة صرح حضارتهم و انتعاش الحياة الفكرية في مجالات مختلفة نتيجة لحرية التفكير السائدة آنذاك ،و لما أصيب تفكير المسلمين بالعقم ، ومال الى التحجر ،واكتفى باقتفاء الآثار مجترا انتاج السابقين دون محاولة اثرائه و مواصلة السير به قدما نحو التجديد و التقدم أخذت الحياة الفكرية تسير نحو الانحطاط و التسفل ، فاذا كانت شهادات المؤرخين تؤكد انتشار مراكز التعليم المختلفة عبر أرجاء العالم الاسلامي ، و منها الجزائر فان هذه المراكز لم يتعد دورها تعليم طلبتها العربية ، وبعض العلوم التي هي أقرب الى التراث منها الى العلوم التي تروض العقول على التفكير و الابداع و تساير التقدم الحضاري الذي أخذت الانسانية تعرفه ، وقد ساهمت في ذلك مناهج التدريس المتبعة في هذه المراكز ، والتي تعتمد الشرح و الحفظ ، و تقديس كل ما هو قديم ، فأخذ الفكر الاسلامي و اللغة العربية التي هي وعاؤه ينفصلان شيئا فشيئا عن حياة المسلمين و واقعهم ، فأصبح الدين الذي كان روح هذا المجتمع يتخلى عن دوره القيادي و مسايرة تطور الحياة ، فوجد الناس صعوبة لفهم تراث سابقيهم فكيف باثرائه ، و عزفوا عن الافتراق من مناهل الثقافة ، فانتشر الجهل ، وانحصرت الثقافة في نخبة قليلة و في ميادين محدودة لا تفي بحاجة المجتمع فاعتلى منبر القيادة الثقافية عناصر ساعدوا على نشر البدعة والضلالات ، بوعي أو بغير وعي ، ومما زاد الطين بلة الظروف الاقتصادية الصعبة التي مر بها العالم الاسلامي ،نتيجة أنظمة الحكم المهترئة ، مما اضطر كثيرا من طلبة العلم إلى مغادرة مقاعد الدراسة و الالتحاق بميادين العمل لمساعدة أسرهم على سد الرمق . (1) "

ولعل أحسن من وصف الحياة الفكرية في هذه الحقبة من التاريخ التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر أبو القاسم سعد الله والذي يرى أن العلوم الشرعية تميزت بالتقليد و التكرار و الحفظ قلما نجد فقيها اجتهد و استقل برأيه بل كان التقليد الأعمى ديدان معظمهم و يرى أن : " من شذ عن هذه القاعدة عزل أو اتهم بالتكفير و الزندقة" كما يعزو جمود الانتاج الفكري الى المميزات السابقة التي تكاد تنطبق على جميع العلوم و الفنون ،الى أن بلغ الامر بالرحالة الاجانب الى اتهام علماء الجزائر بممارسة

---

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/ 249،250 د /سعد الله محاضرة في تاريخ الجزائر الحديث،ص 159-163 .

السحر والشعوذة،لا سيما في الميدان الطبي .(1) ولا يعني هذا أن العالم الاسلامي كله استسلم للنوم العميق بل نجد شخصيات دينية تولت حمل مشعل الاصلاح و حاولت احياء الفكر العربي الاسلامي ، و تجديده فقادت حركات اصلاحية مثل حركة الوهابية، و السنوسية و غيرها ، وقد تركت في المجتمعات الاسلامية بصمات واضحة ومهدت للحركات الفكرية و السياسية التي عرفها عصر النهضة ، و يبين نجلاء عز الدين أثر هؤلاء و ثقافتهم الدينية في قوله :" قدم الدين أول الحوافز لبعث المجتمع ، فلقد قامت جميع محاولات الاصلاح التي تمت قبل القرن التاسع عشر على أيدي نفر من رجال الدين ،وكان المصلحون الدينيون أشد أدرا بين جميع القوى و التيارات العاملة للاصلاح ." (2) و اذا حاولت شخصيات متنورة في الجزائر بعث مجد الامة و اصلاح المجتمع فان أثرها لم يتجاوز ميدان التأليف ، وأبداء بعض الآراء الاصلاحية ، ولعل الظروف المحيطة بهم ،هي التي جعلتهم يسلكون منهجية مناسبة لها في الاصلاح والمتمثلة في اعداد الجيل عن طريق التعليم و تزويده بمؤهلات تحمل أفكارا جديدة و ثقافية سلفية منقحة، وتبسيط العلوم .

فلنأخذ كمثال لذلك عبد العزيز الثميني (3) باعتباره حركة مفسرنا امتدادا لحركه هذا المصلح ، و قد ذكر أبو القاسم سعد الله عاملين أساسيين وجها حياة هذا المصلح ووجهه جديدا ، و يتمثل أحدهما في " ما رآه في مجتمعه من الفساد والعصبية وانتشار بعض البدع الضارة فحز كل هذا في نفسه و عزم على تغييره بجميع الوسائل" (4) ، و تصدي هذا المصلح للدعوة الى الاصلاح جلب له الاذى مما اضطر في الأخير الى عزل الناس و التفرغ للتأليف ، بعد أن مارس التدريس ، و قد ترك مؤلفات قيمة ، وأشهرها (كتاب النيل) الذي أصبح عمدة المذهب الاباضي في المغرب العربي (5) .

فهذا نموذج للحركة الاصلاحية التي سبقت عهد الاحتلال ، ولم تتصل ببعيد و لا قريب بالنهضة الاوروبية ، فقد كان مصدرها المجتمع و البيئة المحيطة بها ، التي كانت السبب الرئيسي في الثورة على الأوضاع المزرية ومحاولة تغييرها ، وكانت تمثل حركة دينية خالصة واستعد فتاحياء العلوم الدين ، ونشرها في الأوساط الشعبية عن طريق تجنيد الطلبة و اعداد المؤلفات و الوعظ و الارشاد ، فنجد المؤلف في مقدمة كتابه النيل

1) د /سعد الله ،تاريخ الجزائر الثقافي 2 / 09،10،11 ـ 41 .
2) نجلاء عز الدين العالم العربي ص 95 .
3) تاريخ الجزائر الثقافي 2 / 72 ،تاريخ الجزائر العام 3 / ص 580،581 .
4) د / سعد الله ن.م. 2 / 79 .
5) تاريخ الجزائر العام 3/ 580،581 .

يصف حالة العلم في عهده قائلا : " و من أن العلم قد أدبرت أيامه و انطمست اعلامه ، و سدت مصادره ، ومنعت موارده " ثم يصور ما كان يعانيه في قوله " مع ما أكابد و أتجرع من الزمان غصصا" الى أن يقول مبينا الغرض من تأليفه للكتاب : "رجاء من الله سبحانه و تعالى أن ينفع به كل من قرأه ، أو حصله أو سعى فيه شيء منه كل وقت من بعد عصره " و علق الشارح محمد بن يوسف أطفيش على العبارة الأخيرة محتملا في تفسيرها وجهين أحد هما هو : " اشارة الى أن أهل العصر لا ينقادون له ، لأن أهل كل عصر لا ينقدون لعالمهم" . (1) "

فهذه شهادة المؤلف على ما كان عليه العلم في زمانه ، وعلى ما كان يتحمل أهله من أذى في سبيل نشره ، كما توضح لنا الغرض من اهتمام هذه الكوكبة الأولى على التأليف والتصنيف والتي تأمل أن تترك للخلف ما ينير طريقه . . لكن لم تكد تتبلور هذه الحركة السلفية الاولى حتى استولى الاستعمار الفرنسي على العالم الاسلامي ، لا سيما الجزائر فحاول أن يخمد هذه الشعلة المضيئة ، ويطفئها في مهدها قبل أن تستفحل و تضيء طريق الأمة الضالة وتمد يها الى سبيل الخلاص ، فاستغل كل الوسائل المتاحة لاخماد كل بصيص من نور يظهر هنا أو هناك ، و قضى على كل مركز أقيم لنشر المعرفة أو للمحافظة على مقومات هذه الأمة بل حول بعضها الى مراكز مساعدة على التضليل مستغلا نفس السلاح الذي كان من المفروض أن يوجه ضده و لم يكتف بذلك بل جند كل ما لديه من الوسائل و الخبرات لتضبيره ، وتجريده من دينه و لغته ، فشجع على تكوين طبقة مضللة ، تشرف على قيادة هذه الأمة ، انطلاقا من أهم مراكزها الحضارية كالمساجد و الزوايا ، وكرد فعل لهذا التيار الهدام الذي وقف وراءه المستعمر قصد تشويه الدين و اللغة و تقاليد هذه الامة ، واظهارهما في صورة منفرة ، برز تيار اصلاحي ديني اجتماعي الذي تمثل في الحركة السلفية الجديدة التي تزعمها في العالم الاسلامي جمال الدين الافغاني ، و حمل مشعلها - بعده - الشيخ محمد عبده ، وفي الجزائر ظهرت حركة موازية لها ، ومن رواد ها مفسرنا محمد بن يوسف أطفيش (2) و ان لم تبلغ درجة التأثير التي بلغتها الحركة بالمشرق فهي عبارة عن حركة تجديد لا تختلف كثيرا عن سابقتها اذ واصلت عملية بعث التراث الاسلامي ، و محاولة تجديده و القيام بتكوين نخبة تتولى فيها بعد نشر آرائها ومن مميزاتها ،

---

1) عبد العزيز الثميني كتاب النيل وشفاء العليل 1 /من ص19 - 34 شرحه محمد بن يوسف أطفيش .

2) أنور الجندي الفكر و الثقافة المعاصرة ص 28 .

محاولة مواجهة التيار المعاكس المتمثل في حركة المحافظين و المقلدين الذين ورثوا ثقافة عصر الانحطاط بمحاسنها و مساويها ، و غذي أفكارها المستعمر و لم ينج هذا الأخير رغم شراسته ، ومراقبة تحركاتهم من الحملات التي وجهوها ضده . و سنشير الى بعضها عند تعرضنا الى مواقف مفسرنا .

و بموازاة هذه الحركة المتشبعة بالثقافة العربية الاسلامية واطلاعها على بعض مظاهر النهضة الاوروبية ، برزت نخبة جديدة مزدوجة الثقافة ، تكونت من مدرسي الثانويات المزدوجة (فرنكو ميزلمان) و خريجيها ، و أخذ دور النخبة القديمة يتقلص شيئا فشيئا في القرن التاسع عشر ، وأن ظهرت الحركة السلفية في شكل جديد أكثر تنظيما و استعدادا للمقاومة في القرن العشرين يمثل الاتجاهين السائدين في القرن الماضي (1)

فما يهمنا في هذا البحث هو الطابع الفكري الذي يميز تلك المرحلة التي عاش فيها مفسرنا و هي مرحلة انتقالية بين العهد العثماني الذي أخذ نجمه في الأفول ، و العهد الاستعماري الذي يحاول أن يبسط ثقافته في مستعمراته ، فنجد الطابع التقليدي يطغى على الثقافة العربية الاسلامية ، يتجلى في أنواع العلوم التي كانت تدرس و طريقة التدريس المنتهجة ، وهي طريقة تقليدية أو القائية تعتمد الفهم و الحفظ ، وهذه المنهجية ساعدت على تعطيل القوى العقلية المبدعة ، و أضفت على هذه العلوم هالة من التقديس بالنظر الى السلف ، بنظرة الكمال ، والى الخلف بنظرة النقص ، و ان الأوائل لم يتركوا علما من العلوم و لا فنا من الفنون الا تناولوه بحثا و تصنيفا ، و لا يمكن للخلف في أية حالة من الأحوال وهم دون المستوى أن يتجرأوا على الاجتهاد و الابتكار ، فهذه الفترة التاريخية امتداد لطور التقليد الذي عرفه عصر الانحطاط و ان كان بعض العلماء المتنورين حاولوا بعث الثقافة العربية الاسلامية ، وهم يمثلون نواة الأولى لحركة الاحياء ، ومن أهم الاسباب الداعية الى ذلك ، محاولة المستعمر الصليبي الحقود طمسها ، و بالاضافة الى الضعف الذي عرفته هذه الثقافة قبل الاحتلال ، مما أدى ذلك الى ظهور البدع و المنكرات . و ان حاول المستعمر ، كعادته ، حصر هذه الحركة بالقضاء على المراكز التي كانت مصدر الاشعاع و تحويل بعضها الى قوة مضادة ، لكن رغم ذلك بقيت بعض هذه المراكز محتفظة على كيانها و قوتها ، ولعبت دورها في تخريج رجال قادوا الحركة ، وارتقوا بها الى مرحلة التجديد ، بفتح باب الاجتهاد على مصراعيه ، ولعل مشهد مفسرنا أحسن مثال لهذه

---

1) الحركة الوطنية الجزائرية 2/ ص 39 ، ومن 64 — 69 .

الحركة و سيتجلى لنا ذلك من خلال بحثنا لآثارها مفسرنا في فصل خاص.

و هذا التيار أخذ ينتقل بفضل احتكاكه بحضارة الغرب و صراعه معها الى مرحلة التجديد التي أشرنا اليها سابقا، غير أنه اصطدم بعوائق، تمثلت في الإستعمار أولا و دوره معروف لدينا وجلي، والجبهة المضادة الذاتية في حزب الجمود و المحافظين، أما التيار الثالث الذي جنده المستعمر فكان يشكل خطرا على هذه الحركة، وقد اعتبره محمد البهي من الوسائل الرئيسية التي استعملها المستعمر لاضعاف المسلمين في اسلامهم، وهذا التيار يمثل في تظرفي " قيام بعض مفكري المسلمين بحركة تقدمية في الاسلام تبغي تقرير سلطة المستعمر و تثبيت ولايته على المسلمين من الوجهة الاسلامية " (1)

فهذه الحركة أخذت أشكالا ورموزا مختلفة ففي الجزائر مثلها الداعون الى الإندماج، و تقديس الفكر الغربي (2) . و ان كان هذا التيار لم يشكل بعد كيانا خاصا في هذه المرحلة الا أن بوادره أخذت تظهر و تقوم بالدور المنوط بها، بتشجيع من المستعمر الذي يمثل هذا التيار احدى نتائج سياسته الثقافية، التي كان يرمي بكل وسائله الى تحقيقها . (3)

وهذه الجبهات الثلاثة، الاستعمار الصليبي و الجمود، و التغريب، واجهتها الحركة السلفية مستعملة كل امكانياتها قصد إثبات وجودها في الميدان، وتحصين الأمة من الانحلال و التفسخ و التغريب، ومن هذه الامكانيات.

1) دروس الوعظ و الارشاد في المساجد و النوادي وكل مناسبة .
2) فتح الكتاتيب و المعاهد لاعداد الرجل المسلم القوي، المعتز بشخصيته و المتمسك بدينه لمواصلة حمل مشعل الاصلاح .
3) احياء التراث، ومحاولة تبسيطه، و تجديده .
4) اصدار مجلات معبرة عن آرائها، وتنشرها في ارجاء العالم الاسلامي .
5) تشجيع مراسلة العلماء و استفتائهم في الامور المستجدة .
6) تبادل البعثات العلمية.
7) تقليد المناصب الحساسة لصد الابواب أمام الاستعمار و عملائه .

و هذا الصراع ساعد علماء المسلمين على الوقوف في جبهة واحدة، فاذا كانت الظروف لم تسمح لهم باللقاءات فانها لم تمنعهم من اقامة اتصالات عن طريق

1) الفكر الاسلامي الحديث ص 21 .
2) الفكر و الثقافة المعاصرة ص 148، 149 .
3) ن.م. ص 133 ـ 184 .

المراسلات وزيارة بعض العلماء واللقاء في مواسم الحج والتنويه ببعضهم في مؤلفاتهم وحلقاتهم الدراسية.

وفي هذا الجو السياسي والاجتماعي والفكري، رأى مفسرنا نور الحياة، وترعرع فيه وناضل بما أوتي من موهبة ومعرفة وجرأة ستتعرف في الفصل التالي إلى العوامل التي ساهمت في تكوين شخصيته، وأهلتها لتحمل رسالتها في مجتمع عرف هجمات شرسة، وبلغ درجة قصوى من الانحطاط.

الفصل الثاني :

حياتـه : في غضـون سنة 1236 هـ الموافق لسنة 1820 م رأى محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح أطفيش النور في هذه الحياة وما أن بلغ الرابعة من عمره حتى فارق أبوه الحياة وتركه يتيمـا ، بين أحضـان أمـه ، فتحملت هذه الأخيرة في سبيل قوة عينيها ، كل أنواع أتعاب الحياة وشمرت عن ساعديها ، لتوفير الأمـن الغذائي له ووقايته من قساوة الطبيعة والحياة ، وهذا شأن الأمهات اللواتي ... ن أزواجهن في ذلك العصر فتجدن في مناشجهن خير عون لمقاومة نوائب الدهر .

وقبل خروج الولد للوجود كان أمنية والديه ، وكانا يريان فيه البديل في تحقيق غايتهما المتمثلة في الرقي الى درجة العلماء العاملين (1) لكن المحيط الذي نشأ وترعرع فيه الابن ملئ بالعراقيل ، والعوائق ، مما يتطلب لمن يريد أن يتصدر هذه الأمة امتلاك استعدادات خاصة ومؤهلات واسعة متناسبة مع تعقيد الأوضـاع والظروف الصعبة ، وعظمة المهمة ، ولعل السؤال المتبادر الى أذهاننا هو : ما هي العوامل التي ساهمت في تكوين شخصية المفسر لتستطيع بلوغ درجة النبوغ في هذا المحيط المعقد ؟ وفيما يلي سنحاول التعرف الى هذه العوامل ، وأثر كل واحد منها في رسم ملامح شخصيته التي تركت آثارا واضحة ، وايجابية في الأمـة .

عـوامـل نبـوغـه :

أ . عوامل ... .

يتحدر المفسر من سلالة مشهورة بالعلم ، والذكـاء ، فقد كان جده محمد ابن عبد العزيز علامة عصره ومرجع الفتوى ، كما نبـغ علمـاء كثيرون في عائلته فاجتمعت في الولد أسباب النبوغ الوراثية من الفرعين المشتهرين بالعلمـاء والمصلحين .

ويقول المفسر معتزا بنفسه ومفتخـرا به :

محمد بن يوسف عيسـى	*	نجـل كـرام سـادة وكيسـى
فجدنا هو الولي ابن الولي	*	ابن الولي ابن الولي المعتلـى
اذا أرادوا فصل ما لم يرد	*	عدوهـم قالوا له ابرق وأرعـد

1) نهضة الجزائر الحديثة / من ص 291 ـ 296 محمد بن يوسف أطفيش الذهب الخالص ، ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص : أ .

2) الذهب الخالص ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص / ب .

قد صيّر الله الخدود منهم * نعالنا حين أبيعاعنهم ...ألخ (1)

فاذا كان للعامل الوراثي تأثير كبير في شخصية الانسان باتفاق معظم علماء النفس، و يترك هذا العامل بصمات واضحة في النّواحي المختلفة : الجسمية و العقلية و الوجدانية ، فاننا نجد لهذا العامل اثرا بارزا في شخصية مفسرنا ، فقد كان له ذكاء ثاقب ، وذاكرة ممتازة ساعداه على حفظ القرآن ، هو ابن الثامنة من عمره ، و نظم كتاب المغني لابن هشام في خمسة الاف بيت و عمره لا يتجاوز السادسة عشر ، و لما بلغ العشرين من عمره ارتقى الى أكبر عالم في وادي ميزاب.

كما أن لبنيته القوية التي وهبها الله له دورا في تحمل متاعب الدراسة و التدريس فقد كان يتمتع بصحة جيدة ، و بصر حاد حافظ عليه الى أواخر أيام حياته ، و هذا الكمال الجسمي و العقلي ساهم في تكوين شخصيته القوية الواثقة من نفسها ، و الخالية من مركبات النقص التي تقف — في الغالب — عائقا أمام المرء الطموح الى شق طريقه نحو العلى .

و قد يكون للعامل الوراثي — أيضا — نصيب في مزاجه الشخصي ، اذ عرف بدماثة أخلاقه و الاعتزاز بنفسه ، و سنرى أثر ذلك واضحا في مؤلفاته و مواقفه الجريئة غير أن هذا العامل ينمو و يتهذب اذا تعهده عامل آخر ، هو أكثر تأثيرا في شخصية الانسان و هو عامل التربية بنوعيها المقصودة و غير المقصودة .

ب. عامل التربية :

وسط المفسّر العائلي و الاجتماعي عاملان لا يستهان بهما في تربية شخصيته فقد غمره والداه بالحنان و العطف ، رغم وفاة والده المبكرة ، غير أنه تلقى رعاية كبيرة من والدته باعتباره أمل حياتها ، و ثمرة علاقتها الزوجية ، و مما زاد من حبها له ما ظهر له في ابنها من علامات النبوغ المبكّرة .

كما أن لمواقف والده الاصلاحية أثرا في اتجاهه ، اذ كان في نظر محمد علي دبوز : " من أنصار النهضة الحديثة الكبار ، و حماتها الشجعان ، نازل أتباع الفساد و أنصار الجهل و البدع من بني يسقن حتى ضاقوا به ذرعا و أرهقوه بالايذاء

1) الذهب الخالص ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص /ب.

وتآمروا على قتله ،فهاجر الى غردايـة فأقام فيها مدة " (1)

فلا شك أن لهذه المواقف أثرا في شخصية المفسر رغم صغر سنه ، ويزداد هذا الأثر كلما ذكر بها ، وعند بلوغ درجة الوعي والنضج ، قارنها بمحيطه الذي لا زال يشكو الآفات الاجتماعية المختلفة التي عرفناها في الفصل الأول من هذا الباب ، فيأخذ ـ حينئذ ـ ازاءها موقفا واضحا ، ويسعى إلى تغييره ، مواصلة لمسيرة والده في القضاء على التخلف والانحراف الديني ، ثم أن الانسان كائن اجتماعي يتفاعل مع محيطه ، فاذا كان هذا التفاعل هو محاولة تغيير هذا المحيط والوقوف في التيار المضاد له ،فلا بد من التعرض الى الصعوبات ، والمجابهة ، وقد يصمد أمامها المرء فيخرج منتصرا ومكتسبا تجارب تزيد لشخصيته قوة وثباتا وهذا ما وقع بالفعل لمفسرنا ، وهذا هو المحك الذي مر عليه الرجال العظام في المراحل التاريخية ، وقد يصاب المرء اذا لم يقو على الصراع بالصدمة العنيفة فينهار .

وهناك عامل تربوي آخر ساهم في بلورة شخصية المفسر ، وتحديد ملامحها وهو تعليمه وثقافته ،فقد أدخل الكتاب في سن الخامسة لحفظ القرآن الكريم وتعلم القراءة والكتابة ، ولم يبلغ الثامنة من عمره حتى حفظ القرآن الكريم واستظهره ، وهذا النبوغ المبكر دفعه الى الاستزادة من العلوم العربية الشرعية ، ولفت أنظار أساتذته فأحاطوه بالرعاية والعناية ، وهؤلاء الأساتذة هم تلاميذ الشيخ عبد العزيز الثميني صاحب كتاب النيل ، الا أن ثقة التلميذ المفرطة بنفسه نتيجة العوامل بسيكولوجية ، جعلته سريع الاستيعاب فلجأ الى الاعتماد على نفسه في الاستزادة من طلب العلم ،فانكب على المطالعة ،لأن أساتذته لم يشفوا غليله لأوقاتهم الضيقة ولقلة بضاعتهم العلمية .

ولما رجع أخوه ابراهيم بن يوسف أطفيش من عمان ومصر حيث أتم دراسته العالية انقطع للتدريس ، ووهب نفسه لنشر العلم في وطنه ،فوجد فيه المفسر ضالته المنشودة ، فتلقى على يده مختلف العلوم المعروفة في ذلك العصر كالتفسير والحديث والفقه وأصول التشريع ، وعلم الكلام وقواعد اللغة والبلاغة ، والعروض والمنطق والحساب والفلك ،كما درس عليه سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ، ولعل هذه الدراسة تعتبر احدى قنوات اتصال

---

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/ 292 ـ 301 ،302 ،303 .

بثقافة الشرق العربي ، وإحدى النوافذ التي أطلّ منها على هذه الثّقافة وربما على أوضاع المسلمين هناك ، باعتبار أنّ الاستاذ في الغالب يتعرّض في دروسه إلى تجاربه في الدّراسة وإلى أقوال بعض أساتذته الّذين تأثّر بهم ودرس عليهم .

وكانت لهذه الدراسة الشرعية اللغوية أثرها البيّن في شخصية المؤلف الثقافية واتجاهه ونظرته إلى محيطه ، غير أنّ عبقرية هذا المفسّر لم تجد في هذا المصدر ما يروي عطشها من المعرفة ، ولم يسعدها الحظ للانتقال إلى حواضر العلم الاسلامي ، فاستنجد بمصدر آخر الذي هو الكتاب ، هذا الصديق الذي لم يفارقه طيلة حياته ، وكانت الصّداقة بينهما حميمة ، تجاوزت كلّ التّصورات فشغف بمطالعة كل كتاب يقع بين يديه وبل لم يكتف بذلك فأخذ يستنسخ الكتب والمخطوطات الّتي تزخر بها مكتبات المشارقة وعمان وكلّ مكتبة يجد إليها سبيلا .(1)

يستنسخ

وقد نلاحظ بوضوح في مؤلّفاته ثقافته العصامية الواسعة ، وأثرها في طريقة التّأليف ومنهجية البحث ، وحتّى في نظرته إلى بعض القضايا حتّى ليخال للمرء أنّ الكتب كانت المصدر الأساسي والوحيد لدراسته .

وفعلا كانت الكتب أهمّ مصدر ثقافي له ، فقد وجد — مثلا — في مكتبة أخيه وأستاذه الشيخ الحاج ابراهيم بحيته وكوّن بها نفسه ، هذه المكتبة الّتي تضمّ كتبا نفيسة جلبها من الشرق العربي بعد عودته منه . (2) كما استفاد من مكتبة أستاذه الشّيخ الحاج محمد آزبار المعاصر للمفسّر ، وأحد تلاميذه الشيخ عبد العزيز(1130هـ1232هـ)

هذه المكتبة الزّاخرة بنفائس الكتب التي أهديت إليه من عمان(3) وغيرها من المكتبات التي تحتوي على مؤلّفات قديمة ومعاصرة من تأليف أساتذته أو مشائخهم وقد ترك صاحب النّيل مؤلّفات قيّمة كانت مرجعه . (4)

وممّا تقدّم يتّضح لنا أنّ المفسّر من بين العلماء الّذين بلغوا هذه المرتبة العلمية المرموقة بفضل التّثقيف ، وقد ساعده على ذلك عاملان أساسيان :

---

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/ص298 — 306/ التّفسير ومناهجه عند علماء الاباضية ، محاضرة ص 15 / الشيخ بلحاج ، محاضرة ص 4 / عبد الرحمن باكلي ، محاضرة ص 02 ، معجم أعلام الجزائر ص 19 ، 20 / لنفس المؤلف ، معجم المفسرين 2/ 658 .

2) نهضة الجزائر الحديثة 1/285 .

3) ن م . / ص 284 .

4) ن م . / 272 — 277 .

عامل ذاتي يتمثل في قواه العقلية وكمال بنيته الجسدية ، وعامل خارجي ، وهو توفر المكتبات التي كانت من نتائج الحركة العلمية التي مهدت لنهضته وكان أبو زكرياء يحي بن صالح الأفضلي (1120هـ ، 1223هـ) رائدها . (1)

وكما أن هذه الحركة هيأت له الجو الملائم ، والمساعد على طلب العلم على الرغم من انتشار مظاهر الجهل والتخلف في وسطه مما أصبح مغرما بالمطالعة وشغوفا بها إلى درجة أن أضحت همه الوحيد ، واستولت على معظم أوقاته .

ومن العوامل التربوية التي تتأثر في الانسان ، ولكن الدراسات لا تولي لها أهمية عند تعرضها لحياة كاتب أو مؤلف ، رغم اعترافها بأثره في توجيه شخص ما الى وجهة معينة أو على الأقل ترك بعض الأثر في سلوكاته ومن هذا ينكر أساتذته واعجابه بهم ، باعتبارهم ممن يتولون تربيته ، وتوجيهه ؟ فمهما حاولت البرامج الدراسية ، والمناهج المقررة توجيه التربية الى أهداف محدودة ومرسومة ، فان الأستاذ أو المربي بصفة عامة من جملة العوامل المؤثرة في تربية الانسان ، فنجده يتخذ أساتذته قدوة ومثالا ، لا سيما اذا تحلوا بشخصية قوية مؤثرة ولها وزنها في المجتمع ، ومعظم أساتذة مفسرنا ان لم نقل كلهم يمتازون بهذه الصفات ، ولذلك لا نستبعد تأثيرهم في تلميذهم سواء في تصرفاته أو في مواقفه وآرائه ، ولعل هذا العامل هو الذي جعل مفسرنا يواجه الهجمات والصعوبات في سبيل اصلاح المجتمع ايمانا منه بأنه يواصل مسيرة أساتذته ومتأسيا بهم ، ولعله — أيضا — من العوامل التي ساهمت في اكتساب شخصيته القوة والجرأة ، والورع ، وبعض الصفات التي خولته لأن يتصدر قيادة الأمة .

كما أننا نجد أثر تربية أساتذته في تفتح مفسرنا على العالم الاسلامي ، وتخطيه حدود الوطن الضيق ، والرؤية المحدودة الى الدعوة الى توحيد صفوف المسلمين والوقوف مع الحركات الاصلاحية والمقاومات المسلحة ضد المستعمرين .

وكان لسفره وتنقلاته بغرض تأديه فريضة الحج أو لالقاء دروس الوعظ والارشاد أثر بليغ في تكوينه ، والتعريف بشخصيته ، فقد اتصل بعلماء العالم الاسلامي وتناظر مع بعضهم وتعرف بهم (2) كما ألقى دروسا في الحرم الشريف ،

---

1) ن . م . أنظر ترجمته في ص 254 .
2) صدقي محاضرة ص 14 تاريخ الجزائر العام 4/451 .

وجلب بعض الكتب منها ، كتب الحديث التي ساعدته على تأليف كتابه (وفاء الضمانة) و (جامع الشمل) في الحديث باعتراف منه . (1)

وقد لبى دعوة أحد علماء عصره الشيخ محمد بن أبي القاسم (1239 هـ، 1315 هـ) فزار معهده الهامل و ألقى درسا في مسجد زاويته .(2) وكانت له رحلات الى بريان و القرارة و ورجلان منتظمة لارشاد الأمة .(3) فهذه الرحلات زادته معرفة بالطبقات الاجتماعية ، وساعدته على الاتصال بمختلف سادات المناطق.

ولعل العامل الذي أكسبه القوة ، وأهله للقيادة هو تصديه للجمود والاستعمار بروح ملؤها الايمان و الثقة بالنفس، فهذا العامل هو الامتحان الذي يجتازه كل شخص يريد أن يقتحم العقبات للوصول الى مركز القيادة و شهادة أثبتت أهليته نفسيا و زكته .

هذه هي عوامل نبوغه ، التي صهرت شخصيته و أعطت لها ملامحها المميزة و في الفصول التالية تتضح لنا هذه الشخصية من خلال مواقفها و جهادها ضد التخلف و الاستعمار .

---

1) محمد بن يوسف أطفيش التيسير / 799، 800 .
2) نهضة الجزائر الحديثة 1 / 71 أنظر ترجمة الشيخ محمد بن أبي القاسم في نفس المرجع من ص 56 ـ 81 .
3) ن م . من ص 340 ـ 349 .

موقفه من التيار المحافظ :

أول جبهة ناضل فيها المفسر و واجه فيها خصما عنيدا ، لقي منه الأذاء و استنفد جهوده ووقته ، هي جبهة التخلف و الجمود ، المتمثلة في طبقة المحافظين التي نصبت نفسها حامية الدين و المدافعة عن التقاليد الموروثة غير القابلة للتغيير و التبديل ، و كل من حاول أن يتصدى لتعديلها أو ابطال ما يتنافى منها مع الشريعة الاسلامية السمحاء ، يقف هذا التيار ضده و يحاربه بكل ما لديه من الوسائل .

و قد وصف مفسرنا هذا التيار بالغلو و العناد و تقديس القديم و إن تعارض مع الكتاب و السنة فقد كانت معه معارك طاحنة و جولات تجسمها مؤلفاته التي تصور لنا بصدق معتقدات هؤلاء و تصرفاتهم ، و مواقفه الشجاعة و الجريئة ضدهم ، فمثلا في كتابه (القنوان الدانية) يقول عن هؤلاء الذين أصروا على الاسرار بسجدة التلاوة : "انما أدى بهم الغلو في اعتقاد الاسرار والتمسك به الى أن قالوا : نعمل إما بالقرآن و السنة، وإما بما في الديوان قالوا أو اعتقدوا أن الديوان في هذه المسألة مضاد للقرآن و السنة ، و انما يجب العمل أما بالديوان و اما بالقرآن والسنة ."(1)

و يمضي في نفس الكتاب يتحدث عن تصورهم لدور العالم في المجتمع فهم يريدون منه : " أن يعبد ربه بكتمان علمه ما لم يحتج اليه الناس هذا لفظهم ، يتوهمون أنه لا يلزم العالم أن يأمرهم و ينهاهم حتى يطلبوه ، فاذا دموا لم يطلبوه لا يلزمه الأمر و النهي ." (2)

و لصد كل دعوة للتغيير و التصحيح يستعمل هؤلاء كل الوسائل بما في ذلك إثارة الفتن ، ثم يعزون ذلك الى الحركة الاصلاحية و يقول المؤلف في ذلك مبينا سلطتهم على المجتمع : " تذكرت أنهم يقولون لو جهرنا بها لقامت الفتنة " و ليس كذلك لأن القائلين ذلك هم أفراد متقدمون على العامة و مثيرون للفتنة موقدون لها لكراهتهم الجهر بها (أي سجدة التلاوة) فلو تركوا إثارة الفتنة لم تكن الفتنة لأن العامة و سائر الطلبة منقادون . ." (3).

1) محمد بن يوسف أطفيش، القنوان الدانية ص 48 .
2) ن م . ص 66 .
3) ن م . ص 25 ، 26 .

ولا ينورع هؤلاء عن تهديد معارضيهم باللجوء الى المستعمر لعقابه وزجره بالسجن ودفع غرامة مالية ويفهم ذلك من قوله : " أدأهم الخلو الى أن قالوا من جهر بآية من آيات السجود مكناه للنصارى يحبسونه ، وأخذنا منه دراهم محدودة عقوبة له " . (1)

تتضح لنا من النصوص السابقة طبيعة من سماهم المؤلف بأهل البدعة : فهم شديد التمسك بكل قديم ولو خالف القرآن والسنة ، ويرون آراء من سبقوهم بنظرة التقديس ، فلا يحاولون فهمها فهما صحيحا ، ولا يتجرأون على نقدها لتبيان الخطأ من الصواب ، وهذا الاعتقاد لا زال معشعشا في عقول بعض علماء المسلمين فضلا عن عامتهم ، فكل ما جاء به أمام من أئمة مذهب ما غير قابل للمناقشة والنقد وإعادة النظر ، فهم يرفضون كل فكر تحرري ، يدعو الى عرض أفكار السلف الاجتهادية على الكتاب والسنة ومصادر التشريع المختلفة ، لنبذ كل ما يتعارض مع مبادئ الاسلام ، وتحقيق وحدة المسلمين على أساس الأصول الثابتة والصحيحة .

وهذه الطائفة تتهم التيار الاصلاحي بإثارة الفتن وتفريق كلمة المسلمين وتشتيت صفوفهم مع أن الحقيقة والواقع - هم الذين يحركون العامة الجهلة ، لاثارة الفتن ، قصد مواجهة التيار الاصلاحي ، ومجابهته وقد يلجأون الى استعمال وسائل خسيسة لقمع هذا التيار كاستعانتهم بأعداء الاسلام والمسلمين ، ايمانا منهم بالمثل القائل " أن الغاية تبرر الوسيلة " .

إزاء تصرفات هؤلاء نجد المفسر في مدائحه ورسائله يشتكي من وطأتهم ومعاناته فنراه في هذا المديح مثلا يقول : -

والمرء في الدنيا يعيش عذابه * لحياته في الجاهلين وحسد

ويفضل العيش في البرية مع الذئاب العاوية على معاشرة هؤلاء ويقول في ذلك :-

ولأن يعش المرء في برية * سرحا تعاوي من الحصر الصدي

أولى له من أن يعيش معاشرا * لكلاب أبناء الزمان الأوغد

لكن المفسر تهون أمامه كل المصائب ما لم تكن في الدين .

هانت مصائب من أصيب سوى التي * في الدين أو موت النبي محمد (2) .

---

1) ن . م . ص 74 .
2) محمد بن يوسف أطفيش كتاب مجمع القصائد ص 27 .

وفي رسالة الى علماء عمان خاصة نقرأ شكاويه من قومه كالجواب الذي وجهه الى الشيخ عبد الله بن حميد السالمي ردا على طلبه في استنساخ بعض الكتب فيقول فيها : " الا أن النسخ هنا بأجرة غالية . . والناس لا يعينونني في ذلك بل في مثله في ايقاف الكتب" ويقول في نفس الجواب مبررا سبب نسيانه الاجابة عن بعض الفتاوى :" لكثرة الاشغال والاعداء"(1) وفي رسالة أخرى يشتكي من عدم مساعدة قومه له قائلا :" لأني في قوم لا يقومون بي " (2) .

فهذه الرسائل وأمثالها تحمل الينا صورا صادقة عن معاناة المفسر في مجتمع يسود فيه الجهل والتخلف ، والتعصب للقديم ، ومحاربة كل تجديد ، ولا يعير أي اهتمام للعلم والعلماء وقد أدى بهم الأمر الى نفية من مدينته فأقام في مدينة بنورة ، كما تعرض لمؤامرة قتل دبرها له هؤلاء الجهلة .(3)

ولكن المفسر — رغم ذلك — لم يستسلم ، ولم يلن في مواقفه الشجاعة التي تعبر عنها مؤلفاته ، وتصور لنا صراعه مع أهل البدعة على حد تعبيره ، مجندا الشباب بتوعيتهم ودعوتهم الى نشر أفكاره الاصلاحية ؛ فنجد — مثلا — لمواقفه المتصلبة التي لا تعرف هوادة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في اجابته ردا على قولهم :" لو طاوعناك في الجهر (سجدة التلاوة) لطلبنا بأشياء أخر نهيتنا عن أشياء أخر " فيرد عليهم المفسر قائلا :" ان المطاوعة منكم في الحق لا تسقط عني الأمر والنهي لكم والواجب علي أن آمركم بالخير وأنهاكم عن الشر قصد الخير لكم ولي وآمر نفسي وأنما ما قبلكم ولست أعاملكم بترفع ولا بتحقير بل أداء للواجب عليكم أن تفرحوا بي وتقبلوا مني " وقد رد عليهم حين لاموه على ارشاد الشباب للجهر بآي سجدة التلاوة مع السماح له بالجهر بها : أفلم لا يقبلون الحق من الشبان وان كان باطلا فلم يقبلونه مني " .

ما يفهم من هذه الردود أن المفسر أولا كان يترفع عن هذه الطبقة الشاذة في نظره رغم انكاره لذلك على الأقل هذا ما كان يعتقده الطرف الآخر، وثانيا كان يحث الشباب على مجابهة هؤلاء ، وفرض أفكاره في الواقع ، ولا يخفي المفسر كرهه لهؤلاء ، فيصرح لهم بذلك مبينا السبب : " انما بغضتكم لوجه الله عز وجل

---

1) محمد بن يوسف أطفيش (كشف الكرب) 1/06 .
2) ن . م . 1/11 .
3) نهضة الجزائر الحديثة 1/332 — 337 .

لتعد يكم حدود الله بترك فروض و اثبات بدع ."

و في الأخير يعلن القطيعة و يرى أن الاختلاف واضح بين الجماعة المؤيدة له و بين الطبقة الجاهلة التي تداس العامة لتحقيق مآرب خسيسة بالاستيلاء على مناصب المسجد الذي كان و لا يزال يملك السلطة و النفوذ على المواطنين في وسط المفسر ، والتصرف في أمواله و يقول في ذلك :" و كيف اجتمع أنا و أصحابي اجتماعا صحيحا مع العامة و الغوغاء و الجهلاء . و هم غصبوا المسجد و ماله على أهله ."(1)

و يستوحي المفسر مواقفه هذه من ايمانه بدور العالم في المجتمع و مسؤوليته في اصلاحه ، و يقول ردا على أولئك الذين يرون أن مسؤولية العالم تقتصر على الاجابة على طلبات الناس فقط" . و ليس كذلك فانهم اذا أخطأوا الحق فقد احتاجوا الى العالم و لو لم يطلبوه ، ولولم يعلموا أنهم أخطأوا و لزمه الأمر و النهي ، ولو لم يعلموا بخطئهم و لو لم يطلبوه ."(2)

و المفسر يرى أن مسؤولية الفرد المسلم في المجتمع تتطلب منه الإندماج فيه و السعي الى اصلاحه ، وان تعرض الى الأذى و نفهم ذلك من قوله مجيبا من سأله عن تفضيل المخالطة أو العزلة :" و مما سألتما عنه الإشتغال بأمر المسلمين علما أنه أولى من الإنفراد لكن مع تحمل الأذى من الناس و معالجته ." كما يرى أن الاخلاص في العمل مساعد على تحمل الصعاب و على اجتياز العقبات و يمضي قائلا :" و اذا قوي اخلاصكما سهل عليكما الأذى فتجدان راحة في قلوبكما تصلان معها الى التعلم و التعليم ." و لا يعذر من يتخوف من الوقوع في المعاصي في مجتمع انتشرت فيه و يرى أن عليه :" مخالطة الناس و نفعهم أولى من الاعتزال ، و ان خفت في ذلك معصية فجاهد نفسك بالمعصية ." غير أنه يرى أن من عجز عن اتقاء المعاصي ، لضعف شخصيته و عدم استطاعته الصمود فعليه بالإعتزال ، و يتضح رأيه هذا من قوله :" فان لم تكن طاقة على مخالطتهم الا بالمعصية فهذا عجز فاعتزل "(3).

بنفعهم و ترك

و ايمانه بوجوب اصلاح المجتمع ، جعله يسلك طريقتين في اصلاحه فتارة يرشد

---

1) القنوان الدانية ص 70 ، 71 .
2) ن م . ص 66 (بخطئهم) .
3) كشف الكرب 1/ 106 ، 107 .

ر يوجه و اذا اقتضى الأمر ودعت الضرورة الى مجابهة العناصر الفاسدة لا يحجم عن ذلك بل نجده ينتقد بشدة بعض فتاوي العلماء ويبين ضعفها ، وينكر عليهم سكوتهم عن كثير من البدع التي تقع أمامهم ، ومجاراتهم للعامة ." (1)

ولغرض القضاء على هذه البدع ، وايجاد حلول شرعية للمستجدات يدعو المفسر الى الاستفادة من أحد أهم مصادر التشريع الذي هو الإجتهاد ، يرد على من يدعي غلق باب هذا المصدر قائلا : " فان باب الإجتهاد و الترجيح مستمران بشرطهما و هو صحة عقله و استكماله الات ذلك ." (2) باعتبار أن الاجتهاد وسيلة من أهم وسائل القضاء على الجمود و التخلف الذي عرفه العالم الاسلامي نتيجة التقليد الأعمى ، كما جابه هذه الوضعية المزرية بحملات التوعية في دروسه (3) ومؤلفاته بقصد محو صور الفساد من المجتمع ، والعودة به الى منابعه الأصلية والى عهوده الاولى التي عرف فيها الإزدهار و الرقي في ضوء التعاليم الاسلامية .

غير أن المفسر اعترضته عقبة في سبيل اصلاح المجتمع ولولاها لحقق خطوات عملاقة ، و هذه العقبة تمثلت في الاستعمار الذي كان يقف وراء كل بدعة ، وخرافة ، مشجعا التيار المحافظ على الإستمرار في قيادته ، ونشر أفكاره الرجعية ، لكن المستعمر لم يسلم أيضا من هجمات المفسر و تحدياته ، وهذا الموقف تجاهه نابع من عمق ايمانه ، وقوة عقيدته كيف ذلك ؟ وهذا ما سنراه في الفقرة التالية .

موقفه من الاستعمار و عملائه :

تفاعل المفسر مع الأحداث التي جرت في عصره ، تفاعل المسلم الواعي ، والمؤمن بالمصير المشترك بين المسلمين ، و تتبع بكل جوارحه المعارك الطاحنة ضد الحملات الاستعمارية على بلدان العالم الاسلامي ، وكان " كثير الدعاء بالنصر للأمة الاسلامية على من يناويها ، شديد الرغبة من وجود الجماعة الاسلامية ، و يرى من الواجب أن يكون الاسلام في عز وأهله في منعة ، و يرى أن كل ما يلم بشعب اسلامي

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/336 .
2) ان لم تعرف الاباضية يا عقبي ص 128 .
3) نهضة الجزائر الحديثة 1/346 .

كائنا من كان من الارهاق ، فهو نكبة أصابت الأمة لما في ذلك الشعب من التوحيد والانتساب الى الدين الاسلامي الجامعة العامة . " (1)

فهذه شهادة أحد تلاميذه بن استاذه لموقفه الواضح والعدائي للمشركين وتعاطفه مع المسلمين في أي بقعة من العالم ،فهذا الموقف ناتج عن وعيه المبكر لأغراض المستعمر الدنيئة وعن كرهه الشديد لأعداء الاسلام ، اذ يصور هذه الأغراض في قوله ردا على من يزعم ويعتقد أنه جاء لنشر المدنية :" ومن كذلك قولك أنهم جاؤوا للتمدن والتأديب بل جاؤوا لأخذ الأموال والتملك ، ولزمك على ذلك أن علماء المسلمين وعامتهم منا ومنكم عارون عن الأدب يشبهون السودان الحمران حتى جاء المشركون يؤدبونهم ويعلمونهم وذلك خطـــأ ."(2)

نجد مفسرنا لا يثق في المشركين ، ولا يحسن الظن فيهم ،وقد تفطن لمكائدهم وغشهم للمسلمين ، وسعيهم وراء مصالحهم ،فقد هجا من ظن فيهم الخير بقوله :" هذا رجل مخذول ظن الخير في المشركين ، وأمر الناس أن يظنوا فيهم ، وعنف من لا يظنه فيهم " الى أن يقول :" وأما مشاهدة السوء في صنائعهم هكذا اجمالا بقطع النظر من أنهم قصدوا بذلك السوء الغش أم قصدوا مصالحهم فقط ،فلا يحصى عددهم الا الله ." (1)

ومن هذه النظرة الواعية الى المستعمر ، واليقظة المبكرة ،ومن ايمانه العميق بعداوة المشركين ، يواجه مفسرنا هذا العدو اللدود بمختلف الأشكال والأساليب المواتية له ،فنلاحظ في " تآليفه كثير التفرغ والاستطراد للحط من قيمة المشركين والكفار والدعوة لهم بالخيبة والخذلان وسوء المصير ، ويقوم بذلك أثناء التدريس" (4).

كما يهاجمهم عن طريق المراسلة ، كلما سنحت له الفرصة بذلك ،مستغلا الحوادث كحادثة قتل أحد وزراء الحكومة الفرنسية ، فوجه الى أحد حكامها رسالة شديدة اللهجة ومما قال فيها :" لقد تماديتم قتل المسلمين وتجرأتم عليهم فكان الله يراقبكم وأصبح وزراؤكم يقتلون في الطرقات كالكلاب ."

---

1) الذهب الخالص ،ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص/ ج .
2) ان لم تعرف الأباضية يا عقبي ص 111، 112 .
3) ن ،م ، ص 99 .
4) حنفي بكيـــر ، محاضرة ص 03 .

وقد حاول المستعمر استدراجه وترضيته بتلبية كل طلباته اذا رضي به ، لكن عقيدة المفسّر كانت أقوى وأشد صلابة ، فتظهر في ردّه على هذه المحاولات بقوله : " لا أطلب سوى رحيلكم من هنا " (1)

ولما تبين للمفسّر أن أوضاع المسلمين لا تسمح بأعلان الجهاد ، وأن العنف لا يجدي هؤلاء وهم في مركز القوة حاول أن يستعمل أساليب أخرى علّها تؤتي ثمارها ، لكن دون جدوى ، ومن هذه الأساليب قوله ناصحا المستعمر : " اذا عدلتم فسيدوم ملككم واذا أخذتم سبيل الظلم فسيؤول ملككم الى الزوال كما زال غيره " اجابة عن سؤال وجهه اليه حاكم استعماري لمعرفة رأيه في الاستعمار . (2)

وقد تنازل عن مطالبه الشخصية مقابل مطالب تعود بالفائدة على المواطنين، وذلك حين نجح في حل لغز عرضته عليه السلطة الاستعمارية بعد عجز الجميع عن حلّه وتمثلت هذه المطالب فيما يلي :

" الرفق بأهل التوحيد بأن يسقط خراجهم أو ينقص منه ، وأن يلزمهم الحكم بالعدل ولا يعدوهم على الجور وأن لا يفسدوا أنكحتهم " . (3)

وفي رسالته الموجهة الى السلطان عبد الحميد يظهر اهتمامه بقضايا العالم الاسلامي وتخوفه من استيلاء الاستعمار عليه ، لا سيما على البقاع المقدسة ، فيدعوه فيها الى " ابطال طريق الجرارات ومركب النار ، وترك تمهيده ويقول متوسلا : "الله الله في ذلك فان تمهيد الطريق لمركب الجرارات ومركب النار تسهيل لدخول الملك الملحد اقليم المدينة بل حريم المدينة ومسجده ، الله ، الله في ذلك ، ولا سيما أن ذلك انما يتصور بأيدي المنكوبين الملحدين لأنهم أعرف بسياسة الطرق ،" ثم يمضي مبينا خطر هذا العمل وقبحه في حق الاسلام قائلا : " فاذا أدخلت الملحدين تلك البقاع أو بعضها فأي حظ لك يبقى في الاسلام ، وأي شريقي لم تفعله في الاسلام ،" ثم يبين أن المشروع لو يعرض عليهم لأنجزوه بأموالهم ولما تأخروا عن التعجيل في تنفيذه مهددا أياه بانتقام الله منه ان أقدم على هذا الفعل. (4)

---

1) ن. م. ص 07 ، معجم الجزائر الحديث 1/330، 331 .
2) حنين بكير ، محاضرة ص 07 .
3) محمد بن يوسف أطفيش ، رسالة الشافية ص 132 — 134 .
4) محمد بن يوسف أطفيش ، رسالة مخطوطة في مكتبة بني يسقن بخطيد المؤلف توجد عندي نسخة منها .

والمفسّر لا يواجه الاستعمار فحسب بل يصوب سهامه — أيضا — نحو أذنابه، الذين اغتروا بمكائده، وحاولوا تزيينه للناس وفي رده مزاعم هؤلاء العملاء ينتهز الفرصة لإزالة القناع عن وجه الاستعمار وإبراز نواياه السيئة فيقول مثلا في مستهل رسالته التي ردّ فيها على المتبي: " أما بعد فهذه نصيحة لمن مال قلبه ولسانه وجوارحه الى قوم (وهم الأجانب حكام الجوائر) وصار يمدحهم ويحببهم الى الداسر ويصد الناس عن اجتناب نجاسهم ويدعوهم الى الحكم بطهارتهم على الاطلاق" (1)

فمهما كان تحامل المفسّر على خصمه، فإننا نلاحظ كرهه الشديد للمشركين، ودعوة الناس الى اجتنابهم ومقاطعتهم، والابتعاد عن تقليد الوظائف في حكمهم الا عند ما تقتضي الضرورة ذلك، كإباحته لتلاميذه تقليد مناصب القضاء خوفا من تعيين من ليس أهلا لها فيها. (2)

وفي رسالته (حكم الدّخان والسعوط) كشف المفسّر عن مساعي المستعمر الخبيثة في سبيل اضعاف المسلمين، والقضاء عليهم، بتبيان غرض الانجليز من نشر هذه الآفة في البلاد الاسلامية اذ يقول: " وذكر بعض من خالط الانكليز أنهم ما جلبوه لبلاد الاسلام الا بعد اجماع أطبائهم على منعهم من ملازمته .. فمنعوهم من مداومته وأمروهم ببيعه للمسلمين لأضرارهم، وأن قلت الانكليز لازموا استعماله ولم يذكروا فيه علة، ولا ضررا قلت يحتمل كتمهم ذلك توصلا لتعز يسر أهل التوحيد بسلب أموالهم وتضييع صلواتهم واتلاف أبدانهم وأرواحهم". (3)

ولم تخف على المفسّر مكائدهم في اثارة الفتن وتفريق صفوف المسلمين حيث يذكر في رسالته (ان لم تعرف الاباضية يا عقبي) حادثة وقعت في ورجلان دبرها مشرك لاشعال فتيلة الفتنة بين المسلمين. (4)

كما تصدى للرد على الحملات التبشيرية التي جندتها الحركة الصليبية للتشكيك في الاسلام ومصادره، فقد ردّ في رسالة سمّاها (قذى العين على أهل الغبن)

1) رسالة، ان لم تعرف الاباضية يا عقبي ص 08.
2) ن.م. ص 113 ،نهضة الجزائر الحديثة 1/378.
3) محمد بن يوسف أطفيش، رسالة في حكم الدخان والسعوط، ص 44، 45.
4) (ان لم تعرف الاباضية يا عقبي) ص 130.

على الانجليزي المنكر للقرآن والطاعن فيه ، مبينا في مستهلها بغضه وحقده للمسلمين ، ودوره التخريبي في تشكيك سكان تونس في ذلك : " فكان ذلك الانجليزي يشكك الناس في تونس ولا أعلم أنه يؤثر فيهم تشكيكه ." (1)

ومفسرنا لم ينج من وسائل الترهيب والترغيب التي يسلطها — عادة — المستعمر على خصمه ، فقد ذكرت الروايات بأن السلطات الاستعمارية اعتقلته حين عارض بشدة دخول الفرنسيين لوادي ميزاب وتحداهم بقولته المشهورة التي سبق ذكرها . (2)

كما أهدوا له وساما تقديرا لمكانته العلمية ، ولكن المفسّر لم يعبأ به ولم يقم له وزنا مثلما هو الشأن للوسامين اللذين أهداهما له سلطان عمان والدولة العثمانية . (3) وقد حذّرته السلطة الاستعمارية حين بعث رسالة استنكار شديدة اللهجة الى الوالي العام بالجزائر لما عزم هذا الأخير على هدم الجامع الكبير بالعاصمة (4) .

والمفسّر ينظر الى المشركين نظرة احتقار ، ويخاطبهم مخاطبة الواثق بنفسه والمعتز بشخصيته وعقيدته ، ويتضح ذلك من جوابه لمؤتمر المستشرقين ورفضه لدعوته قائلا لهم : " خبروني هل من بينكم ابن عباس ، وجابر بن زيد وأضرابهما أولا ، فاني لا أجالس ولا أساجل سواهم " (5) .

وقد بلغ المفسّر درجة الوعي ، وتتبعه للأحداث والصراعات التي عاشها العالم في عصره ، أن تنبأ — حسب روايات تلاميذه — في أواخر أيام حياته بوقوع هول عظيم وهذا الهول قد يكون الحرب العالمية الأولى التي اندلعت بعد وفاته بقليل .

ومما روي عنه كان " يقول بتأثير شديد جدا ، كاد ينقلب العالم ويحدث هول عظيم ، يكرر ذلك ويقول : أنه على الأبواب وكأنه غدا . " (6) .

فهذه مواقف المفسّر ونضاله ضد الجبهتين : جبهة الجمود وجبهة الاستعمار فقد رأينا بأنه صارع التخلف والركود ، كما أعلنها حربا شعواء على الاستعمار وعملائه

---

1) محمد بن يوسف أطفيش ، نسخة من رسالة مخطوطة بقلم أحد تلاميذه ص 90 مكتبة بني يسقن توجد عندي نسخة منها .
2) أنظر صفحة رقم 65 من هذا البحث .
3) هذه الأوسمة الثلاثة احتفظت بها مكتبة بني يسقن ، نهضة الجزائر الحديثة 1/329 .
4) ن . م . 1/330 .
5) عبد الرحمن باكلي ، محاضرة ص 03 .
6) الذهب الخالص ، ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص /د .

مستعملا كل الوسائل المتاحة ، رغم صعوبة المهمة نتيجة لما آل اليه المجتمع الاسلامي فقد استطاع حمل لواء الاصلاح ، والاستقامة في سبيل مبادئه بقوة الحجة والبيان ، فلولاه لاستطاع الاستعمار بمعونة أنصار البدع والجمود القضاء على الحركة الاصلاحية ، ولامتد عصر الجهالة والانحطاط عقودا زمنية أخرى على الأقل في مسقط رأس المفسر .

ومن بين الوسائل التي أعدها المفسر لخوض غمار المعركة ، وتهيئة الجيل للدخول فيها بقوة ، جهوده الكبيرة في التعليم والتأليف والتوجيه ، وسنرى في الفصل التالي آثاره في هذه المجالات الثلاثة .

الفصل الثالث:

1 . آثاره في ميدان التعليم :

تخرجت على يد المفسّر نخبة من الطلبة، واصلت مسيرته الاصلاحية في مختلف الميادين، وانبثت في الجزائر وفي بعض الدول العربية ، فمنهم من تقلد مناصب القضاء عملا بنصيحة أستاذه خوفا من تعيين المستعمر فيها عملاءه ، ونذكر من بين هؤلاء القضاة : بابكر بن الحاج مسعود بغرداية ، الحاج يحي بن صالح باعمارة بمليكة ، الحاج بكير بن الحاج قاسم بقسنطينة وغيرهم ممن غطى مناصب هذه الوظيفة في جميع مدن ميزاب وبعضها في الشمال الجزائري ، وقد ترك معظم هؤلاء آثارا حسنة ، وكانوا في مستوى المهمة المنوطة بهم .

ومن تلاميذه من تفرغ الى التعليم والتوجيه مساهما في تربية الاجيال الصاعدة ، وحاملا اليها مشعل الاصلاح والعلم ، نذكر من بين هؤلاء : الشيخ ابراهيم بن بكير حفار ، والشيخ يوسف بن بكير ، اللذين توليا التدريس في المعهد الجابري ببني يسقن ، وتخرج على يديهما أساتذة وما زال بعضهم يشغل الى حد الآن مناصب مختلفة ،كما تصديا للافتاء والتوجيه في المساجد ،ومن أساتذة الشيخ ابراهيم بيوض أحد دعائم الحركة الاصلاحية الشيخ الحاج عمر بن يحي الذي تلقى دراسته في العلوم الابتدائية على أحد تلاميذ المفسّر الذي هو الشيخ بابكر بن الحاج مسعود ، ثم زاول دراسته الثانوية والعالية في معهد المفسّر . (1)

ومن أبرز تلاميذه الذين خاضوا معركة الصحافة ،أحد رواد الصحافة الجزائرية ابراهيم أبو اليقظان ،ومن الصحف التي أصدرها ،وادي ميزاب ،ميزاب ،المغرب ،النور ، البستان ،النبراس ،الامة ، الفرقان ، وممن أدلى بدلوه في هذا الميدان أبو اسحاق ابراهيم أطفيش صاحب مجلة المنهاج التي أصدرها في القاهرة .

وهذه المجالات المذكورة كانت سهاما حادة على الاستعمار وعملائه ، والتخلف والانحراف الديني ،كما اشتركا في حركة التأليف ،ومن مؤلفات الاول المطبوعة

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/ من ص 377 — 331 .

و المتداولة : سليمان باشا الباروني في أطوار حياته ، ديوان أبي اليقظان، سلم الاستقامة : فتح نوافذ القرآن ولديه — أيضا — مؤلفات مخطوطة لما تعرف النور.
(1)

و من أبرز مؤلفات الثاني ، الدعاية الى سبيل المؤمنين ، تحقيق تفسير القرطبي و الذهب الخالص لمحمد بن يوسف أطفيش و شامل الأصل و الفرع لنفس المؤلف و غيرها من المخطوطات التي لم تظهر للوجود . (2)

تأثرا بمواقف الأستاذ تجاه الاستعمار خاض بعض تلاميذه المعركة ضده بالكلمة و الجهاد و شاركوا في الحركات الوطنية ، وكانوا من روادها و أكبر مثال على ذلك ، سليمان الباروني المناضل الليبي ضد الاستعمار الايطالي ، والشيخ صالح بن يحي العضد الأيمن لزعيم الحزب الدستوري التونسي القديم الشيخ عبد العزيز الثعالبي .(3) و من المساهمين في هذا الحزب أبو اسحاق ابراهيم أطفيش ، وابراهيم أبو اليقظان ، وقد تعرض الأول للنفي ، وتلقى بعضهم أنواعا من التعذيب و الأذى ، فقد كانوا شوكة في جسم الاستعمار ، و أعلاما مضيئة في الحركة الاصلاحية بالجزائر و بعض الأقطار العربية .

فهذه عينة من تلاميذه ، اخترناها من كل مجال ساهموا فيه ، لأن تتبع أعمال جميع تلاميذه يحتاج الى دراسة مستقلة ، فالغرض من عرض هذه العينة هو بيان آثار هذا المفسّر في تكوين جماعة من المثقفين ، والذين شاركوا في معارك هذه الأمة ضد التخلف و الاستعمار و الجهل .

و قد نلاحظ من هذه العينة ، أن ثقافة المفسّر أثرت في اتجاهها ، هي ثقافة شرعية أدبية ، لكن الطابع الشرعي هو الغالب عليها ، لذلك نجد أكثر تلاميذه ، قد تقلدوا مناصب دينية كالقضاء و التعليم ، والتوجيه و الوعظ ، فهذه الثقافة ظهرت — أيضا — آثارها في سلوكهم و مؤلفاتهم ، فنجد معظمها يطغى عليها الطابع الديني ، ولا تخلو مؤلفاتهم الأدبية من أثر هذه الثقافة ، وحتى مجلاتهم

---

1) أنوار الجندي (الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال افريقيا) من ص212 — 216 .
2) أنظر ترجمته في أبي رأس عبد الله بن محمد الكاملي ، أبو اسحاق ابراهيم أطفيش معجم أعلام الجزائر ص19 .
3) نهضة الجزائر الحديثة 1/ ص280 .

التزمت بخدمة الجانب الديني أكثر من غيره ، وحين نستعرض المواد التي كانت تتضمنها برامج معهده ، نلاحظ بوضوح طغيان الطابع الشرعي عليها ،فهذه البرامج تشتمل على المواد التالية : العلوم الشرعية من تفسير وحديث وتوحيد وفقه وأصوله ، والعلوم العربية كالنحو والصرف والبلاغة ، والعروض وكان الأدب مدعما لهذه المواد لا غير ، كما أن بعض العلوم الأخرى لا أهمية لها في البرامج تدرس كوسائل مساعدة لترسيخ المواد الشرعية ، وتوضيحها ،فقد خصص المفسر دروسا في المنطق والحساب لبعض تلاميذه (1) ، فكان من المنتظر أن يتخرج من هذا المعهد طلبة لا يختلفون كثيرا عن مثقفي العصور السابقة باعتبار برامجهم الدراسية ، والكتب التي كانت المعتمدة في التدريس، فقد كان تفسير البيضاوي ، والزمخشري مرجعين أساسيين في مادة التفسير في معظم الأحيان ، وفي الفقه كتاب الوضع لأبي زكريا ، والايضاح لعامر الشماخي ، والنيل لعبد العزيز الثميني ، وفي التوحيد عقيدة اسماعيل الجيطالي ، وكتاب الموجز لأبي عمار الكافي ، وفي علم الكلام كتاب معالم الدين لعبد العزيز الثميني ، وفي النحو يرجع المفسر الى المؤلفات المتداولة في ذلك العصر (مثل الآجرومية والالفية وشرح ابن عقيل ، والمغني الخ ... وكذا البلاغة والعروض.

غير أن المفسر لا يتقيد بهذه المؤلفات ، فقد وضع كتبا مناسبة لمستوى تلاميذه كما قام بتبسيط بعضها لتلائم العصر ، ومن الكتب التي ألفها لهذا الغرض كتاب (التيسير) في التفسير ، وشرح النيل وشرح الوضع ، ونظم أرجوزة في علم العروض . (2)

ورغم جدة هذه المؤلفات ، فانها لم تخرج عن المألوف في الكتب المعروفة طريقة ومضمونا ، فربما تختلف عنها في ناحية البساطة والسهولة فقط. لكن الجوانب التي يمكن أن يكون لها تأثير في تلاميذه هي شخصية الأستاذ وطريقته في التدريس، ومعاملته لهم . ومن خلال بعض مفاهيمه في ميدان العلم والتربية والتعليم يمكن لنا القاء بعض الأضواء على الجوانب المذكورة سابقا .

---

1) ن م . 1/من ص 366 — ص 373 .
2) ن م . 1/ من ص 371 — ص 373 .

نجد المفسّر يصّور لنا الصّفات التي ينبغي للعالم أن يتحلى بها بصفته معلم الناس ومرشدهم فيما يلي :— " على العالم أن يكون أعمل و أصبر و أعفى و أحمل للأذى و أخضع و أبعد عن الكبر و أحسن خلقا ، وأشكر لأنّ نعم الله عليه أكثر بذلك العالم و لأنه يقتدى به " (1)

استعماله لصيغ المبالغة دال على حرصه الشديد ، وادراكه العميق لأهمية سلوك العالم ، الذي يعتبر في نظر غيره قدوة ، وبذلك يدعو المعلم الى التحلي بالشخصية المثالية التي تؤثر تأثيرا ايجابيا في التلاميذ ، فهذا التأثير نجده قد لعب دورا كبيرا في تصرفات تلاميذ المفسّر ، ومواقفهم تجاه القضايا المعاصرة لهم ، فهم شديد الكره للمستعمر وكثير التعاطف مع قضايا العالم الاسلامي و والحركات الاصلاحية اقتداء بأستاذهم الذي تربطه بزعمائها علاقات وطيدة ، فقد اعترف مثلا بعلاقته بأحد روّاد هذه الحركة في المشرق الذي هو محمد عبده . في رده على العقبي الذي ما زال يؤمن بتنافر المدارس الاسلامية الفقهية ، والعداوة التي كانت قائمة بينها و بين علمائها فيقول :" فمتمم مؤلف هذا الكتاب محمد بن يوسف أطفيش الذي جاء العلامة الشيخ محمد عبده من مصر في شأنه الى تونس ، وأشار على أهل جامع الزيتونة أن يسألوه في المسائل الشرعية و يرجعوا اليه في المشكلات ، فقال " انا نسأله من مصر و أنتم أقرب اليه منا ، فقالوا نعم " . (2)

و هذا التقارب بين علماء مختلف المذاهب الاسلامية ظاهرة جديدة تمخضت عن الفكر الاصلاحي ، والوعي الديني عاش المفسّر هذا التقارب ، ودعا الية ، فقد اعترف — مثلا — في نفس الكتاب بلقائه مع الشيخ ابراهيم حقي ، العالم التركي المؤلف على حد تعبيره و ابراهيم الرياحي التونسي الفقيه ، وكانت له مراسلات مع الخلافة العثمانية ، و سلطان زنجبار وعمان و غيرهم . (3)

فهذه العلاقات الواسعة ، وتفتحه على الأحداث ، ومعايشته لها و شخصيته الحية تركت آثارا واضحة في بعض تلاميذه ، ولم يجدوا صعوبة في التكيف مع

---

1) محمد بن يوسف أطفيش (شامل الأصل و الفرع) 1/06 .
2) (ان لم تعرف الأباضيه يا عقبي) ص 13 .
3) ن م ، ص 17 ، 18 ـ 31 ـ 34 .

الحركات الاصلاحية في الجزائر وخارجها ومع الأحزاب السياسية، والانتفاضات الوطنية، فاذا كنا قد سمحنا لأنفسنا بتصنيف تلاميذه الى قضاة وموجهين وأساتذة وصحفيين وسياسيين، ومصلحين، فان ذلك من باب اشتهار كل واحد منهم بجانب معين، والا فاننا نجدهم قد ساهموا في عدة ميادين فمثلا سليمان الباروني الذي كان شاعرا ومؤلفا، ومناضلا، ولا يستبعد أن يكون قد مارس مهنة التعليم والتوجيه، وان لم يشتهر بذلك، ويقال نفس الشيء عن أبي اليقظان ابراهيم وغيرهما.

أما معاملته لتلاميذه فتبرز من خلال هذا المثل الذي ضربه لتبيان طريقة معاملة العالم للجاهل وذلك في قوله: "ويجب أن يكون مخاطبة الجاهل والعاصي معاملة الطبيب المريض، فان الجهل طبع الانسان والعلم حادث، فمن خاطب جاهلا مخاطبة تنفره لغلظة فيها أو لعدم علمه بكيف الأمر والنهي والتعليم فأصر بسببه أو زاد شرا أو بعدا عن التعليم كان شريكا للجاهل في ذلك، ولزمته التوبة أو اعادة خطاب صالح جبرا لما فعل." ويمضي مشبها ذلك بمهنة الطب: "كما أن الطبيب اذا قصر في طبه أو كان غير محكم للطب يضمن ما حدث به". (1)

يلاحظ من قوله: "أو لعدم علمه بكيف الأمر والنهي والتعليم" أنه يدعو الى اختيار طريقة ملائمة وناجعة للتدريس، والتوجيه، وقد كان بهذا المفهوم يبذل كل جهوده لافهام تلاميذه، ولو اقتضى الأمر اعادة شرح الدرس، وهذا ما يفهم من قول محمد علي دبوز رواية عن تلاميذه: "يشرح لهم الدرس حتى يفهموه، وكان يعتني بصحائفهم فيسألهم، واذا وجدهم لم يفهموا يعيد لهم الدرس مرارا بأساليب مختلفة حتى يفهموا." (2)

ويتضح من هذه الشهادة أن المفسر كان يراعي في تدريسه الفروق الفردية مطبقا في معاملته لتلاميذه مبدأ العدالة، باعتنائه بالضعاف، وعدم اهماله للمتفوقين والذين يظهرون ميلا الى فن معين، فيخصص لهم حصة يدرسهم فيها ذلك الفن فقد كان على سبيل المثال: يدرس الأشموني في النحو والصرف لبعض تلاميذه الراغبين فيه، ولسليمان الباروني دروس خاصة به، كما كان تلميذه يحي بن صالح باعصارة قاضي مليكة يدرس عليه كتابا في الأحكام لا يشاركه فيه غيره. (3)

---

1) شامل الأصل والفرع 1/05.
2) نهضة الجزائر الحديثة 1/ ص 361.
3) ن.م. ص 372 - 374.

فاذا كانت طريقة التدريس في معهده لا تختلف عن الطريقة السائدة في ذلك العصر فهي طريقة القائية محضة تعتمد على الشرح و التوضيح ، فان شغف الأستاذ بالتعليم و المطالعة جعل تلاميذه يقتدون به ، كما أن الجو الثقافي الذي ساعد أجداده المفسر في أوساط تلاميذه بتكليفهم باستنتاج الكتب ، و نسخها ، وجلبها وحركة التأليف الواسعة التي كان فيها قطب الرحى ساهمت في ترغيب تلاميذه في المطالعة و دفعهم الى الاغتراف من مناهل العلم .(1)

ومن الأنشطة التي اكتسبت تلاميذه الثقة بالنفس ، والخبرة ، اصطحابهم في رحلاته الى القرارة و بريان و ورجلان (2) . هذه الرحلات تمكنهم من الاطلاع على عادات الناس و من انماء شخصيتهم بما كانوا يتلقونه من عناية كبيرة و حفاوة بالغة من مستقبليهم ، بالاضافة الى ما يمكن احتماله من تعرض الأستاذ في دروسه الى مواقفه ، و اتصالاته و الى الأوضاع التي يعيشها العالم الاسلامي ، بحيث كان يدعو أدناء بعض دروسه على النصارى و المشركين بالخزي و الى المسلمين بالنصر في جهادهم .(3)

فجميع هذه العوامل ساهمت في تخريج نخبة من مثقفين واصلوا — بالفصل — مسيرة أستاذهم الاصلاحية ، وكانوا عناصر ايجابية في المجتمع ، عاملين بقاعدة الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر ، كما كانوا حربا على الاستعمار و عملائه و الجهل و الانحراف الديني ، ومشاعل مضيئة في مسيرة هذه الأمة .

لكن من المعروف عن المفسر أنه لم يترك مهمة اصلاح المجتمع الى تلاميذه و انتظرهم حتى يشبوا ليتولوا هذه المهمة ، فقد شمر عن ساعديه ، و جند نفسه للقيام بدور الموجه و المرشد في مجتمع أخذت الأمراض تفتك به متحديا كل الصعاب ، ومتحملا جميع المشاق ، مخلصا عمله لله عز و جل .

و فيما يلي صور واضحة عن دوره في هذا المجال الحيوي .

---

1) ن م . 1/ 305، 306 ـ 360، 361 .
2) ن م . 1/ 342، 343، 344 .
3) ن م . 1/ 332 ـ 353، 354 .

2 . آثاره في اصلاح المجتمع :

ايمانا من المفسّر بدور العالم في اصلاح المجتمع ، واعتقادا منه بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، قام بارشاد الطبقات الاجتماعية المختلفة ، وتوجيهها الوجهة السليمة ، وتوعيتها بمكائد المستعمر ومكره ودسائسه لخنق الفكر الاسلامي ومحو اللغة العربية من الوجود ، وكان فخورا بتلقيبه مجدد القرن ويفهم ذلك من قوله : " فقد عرفهم الشيخ عبد الله بن يحي اذ جعلني المجدد ، نسأل الله تصديق قوله وبارك له اذ قال في قصيدة له صدّقها الله ببركة نبيه صلّى الله عليه وسلم ، وأرجو أن أكون مجدد أول القرن الذي نحن فيه " (1)

والحق يقال أن المفسّر قد قضى على كثير من الآفات التي يشكو منها المجتمع منها البدع التي لها صلة بالعقيدة والعادات اعتقادا من ممارسيها بأنها من الدين ، ومن هذه البدع تقديس الأموات ، والتوسل اليهم ، واعتقاد البركة فيهم ، فقد حرر طبقة كبيرة من المجتمع من هذا الشرك ، وقضى على ظاهرة الخمول والزهد في الدنيا ، ولعل هذه الظاهرة ناتجة عن المصائب أو الكوارث التي توالت على المجتمع الاسلامي ، وقد ساعد على نشرها التيار المحافظ الذي تولى قيادة الأمة .

كما حمل حملات شعواء على بعض البدع التي اعتبرت من الدين بمرور الوقت وانتشار الجهل ، فقد تمكن — مثلا — من احياء بعض السنن ، كافشاء تحية الاسلام والجهر بسجدة التلاوة والتحرر من التقليد الأعمى لفتاوي السلف دون امعان النظر فيها ، وعرضها على الكتاب والسنة ، ودعا الى التعامل في الميدان الاجتماعي والاقتصادي بمقتضى الأحكام الشرعية ."

ومن الجوانب التي أولى لها أهمية خاصة ، محاربة العصبية الجاهلية التي انتشرت في المجتمع الاسلامي بشكل فظيع ، وما زلنا نعيش في عصرنا هذا بعض آثارها .

---

1) (ان لم تعرف الأباضية يا عقبي ص 18 .

و ألف بين العشائر المتناحرة ، وبين القرى المتقاتلة ، و سعى الى التقريب بين المذاهب، ومحاربة التعصب المذهبي الممقوت ، داعيا الى اعتبار التوحيد شعارا جامعا للأمة الاسلامية . (1)

و في ميدان تربية الأطفال ، حاول القضاء على أساليب الزجر والعنف ، و المعاملة القاسية و دعا الى تهذيب الطفل بالقدوة الحسنة ، والعطف عليه ، و أول كلام استهل به حديثه عن حق الولد قوله :" و حق الولد روي (رحم الله والدا لم يحمله على شاق يعصي بتركه) " و ساق في نفس الفصل ما روي من جزاء عند الله لمن يدخل السرور في قلب طفل مهتما بالأنثى .(2)

كما تعرض الى بعض الفتاوى فانتقدها و بين ضعفها ، و يكون بذلك قد حرر الفكر من التقليد الأعمى و التسليم بكل فتوى صدرت من عالم و لو لم يكن أهلا لذلك ، أو راعى في فتواه ظروفا خاصة ، فقد كان في معظم دروسه يدعو الى نبذ الجهل و الجهالة ، مبينا أهمية العلم و ضرورة تعلمه .

فلم يهمل أهم عنصر في المجتمع الا و هو المرأة ،فقد اعتنى بها ، و ساهم في تربيتها و اعدادها لتنشئة الأجيال الصاعدة في أسرة ينسم فيها التعامل بين أفرادها على أساس الشريعة الاسلامية السمحاء .

فاذا كان المفسر لم يتوصل الى تحقيق جميع آماله و أمانيه في اصلاح المجتمع ، والسمو به الى درجة النضج ، فانه على الأقل — قد هيأ التربة لمن جاء بعده و واصل مسيرته الاصلاحية تحضيرا لمرحلة الانعتاق من الاستعمار الصليبي .

و قد استخدم عدة وسائل وطرق للقيام بهذا الدور ، من أبرزها الدروس التي كان يواظب على القائها في المساجد و دور العشائر و في كل فرصة أتيحت له ، فقد كان مسجد بنورة في فترة نفيه ثم مسجد بني يسقن و مساجد مدن ميزاب ، و بعض مساجد مدن الشمال في طريقه الي البقاع المقدسة ، منابر يخاطب منها الجماهير ، و يرشدها الى الطريق السوي و يبث فيها الوعي الديني و القومي ، مستشهدا بالآيات القرآنية الكريمة و الأحاديث النبوية الشريفة و سيرة الرسول

---

1) نهضة الجزائر الحديثة 1/ من ص 333 — ص 339 .
الذهب الخالص ترجمة للمؤلف بقلم أبي اسحاق من ص/ب الى ص / ز .
2) الذهب الخالص ص 293 ، 294 .

صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح، مؤثرا فيهما بشخصيته الاجتماعية القوية وصوته الهادئ، وغزارة علمه، بالاضافة الى اخلاصه في وعظه وارشاده.

ومن الملاحظ أنه رغم اقبال الناس على دروسه التي كان يلقيها في مسجد مسقط رأسه أو معهده فلم يتنوان في تلبية دعوات المدن الأخرى، فقد كان يقوم برحلات منتظمة الى بريان، والقرارة، وزار مدينة ورجلان وبعض مدن الشمال.

ومن مساعيه الدالة على ايمانه بتقارب المسلمين، وتحطيم الجدار الفاصل بين المدارس الاسلامية المختلفة وعلمائها، زيارته لمعهد الهامل تلبية لدعوة صديقه الشيخ محمد بن أبي القاسم (1)، وارسال تلاميذه لتلقي العلوم في معهد الشيخ عبد القادر المجاوي (2) والقاؤه دروسا في الحرم النبوي الشريف، واتصالاته بعلمائه، وعلماء جامع الزيتونة في تونس، ومختلف الأقطار الاسلامية وتبادل الآراء معهم في المسائل العلمية، والتعليمية والاصلاحية. (3)

وقد تمت هذه الاتصالات مباشرة وعن طريق المراسلات، فكثير من رسائله التي احتفظت بها المكتبات أو جمعت في كتابه (كشف الكرب) بجزئيه تبرز مكانة المفسر في العالم الاسلامي حتى أصبح مرجعا للفتوى، كما أننا نقرأ في بعض مؤلفاته اعترافات بعض هؤلاء العلماء واعجابهم به وبغزارة علمه وقد جاء في احدى رسائله (ان لم تعرف الأباضية) ما نصه: " فقد عرفتم علماء الحرم أذرقوا تفسيري، وعلموا أني أباضي واستحسنوه " (4).

ومما يبرهن على غيرته على توحيد المسلمين، واهتمامه بشؤونهم ومراسلاته الواسعة الى كبريات المدن الاسلامية آنذاك كمصر وقسنطينة والحجاز ودول المغرب العربي وعمان، وزنجبار، وبذلك يكون قد خطا خطوة عملاقة في سبيل التمهيد لتحقيق الوحدة الشاملة، ومما يؤكد ذلك مشاركة تلاميذه في الحركات السياسية في العالم الاسلامي دون مراعاة الانتماء المذهبي أو

---

1) أنظر ترجمته في نهضة الجزائر الحديثة 1/ من ص 56 — 31.
2) أنظر ترجمته في ن.م. 1/ من ص 82 — 104.
3) ن.م. 1/ من ص 336 — ص 353.
4) ان لم تعرف الأباضية يا عقبي ص 17 و في نفس الصفحة أمثلة أخرى، أرجع أيضا الى كتابه كشف الكرب بجزئيه ورسالته (في حكم الدخان والسعوط) تجد فيهما نماذج حية.

الجهوي أو العرقي ، فكل حركة دعت الى تحرير بلد اسلامي أو ضمّ شمل المسلمين الّا و وقفوا بجانبها ، و تعاطفوا معها ، وبل شاركوا عمليا فيها و في سليمان الباروني و أبي اسحاق ابراهيم أطفيش ، و أبي اليقظان و صالح بن يحي و غيرهم أمثلة حية . (1)

لكن رغم كلّ ذلك فإن حركته الاصلاحية لم تتعدّ فكرة الرجوع الى الطريقة السلفية ، ولم يطبع النواحي التربوية و الاجتماعية و الثقافية و الاقتصادية بسِمات العصر ، نتيجة عدم احتكاكه بالحضارة الأوروبية كما كان الشأن بالنسبة للحركات الاصلاحية التي ظهرت في المشرق أو في المغرب فيما بعد ، ثم نجد أنّ المفسّر عاش في فترة احتدّ فيها الصراع بين هذه الحضارة و الحضارة الاسلامية فواجهتها بالرفض لكل ما جاءت به . (2)

و لعل انتشار الجهل و قلة المؤلفات و اهتمام المفسّر بنشر العلم ، ايمانا منه بأهمية اعداد الأجيال الصاعدة ، جعلته يتفرّغ الى التأليف ، و يركّز على هذا الجانب أكثر من غيره و فيما يلي سنحاول تسليط بعض الأضواء على جهوده في ميدان التأليف مبرزين آثاره فيه .

3 . آثاره في ميدان التأليف :

لعلّ من الدواعي الّتي جعلت المفسّر يهتّم بالتأليف ، و يفرغ فيه جهده منذ صغره إلى أن دنا أجله و هو إدراكه لأهميّة الكتاب كوسيلة تثقيفية خالدة و متنقلة ، و احساسه بالنقص الذي يشكو منه هذا الميدان لا سيما المكتبة الاباضية في عصره بالاضافة الى ضعف المستوى الثقافي و صعوبة المؤلفات التي تركها السلف ، أضف الى ذلك قلّة التصنيف في علم من علوم ، لضياع كثير من الكتب المؤلّفة فيه ، أو لعدم اهتمام السّلف به ، ومما دفعه الى ذلك ـ أيضا ـ غيرته على الدين و العربية ، وهذا ما يفسّر تركيزه على [illegible] العلوم الشرعية التي استحوذت على جزء كبير من مؤلّفاته و وقته .

و اذا تصفحنا بعض كتبه نلمس أغراضه ، و بواعثه على التأليف مثل قوله في مقدّمة كتاب (شرح النيل) : " هذا ثاني في تفسير على النيل ، يحصل عنه

---

1) لمن يريد الاطلاع على أعمال هؤلاء وجهاد هم الرجوع الى : محفوظ الجزائر الحديثة 2 / 38 . 2) أعلام الاصلاح في الجزائر 3 / 141 ـ 278 / أبو اليقظان / سليمان الباروني باشا / أبو رأس عبد الله بن محمد الكاملي ، كتابه : أبو اسحاق ابراهيم أطفيش .

2) في كتابه (الإزالة تصرف الاباضية ياعقبي) إشارات واضحة تدلّ على هذا الرّفض .

ما أبهم كالسيل :" الى أن يقول :" و انما ألفته لينتفع به الناس و يشتغلوا به في العبادة" (1)

و يقول في رسالته ردا على من ظن أن كثرة الأسئلة تزعجه :" و لا تظنا أن الاشتغال باجابتكما يثقل علي لا و الله و لو كثر السؤال منكما لمزيد المحبة منّي لكما و لقصد أحياء العلم " (2).

و يحدد فيما يلي رغبته في نشر كتبه و تداولها :" و الله أني راغب في نشر كتبي نفعا لكم ، و انتصارا على مخالفيكم و طلبا لثواب الله جل و علا " (3).

و باعتبار المؤلف أحد أعلام المذهب الاباضي في عصره ان لم يكن امامه الأول ، فمن الطبيعي يتولى في بعض رسائله الرد على خصوم هذا المذهب ، ايمانا منه بأنه أولى بالرد ، أو تلبية لطلب بعض علماء هذا المذهب مثل رده على الصفرية و الأزارقة و قد جاء في مقدمة هذا الرد . " سألني اخواني من أهل عمان وفقهم الله الأشياخ الكرام العلماء أن أكتب لهم رسالة في الرد على الصفرية و الأزارقة ، ومن نحا نحوهم لاستطالتهم على المسلمين بالقتل و الأسر و السبي و الغنم فساعفتهم قصدا للثواب و موافقة لاخوان الدين و العلماء . (4).

كما وردت عليه طلبات لشرح بعض المؤلفات القديمة كشرحه (ألدعائم) لابن النظر العماني تذليلا لما فيه من صعوبة ، فيقوم المؤلف بتلبية هذه الطلبات ابتغاء وجه الله . و يفهم ذلك من مقدمة شرح الدعائم و مما جاء فيها :" و بعد فان بعض النفوسيين ممن له حفظ واسع و فهم ثاقب ، طلب مني أن أفسر له الدعائم تفسيرا مختصرا جدا مقتصرا على حل البيت و أذكر بعد التفسير حاصلا و زيادة فاجبته لوجه الله عز وجل ."(5)

---

1) محمد بن يوسف أطفيش شرح النيل 1/ ص 05.
2) رسالة مخطوطة ص 08 توجد منها نسخة في مكتبتي الخاصة.
3) كشف الكرب 1/10.
4) محمد بن يوسف أطفيش (الرد على الصفرية و الأزارقة) ص 02.
5) محمد بن يوسف أطفيش شرح الدعائم 1/ 02.

ومما يلاحظ في ردوده عبارات : اما تدل على تواضعه ، واحترام سائليه أو على صعوبة المهمة ، واختباره للقيام بها لابراز مقدرته العلمية ، ومكانته بين أقرانه ، وترجيح الاحتمال الاول أولى لما تلاحظه في ردوده على الرسائل التي ترد اليه من علماء عصره في مختلف المواضيع من عبارات التقدير والاحترام لهم .(1)

كما يلاحظ الباحث في العلوم والفنون التي تناولها بالشرح أو البحث أو التعليق والنقد تركيزه على العلوم الشرعية ، واهتمامه بالفقه الاباضي ، كأنه يريد بذلك بعث فكر هذا المذهب من جديد باحياء تراثه وتجديده ، وبيان مكانته بين المدارس الفقهية الاسلامية الاخرى ، وان لم يهمل بقية العلوم السائدة في عصره ، فقد ألف في التفسير والحديث والتوحيد والفقه وأصول الفقه والتشريع والبلاغة والحساب والتجويد والطب والتاريخ والنحو والعروض والفلاحة والفلك والميراث والمنطق ، وترك تراثا شعريا في المدائح والوعظ وانتقاد البدع والدعاية الى العلم ، ويمكن تصنيف مؤلفاته الى ثلاثة أنواع .

1) مؤلفات من انشائه ، تبرز فيها شخصيته بوضوح .

2) شروح لمؤلفات قديمة أو ترتيب لها ، وتهذيب لتليق بعصره وقد يعلق على بعض المفاهيم الواردة فيها أو يزيد فيها بعض الاضافات .

3) شروح لمؤلفات بغرض تبسيطها فقط. (2)

وتشتمل هذه المؤلفات على مجموعة من الرسائل تحتوي على الفتاوي وردود خاصة دفاعا عن الاسلام أو مذهبه .

واذا تصفحنا هذه المؤلفات نجده — غالبا — ما يقتصر في عصره على الجمع وحشوها بأكبر عدد من المعلومات يستقيها من أمهات الكتب أو يطنب في الشرح دون التحقيق والتعليق والمفسر نفسه يصرح بذلك في احدى رسائله الموجهة الى عمان قائلا : " وفي عمان شرح لامية ابن مالك وحاشيتا القطر والشذور ،

---

1) أنظر نماذج منها في (كشف الكرب) بجزئيه أو في رسائله المخطوطة أو نسخ منها في مكتبته ببني يسقن .

2) نهضة الجزائر الحديثة 1/من ص 313 — ص 320 بتصرف .

وحاشية شرح الأجرومية لأبي القاسم كلهن تأليف في حال ابتدائي في التعليم رغبتي فيمن اكثار المسائل لا تحقيقها وأنا حينئذ مبتدئ" (1) .

ولعل ما يفهم من هذا النص ـ أيضا ـ تركيزه في هذه الفترة على التأليف المدرسي ، والشرح وفي بعض هذه الشروح يقتصر على التوضيح ، ملتزما بالأمانة العلمية ، محترما آراء المؤلف وان تعارضت مع آرائه الخاصة ،وهذا ما يفهم من قوله في مقدمة كتابه (تفقيه الغامر) :" والذي أقصد في هذا الكتاب وأريد ،نقل ما وجدت لا أنقص ولا أزيد ولو استحق مني زيادة أو نقصا من حيث كونه معنى أو عبارة ، و نصا على أن النسخ مختلفة ،والمعاني غير مؤتلفة." وفي آخر الكتاب يؤكد هذا الالتزام ويرى أنه يضطر ـ أحيانا ـ لتصحيح بعض العبارات التي يمقتها ذوقه :" قد تم . . . ما وعدته من ترتيب لفظ الشيخ العلامة عمنا موسى بن العلامة الشيخ عامر بما وجدته في النسخ من العبارات الركيكة والعبارات الفاسدة بدون تغيير لما يستحق التغيير ، وبدون نقص لما يستحق النقص الا ما لم يكن له وجه صحيح رأسا ، فربما لم أتمالك نفسي عن اصلاحه لنفور طبيعتي عن العبارات الركيكة بل الفاسدة" (2)

لكن نجده في مؤلفات أخرى يهتم بالتحقيق و تصحيح ما يبدو له خطأ ، و ترجيح رأي أو نقضه ، وروح علمية أساسها العقيدة الراسخة ، ورائدها حب خدمة العلم و تخليص مؤلفات قديمة من الشوائب ويتضح رأيه في ذلك من مقدمة كتابه (الذهب الخالص) يقول فيها :" ومهما رأيت مخالفة فمن عمد أتيتها" الى أن يقول :" وكثيرا ما أصحح غير ما صحح في الأثر" .(3)

وهذه منهجية في معظم المؤلفات التي وضعها عندما بلغ درجة الاجتهاد ، وهذا لا يعني لم يتحجها مطلقا في صغر سنه ، فمؤلفه (شرح النيل) الذي ذاع صيته ، واعتبره بعض الباحثين موسوعة في الشريعة الاسلامية (4) ، يقول عنه في مقدمته :" ذا ني تفسير على النيل، يغسل عنه ما أبهم كالسيل ، بخلاف الاول فانه طويل الذيل ، ولم يتم وكلاهما في صغر السن" (5)

---

1) كشف الكرب 1/ ص 119 ،120 .
2) محمد بن يوسف أطفيش تفقيه الغامر فترتيب ابن عامر ص 03 ،ص 448 .
3) نهضة الجزائر الحديثة 1/ ص316 ،317 .
4) شــــرح النيـــل 1/ 05 .

و من جملة من نوّه بهذا الكتاب ، واضع تقديم الطبعة الثانية منه و مما جاء فيه :

" و كتاب (شرح النيل) من أجلّ كتب الفقه الاسلامي ، و هو من أمّهات كتب المذهب الاباضي المنتشر في شمال افريقيا وغيرها من البلاد الاسلامية في عصرنا الحاضر" إلى أن يقول مشيدا بالمؤلف : " أما الشرح فالعالم من أجلّ علماء المذهب الاباضي أفاض الله عليه العلم و التّفقيه في الدّين و سلاسة التّعبير ، حتّى غدا الشرح من السهل الممتنع ، يسهل على كل ظامىء وروده والعبّ منه حتّى يرتوي " (1).

و يقول عنه أحد تلاميذه و ابن أخيه و ناشر بعض مؤلفاته : " ناهيك بشرحه على (النيل) فإنّه من أولى الكتب الفقهية الاسلامية وأجمعها وأكملها تحريرا يقف مطالعه على مذاهب المجتهدين المشهورين و أئمة علوم الشريعة منذ عهد الصحابة "(2)

و هذا الكتاب يعتبره الباحثون من أبرز مؤلفات المفسر ، و قد أشادوا به ، وإن كانت عباراتهم كما لاحظنا في النّصين السّابقين دالة على المبالغة ، والمدح و يتجلّى ذلك خاصّة من صيغ المبالغة ، وهذا يتنافى مع النّظرة النقدية الفاحصة فهذا التّقدير أشبه بعبارات الاشهار منها بعبارات النّقد الموضوعي المبني على الأدلّة و الحجج ، و مهما يكن من أمر فإنّ هذا المؤلّف يعدّ مرجعا أساسيا للمذهب الاباضي لا سيما في المغرب ، التزم فيه صاحبه طريقة قلما نجدها في مؤلفات أخرى ، فهي أقرب الى الفقه المقارن لشمولية آراء المذاهب الاسلامية المختلفة في الموضوعات التي تناولها بالبحث و الدّراسة ، وهي طريقة المؤلّف في أمّهات كتبه الفقهية منها مثلا : " شامل الأصل و الفرع ، و الذهب الخالص وغيرها ".

و قد ساعدت هذه الطّريقة على بروز شخصية المفسّر من خلال عرضه للآراء المختلفة وترجيح أصحّها في نظره وإن تعارضت — أحيانا — مع آراء علماء الاباضية معتمدا أدلة نقلية و عقلية فلنستمع اليه و هو يناقش قضية (جواز القياس) واختلف

---

1) (شرح النيل) تقديم الطبعة الثانية بقلم علي منصور 1/ 5، 6 .

2) (الذهب الخالص) ترجمة المؤلف بقلم أبي اسحاق ص ه .

في القياس فقيل جائز و قيل لا و قيل جائز في التوحيد ، وقيل في الأحكام ، و الصحيح الأول و أنه حجة لقوله تعالى : (فاعتبروا) (1) أي قيسوا الشيء " و يمضي يسرد الأدلة ، محملا الأدلة المعارضة على محمل مقبول قائلا : " منعا القياس مطلقا ، بل منعاً لقياس من يقيس مع ورود الأحاديث جاهلا بها " (2)

و في نفس الكتاب يستعرض المراحل التي مرّ بها في الاجتهاد قائلا : " و قد كنت اجتهد بالقياس على أصل أمامي و لا أكاد أصيب الا قولا يوافق ما قلت و الحمد لله ثم انتقلت عن هذه الدرجة الى ما فوقها و الحمد لله .(3)

و لعل الدرجة التي أشار اليها هي تجاوز أقوال المذهب و التحرر منه الى الاجتهاد المطلق ؛ لأننا نلاحظ في بعض مؤلفاته مخالفته ، لبعض جمهور علماء الاباضية منها مثلا تعريفه للمنافق فيقول : " . . و المنافق عندي من أظهر التوحيد و أخفى الشرك ، و عليه أحمل ما ورد في القرآن و من عمل كبيرة دون الشرك ، و قصره أصحابنا على الثاني و قومنا على الأول " (4) .

و المؤلف نراه يسوق جميع آراء المدارس الاسلامية في مسائل الخلاف بأدلتها المختلفة ثم يرجح الرأي الصحيح في اعتقاده و في الغالب ما يكون هو رأي علماء الاباضية ، على أنه لا يتعصب لهذا الرأي تعصب الأعمى دون تبيان سبب موافقته أو مخالفته — وهذا دليل على نزاهته ، و دعوته — عمليا — الى تحري الحقيقة و هي خطوة محمودة في عهد ساد فيه التعصب ، و خطوة أولى نحو الدعوة الى الرجوع الى مصادر التشريع الاسلامي الأساسية و التقارب بين المدارس الاسلامية و هذه النظرة نلمسها بوضوح في مؤلفاته و قد عبّر عنها في احدى رسائله الموجهة الى علماء عمان مجيبا عن بعض أسئلتهم : " و من العجيب أن تكون المسألة حقا فتترك لأنها جاءت من مخالف ، هذا غلو و أذكروا قوله تعالى في غير أهل القبلة : " و لا يجرمنكم شنآن قوم) (5) . " (6) و يقول في موضع آخر : " والحق يقبل ممن جاء به موافقا أو مخالفا و أعوذ أنا و أنتم من تحريم الحلال " (7)

---

01) الحشر/2
02) شامل الأصل والفرع 1/85 أنظر في المرجع المصنفة للتفصيل.
03) ن م . 1/ 13 .
04) ن م . 1/ 26 يقصد بقوله أصحابنا علماء المذهب الاباضي وقومنا علماء المذاهب الأخرى . لا سيما الأشعرية : 05) المائدة 08
06) كشف الكرب 1/ 95 .
07) ن م . 1/ 96 .

ويبدو من إجابته أنه يرد على من آنبه على الرجوع الى كتب المذاهب الأخرى ، وتأييد بعض آرائها ، فلذلك راح يبين صحة رأيه ، محتجا بمن سبقه من علماء الأباضية الأعلام ، ويقول : " اذا كانت المسألة راجحة من مذهبهم ولو لم تذكر في مذهبنا هي حق ، فذكرها بلا نسبة اليهم أولى اذ ترأب بذكرهم ، وليست باطلة وفي القرآن (الحق أحق أن يتبع) (1) . وما بعد الحق الا الضلال (2) والحق يقبل من كل من جاء به ولو مشركا " (3).

فاذا كان المؤلف يرى أن نسبة المسألة الى علماء المذاهب الأخرى تجعلها مريبة ، لأنه على يقين بأن الأفكار وقتئذ ـ مازال التعصب المذهبي عالقا بها ، فترفض كل مسألة جاءت من مدرسة من المدارس الاسلامية الأخرى ، وهذا هو الفكر السائد في العالم الاسلامي لأن المفسر مقتنع باستفادة هذه المدارس من بعضها ، ويظهر ذلك من خلال هذا الرد العنيف : " ومن أين لك ترغيب مسائلهم كلها ، وهل لك أن تحرم أموالهم لعلها من ربا أو غصب أو سرقة أو غير ذلك مقتضى قولك أن تحرم ذلك كله وتحريمه باطل ، وخلاف الاجماع فاياك وقد علمت أن الغلو حرام . " (4)

فاذا تصفحنا مؤلفاته نلاحظ التزام المفسر بهذه القاعدة في أمهات كتبه ، غير أنه من جهة أخرى يصرح بعدم استحسانه الأخذ بأقوال علماء المدارس الفقهية المخالفة للمدرسة الأباضية وهذا يفهم من قوله : " ولا يحسن الأخذ بقول مخالف ولو ثقة عالما الا أن ظهر أنه حق ، ولا نحتج بهم فيما خالفونا مما لا يجوز فيه الاختلاف ، ولا نصدق ثقة منهم فيما نسبه الينا أو الى النبي صلى الله عليه وسلم أو الى الصحابة أو الى التابعين كما ينسبون الى جابر بن زيد وعدوه في الثقات إن لم تعرف صحته ، وان عرفت أو عنده حديث عندنا جاز الأخذ به ولا يجوز الأخذ بأحاديثهم الا أحاديث الترغيب والترهيب " ويشترط فيها أن لا تخالف القرآن ولا ما صح من الأحاديث عند الأباضية ولا تكون متناقضة لآرائهم . (5)

---

1) يونس / 35 .
2) يونس / 32 .
3) كشف الكرب 1/ 91 .
4) ن.م . 1/ 91 .
5) شامل الأصل والفرع 1/ 15 .

اذا قارنا محتوى النص السابق بهذا النص يبدو لنا لاول وهلة تناقض في أفكاره لكننا اذا رجعنا الى مقدمة المرجع الذي ورد فيه النص الاخير نقرأ فيها ما يلي :

"فهذا كتاب وضعته للمبتدئ يشمل أصولا و فروعا وليس فضله عن المتوسط و المتناهي ممنوعا ." (1)

فهذا يعني أن المفسّر يجيز الخوض في آراء المدارس الاسلامية الاخرى للعالم المتضلع الذي بلغ درجة الاجتهاد ، والقادر على التحقيق ،لانه ممن ينكر تقليد مجتهد لمجتهد آخر ،الا اذا ضاق الوقت (2) ، بينما النص الثاني الذي أورد فيه شروطا قاسية — أحيانا — ليسمح بالاستفادة من المدارس الفقهية الاخرى موجه الى المبتدئين ، و ذوي الثقافة المتوسطة ، وتجد في نص آخر يمنع الضعفاء النظر في كتبها معللا ذلك بقوله :" لانها قد تتضمن خطأ ولو في الوعظ الا أنه قد يسوء فهم الضعيف"(3)

ثم أن المفسّر من المتحمسين للمدرسة الاباضية التي ينتمي اليها ، وهذا شأن علماء عصره و هذا نراه أمرا طبيعيا اذا نظرنا الى ثقافته ، وتكوينه و انتمائه ، و اقتناعه بصحة آراء هذه المدرسة ، وهذا الاعتقاد يبدو من قوله :" فنقول معشر الاباضية الوهبية الحق ما نحن عليه و الباطل ما عليه خصومنا لان الحق عند الله واحد و مذهبنا في الفروع صواب يحتمل الخطأ و مذهب مخالفينا خطأ يحتمل الصدق"(4)

غير أن تحمسه لمذهبه ، و تفضيله على سائر المدارس الفقهية الاخرى لم يبلغ به درجة الغلو و التعصب و اتهامها بالزيغ و الابداع (5) ، الا التي أجمعت المدارس الاسلامية على انحرافها عن الاصول كالخوارج مثلا ، و سنضرب مثالا عند تعرضنا لتفسيره ، ثم أن مثل هذا التمسك بمذهبه و تفضيله على غيره كثيرا ما يكون رد فعل ضد متهمي الاباضية بالانحراف و الزيغ ، و قد ورد مثالا القول السابق في كتابه (الحجة في بيان الحجة في التوحيد بلا تقليد) الذي يكون من المحتمل الفه لاثبات صحة معتقدات مذهبه ردا على اتهامات الاخرين .

1) ن م . 1/ ص 02 .
2) ن م . 1/ 20 .
3) كشف الكرب 1/ 95 .
4) ن م . 1/ 25 .
5) أنظر مثلا لهذه الاتهامات في الالوسي روح المعاني 1/60 .

وفي هذه الردود يسوق أدلة مختلفة محاولا اقناع الخصم وتفنيد ادعاءاته ، وابطالها ثم يتعرض الى نقد أسلوبه ولغته ، وقد يسرد في بداية الرد بعض أقوال الخصم . (1)

عموما تمتاز مؤلفاته بغزارة المعلومات ، فعندما يطرق موضوعا ، يقتله بحثا ودراسة محاولا الالمام به ، وقد يستطرد – أحيانا – متنقلا بقرائه في المسائل الخلافية بين علماء المذهب الاباضي ، وبين علماء المذاهب الأخرى ، مستعرضا أدلتهم ، مرجحا ما يراه منها صوابا أو مفندا ما يراه خطأ ، وهذه طريقته التي ينتهجها في معظم مؤلفاته المختلفة ، وقد يجمع في كتاب واحد عدة فنون مختلفة مثل الفقه والنحو والتاريخ واللغة الخ . . . لا سيما في رسائله وردوده " متأثرا بطريقة التأليف عند القدماء لا سيما الطابع السائد في عصره الذي لم يعرف وحدة الموضوع بمعناه الحديث ، ولا فكرة التخصيص والتصنيف ، فجاءت مؤلفاته صادقة لثقافته الواسعة والمتنوعة ، كما أن طريقته في البحث لا تتعدى نقد بعض المعلومات المتعلقة بموضوع معين كنقده لبعض الأحاديث النبوية الشريفة وبيان ضعفها أو صحتها على غرار من سبقه من العلماء ، أو نقده لبعض أفكار أو مسائل وفي النص التالي ما يبرهن على ذلك " . . وكثيرا ما أصحح غير ما صحح الأثر ، والفضل لأبي ستة (2) لأنه الذي أسس وكفاني فتفرغت لبعض ما لم يذكره " (3) وقوله لمن سأله عن الأخذ من كتب المدارس الفقهية الأخرى :" وقولا له أو لمثله ممن لم يصل بينه وعن الأخذ بنفسه من قومنا وليقتد بما أخذت له منهم مصفى ولينته عما قلت له منهم متكدر فقد كفيته المؤونة ومن الله المعونة وعلمت من هو عدل في شأن العلم ونقلت عنه كما نقول نقل من قبلنا من أصحابنا ممن علموا عدله فليدع لي بالخير اذا كانت المسألة راجحة من مذهبهم ولو لم تذكر في مذهبنا فهي حق ." (4) .

---

1) أنظر أمثلة في محمد بن يوسف أطفيش أزهاق الباطل بعلم الهاطل وفي رسالته ان لم تعرف الاباضية يا عقبي .
2) أنظر ترجمته في فهرس الأعلام .
3) الذهب الخالص ص 02 .
4) كشف الكرب 1/91 .

و مما يلاحظ في موءلفاته قصر المقدمة ، فلا تتجاوز صفحة واحدة على أكثر تقدير ، وهذه ميزته في جميع موءلفاته التي أتيحت لنا فرصة الاطلاع عليها ، يذكر فيها أحيانا السبب الذي دعاه الى تأليف الكتاب، وموضوعه وتسرد بعض التوضيحات تتعلق بالرموز أو المصطلحات(1) أو يكتفي بأحد بعض هذه الجوانب دون غيرها وأكثر هذه الموءلفات مبوبة ويلاحظ فيها التكرار الناتج عن عدم مراجعته لها وهذه الملاحظة لا تنطبق على جميع موءلفاته ،لأن تصريحاته تدل على مراجعة بعضها ، ومقابلة النسخ المنقولة بالنسخة الأصلية لا سيما قبل تقديمها للطبع ومن هذه التصريحات مثلا قوله في " احدى أجوبته عن شرح النيل :" مثل أن أرسل اليكم ما قوبل وصحح ولو من وسط أو آخر ." (2)

ومما يوءخذ على الموءلف تضمين موءلفاته مسائل ضعيفة يسوقها من هنا وهناك أحيانا دون تمحيصها ، ويشير أحد تلاميذه المعجبين به الى ذلك في قوله : " والموءلف قد يسوق مسائل ضعيفة " لكنه يمضي في حديثه محاولا تعليل ذلك " أما ليبين فسادها تصريحا أو تلويحا وليبين ما يستأنس به أن كان مما يحتمل ذلك كما جزم به نفسه ، وقد يسوق بعض مسائل واهية القول ليتميز الصواب من الخطأ وبضدها تتميز الأشياء وقد يترك ذلك الى الادراك بمعونة القرائن" (3).

واذا افترضنا أن هذه العلل التي ساقها أبو اسحاق صحيحة ، ومقبولة ، فهي كذلك بالنسبة للعلماء والمحققين ولكن غير صالحة بالنسبة للمبتدئين والقارئين العاديين فقد يسلمون بصحة هذه المسائل باعتبار المصنف أوردها

---

1) أنظر مثالا لهذه المعلومات في مقدمته كتابه الذهب الخالص 02،03 .
2) كشف الكرب 1/ 07 .
3) شامل الأصل والفرع مقدمة بقلم أبي اسحاق ص / هـ .

دون تبيان وجوه الخطأ والصواب كما يصعب عليهم أن يدركوا هذه الوجوه، ويفرقوا بينهما، ولذلك لا نجد للمفسّر مخرجا وسببا واضحا يصلح أن يكون مبررا مقبولا يعفيه من المسؤولية.

واذا كنا نشاطر أبا اسحاق في التنويه بمؤلفات أستاذه وعمه من حيث احتوائها على ثروة علمية عظيمة قلّ أن توجد في سواها، وبكثرتها بحيث أنها تجاوزت ثلاثمائة مؤلف عند بعض الدارسين، والمئات عند بعض الآخرين وتنوعها فاننا نرى من المفيد تحقيقها قبل طبعها ونشرها، لا سيما ما يتعلق بالأحاديث النبوية الشريفة وبعض المفاهيم الواردة في مؤلفاته لتصبح — بعد ذلك — مراجع ومصادر مفيدة لجميع المستويات، ليتنفع بها المجتمع.

ومهما يكن من أمر فان مؤلفات المفسّر تعتبر تراثا يستحق الدراسة والمراجعة والطبع ليكون في متناول الباحثين، ولعل مساعي وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان من نشر هذا التراث تعتبر خطوة أولى في سبيل تحقيق هذه الغاية المنشودة خدمة للمكتبة العربية الاسلامية ونرى أن هذه المؤلفات تساهم كثيرا في التقارب بين المدارس الاسلامية بما تحمل من أفكار جزئية، وتزيهة رغم الظروف الصعبة التي نشأ فيها المصنف، وتعتبر مراجعا يستفيد منها جميع طلبة العلم باختلاف انتماءاتهم واتجاهاتهم وفي البابين التاليين سنحاول القاء بعض الأضواء على نوع خاص من هذه المؤلفات والذي أولى له المفسّر اهمية كبيرة، وهذا النوع يتمثل في تفاسيره للقرآن الكريم، الذي يحتل المرتبة الثانية في مؤلفاته بعد الفقه.

الباب الثاني

التعريف بتفاسيره

- البـاب الثـــانـــي -

الفصل الأوّل : التّعريف بتفاسيره :

أوّل ما يلفت انتباه الباحث في حياة امحمد بن يوسف أطفيّش و مؤلّفاته اهتمامه بتفسير القرآن الكريم ، فقد اقتفى أمّهات تفاسير القرآن و مكتبته خير شاهد على ذلك (1) .

كما كانت مادّة التفسير في معهده من المواد الرئيسية التي لها أهمية عظمى و يتولّى تدريسها بنفسه حتّى وإن أسند تدريس بعض المواد إلى تلاميذه ، و يبدو اهتمامه بهذا العلم - خاصّة - في تفسيره للقرآن الكريم ثلاث مرّات في حياته منذ ريعان شبابه ، فإن أوّل كتاب ألّفه في التّفسير هو كتابه (هميان الزّاد الى دار المعاد) الّذي ألّفه في صغر سنّه باعترافه (2) . هذا التّفسير الّذي احتفظت لنا مكتبته بثلاثة أجزاء منه مخطوطة هي : الجزء الثّاني من سورة (الأعراف) الى سورة (الكهف) ، و الجزء الثّالث من سورة (مريم) الى سورة (الصّافات) و الجزء الرّابع من سورة (ص) الى سورة (النّاس) فيضم - اذن - الجزء الأول الربع الأول و الفاتحة . و تظهر أنّ هذه النسخة هي تلك التّي بعثها الى سلطان زنجبار برغش بن سعيد ابن سلطان بن الإمام لطبعها ، و يفهم هذا من كلمة كتبها المؤلف في آخر الجزء الرّابع جاء فيها ما يلي : " . . . يقول المفسّر كمل الرّبع الرّابع وقت الظهر من يوم السّبت لتسع مضين من شهر رمضان من عام ألف و مائتين و واحد و سبعين بخط العجلة و قلمها ، و هذه مسودة لم أطالعها للتّصحيح و سأطالعها ان شاء الله تعالى ... هذا الكتاب أمانة الى السّلطان برغش ينسخه بالقالب و يرده الى مؤلّفه ." (3)

و بالفعل لقد قام بطبعه بنفقته الخاصّة في المطبعة السّلطانية بزنجبار في أربعة عشر جزءا و أشرف على طبعه يحي بن خلفان بن أبي نبهان الخروصي واضع تقديم الكتاب باسم السّلطان يبيّن فيه أسباب طبعه ، و يذكر فيه اسم النّاسخ ،

1) نهضة الجزائر الحديثة 1 / 367 .
2) التيسير 1 / 02 مقدمة.
3) هميان الزاد 4 / آخر صفحة غير مرقمة رقم نسخة مكتبة المفسر ببني يسجن أ . ب . 11 .

وتاريخ نسخ كلّ جزء وفي تقديم كل جزء ينوّه بالمفسّر ومؤلّفه ويذكر أحد الأسباب الدّاعية الى تأليفه أولا وهو اشتماله على : " عقائد أهل الاستقامة ممتحنا لما على أهل الزيغ ، بالحجج القاطعة والبراهين السّاطعة من الكتاب والسّنة وإجماع المحقّقين من الأمّة . "(1)

ويستنتج من هذا التّقديم أنّ أحد دوافع بن غسّوش بن سعيد لطبع هذا الكتاب شعوره بضرورة خدمة المذهب الأباضي باعتباره من المنتمين إليه ، وتقديره لعالم ذاع صيته وخدم المذهب إلّا أن هذا لا يمنع أن تكون رغبته كما ذكر في تقديم الكتاب الّذي أشرنا اليه — خدمة العلم رجاء ثواب اللّه وخوف عقابه .

فقد دام طبعه ابتداء من سنة 1305 هـ وهو تاريخ ابتداء طبع الجزء الأول الى سنة 1314 هو تاريخ انتهاء طبع الجزء الأخير .

اذا كانت هذه الطبعة تمتاز بخطها الجميل فإنها لا تخلو من أخطاء رغم قيام خليفة بن سعيد بتصحيحها حسبما يفهم من هذه العبارة : " صحّح ذلك السيد — خليفة بن سعيد " والمشرف على طبعها نفسه يعترف بذلك في تقديم الكتاب إذ يقول : " .. وان احتاج الى إصلاح فليصلحه من صار في يده وأجره على اللّه تعالى ."(2)

ويؤكّد ذلك في آخر كل جزء بهذه العبارة : " .. ليعلم الناظر في هذا الكتاب أنّه لا بدّ به من غلط لعدم وجود المصحّحين من أصل نسخته التي هي بخط المغربي فلينظر النّاظر وليسدّ خلله .. " (3)

وفي المدّة الأخيرة قامت وزارة التّراث والثقافة بسلطنة عمان بطبع بعض أجزائه معتزمة طبع النّسخة الكاملة في خمسة عشر جزءا . (4) دون تحقيقها .

---

1) هميان الزّاد 7 / أنظر الصفحات الأولى .
2) نفس المكان .
3) ن. م . الصفحة الأخيرة .
4) محمد كامل / قائمة مطبوعات الوزارة 1986 / 1987 وزارة التراث القومي والثقافة بسلطنة عمان .

أمّا تفسيره (تيسير التفسير) المشتمل على جزء واحد في مجلّد كبير الحجم يضمّ بين دفّتيه حوالي 938 صفحة، مكتوبة بخط رقيق يكاد لا يقرأ إلّا بالعدسة أو المجهر (1)، وفي مكتبة المفسّر نسختان إحداهما ناقصة في البداية الى قوله تعالى: "ياأيها النّاس اعبدوا ربّكم" سورة البقرة الآية 21.

فقد تمّ طبع الكتاب في مطبعة حجرية بالجزائر العاصمة بين سنتي 1325 هـ و 1326هـ وتكلّف بطبعه هذا تلميذا المفسّر الحاج عمر بن الحاج ابراهيم بن محمد العطفاوي (........) والحاج محمد بن الحاج صالح بن عيسى بن سليمان اليسجيني (........) وتشتمل هذه الطّبعة على ستّة أجزاء تضمّنها سبعة مجلدات لأنّ الجزء الرّابع قسّم الى مجلّدين لضخامته إذ يحتوي على 1098 صفحة حسب الترقيم الوارد فيه ويذكر صاحبا حقوق الطّبع أنّه تمّ ذلك للتّسهيل على القارئ. (2)

وفي تقديم كلّ جزءٍ يقومان بالتّنويه بالمفسّر ويختمان كلّ مجلّد بتاريخ انتهاء طبعه، والدّعاء للمفسّر ولهما، والجزء الأوّل يحتوي على مقدّمة مختصرة للمفسّر يبين فيها سبب إعادة تفسيره للقرآن الكريم، فرغم انتشاره الواسع بمقارنته بتفسيره الأوّل الآن طباعة بعض أجزائه رديئة ومليئة بالأخطاء حتى قيل أنّ ذلك أســـاء المؤلّف. (3) فلا تكاد مكتبة من المكتبات الاباضية العامّة تخلو من نسخة أو أكثـــر من هذا التّفسير وكذا جلّ المكتبات الخاصّة القديمـــة.

فقد اعتزمت وزارة التّراث القومي والثّقافة بسلطنة عمان إعادة طبعـــه في عشر أجزاء لكن دون تحقيقـــه، فقامت إلى حدّ الآن بطبع ستّـة أجـزاء منه. (4)

---

1) هذه المعلومات خاصة بالنسخة الأولى الكاملة.
2) التّيسير 4/ أنظر الصفحة الأخيرة من المجلّد الثّاني.
3) ابراهيم محمد طلاي، محاضرة/ ص6 توجد لدّي نسخة منها.
4) قائمة المطبوعات الوزارة 1986/ 1987 وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان.

ومايلاحظ في طباعة التّفسيرَين السّابقيْن ملؤهما بالأخطاء وإهمال بعض العبارات أحيانا وخلوّهما من التّرقيم للآيات، والفهارس المساعدة للقارئ على استعمالهما والميسّرة له للاستفادة منهما وتمكينه من الرجوع الى الآيات عند الضّرورة.

أمّا تفسيره الثّالث المسمّى (داعي العمل ليوم الأمل) الذّي لا يزال مخطوطا وغير تامّ فلا يوجد منه في مكتبة المفسّر ببني يسجن الّا مجّلد واحد يقسّم الأجزاء الأربعة وإن كتب عليه الجزء التاسع والعشرون، ففي آخر كلّ جزء يذكر المؤلّف رقم الجزء الذّي أتمّه، ثم يكتب عبارة الأهداء الى راشد بن عزيز العماني ومما جاء فيها: " أهداه مؤلّفه أمحمد بن الحّاج يوسف أطفيش المصعبي إلى أخيه في اللّه الشيخ العالم الثّقة راشد بن عزيز يستفيد منه ويشره وإن شاء طبعه كما شئت ردّه إليّ لكونه غير مقابل بخطّي، فأرسل إليه بخطّي ليطبعه في مصر وذلك أنّه لم يوجد الّا نسختان، نسخة بخط يده ونسخة نسخت منها ولم تقابل بها وهي هذه، فلم أرد أن تخلو يدي منها لئلا يضيع." (1)

ويبدو أنّ كلمة الاهداء هذه مكتوبة بخّط يده وذلك من خلال المقارنة بين خطّه والخّط الذّي كتبت بها فيوجد تشابه كبير بينهما، غير أنّ تفسيره منسوخ بخط جميل وواضح ولا نلاحظ فيه تشطيبات كثيرة والكتابات على الهوامش كما هو شأن مخطوط تفسيره (تيسير بيان التّفسير) والمؤلّف نفسه يؤكّد في إهدائه أنّ هذه النّسخة ليست بخّط يده ولم تقابل كما ذكر.

كما يعّبر من خلال هذا الأهداء عن رغبته في طبعه بمصر لعل ذلك لتقدّم الطّباعة بها وأمله في أن يخرج في حلة قشيبة خاليا من الأخطاء التّي قد يرتكبها النّاسخ، ولعل النّسخة التي كان يمتلكها ابراهيم بن محمد أطفيش المدعو (أبو اسحاق) (1305هـ، 1385هـ)(1888م، 1965م) هي المخطوط الذي كتبه المفّسر بخطّه ويحتوي على مجلّدين.

---

1) داعي العمل / نهاية الجزء 29 صفحات غير مرقمة.

وكل مجلد يشتمل على جزئيين، فالمجلد الأول المشتمل للجزئين التاسع والعشرين والثلاثين يبدأ من سورة (الرحمن) وينتهي في آخر سورة (التحريم). أما المجلد الثاني فانه يحتوي على الجزئين الحادي والثلاثين والثاني والثلاثين ويبدأ بسورة (الملك) منتهيا بسورة (الناس) كما يضم بعض الأوراق من تفسير سورة (مريم). (1)

وهذه الطريقة في التأليف طرحت أمام الباحثين، هذه التساؤلات، هل أتم تأليفه؟ ولماذا بدأ بسورة المفصل؟ ولم أعاد تفسير القرآن، وشرع فيه ثم توقف؟.

يرى ابراهيم بن محمد أطفيش ومحمد علي دبوز أن المؤلف كان ينوي أن يفسر القرآن باسهاب أكثر في تفسيره (داعي العمل) ويجعله في أربعين وثلاثين جزءاً لكن أجله أدركه قبل إتمامه (2)، بينما يرى ابراهيم محمد طلاي أن المؤلف أتم كتابه واستند في رأيه هذا الى قول المؤلف الوارد في مقدمة كتابه (التيسير): "... وتكاسلوا عن تفسيري داعي العمل ليوم الأمل ..." (3) ولعل ما يؤكد رأيه وجود الأجزاء الأخيرة من الكتاب وبعض أوراق من تفسير سورة (مريم) الا أن هذا لا يمنع أن يتوقف المؤلف عن تأليف كتابه لما لم يجد اقبالا على كتبه باسهاب لتأليف كتاب يناسب مستوى طلبته، ثم يعود لاتمام مؤلفه، ولعل السبب الذي دعاه الى البدء بتأليف الأجزاء الأخيرة خلافا لتفسيره الأول هو ما لمس من نقص في الأجزاء الأخيرة من (هميان الزاد) بحيث أوجز في الشرح بينما نجد في كتابه (داعي العمل) أطنابا في التفسير لتلك الأجزاء، ومن طبيعة معظم المفسرين والمؤلفين ضعف النفس في أواخر أعمالهم.

ومهما يكن من أمر فإن النسخة التي بين أيدينا تحتوي على أربعة أجزاء فقط مخطوطة ولا ندري السبب الذي جعلها تبقى الى يومنا هذا لم تطبع رغم الجهود التي بذلها تلميذه ابراهيم بن محمد أطفيش لطبعها حسبما ورد في مجلة (المنهاج)

---

1) التفسير والمفسرون 2/316.
2) ابراهيم بن محمد أطفيش أبو اسحاق، مجلة المنهاج العدد 3، 4/ 46 داعي العمل ليوم الأمل، التفسير والمفسرون 2/ 316. نهضة الجزائر الحديثة 1/ 325 الطبعة الأولى.
3) التيسير 1/ 62 المقدمة.

اذ يقول في مختصر حديث عنه : " ... فاصبح ما نحن بصدد طبعه تفسيرا مستقلا للقسم المفصل ." (1)

ولعل العائق الذي حال بينه وبين تحقيق عزمه هو قلة المشتركين وغلاء الطابع لأن في نفس العدد يحث القراء على الاشتراك في طبعه .(2)

والكتب الثلاثة بحاجة الى يد أمينة وخبيرة لتحقيقها واعادة طبعها لتوضع في متناول أيدي القراء والباحثين كغيرها من التفاسير ، وحبذا لو وضعت لها حواش مختصرة يستغني فيها عن بعض التفاصيل التي ستتعرض الى بعضها في الباب الأخير من هذا البحث.

أسباب تفسيره للقرآن الكريم .

لعل أول سبب دعا امحمد بن يوسف أطفيش الى التصدي للتفسير هو سد الفراغ الذي تشكو منه المكتبة الاباضية في هذا العلم للأسباب السابقة الذكر في التمهيد (3) بحيث لم يبق من تفاسيرهم المكتوبة الى عهد المفسر سوى الكتاب المنسوب الى هود بن محكم الهواري (القرن 3هـ ، 9م) وهو لغنا نفسه يعترف بذلك في قوله ردا على من ينكر الرجوع الى تفاسير المذاهب الأخرى : " ... هل فسر القرآن غيرهم قبل هذا العصر الا الشيخ هود رحمه الله ولم يصل تفسيره هؤلاء المستشكلين (4) وان وصلهم فقد لا يجدون مقصدهم فهل يقرأون أو يعلمون أو يفسر لهم الا تفسير البيضاوي والزمخشري ونحوهما " .

وبعد ذلك يبين أنه وضع تفسيرا يغني القارىء الاباضي عن التفاسير الأخرى ويقول في ذلك :" ولكما الآن والحمد لله الرحمن الرحيم من تفسير المذهب ما يغنيكم وان شاء الله عن تفسير غيره ."(5)

---

1) مجلة المنهاج 3،4/46 داعي العمل ليوم الأمل .
2) ن م ، ص 47 .
3) أرجع الى ص 12 – 15 من هذا البحث.
4) يفهم من هذه العبارة أن تفسير هود بن محكم لم يكن آنذاك متداولا في عمان لأن الرسالة موجهة الى هذا البلد .
5) كشف الكرب 1/95 .

ويظهر من كلامه في مقدمة تفسيره (هميان الزّاد) أنّه لم يتصدّ للتفسير الا بعد أن آنس من نفسه القدرة وبلغ درجة الاجتهاد ويقول في ذلك : " ورفعه لا يأتي درجة اجتهادية لم أكن أطلبني أصلها ." (1)

ومما يؤكّد هذا الدافع إلى تأليف هذا التّفسير ما قاله المستشرق مسكري أثناء تنقلّه في قرى وادي ميزاب بحثا عن التّراث الاباضي وعدم عثوره على كتاب في التّفسير يعبّر عن وجهة نظر هذا المذهب، فقد أخبره المفسّر بأنّه ألف كتابا موسعا في التّفسير جمع فيه آراء المشائخ الّذين سبقوه، فاذا علمنا أنّ تاريخ هذه الزيارة كان في سنة 1851 م، اتّضح لنا أنّ هذا التفسير المشار اليه هو (هميان الزّاد) الّذي ألّفه في الخامس والعشرين من عمره . (2)

ومن الدّوافع التّي دفعته إلى تأليف هذا التّفسير، حسبما يفهم من كلامه ايضاح آراء الاباضية والرّد على المخالفين بأدلة نقلية وعقلية ويتّضح من قوله : ".. ويتضمّن انشاء الله (3) الكفاية في الرّد على المخالفين فيما زاغوا فيه وايضاح مذهب الاباضية الوهبية، واعتماد هم ذلك بحجج عقلية ونقلية " (4)

وبالفعل فإنّ المفسّر عند تعرّضه لقضايا الخلاف نجده يحاول البرهنة على صحّة آراء الاباضية، واقناع الطّرف الآخر شأنه شأن المفسرين الّذين طغت على تفاسيرهم الجوانب العقائدية والخلافية وهذه النقطة سنعالجها في بابها، ونسوق أمثلة لذلك، فانّما نريد من هذه الاشارة أثبات أحد الاسباب الدّاعية إلى تأليف تفسيره الأول (هميان الزّاد) ومن الأدلة التّي تثبت هذا الدافع عند المفسّر ما جاء في تقديم الكتاب بقلم المشرف على طبعه :" .. لا سيّما وقد أظهر فيه عقائد أهل الإستقامة محتجا لها على أهل الزّيغ بالحجج القاطعة والبراهين السّاطعة الخ .." .(5)

---

1) هميان الزاد 1/1 المقدّمة .
2) التّفسير ومناهجه عند علماء الاباضية — محاضرة ص / 11 .
3) هكذا كتب في النّسخة المعتمدة والصحيح ان شاء الله .
4) هميان الزّاد — 1/1 المقدمة .
5) ن.م. 7/ تقديم القطعة السابعة .

فهل وفّق المفسّر في تحقيق هذا الغرض ؟ و هل كان دفاعه من مذهبه بدافع التعصّب؟ هذا ما سنراه في الباب الخاصّ به ، فيكفي أن نعرف أن المؤلف في تفسيره الأول — على وجه الخصوص — حاول أن يثري مكتبة الإباضية بتفسير موسّع يحمل وجهة نظر هذه المدرسة ، ويوضّحها شأنه شأن جميع المفسّرين بمختلف نحلهم و اتّجاهاتهم لاقتناع كلّ واحد منهم بصحّة مذهبه ، ورغم أهمية هذا التفسير من حيث كونه موسوعة جمع فيها المفسّر معظم أفكار أشهر المفسّرين المتقدّمين ، إلاّ أنّه يصوّر لنا ثقافة المفسّر التي لم تبلغ درجة النّضج التي تجعله يتحرّى في تأليفه التّحقيق والانتقاء و يبدو أنّ المفسّر نفسه أحسّ بذلك ، ولهذا حاول إعادة تفسير القرآن مرّة أخرى في مخطوطه (داعي العمل) متحرّيا فيه التّحقيق ، والانتقاء ، والنّقد وقد شرع في هذا التّفسير بالقسم المفصّل على غير عادة معظم المفسّرين ، وربّما يعود ذلك كما سلف الذّكر إلى ما لمس من نقص في الأجزاء الأخيرة من تفسيره الأوّل (هميان الزّاد) .

ولعلّ المؤلف يريد من هذا التّفسير تعويض ما فاته في تفسيره الأوّل ولا سيما وقد ازداد أطلاعا ومعرفة وتجربة ، وقد علمنا أنّ الأول قد ألفه في صغر سنه .

وفعلا فإنّ الأجزاء الّتي ألفها تعكس بوضوح هذه الملاحظة ، وهذا الاحتمال .
ولكن التّفسيرين السّابقين رغم أهمّيتهما ، فإنهما لم يجدا إقبالا من قبل القرّاء وطلبة العلم ، وهذا ما صرّح به المؤلّف ويعزو ذلك إلى الكسل ، وضعف العزيمة في مقدّمة كتابه (تيسير بيان التّفسير) إذ يقول : " أمّا بعد فإنّه لمّا تقاصرت الهمم بهميان الزّاد [من أن تحويهم] إلى دار المعاد الذّي ألّفته في صغر السّن وتكاسلوا عن تفسيري (داعي العمل ليوم الأمل) أنشطت إلى تفسير يختبط ولا يمـــلّ [دهمتني] . " (1)

فإذا كان المؤلّف يعزو سبب إعادة تفسيره للقرآن الكريم إلى ما لاحظناه من عزوف القرّاء عن المؤلّفات الضّخمة ، فإن بعض تلاميذه يرون أنّه ألفه ليكون كتابا مدرسيّا باعتباره من كتب التّفاسير الّتي اعتمدها في التّدريس بمعهده فقد كان يقرأه على طلبته في درس التّفسير قبل تقديمه للطّباعة لمعرفة ما استشكل

1) التّيسيـــــر 2/1 المقدمـــة .

عليهم ويقول في ذلك مؤلف كتاب (أعلام الاصلاح في الجزائر) نقلا عن تلميذ المفسر ابراهيم بن عيسى أبواليقظان (1306هـ، 1393هـ) (1888م) (1973م)، و "كان درس التفسير في كتاب التيسير تأليف القطب (1) يفسر الآية في دروسه تفسيرا موجزا ثم يقرأ القارئ من كتاب (التيسير) ما كتبه القطب في تفسيرها، وكان يستغني بما كتب عن الأسباب المفاضي في الدروس وكأن ما يقرأه القارئ في سنيه الأولى في معهد القطب آخر ما ألفه القطب من (التيسير) واذا لم تبد له زيادة ولم يغمض منه شيء على الطلبة يدفعه الى من يكتبه بحبر المطابع، فيرسله الى الطباعة." (2)

فيكون تفسيره هذا — بذلك — تفسيرا مدرسيا، ألفه لغرض تيسير المادة على طلبته للاستغناء عن المطولات، التي تتطلب الجهد في الفهم، والوقت في دراستها ولعل العنوان خير مميز عن هذا الغرض، اذ سماه صاحبه (تيسير بيان التفسير).

المقارنة بين تفاسيره :

ليس من السهل اجراء مقارنة دقيقة وعلمية بين تفاسير تشتمل على مجلدات ضخمة، فمثل هذه الدراسة في حد ذاتها موضوعا مستقلا، يجدر بحثه من جوانبه المختلفة، انما نحاول في هذه العجالة القاء بعض الأضواء على أهم مميزات كل تفسير لا سيما من ناحية المضمون، للتعريف بها فحسب.

إن أول ملاحظة تستدعي الإنتباه في هذا الصدد هو الفرق بين تفسيره الاول (هميان الزاد) الذي جاء عبارة عن كتاب جامع لآراء المفسرين المتقدمين دون تمحيص، مما أدى به الأمر الى الاغراق في النقل والاقتباس متأثرا بمن سبقه، ولعل ذلك راجع الى صغر سنه وقلة تجربته، وتجنب نقد من كانوا مصدر معارفه، وتخوفه من الوقوع في الخطأ بانكار الصحيح من الحديث أو المعلومات المختلفة، وكأني به يثق ثقة عمياء في المفسرين الذين

---

1) لقب أطلقه علماء عمان على امحمد بن يوسف أطفيش لمكانته العلمية انظر
2) أعلام الاصلاح في الجزائر 2/ 234.

آستقى منهم معارفه .

غير أنّه في تفسيره (داعي العمل) أخذ يتحرّر من هذه المقدمة، لأن معارفه ازدادت اتساعا وعمقا ، وبلغ درجة الاجتهاد المطلق ، فقد اعتمد فيه على فهمه ، مع انتقاء وتحقيق بحيث ما ينقله من غيره ، فلذالك نجد تلميذه ، ابراهيم بن محمد أطفيش يشيد به قائلا : " من أجل التفاسير وأغزرها لما فيه من حقائق التفسير ودقائق التنزيل ، وليس بتفسير بسيط بل سلك المفسر فيه منهج التبسيط والتحقيق لما اختلفت فيه الأمة من معاني الآيات ، ووجوه التأويل " (1) ولئن كان هذا الأخير لم يتم تفسيره فهو يشترك مع تفسيره الأول في غزارة المادة ، تتجلى من خلالها ثقافة المفسر الواسعة واطلاعه على جل التفاسير ، وآراء أصحابها ، وعمقه في دراسة آراء الاباضية ، فهما يصوران بصدق وجهة نظر هذه المدرسة . وللتأكد مما قلناه نسوق هذا المثال :

"التمهيد لسورة (الرحمن) في كتابه (هميان الزاد) نلاحظ أن المفسر يذكر فضلها وأسمائها ومكيها ومدنيها مع سرد الآراء المختلفة ، وعدد آياتها وحروفها وينهي هذا التمهيد بذكر فضل تلاوتها مستشهدا بحديث نبوي ... "(2)

بينما نجده في كتابه (داعي العمل) يكتفي بذكر ترتيبها وعلاقتها بالسورة السابقة والحكمة من ذلك .(3)

ولتفسير قوله تعالى :" ويبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام " الآية 27 من سورة الرحمن اقتصر في (هميان الزاد) على شروح عامة (4) ، وفي (داعي العمل) تعرض الى الرد على المجسمة على حد تعبيره ، وأطنب في سرد مفهوم الاباضية لصفاته تعالى محاولا الرد على الاشعرية ، مع الاتيان بأمثلة حسية وتعابير عربية مستعملة لاثبات صحة تأويل (الوجه) ولا يغفل عن ذكر المعاني اللغوية لهذه الكلمة ووجوه تصريفها الخ " .(5) معتمدا في شروحه هذه على التحليل ، والنقد ، وعند استحسانه لرأي يقول :(هذا وجه حسن) ولا غرابة في ذلك لأن المفسر مر بتجربة في كتابه الأول وأراد بهذا الكتاب تعويض ما لاحظه من نقص فيه ،

1) مجلة المنهاج العدد 3، 4 / 46 داعي العمل ليوم الأمل .
2) (هميان الزاد) الجزء 14 .
3) (داعي العمل) الجزء 29 صفحاته غير مرقمة .
4) (هميان الزاد) 14/34 .
5) (داعي العمل) الجزء 29 صفحاته غير مرقمة .

وجعله أكثر دقة وتحقيقاً .

وأما تفسيره المسمى (بالتيسير) فنلاحظ أن المفسر لم يخض فيه كثيراً في التفاصيل والجزئيات ، فقد حاول الالمام فيه بالمعلومات الضرورية مع محاولة الاختصار والتزام الموضوع في كثير من الأحيان فاذا قارنا بينه وبين تفسيره الأول (هميان الزاد) نلاحظ اطنابا مفرطا في هذا الأخير لا سيما في أجزائه الأولى منه ، وقد خصص مثلا حوالي مائة وثمانية وستون صفحة لتفسير سورة (الفاتحة) وأفرغ في تفسيرها كل معلوماته ، وكأني به يريد أن يجعل منه موسوعة في التفسير ، فقد تعرض في تفسيرها الى أسمائها معللا ذلك ، ومبينا فضلها والاختلافات في مدنيتها ومكيتها متحدثا عن القراءات مسردا الأقوال والأحاديث المتعلقة بهذه السورة ثم تعرض الى الاختلافات في البسملة مشيرا الى الأقوال الشاذة في عدد آيات الفاتحة وذكر عدد حروفها ... بينما نجده في كتاب (التيسير) يتحرى الايجاز ويستغني عن التفاصيل محاولا الايفاء بالمعلومات الهامة ، ويلاحظ القارئ رزانة المفسر في الرد على مخالفيه ونضجه وتمكنه أكثر .

ولعل المثال التالي يكون أكثر وضوحا ، فعند تفسير قوله تعالى في كتابه (هميان الزاد) : (هدى للمتقين الذين يومنون بالغيب ... ينفقون) الآية 2/3 من سورة البقرة . يتحدث عن الاختلافات في تفسير الايمان ومفهوم الكافر والمشرك والمنافق في رأي الاباضية وغيرهم مع محاولة اثبات صحة رأي الاباضية (1) .

وفي كتابه (التيسير) استغنى عن ذكر تلك الاختلافات مقتصرا على ذكر اختلاف المفسرين في مدلول المتقين ومفهوم إقامة الصلوات . (2)

وفي معرض حديث المؤلف عن طريقته في سرد آراء المذاهب الأخرى وموافقة بعضها لمعتقداته ونفيه لتقليد غيره قال :" .. ولا سيما التيسير الذي قرب ان شاء الله الرحمن الرحيم كما له والله ما ذكرته الا لترغبوا فيه لأنه غير طويل بل متوسط مع جمعه ما ليس في المطولات والحمد لله ." (3)

---

1) (هميان الزاد) 1/200 .
2) (التيسير) 1/6، 7 .
3) (كشف الكرب) 1/95 ، 96 .

فلعل العامل الذي ساعد على جعل هذا التفسير أكثر دقة و تحقيقا عرضه على طلبته من جهة و مراجعته من جهة أخرى ، قبل تسليمه للطبع رغم صغر حجمه بمقارنته بالتفسيرين السابقين ، يقول فيه إبراهيم بن محمد أطفيش : " ومن وقف على تفسير (تيسير التفسير) شاهد تبحره في علوم القرآن وغزارة مادته ومقدرته على إظهار حقائق التفسير " (1)

فإن ما نلاحظه في هذا التفسير ركاكة الأسلوب أحيانا عكس التفسيرين السابقين ويعزو ذلك ابراهيم محمد طلاي إلى " الرغبة في الاختصار من جهة والرغبة في جمع الكثير والإحاطة بمختلف الأوجه من جهة ثانية " (2) ونضيف الى هذا العامل عاملا آخر ألا و هو الغرض من تأليفه مما جعل المفسر يتوخى فيه أسلوبا بسيطا بعيدا عن الأسلوب الفني الأدبي الذي كان ميزة تفسيره (هميان الزاد).

والمؤلف في تفاسيره الثلاثة لم يخرج عن الطريقة السلفية في التفسير ولم يتميز عنها رغم معاصرته للحركة الاصلاحية ، وانتشار الوعي الديني والقومي فاننا لا نلاحظ لهذه التغييرات أثرا في تفاسيره ولا لأفكاره التي تبناها وقد لمحنا إليها في الفصل الثاني من الباب الأول إذا استثنينا بعض الاشارات في (هميان الزاد) بحيث كان مثلا يدعو على النصارى بالخزي وللمسلمين بالنصر (3).

وفي الوقت الذي عرفت فيه البلدان الاسلامية الهجمة الاستعمارية الشرسة ، والزحف الصليبي ، وبعض إشارات في كتابه (التيسير) الذي يدعو فيه المسلمين إلى توحيد الكلمة وجمع الشتات وتجاوز الخلافات ، وينوه فيه برجال الاصلاح (4) ، فكان من المنتظر أن تجيء تفاسيره أو على الأقل احداها تحمل مميزات المدرسة الاصلاحية لكن يبدو أن المفسر لم يستطع التحرر من تأثيرات المدرسة السلفية التي تتلمذ عليها من خلال مصادر دراسته ، فجاءت تفاسيره — بصفة عامة — تحمل طابع هذه المدرسة لكنها تصور — كما رأينا ذلك سابقا — أفكار مدرسة من المدارس الفقهية الاسلامية ، ألا وهي المدرسة الاباضية ، وتعبر بصدق عن تفاعل

---

1) الذهب الخالص ، ترجمة المؤلف بقلم أبو اسحاق ص/هـ.
2) ابراهيم محمد طلاي ، محاضرة ص 07.
3) (هميان الزاد) 14/100 — 129.
4) (التيسير) 2/791.

هذه المدرسة مع المدارس الأخرى وتجسّم وجهة نظر هذه المدرسة التّي كانت مجهولة في نظر الكثير من الدّارسين .

أسباب عدم انتشار التفاسير .

وقد يعجب الدّارس — في بداية الأمر — اذا علم أنّ هذه التّفاسير تجد صداها عند متعلّمي الاباضيّة ومثقفيهم ناهيك عن غيرهم ، فقد درست — مثلا — مادة التّفسير على أحد تلاميذ المفسّر وهو يوسف بن بكر حمود علىّ من كتاب عبد الله بن عمر البيضاوي (... 685هـ) وكان ابراهيم بن عمر بيوض (1816م 1400هـ) في دروس التّفسير لا يعود الى كتابه (التّيسير) إلّا حين يريد أن يطّلع على وجهة نظر الاباضية في قضية ما . (1) ولم يبلغ مسامعنا اعتماد أحد تفاسيره كمرجع في معهد من المعاهد التّي تدرس الفقه الاباضيّ ، ولعّل من أسباب ذلك ما يلي :—

1) طباعتها السّيئة التّي لا تغري الطالب على الدّراسة ، ولا تساعده على البحث لخلوّها من أرقام الآيات والفهارس ، بالاضافة الى كثرة الأخطاء الواردة فيها .

2) قلة النّسخ التّي طبعت لا تسمح للطّلاب والبّاحثين باقتنائها ، فيكون من الصّعب عليهم — أحيانا — العثور على نسخة للاطلاع عليها بله للدّراسة ، بالاضافة الى عدم طبع تفسيره (داعي العمل) الذّي لولا الأيادي الأمينة لضاع مع جملة من مؤلفاته التي ضاعت لا سيّما رسائله .

3) وبما أنّ المفسّر اقتبس كثيرا من كتب المفسّرين الذّين سبقوه في هذا الميدان ، وانتهج الطّريقة السّلفية في التّفسير كما سبق ذكره ، ولا تحمل عناصر جديدة شكلا ومضمونا الّا ما ذكرناه من وجهة نظر الاباضيّة ، فانّ الباحث والطّالب لا سيّما في الماضي — يحبّذ الرّجوع الى المصادر الأساسية ، ليستقوا منها معلوماتهم ، وفي الوقت الحاضر فانّ الطّالب — في الغالب — يختار المراجع التّي تمتاز بمنهجية حديثة ومضامين تتماشى مع تطّور الحياة والفكر ولذلك لم تجد تفاسير المؤلف صدى في أوساط هؤلاء وأولئك .

---

1) أعلام الاصلاح في الجزائر 126/3 .

4) عدم التعريف بهذه التّفاسير ،بحيث لم يتناولها باحث أو أستاذ بالدّراسة كما هو شأن بقية التّفاسير التّي نالت حظّها من الدّراسة الأكاديمية أو من تعريف العلماء بها فهي الى حدّ الآن مجهولة لدى كثير من الباحثين ،ولعّل اذا وجدت من يقوم بتحقيقها وطبعها طباعة عصرية وحظيت بدراسات علمية ستجد مكانتها بين سائر التّفاسير المعروفة على الأقل من حيث أنّها تمثّل مدرسة اسلامية تتميز بمعتقداتها وآرائها .

5) اعتماد المغاربة مؤلفات المشارقة ظاهرة معروفة منذ القدم ،ولعّل السّبب راجع الى أنّ المشرق مصدر الثّقافة العربية الاسلاميّة ممّا أصبح المغاربة ينظرون اليه نظرة التلميذ لأستاذه ،ويشعرون ازاءه بعقدة النّقص مهما بلغوا من المعرفة والعلم ،وهذه الظّاهرة نلاحظها في معظم العلوم ،وهذا ممّا أدّى الى التّقليل من شأن تفاسير أهل المغرب مثل تفاسير المؤلّف ،وتفسير الثّعالبيّ وغيرها واعتبار غيرها أحقّ بالدّراسة ،وأن كنّا فضل المشرق على المغرب وتفوّقه الّا أنّنا لا نوافق على انكار مساهمة المغاربة في اثراء التّراث العربي الاسلامي واحيائه ، كما ندعو لذلك الى استثمار هذا التّراث والاستفادة منه ،ووضعه في مكانته اللائقة .

فهذه أهم الأسباب التّي جعلت تفاسير أحمد بن يوسف أطفيش غير منتشرة ، ومتداولة بين الدّارسين والباحثين ،رغم أنّها تمثّل وجهة نظر احدى المدّارس الاسلامية في تفسير آيات العقائد والأحكام .

الباب الثاني : الفصل الثاني :

— رأي الباحثين في تفسيره —

تختلف آراء الباحثين في تفاسير أحمد بن يوسف أطفيش باختلاف وجهة نظر كلّ باحث واتّجاهه ، فمن الآراء المنتقدة لهذه التفاسير ، وتبلغ هذه الانتقادات — عند بعضهم — درجة التحامل ، مثلما هو الملاحظ في كتاب (التفسير والمفسّرون) .

فإنّ أوّل حكم يصدره صاحب هذا الكتاب على تفسير (هميان الزاد) هو كونه يمثّل أهم التفاسير عند الاباضية من الخوارج (1) ، غير أنّه يرى من جهة أخرى لا يمثّل حق التمثيل التفسير عند الخوارج القدماء معلّلا ذلك بقوله : " لقرب عهد مؤلّفه ، وتأخّره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه والذين خالفوه فيه " دون أن يستند في رأيه على أدلّة تثبت صحّة ما ذهب اليه ، ويقول في موضع آخر من كتابه مؤكّدا رأيه بعد التعريف بالتفسير الذي سبق ذكره : " ممّا يدعونا الى القول بأنّ تفسيره يمثّل التفسير المذهبي للخوارج الاباضية في أواخر عصرهم فقط " . (2)

أرى أنّ الناقد تسرّع في إصدار حكمه على الكتاب بحيث يمكن له أن يقارن بينه وبين تفسير هود بن محكم الهوّاري (القرن الثالث الهجري) الذي ذكر بأنّه تحصّل على نسخة منه ، وهذا العمل لا يكلّفه جهدا كبيرا يخرج برأي ذا بت مدعّم بأدلة ثم أن آراء الخوارج والاباضية — بصفة خاصّة — معروفة وواضحة في كتبهم ، ولا أخال أن الناقد يجهلها ، فاذا وجد المفسّر — فعلا — يدافع عنها ويؤوّل الآيات حسب مذهبه كما استنتج الناقد ذلك حيث يقول : " لا يكاد يمرّ بآية يمكن أن يجعلها في جانبه إلّا مال بها إلى مذهبه وجعلها دليلا عليه . " ا . هـ . بل ذهب إلى أبعد من ذلك إذ يقول : " . . ولا آية تصارحه بالمخالفة إلّا تلمّس لها كلّما في طاقته من تأويل ليتخلّص من معارضتها ، وقد يكون تأويل متكلّفا وفاسدا ،

1) التفسير والمفسّرون 2/320 .
2) نفس المكان .

ولا يتجه من معارضة الآية ، لكنه التعصب الأعمى يدفع الانسان الى أن ينسى عقله ويطرح تفكيره الصائب ليمشي مع الهوى بحقل فارغ وتفكير خاطئ . "

فالأجدر بالناقد أن يصدر حكما صريحا على أن التفسير يمثل آراء الاباضية ولا سيما وقد استنتج أن المؤلف يتعصب لآراء المذهب تعصبا أعمى ، فما ذا ينتظر من مفسري الاباضية الأولين حين كان الصراع المذهبي قائما والجدال حادا ، وكل مذهب يرمي غيره بالمروق من الدين ، فهل يصفهم بوصف آخر غير التعصب الأعمى ! ؟ أو ينتظر منهم أن يكونوا أكثر نزاهة من مفسرنا ؟ وسندلي برأينا في الموضوع عند تعرضنا لهذه النقطة في منهجية التفسير .

وبعد أن أشاد الذهبي بسعة اطلاع المفسر واستفادته من التفاسير قائلا :
" ان الرجل قد قرأ الكثير من كتب التفاسير تأثر بما جاء فيها ، واستفاد الكثير من معانيها ومراميها . "(1)

ورجل متفتح على جميع الآراء ليس من السهل أن يتهم بالتعصب الأعمى فماذا يقال — حينئذ — في مؤلف عاش في عصر ازدهار العلم ، وفي وسط ثقافي ، وفي عصر يؤمن بحرية الرأي ؟ فيتهم مذهبا من المذاهب الاسلامية بالزيف ، دون الاستناد على أدلة وحجج قاطعة متحاملا على المفسر في قوله : " .. هذا هو مفسر الاباضية ، وهذا هو تفسيره الذي ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائغة والتعصب لمذهب فاسد . "(2).

فهذه اللهجة العنيفة التي عرض بها الناقد أفكاره تجعلنا نحتمل تجاهه أحد الاحتمالين : إما جهله لآراء الاباضية ، ورأي علماء المذاهب الاسلامية الأخرى النزهاء فيها ، وإما تعصبه لمذاهب أهل السنة ، جعله يعتبر غيرها مارقة من الدين وزائغة ، وفي كلتا الحالتين يقف الدارس الذي ينشد الحقيقة متحفظا من آرائه النقدية .

---

1) ن.م. 2/ 320.
2) ن.م. 2/ 321.

وعند تعرض محمد حسين الذهبي لطريقة المؤلف يلاحظ القارئ اعترافه بسعة اطلاعه، والمامه بجميع المسائل التي لها صلة بالآية على غرار المفسرين الذين سبقوه، وقد ذكر من قبل بأنه استفاد منهم، لكن لا أجد أي داع لقوله: " ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين " وقوله: " وهو يكثر الى حد كبير من ذكر الاسرائيليات التي لا يؤيدها الشرع، ولا يصدقها العقل."(1)

فهذه الميزة لا يختص بها مفسرنا فحسب، بل هي خاصية مشتركة بين عدد من المفسرين الذين تأثر بهم، وسنذكر بعضهم عند تعرضنا للمصادر، ومن بينهم مفسري أهل السنة، فلا ندري لماذا أصدر الناقد حكمه على محمد بن يوسف اطفيش دون غيره !؟

ومن هنا يتبين لنا بوضوح أن محمد حسين الذهبي تنقصه النزاهة العلمية وعمق التفكير وتتصف أحكامه — في غالب الأحيان — باجحاف كبير تجاه بعض المفسرين — لا سيما — غير المنتمين الى مذاهب أهل السنة، فلا أدري على أي أساس صنف تفاسيرهم في صف التفاسير بالرأي المذموم، وتفاسير أهل السنة في صف التفاسير بالرأي المحمود !.

وقد لاحظ محمد حسين الذهبي أن المفسر في أسلوب تناوله للسورة، يذكر في أولها عدد آياتها والمكي منها والمدني، ثم يذكر فضائل السورة، وفوائدها آخذا عليه استشهاده — في الغالب — بالأحاديث الموضوعة، في فضائل السورة، وبسرد فوائدها بما يشبه كلام المشعوذين والدجالين.

ثم يشرع بأسباب الآيات متعرضا — في ذلك — للمسائل النحوية واللغوية والبلاغية والفقهية، مع ذكر مسائل الخلاف بين الفقهاء، متطرقا بشيء من التفصيل الى مباحث علم الكلام، والأبحاث الأصولية، والقراءات، ويقتصر في الجانب التاريخي على ذكر الغزوات التي وقعت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم.

---

1) ن.م. 2/320، 321.

ومما أخذ عليه اكثاره من الاسرائيليات المتناقضة مع الشرع ، وتأويل الآيات بما يوافق آراء مذهبه ، وقد ظهر له بأنه متأثر بآراء المعتزلة.(1)

من خلال هذا العرض الوجيز لآراء الذهبي في تفسير (هميان الزاد) نستنتج ما يلي :ـ

1) أهمية هذا التفسير تبدو واضحة في كونه موسوعة تجمع مختلف الآراء والعلوم التي لها صلة بالقرآن الكريم .

2) تأثر المفسر بمذهب الاعتزال .

3) اعتماده التأويل أسلوبا لنصرة مذهبه ، نتيجة تعصبه له .

4) اعتماده على الاسرائيليات والأحاديث الموضوعة ، وسرد فوائد الصورة بطريقة لا يصدقها الشرع ولا العقل ، ومعنى هذا لا يتحرى المفسر التحقيق في روايته المعلومات وايرادها كشواهد .

فهذه الآراء التي استخلصها محمد حسين الذهبي من كتاب (هميان الزاد) للمفسر كانت محل رد بعض الباحثين ، فعند ذكر عادل نويهض لكتاب (التفسير والمفسرين) كأحد المراجع المعتمدة في ترجمة المفسر ، عقب على ذلك بقوله : " لا نوافق على كل ما جاء فيها من آراء . " (2)

كما تولى الرد عليه أكثر من باحث أباضي ومن جملتهم أحد مفسريهم المعاصرين أحمد بن حمد الخليلي الذي يعزو نقده الى : " التعصب المذهبي البغيض " والذي يرى أنه أعماه عن رؤيته لحقائق يمكن له التوصل اليها باجراء مقارنة بين تفاسيره الثلاثة ، والبحث عن الأسباب التي جعلته يقع في تلك المآخذ والتي يجملها فيما يلي :ـ

1) تأليفه في صغر سنه .

2) تقته في أقوال العلماء من قبله على اختلاف نحلهم .

3) عنايته بالجمع أكثر من عنايته بالبحث والتمحيص.

---

1) ن.م. 320/2 ، 321 .

2) معجم المفسرين 2/ 658 أنظر الهوامش.

وممّا يلا حظ في هذا الرّدّ اعتراف أحمد بن حمد الخليليّ بالخطأ الّذي وقع فيه المفسّر في كتابه (هميان الزّاد) والتنويه ضمنيّا بتفسيريه الآخرين الّذين كانا ثمرة نضج المفسّر وتحقيقا لرغبته في محو الأخطاء الّتي تنبه إليها في تفسيرة الأوّل، والنّاتجة عن عدم الاهتمام بالتّحقيق والتّمحيص فيما ينقله من المفسّرين السّابقين.(1)

ونفس الرّدّ - تقريبا - يوجّهه اليه بلحاج عدّون شريفي، اذ يرى أنّ صاحب كتاب (التّفسير والمفسّرين) بالغ في نعت المفسّر بأوصاف لا تليق به نتيجة عدم التّعمق في الدّراسة، والاقتصار على تفسيره الأوّل والمبالغة في التّهويل مع اعترافه - من جهة أخرى - بالخطأ الّذي وقع فيه المفسّر من جمع المعلومات وروايتها دون تمحيص وتحقيق أحيانا، وهذا راجع في نظره الى محاولة المفسّر الاولى والّتي توخّى فيها جمع ما يمكن من المعارف الّتي حصّل عليها أثناء سنوات دراسته.(2)

لكن ابراهيم محمد طلاّي يرى في ردّه أنّ السّبب المتمثّل الذي دعا الذّهبيّ الى اتّهام المفسّر بالتّعصب المذهبيّ هو أحد أسباب تأليفه للتّفسير الوارد في مقدمة الجزء الأوّل والمتمثّل في الرّدّ على المخالفين وايضاح مذهب الاباضيّة (3)، ممّا دفع النّاقد الى التّهجم على المفسّر ومذهبه، ويرى أنّ الدّارس المنصف للكتاب يكشف أنّ هذه التّهمة الموجّهة للمفسّر باطلة، ولا يوافق على اتهام كلّ متحمس لرأي، أو مؤمن بنظرية بالتّعصب والتّطرف.(4)

اذا كان الذهبيّ جانب في نقده الموضوعية، ولم تكن دراسته مبنية على أسس علمية حسبما رأينا فأنّ الردود الموجهة اليه اتسمت بالسّطحية، ولم تعتمد على أدلة وحجج مقنعة فأوّل ما يلاحظ عليها الاكتفاء بلوم النّاقد عوض محاولة تبيان مواطن الخطأ في أحكامه وتصحيحها، فكان موقفهم موقف المحامي والمدافع

---

1) أحمد بن حمد الخليليّ جواهر التّفسير أنوار من بيان التّنزيل 1/من ص35 - 37.
2) التّفسير ومناهجه عند علماء الاباضيّة، محاضرة ص11 /12.
3) (هميان الزّاد) 1/ .
4) ابراهيم محمد طلاّي، محاضرة ص05.

الذي يحاول ردّ التّهمة على زبونه لا الناقد الذّي ينشد الحقيقة والصّواب٠

ولذا نجد في دراسات هؤلاء التفاسير أمحمد بن يوسف أطفيش ، التركيز على ابراز مزاياها والتّنويه بها ،أكثر من محاولة نقدها نقدا علميّا يبرز الجوانب الايجابية والسّلبية فيها ،فجاءت دراساتهم عبارة عن ملاحظات عامة يعوزها التّحليل والتّحقيق وسوق شواهد وأدلة تثبت صحّة ما ذهبوا اليه٠

فاذا تصفّحنا محاضرة ابراهيم محمد طلّاي حول تفاسيره يسترعي انتباهنا فيها تحديد مزاياها في النّواحي التّالية :ـ

1٠ جمع الكثير ممّا هو متفرّق في كتب مختلفة ٪

2٠ تحقيق الكثير من المسائل التّي تضاربت فيها أقوال المؤلّفين والمفسّرين٠

3٠ لا يغفل عن أوجه الاعراب والتّخريجات البلاغية وايراد المسائل الفقهية واستنباطها من مضانّها مقارنا ومرجحا ومنتقدا ٠

4٠ يغني القارئ من مراجعة عدّة تفاسير وعدّة كتب في الموضوع الواحد ٠ (1)

وممّا يستخلص من هذه الأوصاف الحكم على تفاسيره بالشّمولية لجميع الموضوعات التّي تعرض لها المفسّرون ولعلّ هذا يعتبر من الأسباب التّي جعلت القرّاء يحجمون عن مطالعتها اذا صحّ هذا الحكم ،كما يرى ـ بعد عرض طريقة المفسّر ـ أنّه انتهج في تفاسيره الطّريقة السّلفية التّلقينية الشّائعة بين المفسّرين (2) ،دون الاشارة الى ما يمكن أن تمتاز به تفاسيره عن غيرها من حيث الموضوعات أو الطّريقة وكأنّ شخصية المفسّر لا أثر لها ،مع أنّه سبق للمحاضر أن نوّه ـ في مستهلّ محاضرته ـ بالمفسّر قائلا : " وهو على الخصوص مفسّر كبير ،وعالم جليل بمعاني كتاب اللّه تعالى ومتمكن من استنباط أحكامه ،واستجلاء دروه٠ " (3)

فاذا كان الأمر كذلك فانّه من دون شكّ تحمل هذه التّفاسير ميّزات وخصائص نتيجة اجتهاد المفسّر الذّي أدّى به الى استنباط الأحكام ،واستجلاء الدرر ،والمحاضر لم يتطرق في محاضرته ولو على سبيل المثال الى بعض ما توصل إليه المفسّر ممّا يعتبر نتيجة اجتهاده وثمرة بحثه وتحقيقه٠

---

1) ن٠م٠ / 07

2) نفس المكان٠

3) ن٠م٠ / 01 ، 02٠

فاذا استثنينا ملاحظات المحاضر لأسلوب المفسّر في كتابه (التيسير) والذي يرى أنه يميل فيه — أحيانا — الى عدم السلاسة معللا ذلك برغبة المؤلف في الإختصار من جهة ورغبته في جمع الكثير، والاحاطة بمختلف الأوجه من جهة ثانية،(1) نجد طلاّي قد تغاضى عن الجوانب السلبية الأخرى والتي لاحظها بقية الباحثين والدارسين لتفاسيره.

وما يلاحظ المقارن بين أحكام محمد حسين الذهبي وابراهيم محمد طلاّي هو غض طرف الأول عن جميع الجوانب الايجابية عند المفسر، وعدم التنويه بها، ولو بعبارة مختصرة أقلها الترحم على المؤلف، بينما راح يوجه له انتقادات لاذعة أحيانا — ولا أقول نقدا — بعيدة كل البعد عن الروح العلمية والنزاهة والعدالة مع أن الله سبحانه وتعالى يقول :" ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى .. " (2)

بينما نجد ابراهيم محمد طلاّي يتغاضى عن الجوانب السلبية، وإن تعرض لبعضها حاول ايجاد مبررات لها، وهذه النظرة — أيضا — بعيدة عن البحث العلمي النزيه.

فاذا انتقلنا الى رأي محمد بلحاج بن الشيخ، نجده يلخص طريقة المفسر في جانبين رئيسيين.

1. جانب المبنى الذي يعتبر — في نظره — الميزة الغالبة على تفاسيره، اذ لاحظ إفاضة المفسر في المسائل النحوية والصرفية والبلاغية.
2. الجانب العلمي والفقهي، يظهر على وجه الخصوص في شرحه لآيات الأحكام، غير أنه يورد ما بطريقة غير مرتبة كما هو الشأن عند القرطبي والرازي.

وينوه (من خلال ذلك) بقدرة المفسر، وسعة معارفه في العلوم الآلية والصناعية اللفظية، آخذا عليه الاغراق في النقل واقتباس بعض الاسرائيليات من المفسرين السابقين في تفسيره (هميان الزاد) معللا ذلك بتأليفه في غضارة شبابه.

---

1) ن م، ص/ 07.
2) المائدة 09.

و مشيدا بالتفسير ين الآخرين ، الذين ألفهما عند نضج عقله ، وبلوغه درجة الاجتهاد المقيد ثم المطلق من حيث التخلي عن كثير من النقل و الرواية مقتصرا على ما توصل إليه عن طريق استقراء النصوص القرآنية من مسائل بلاغية ، و أحكام فقهية مع الاستشهاد ببعض أقوال السابقين (1).

لولا اعتراف الباحث في مستهل تعرضه للمفسر و تفاسيره بعدم التعمق في دراستها لأخذنا عليه اقتصاره على جانبين فقط ، في حين أن المفسر قد تناول في تفاسيره جوانب عديدة لا سيما الجانب العقائدي ولم يهمل الجوانب الأخرى التي سنتناولها بالبحث في الباب الأخير ، لكن من جهة أخرى نلاحظ اتفاقه مع بقية الدارسين في أغراض المفسر في نقل الإسرائيليات دون تحقيق و تمحيص ، و الإكثار من الروايات من المفسرين الذين استقى منهم معلوماته ، و هاتان الملاحظتان تنطبقان — في نظره — على تفسيره (هميان الزاد) بخلاف ابراهيم محمد طلاي الذي يرى أن الملاحظة الثانية ميزة تفسيره (داعي العمل) اذ يقول : " .. فهو تفسير ضخم يورد فيه القطب رحمه الله كل ما ذكره المفسرون من قبل " (2) ، غير أنه لا ينفي هذه الميزة عن بقية تفاسيره لكنه لا يوافق غيره على عدم التحقيق و التمحيص و يقول في ذلك :" فميزة الكاتب أنه جمع الكثير مما نراه متفرقا في كتب مختلفة ، و حقق الكثير من المسائل تضاربت فيها أقوال المؤلفين و المفسرين " (3)

و أما رأي ابراهيم بن محمد أطفيش في كتابه (داعي العمل) يلخصه في قوله : " لقد رأيت في هذا التفسير من التحقيق ما لم أره في غيره " (4) و يعرفه في مجلة المنهاج بقوله : " و هو جدير بالاعتناء و الاعتبار ، و من أجل التفاسير و أغزرها ، لما فيه من حقائق التفسير و دقائق التنزيل ، وليس بتفسير بسيط ، بل سلك المفسر فيه منهج التبسيط و التحقيق ، لما اختلفت فيه الأئمة من معاني الآيات و وجوه التأويل ." و يسترسل قائلا :" . . . يجد فيه مريد الآيات من بدائع التفسير

---

1) القرآن تفسيره و مفسروه عند الاباضية ص 39 — ص 41 .
2) ابراهيم محمد طلاي محاضرة ص 06 ..
3) ن م . ص 07 .
4) نهضة الجزائر الحديثة 1/315 الطبعة الأولى .

وبلاغة القرآن، وأصول الأحكام، وتحرير المشكل وتأويل الحق المتشابه ما لا مزيد بعده لمستزيد " (1) وبل يرى أن المفسر نفسه قد نسوه به في مؤلفاته وكان يحيل القارئ عليه في سور المفصل كما يحيله في غيرها على (هميان الزاد). (2)

أول ما يلاحظ القارئ في هذه الآراء المتناقضة، أحيانا ،اتفاقها على غزارة المادة وتنوعها، أن ما رآه هذا الأخير حقائق في تأويل المتشابه رآه محمد حسين الذهبي من التأويل الفاسد لظواهر الآيات تعصبا لمذهب، وكل يحكم على المفسر من وجهة نظره، ومن زاوية انتمائه المذهبي، ولا عجب في ذلك، إنما العجب هو الإنتظار من عالم عاش في القرن الثالث عشر الهجري وأوائل القرن الرابع عشر، أن يكون نزيها كل النزاهة يطرح آراء مذهبه جانبا والا اتهم بالتعصب الأعمى!!!

فإذا اعتبر ابراهيم بن محمد اطفيش كتابه (داعي العمل) من أهم تفاسيره من حيث التحقيق بدليل قوله السابق، فإننا نجده يصدر حكما شبيها بالحكم السالف الذكر على كتابه (التيسير) قائلا: " .. ومن وقف على تفسيره (تيسير التفسير) شاهد تبحره في علوم القرآن وغزارة مادته، ومقدرته على اظهار حقائق ... التفسير " (3).

وبنفس الأسلوب يعلق محمد علي دبوز على تفاسيره قائلا: "وأنت اذا نظرت في كتب التفسير التي ألفها ورأيت مباحثه النحوية واعرابه فيها، وحفظه لمذاهب النحاة في مشاكل النحو علمت أي بحر هو في علوم العربية " (4)

" لكن باعجاب هذا الأخير مقتصر على تضلع المفسر في المسائل النحوية ومذاهب النحاة، دون التعرض لجوانب أخرى، وكأن تفاسيره ذات اتجاه نحوي حسب وجهة نظره ".

واذا تأملنا آراء ابراهيم بن محمد اطفيش ومحمد علي دبوز لاحظنا أنها تتميز بطابع المدح فهي أشبه ببلاغات الأشهار، منها بآراء نقدية، وأحكام دقيقة يتوصل اليها الباحث عن طريق التحليل والدراسة الجادة والموضوعية، فاذا حاول النقاد

---

1) مجلة المنهاج ع 3،4 / 46، 47 داعي العمل.
2) ن م. ص 47.
3) الذهب الخالص ترجمة المؤلف بقلم ابراهيم بن محمد اطفيش أبو اسحاق ص/ هـ.
4) نهضة الجزائر الحديثة 1 / 302.

السّابقون الأظهار في دراساتهم لبعض جوانب تفاسيره بالنّاقدين ومحلّلين فإنّ هذين الأخيرين اكتفيا بالتنويه والإشادة .

ولعلّ الدراسة التي يمكن اعتبارها أقرب الى الدّراسات الجادّة والموضوعية والتّي تفيد الباحث ، وتعطي صورة — ولو عامة — على تفاسيره هي الدّراسة التّي قام بها بلحاج عدّون شريفي ، وقد استهلها بإعطاء ملاحظة عامّة على تفسيره (هميان الزّاد) الذي لا يمثّل — في نظره — منهاجه الحقيقي في التّفسير مثلما هو شأن تفسيره (التّيسير) وذلك راجع الى عاملين :—

1 . محاولة المفسّر جمع أقصى ما يمكن من المعارف التّي حصّل عليها في سنوات دراسته .

2 . إهمال التّحقيق والتّمحيص أحيانا . (1)

ثم تطرق الى تحديد منهاجيته من خلال تفسيره (التّيسير) وتتمثل في الجوانب التّالية :—

1 . إفاضة القول في المباحث اللّغويّة البيانيّة ، معتمدا في ذلك أسلوب التحليل والتّحليل للتوصّل الى ترجيح الرّأي الذّي يراه صحيحا مدعما رأيه بأدلّة من القرآن ، والملاحظة التّي استرعت انتباهه هي قيمة المصادر التّي يستقي منها معلوماته .

2 . الخوض في مسائل الخلاف الفقهية مقدما الرّأي المشهور عند الإباضيّة .

3 . التّعرض — أحيانا — الى علم المتشابه .

4 . الرّد على المخالفين للمذهب الإباضي في بعض المسائل العقائدية على وجه الخصوص .

5 . رواية كثير من الآثار دون التّثبت من صحّتها . (2)

وما يلاحظ جيدا في دراسة بلحاج عدّون شريفي سوقه لأمثلة لدعم آرائه ، غير أنّه استمدها من كتابيه (هميان الزّاد) و(التّيسير) مع أنه اكتفى بدراسة منهاجه من خلال تفسيره (التّيسير) واعتبر (الهميان) لا يمثل بحقّ منهاجه ، ومن هنا نرى أنّ المحاضر لم يلتزم بمنهجيّته في الدّراسة ، بالإضافة الى ذلك اعتمد على قول بعض الأساتذة دون التّحقيق من صحته مع امكانية ذلك ، لكن الدّارس استطاع الإلمام ببعض جوانب منهجيّته في التّفسير ، وسلّط على تفسيريّه (الهميان) ،

---

1) التفسير ومناهجه عند علماء الإباضية ، محاضرة ص 11، 12 .

2) ن م . ص 12 ، 13 .

و (التيسير) بعض الأضواء المساعدة للباحثين على التعمق في دراساتهم لهذين التفسيرين .

وما يمكن استخلاصه من هذه الآراء المختلفة التي تعتبر ملاحظات عامة أكثر ما تكون نقدا ودراسة علمية ما يلي :-

1 . اتفاق الباحثين على أن التفاسير الثلاثة تبرز بوضوح ثقافة المفسر الغزيرة ، واطلاعه الواسع على جل التفاسير وتبحره في علوم اللغة والبيان .

2 . تعرضهما لمسائل الخلاف، وتعبيرها عن وجهة نظر الاباضية في هذه المسائل .

3 . جل الدارسين اجمعوا على أن تفسيره (هميان الزاد) يمثل أولى محاولته في هذا الميدان ، مما يعوزه التحقيق والتثبت من صحة المعلومات التي استقاها المفسر من مختلف المصادر .

4 . تنويه بعض الباحثين بالتفسيرين (التيسير) و (داعي العمل) وعدم انكــــارهم لأهمية تفسيره (هميان الزاد) رغم ما فيه من مآخذ لأسباب سبق ذكرها .

فهذا أهم ما أمكن استنتاجه من ملاحظات بعد عرض آراء الباحثين والدارسين لتفاسيره ، فهي لا تخلو من جوانب ايجابية ، وتعتبر مادة خام للباحث تساعده على الدراسة المعمقة العلمية لهذه التفاسير ، وبالفعل كانت لي بمثابة معالم اهتديت بها الى تحقيق هذه الدراسة المتواضعة ، التي سنتعرف من خلالها على منهجيه المفسر ، التي هي موضوع الباب الثالث منها ، محاولين معالجة هذه الآراء مثبتين الصحيحة منها ومفندين ما نراه مجانبا للصواب مدعمين كل ذلك بأدلة وحجـــج ، لأن من الملاحظ ـ هذه الآراء طغى عليها اتجاه الباحث وانتماؤه المذهبي وهذا شيء طبيعي بالنسبة لدراسة يهدف ـ في الغالب ـ صاحبها الى التعريف بتفاسير مجهولة ودراسة لا تعتمد على قواعد منهجية علمية يتوخى الباحث من ورائهــا الحقيقة لا غير ، خدمة للتراث والعلـــــم .

الباب الثاني :
الفصـــل الثالث .

مصـــادر تفاسيــــره :

انّ المتمعن في آراء الباحثين والدّارسين لتفاسيره ، يلاحظ شبه اجمـــاع على غزارة المادّة وكثرة الرّوايات ، وهذا العمل يتطلب من المفسّر الاعتماد على مصادر مختلفة ، ومتنوعة ، سواء كان ذلك في علم واحد كعلم التّفسير مثلا أو في علوم مختلفة كالحديث والتّيسير ، وقواعد اللغة والبلاغة وما إلى ذلك .

سنحاول في هذا الفصل ـ قدر المستطاع ـ تسليط بعض الأضواء على هذه المصادر المختلفة مكتفين بضرب أمثلة عن كلّ نوع ، لأنّنا لسنا بصدد حصر جميع المصادر المختلفة التي اعتمدها المفسر ، وانّما الغرض من دراستنا هذه وضع معالم تساعدنا على تحديد منهجيته من جهة وابراز مكانة تفاسيره بين التّفاسير التي كانت مصدرها ، ومدى تأثر المفسّر بغيره .

مصـادرها من كتب التّفسيـــر :

فاذا عدنا الى حلقة الدّرس التي كان يشرف عليها المؤلف في مادّة التّفسير نجد ، حسب رأي أحد تلاميذه "أنّه كان يعتمد في تدريسه لمادّته على وجه الخصوص على كتابي : أنوار التّنزيل وأسرار التّأويل لعبد الله بن عمر البيضاوي (....،685هـ) والكشّاف عن حقائق التّنزيل لمحمود بن عمر الزّمخشري" (467 هـ،538 هـ) (1) والمفسر نفسه يتحدث عن هذين المفسّرين في مقدمة تفسيره (هميان الزّاد) قائلا : " وأمّا نفس تفاسير الآي والرّد على بعض المفسّرين ، والجواب فمنه ما تراه منسوبا ، وكان ينظر بفكره في الآية أولا ثم تارة يوافق جار الله الزّمخشري والقاضي البيضاوي ، وهو الغالب والحمد لله ، وتارة يخالفهما ، ويوافق وجها أحسن ممّا أثبتاه وذلك من فضل الله الكريم عليه " (2) .

---

1) نهضة الجزائر الحديثة 372/1 .
2) (هميان الزّاد) 1 / المقدمة .

من هذه الفقرة يتضح لنا بجلاء أن المؤلف لا ينكر النقل من المفسرين والاستفادة منهم لا سيما عبد الله بن عمر البيضاوي ومحمود بن عمر الزمخشري كما فهم ذلك محمد حسين الذهبي (1)، فحمده الله على موافقته لهما في كثير من الأحيان لدليل على عدم انكاره للنقل والاعتماد على تفسيرهما، كما أن الرد على بعض المفسرين يتطلب منه الاطلاع على تفاسيرهم والوقوف على آرائهم، وإلا فكيف يرد عليهم.؟

كما استنتج ابراهيم بن عمر بيوض (1316 هـ، 1400 هـ) من خلال اطلاعه على كتابه (التيسير) الذي كان يرجع اليه للوقوف على رأي الاباضية في قضية ما أن المفسر اعتمد في تفسيره على محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (1217 هـ، 1270 هـ) في كتابه (روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني)، وقد تأكد من ذلك حين عثر في تفسيره على عبارات كاملة نقلها حرفيا منه . (2)

وللتأكد من كل ذلك نسوق بعض الأمثلة تثبت صحة ما ذهبنا إليه فاذا تصفحنا تفسير عبد الله بن عمر البيضاوي وأخذنا كمثال تفسيره لقوله تعالى: "إن الذين فرقوا دينهم" الآية 159 من سورة الأنعام يقول في شرحها: "بددوه فآمنوا ببعض وكفروا ببعض أو افترقوا فيه قال عليه الصلاة والسلام افترقت اليهود على احدى وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وافترقت النصارى على اثنين وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة وستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلها في الهاوية إلا واحدة. وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي الروم فارقوا أي باينوا. (كانوا شيعا) الآية 159 من سورة الأنعام " فرقا تشيع كل فرقة إماما " (3).

ولتفسير محمد بن يوسف اطفيش لنفس الآية يقول: "(4) دين الله الواجب عليهم أن يكونوا عليه فيضاف إليهم أخذوا بعضه وتركوا بعضه وترك البعض نقض للكل فهو ترك للكل وهذا في أهل الشرك وأهل التوحيد، وذلك كعبادة الأصنام والقول بأن الملائكة

---

1) التفسير والمفسرون 2/ 316.
2) أعلام الاصلاح في الجزائر 3/ 124.
3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل 1/ 412.
4) التيسير 2/ 472 — 473.

بنات الله و بأنّ عيسى ابن الله و أنّه اله و أنّ مريم اله و أنّ عزير بن الله و أنّ عليا أولى بالامامة في أولاده الى الحسين بن علي بن الحسين بن علي لأنه لم يبغض أبا بكر و عمر و كذبت الشيعة ، فانّه لم يبغضهما أحد قبله أبدا من أولاد علي والقول بأنّ أهل المعاصي و الكبائر مشركون و التحكيم فيما فيه حكم لأنّ أمرنا الله به قال صلّى الله عليه و سلّم افترقت المجوس على سبعين فرقة كلّها هالكة ، و افترقت اليهود على احدى و سبعين فرقة كلّها في النّار الا واحدة ، و افترقت النّصارى على اثنين و سبعين فرقة كلّها هالكة الّا واحدة و ستفترق أمتي على ثلاث و سبعين فرقة كلّها هالكة الّا واحدة ، و سئل صلّى الله عليه و سلم من هي ، فقال من كان على ما أنا عليه و أصحابي .

و ليس في أحاديث الأستاذ ذكر المجوس و ذكره الشيخ يوسف بن ابراهيم في بعض كتبه و ذلك كما قال الله جلّ و علا : " و كانوا شيعا " فرقا تنسب كل فرقة الى امامها الذي شايعه هي " و اذا قارنا بين التفسير بين الآية نلاحظ الاتفاق في شرح المعنى مع تغيير طفيف يتمثل في تعرض المفسر الأول للقراءات و اطناب الثاني في الشرح و ضرب الأمثلة ، و قد استشهد كلّ منهما بحديث (ستفترق أمتي) مع اختلاف مصدر استيقائه ، أمّا الجزء الثاني من الآية لا نلاحظ عليه سوى تغيير في العبارة مع اتفاق في المعنى .

و يظهر تأثر المفسّر بوضوح في كتابه (هميان الزّاد) و هذا باعتراف منه فعند شرحه لقوله تعالى : " و بشر الذين آمنوا و عملوا الصّالحات " الآية 25 من سورة البقرة يقول المفسّر بعد استنكاره للرأي القائل أنّ الايمان قول بلا عمل مفندا هذا الرأي بقوله : " فالعمل الصّالح كالبناء النّافع .. " و الأيمان أس، و لا ينفع الأس بلا بناء عليه .. ففي عطف الأعمال الصّالحات على الأيمان ايذان بأنّ البشارة بالجنّات انّما يستحقها من جمع بين الأعمال الصّالحات و الأيمان .. " (1) .

اذا رجعنا الى تفسير عبد الله بن عمر البيضاوي لنفس الآية نراه يستدل بنفس الأدلة و يضرب نفس المثال مع التقديم و التأخير ، و تغيير في الأسلوب فيقول : " و عطف العمل على الأيمان مرتبا للحكم عليهما اشعارا بأنّ السبب في استحقاق هذه البشارة مجموع الأمرين و الجمع بين الوصفين بأنّ الأيمان الذي هو عبارة عن

---

1) هميان الزّاد) 1 / 260، 261 .

التحقيق و التصديق أنّ و العمل الصّالح كالبناء عليه و لا غناء بأسّ لا بناء عليه ." (1)

و قد يأخذ المفسّر النّقل منه مع نسبة القول إليه ، و نروا ية رأيه حسب أو لا ذ بات ذكرنا أو لتعزيز ما ذهب اليه ، و خير مثال ما ورد في تفسير قوله تعالى : " إنّما المشركون نجس الآية 28 سورة التوبة ، يقول المفسّر : " . . قال القاضي وفيه دليل على أنّ ما الغالب نجاسته نجس " . (2)

و في قوله تعالى : " إنّ عدّة الشّهور عند اللّه " الآية 36 من سورة التوبة ، يقول المفسّر : " و علّقه القاضي بعدّة و هو مصدر " (3) و هذا نموذج لتفنيد رأيه يقول في تفسير قوله تعالى : " حتّى يغيّروا ما بأنفسهم " الآية 53 من سورة الأنفال " . . و لا يخفى أنّ سبب الأخذ هو تغيير النّاس ما بأنفسهم كما هو بالآية و ليس سببه عدم تغيير اللّه ما أنعم عليهم حتّى يغيّروا حالهم كما هو ظاهر الآية و لا ما هو المفهوم من منها الظّاهر و هو جري عادته على تغييره متى يغيّروا حالهم كما زعم القاضي ." (4)

و تأثره بمحمود بن عمر الزّمخشري يظهر في النّقل منه أحيانا دون ذكر السّند و هي عادة المفسّرين القدماء ، و في تفاسيره أمثلة كثيرة تثبت اقتباس المفسّر من كتابه (الكشّاف) ، و تؤكد بأنّه يعتبر من أهمّ مصادره ، و يكفي أن نسوق هذا المثال للدّلالة على ذلك .

لتفسير امحمد بن يوسف أطفيش لقوله تعالى : "المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض" الآية 67 من سورة التوبة يقول : " أي متوالفون مجتمعون على المعاصي متشابهون فيها كأبعاض الشيء الواحد كما تقول : " أنا منك و أنت منّي يريد أنكما متوافقان كما تقول القفا من الرأس تريد أن حكمهما في القصاص واحد ، و الأذنان من الرأس تريد أن وضوءهما من الرّأس لا مع الوجه ، و قيل ذلك تكذيب لحلفهم أنهم لمنكم و تقرير لقوله : " و ما هم منكم " " و يأمرون بالمنكر " " الكفر و المعاصي " ،

---

1) (أنوار التنزيل و أسرار التؤيل) 1/ 496 .
2) (هميان الزّاد) 7/276 (أنوار التنزيل و أسرار التّأويل) 1/ 496 .
3) ن م . 7/301 ، ن م . 1/ 500 .
4) (هميان الزّاد) 7/197 .

" ينهون عن المعروف " " الايمان والطاعة وذلك متضاد لأحوال المؤمنين فليسوا منهم " . (1)

ومحمود بن عمر الزمخشري يفسر قوله تعالى : " بعضهم من بعض " أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين وتكذيبهم في قوله ويحلفون بالله انهم لمنكم وتقرير قوله : " وما هم منكم ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين " يأمرون بالمنكر " " بالكفر والمعاصي " " وينهون عن المعروف " " عن الايمان والطاعات " (2).

نلاحظ عند المقارنة بين التفسيرين للآية تقاربا واضحا ، رغم أننا لا يمكننا الجزم أن المفسر اقتبس بعض المعاني مباشرة منه ، لأن التشابه نلاحظه أيضا بين مفسرين آخرين مثل عبد الله عمر البيضاوي (3) ، وعلي بن محمد علاء الدين المعروف بالخازن (4) (678هـ ، 741هـ) ومحمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (5) (1217هـ 1270هـ) غير أن اعتبار تأثر المفسر بالأول أولى لكونه متقدما على بقية المفسرين من جهة ، ولاعتراف المفسر بالاستفادة منه ومن عبد الله بن عمر البيضاوي في مقدمة كتابه (هميان الزاد) وكثيرا ما يرد ذكر اسم (جار الله) ويعني به صاحب كتاب (الكشاف) مثبتا لآرائه ، أو مفندا لها ، ومكتفيا – أحيانا – بروايتها مع جملة روايات آراء بقية المفسرين ، وفي الأمثلة التالية ما يدل على ذلك :

جاء في معرض تفسير قوله تعالى : " رئاء الناس " الآية 47 من سورة الأنفال ما يلي : " .. قال جار الله فوا فوها يعني بدر فسقوا كأس المنايا مكان الخمور ، وناحت عليهم النوائح مكان القينات " (6).

---

1) ن.م. 7/ 368.
2) (الكشاف) 2/ 161.
3) (أنوار التنزيل) 1/ 509.
4) (لباب التأويل) 2/ 243 ، 244.
5) (روح المعاني) 10/ 132.
6) (هميان الزاد) 7/ 138. ، (الكشاف) 2/ 130.

وفي تفسير قوله تعالى : " ولو شاء الله ما أشركوا " الآية 107 / الأنعام يقول المفسّر ردّا عليه : " وزعم الزمخشري إنّ المعنى لو شاء مشيئة اكراه أن يشركوا وأنّ مشيئة الاختيار حاصلة البتّة ، وهذا خلاف الظاهر فلا يقبل ألخ . . " (1)

وفي تفسير قوله تعالى : " اذ يريكهم الله في منامك قليلا " الآية 43/الأنفال يورد بعض الأقوال في شرح المنام قائلا : " . . وعن الحسن المنام موضع النوم وهو العينان كما قيل للقطيفة المنامة لأنّه ينام فيها وعليه النقاش وحكاه عن المازني قال : " بعضهم وعليه فالرؤية في اليقظة ، قال جار الله : " انّ هذا التفسير المذكور عن الحسن تعسّف وما أحسب الرؤية فيه صحيحة عنه وما تلائم عنه بكلام العرب فصاحته . . " (2).

ومحمود بن عمر الزمخشريّ في تفسيره للآية يورد نفس معاني الكلمة تقريبا ، لاحظ ذلك فيما يلي :- " . . وعن الحسن في منامك في عينيك لأنّها مكان النوم كما قيل للقطيفة المنامة لأنّها ينام فيها ، وهذا تفسير فيه تعسّف وما أحسب الرؤية صحيحة فيه عن الحسن وما يلائم علمه بكلام العرب وفصاحته " (3).

وأثر عليّ بن محمد علاء الدين المعروف بالخازن في تفاسيره واضح ، لا سيما في القصص فاذا أخذنا كمثال الحوار الذي جرى بين الذئب ويعقوب عليه السلام في تفسير قوله تعالى : " وجاءوا على قميصه بدم كذب " الآية 18 / يوسف نلاحظ تشابها كبيرا بين التفسيرين ، ولا ندري هل نقل المفسّر هذا الحوار من كتاب عليّ بن محمد علاء الدين (678 هـ-741هـ) (لباب التأويل) أو كان المصدر الذي آستمد منه هذه القصة هو نفس المصدر الذي آعتمده هذا الأخير ؟ وان كان المفسّر - أحيانا - يحاول الاختصار بينما نجد (الخازن) ينقلها ويفرد لها فصلا يقول المفسّر : " . . ويروى أنهم أتوا بذئب ، وقالوا هذا هو الذي أكله فقال عليه السلام : أيها الذئب أنت أكلت ولدي ، وثمرة فؤادي ، فأنطقه الله عزّوجلّ ، وأفهمه فقال والله ما أكلت ولدك ولا رأيته قطّ ، ولا يحلّ لنا أن نأكل لحوم

---

1) التيسير 2/ 377.
2) هميان الزاد 7/ 132.
3) الكشاف 3/ 128.

الأنبياء ، فقال له وكيف وقعت في أرض كنعان فقال : " جئت لصلة الرحم وهي قرابة لي فأخذوني إليك ، فأطلقه يعقوب " (1)

غير أن من الملاحظ لا تعثر على آسم (الخازن) في تفاسيره إلا قليلا ، لا كالمفسّرين السّابقين مثل نقده لروايته رواها هو ومحمد بن جرير الطبري (224هـ ، 310 هـ) قائلا : " .. وما رواه الطبريّ والخازن عن ابن جبير من أنه قتل يومئذ جبرا والثا أيضا وهو المطعم بن عدّي غير صحيح لأنه مات قبل بدر .. " (2) وذلك في تفسير قوله تعالى : " وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا " الآية 31 من سورة الأنفال .

وأهم مصدر آعتمده المفسّر وإن لم يذكر آسم صاحبه كثيرا في تفاسيره هو (روح المعاني) لمحمود بن عبد الله الحسيني الألوسيّ (1217هـ ، 1270هـ) لكننا لا نعتقد أن المفسّر قد آطّلع عليه خلال تفسيره للقرآن الكريم في كتابه (هميان الزّاد) لأن المفسّر الأوّل قد أنهى تفسيره في سنة 1267هـ بينما المؤلّف قد أنهى تفسيره في سنة 1271هـ وأربع سنوات كافية في ذلك الوقت لحصول المؤلّف على نسخة جديدة التأليف ، بينما في تفسيره (تيسير بيان التفسير) لا سيّما في الأجزاء الأخيرة نجد أثره واضحا ، في نقل أفكار وعبارات — أحيانا — برمّتها منه ، وقد أشار المفسّر إلى هذا المرجع عند تفسير قوله تعالى : " لا بارد ولا كريم " الآية 44 سورة الواقعة قائلا : " .. ويجوز أن يكون ذلك نعتا ليحموم فيفيد نفي الكرم عن اليحموم والبرد العام عن الظل المخصوص منه اذ كان بعضه مع بقاء ما تقدم من نكتة نفي البرد والكرم عن الظل أشار إليه الإمام أبو حيّان ورد عليّ تفسير قبل هذه السّورة بمقدار لبغدادي يكثر فيه الرّد على أبي حيّان ولي همّة في الجواب عنه لكن لي أشغال (3) "

ويفهم من ذلك أن المفسّر قد آطّلع على هذا المصدر ، واعتمده في تفسيره (التّيسير) الذي لو تصفّحناه لوجدنا فيه أمثلة ، بل نلاحظ — أحيانا — نقله لعبارات كاملة دون التّصرف فيها ومن خلال المثال التّالي يتضح لنا ذلك ، وما جاء في تفسيره لقوله تعالى : " هل أتى على الإنسان حين من الدّهر لم يكن شيئا مذكورا " الآية

---

1) (التّيسير) 3/305 لباب التأويل 3/9 .

2) (هميان الزّاد) 7/157 ، 158 .

3) (التّيسير) 6/49 (روح المعاني) المجلد 9 الجزء 27 /144 .

01 من سورة الانسان يقول المفسر ما يلي :ـ" . . مع أن الرواية الصحيحة أم هل رأوها بأم المنقطعة بمعنى بل كما قال السيرافي ومع أن في نسخة قديمة وجد ما السيوطي فهل رأوها بالفاء . . كما فسرها ابن عباس بمعنى قد وكذا سيبويه والكسائي وقيل للتقريب وقيل للتحقيق . . (على الانسان) الجنس على الصحيح ولا مدخل فيه لآدم وبه قال ابن عباس . . . (حين) طائفة من الزمان محدودة طويلة أو قصيرة . (من الدهر) الزمان الممتد غير محدود يقع على مدة العالم من حين خلق الله الزمان الى ما لا نهاية له . . ويطلق الدهر أيضا على كل زمان طويل غير معين والزمان عام للقليل والكثير . . والمعنى قد أتى أو هل أتى على جنس الانسان قبل زمان قريب مثلا طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد لا يذكر كما قال الله عز وجل " لم يكن شيئا مذكورا " بل كان شيئا لا يذكر بالانسانية أنما غير معروف بها وهو التراب . الخ " (1)

فقد أورد في تفسير الآية ما يمكن اعتباره اقتباسا من المرجع إما معنى أو حرفيا للمقارنة نورد مثاله من كتاب (روح المعاني) . " . . على أن السيرافي قال الرواية الصحيحة أم هل رأوها على أن أم منقطعة بمعنى بل وقال السيوطي في شرح شواهد المغني الذي رأيته في نسخة قديمة من ديوان زيد فهل رأوها بالفاء وعن ابن عباس وقتادة هي بمعنى قد وفسرها بها جماعة من النحاة كالكسائي وسيبويه والمبرد والفراء وحملت بمعنى التقريب ومن الناس من حملها على معنى التحقيق . . والمراد بالانسان الجنس على ما أخرجه ابن المنذر عن ابن عباس ، والحين : طائفة محدودة من الزمان شاملة للكثير والقليل والدهر ، والزمان الممتد الغير المحدود ويقع على مدة العالم جميعها وعلى كل زمان طويل غير معين والزمان عام للكل . . والمعنى هنا قد أتى أو هل أتى على جنس الانسان قبل زمان قريب طائفة محدودة مقدرة كائنة من الزمان الممتد لم يكن شيئا مذكورا بل كان شيئا غير مذكور بالانسانية أصلا أي غير معروف بها . " (2)

فلا تنحصر مصادر من كتب التفسير فيما ذكرناه ، واخترناه كأمثلة ، فحسب بل نجده يستقي المعلومات من أغلب المفسرين الذين سبقوه ، غير أنه اعتمد على بعضهم أكثر من غيرهم ، كما أنه يستفيد من مفسر في جانب معين أكثر من جوانب

---

1) (التيسير) 6/ 433، 434 .
2) (روح المعاني) المجلد 10 جـ 29/ 189، 190 .

أخرى فعلى سبيل المثال ، اتخذ كتاب (عرائس القرآن) (1) مصدره في رواية قصص الأنبياء وكتاب (البحر المحيط) لمحمد بن يوسف أبي حيّان (654هـ-745هـ) (2) في مسائل قواعد اللغة ، كما كان (جامع البيان في تفسير القرآن) لمحمد ابن جرير الطبري (224هـ-310هـ) (839م-923م) مرجعه في التفسير بالمأثور . (3).

وقد يشير الى بعض المراجع التي اطّلع عليها خلال تفسيره للآية ، كما أشار الى حصوله على نسخة من كتاب (الفتوحات) لمحي الدين محمد بن علي (أبو بكر) المعروف بابن عربي (560 هـ-638 هـ) ويقول في ذلك : " .. والحمل على ظاهره من أراد الأفراد أولى كما قال ابن العربي في فتوحته ، تحصلت لي من مكة نسخة منه بالقالب معها كلام لبعض الأشعرية .. " (4).

ومن المصادر التي ورد مؤلفوها كثيرا في تفاسيره عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي (849 هـ-911هـ) (5) وقاسم بن أصبغ البياني القرطبي (247 هـ-340هـ) (6) وعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربي (481هـ-542هـ) (7) ومحمد بن عمر التيمي البكر ، فخر الدين الرازي (544هـ-606هـ) (8) واسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين (701هـ-774هـ) (9).

ومن الملاحظ أنّنا لا نعثر على اسم هود بن محكم الهوّاري (القرن الثالث الهجري) المفسر الاباضي الّا قليلا ، وهذا دليل على أنه لم يتخذه مرجعا أساسيّا غير أنه يفهم أنّ غرض المفسّر من ذكر اسمه ضمن بقية المفسرين هو محاولة وضعه في مكانه كمفسّر ومن هذا المثال يتضح لنا ذلك : " وقال عامر الشعبي وابن زيد والشيخ هود حسبك الله وحسب من اتبعك من المؤمنين ." (10).

---

1) لعل كتاب المشار اليه لأحمد بن محمد ابراهيم الثعلبي (427هـ) لورود اسمه في تفاسيره انظر أمثلة في هميان الزاد 31/7، 45، 47، 48، 288.

2) أنظر أمثلة في (التيسير) 279/4، 12، 28/3، 160، 161.

3) أنظر أمثلة (هميان الزاد) 30/7، 34، 266، 267، 292. (التيسير) 290/1.

4) (التيسير) 327/5.

5) أنظر أمثلة في التيسير 501/1، 20/4 هميان 90/7.

6) = = = 510/1، 139/3.

7) = = = ن م. 535/6، 554، 12/4، 129/5.

8) = = (هميان الزاد) 57/7، 424.

9) ن م. (هميان الزاد) 83/7، 40.

10) ن م. 209/7 أنظر أمثلة أخرى في ن م. 187/7، 128.

وقبل أن نختم حديثنا عن مصادره من كتب التفاسير ، نريد أن نشير إلى أن المفسّر قد يستقي معلوماته من مصادرها دون واسطة وقد يستقيها عن طريق مصادر أخرى ، كما ورد في تفاسيره أسماء مفسرين آخرين لم نشر إليهم لأننا لسنا بصدد حصر جميع مصادره من كتب التفاسير فاقتصرنا على أهمها ، وعلى ما يخدم الغرض الذي أشرنا اليه في مقدمة هذا الفصل .

مصادره من كتب الحديث :

يبدو أن المفسّر يستقي الحديث النبوي الشريف من مصدرين : كتب التفسير ، وكتب الحديث ، ويظهر لنا ذلك من نقله لرأي مفسّر في حديث أو في رواية عنه ، والأمثلة التالية توضح ذلك ، في تفسير قوله تعالى : " هل تعلم له سميا) الآية 65 من سورة مريم يقول : " . . وفي تفسير البغوي عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربي الأعلى الذي خلق فسوى الى آخر السورة " (1) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : " أم نحن الزارعون " الآية 64 من سورة الواقعة قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " لا يقولن أحدكم زرعت ولكن ليقل حرثت ، ثم قال أبو هريرة ألم تعلموا أن الله تعالى يقول افرأيتم ما تحرثون (2) الآية رواه الطبري وغيره ، ويستحب للزارع . . قاله الطبري بلفظه وقد ظفرت بنسخة من تفسيره بخط اليد المشرقي . . " (3)

إن الحديث الوارد في المثال الأول أخرجه أحمد وأبو داود الطبري والبيهقي في سننه حسبما ذكر محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (4) ، لكن المؤلف ينقله من تفسير حسين ابن مسعود الملقب بالبغوي ، أما الحديث الوارد في المثال الثاني نسب روايته الى محمد بن جرير الطبري مع أن النص الوارد في تفسير هذا الأخير (5) يختلف عن النص الوارد في تفسير المؤلف .

1) (التيسير) 4/ 55، 56 .
2) الواقعة 63 .
3) (روح المعاني) 30/131 المجلد 10 .
4) (التيسير) 6/ 55 .
5) (جامع البيان) المجلد 11 ، 27/ 114 .

لكننا نجد نفس النص مع آختلا ف بسيط في قول أبي هريرة : " ألم تسمعوا الله " عـوض " ألم تعلموا أن الله " في كتاب روح المعانيّ (1) ولا نستبعد حينئذ نقل المفسّر للحديث من المصدر الأخير ، مع الملاحظة أنّ هناك آختلافا في نسبة الدّعاء (ويستحب للزّارع ألخ) فقد نسب روايته لمحمد بن جرير الطّبري بينما صاحب (روح المعاني) رواه عن قاسم بن أصبغ البيانيّ القرطبيّ ، ومن هذين المثالين يمكن القول بأنّ المفسّـــر يلجأ الى مصادر التفسير لرواية الحديث عنها ، لكن المؤلف يلجأ أيضا إلى مصادر الحديث لاقتباس الشّواهد منها ، ومن الأدلة التي تثبت ذلك ، اعترافه بأطلاعه على أشهر كتب الحديث المعروفة وحصوله عليها ، ونقرأ هذا الاعتراف في معرض تفسيره لقوله تعالى : " وما جعل أدعياءكم أبناءكم " الآية 04 من سورة الأحزاب ، ويقول المفسّر بعد شرحه للآية وذكر أسباب نزولها مستشهدا بحديث ورد في "مسلم والبخاري والترمذي والنّسائي باسنادهم ... " . وكانت كتب الحديث غير موجودة في مضاب (2) ورأى مالكي عالم من أهل مكـــة مضابيّا ينسخ شرح النّيل (3) في مكة ولم يجد فيها الحديث كثيرا فأعطاني البخاري ومسلما والترمذي وابن ماجة والنّسائي وأبا داود وغير ذلك وأنا حاضر في مكة ، فانتفعت بتلك الكتب كما انتفعت بصحيح الرّبيع بن حبيب فجمعت منها وفاء الضمانة (4) وجامع الشمل (5) في حديث خير الرّسل . (6)

وفي هذا الاعتراف ذكرنا أهم مصادر الحديث التي اعتمدها ، والتي ورد أسماؤها كثيرا في تفاسيره ، تارة بنقل الأحاديث منها ، وطورا بنقلها من كتب التّفاسـير مع ذكـر السند . كما أشرنا إلى ذلك سابقا .

---

1) (روح المعاني) المجلد 09، 148/26 .
2) اسم واحة بالجنوب الجزائري تدعى حاليا وادي ميزاب عاصمة ولايتها غرداية تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي 600 كلم وبني يسجن احدى قرى هذه الواحة مسقط رأس المفسر .
3) من مؤلفات من المفسّر في الفقه .
4) وفاء الضمانة بأداء الأمانة من مؤلفاته في الحديث .
5) جامع الشمل في الحديث خاتم الرّسل من مؤلفاته في الحديث .
6) (التّيسيـــر) 4/799 — 800 المجلّد 2 .

وقد يذكر المصدر وصاحبه كما هو الملاحظ في معرض تفسيره لقوله تعالى : " انك أنت الوهّاب" الآية 08 / آل عمران يقول المفسر : " .. قال الطّبرانيّ في معجمه الكبير، عن أبي مالك الأشعريّ أنه سمع النّبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول : " لا أخاف على أمتي إلّا ألخ .. " (1) والمثال التالي يثبت أكثر بأن المفسّر كان يعتمد مصادر الحديث لروايته في تفاسيره فيقول : " رأيت في مسلم والتّرمذيّ وأبي داود وابن ماجه والنّسائيّ والبيهاقيّ أنّ رسول الله ألخ .. " (2).

وعند تصفّحنا تفاسيره لا سيّما (هميان الزّاد) و (التّيسير) لاحظنا أسماء أشهر المحدّثين والرّواية عنهم وهذا ما يؤكّد ما ذهبنا اليه من أنّ المفسّر اعتمد أهمّ المصادر من كتب الحديث، والشيء الملاحظ أنه لم يتّخذ مسند الرّبيع بن حبيب الأزديّ (...، 170 هـ/ 786 م) أحد أقدم مصادر الحديث عند الأباضيّة رحمه مصدرًا أساسيًّا في هذا العلم، فلا نعثر على اسم هذا المحدّث في تفاسيره إلّا نادرا مثل قوله : " .. وقد أخرج الرّبيع بن حبيب وغيره حديث أنّ أبا مسعود رفع السّوط ."(3) وفي موضع آخر يورد حديثا قريبا من معنى الحديث السّابق ويقول : " وهو مخالف لمتن حديث الرّبيع" (4) وقوله : " .. لحديث الرّبيع رحمه الله أنّه صلّى الله عليه وسلّم جاوز فرسخين من المدينة الى ذي الحليفة، وقال أريد أن أعلّمكم حدّ السّفر(5) وهذا الحديث قد ورد في الجامع الصّحيح لمسند الرّبيع حسب النّص التّالي : " الامام قال قال أنس بن مالك أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صلّى الظهر بالمدينة وصلّى العصر بالحليفة ركعتين بينهما في القياس والتقدير خمسة أميال الى ستّة" (6) نلاحظ أنّ راوي الحديث هو أفلح بن عبد الوهاب .

---

1) ن.م. 1/ 446.
2) ن.م. 6/ 540.
3) التيسير 1/ 726 وقد ورد الحديث في الجامع الصّحيح لمسند الرّبيع بن حبيب مع اختلاف بسيط في العبارة 2/65 .
4) ن.م. 1/ 729.
5) ن.م. 1/ 794.
6) الجامع الصّحيح 4/09.

(ت . . 240هـ 854م) وروايات هذا الأخير ضمّها مرتّب الكتاب يوسف بن ابراهيم (أبو يعقوب) (1) الى الكتاب ولم يروها الرّبيع بن حبيب ونفس الملاحظة نستخلصها من استشهاده بحديث (ستفترق أمتي) فبعد أن ساق الحديث قال : "٥٥ وهذا هو المشهور وعليه أبو عبيدة رحمه الله تعالى ٥٠٠ ولفظ أبي يعقوب ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلّهن الى النّار ما خلا واحدة ناجية وكلّهم يدّعي تلك الواحدة الحديث" (2) ٠

انّ النّص الثاني هو النّص المطابق للنّص الوارد في الجامع الصّحيح لمسند الرّبيع بن حبيب بن عمر الأزديّ ٠

نستخلص مما تقدم من الأمثلة أنّ المفسّر اعتمد الجامع الصّحيح مصدرا من بين مصادر الحديث في تفاسيره ،ولكن نجد من جهة أخرى أمثلة تثبت ما ذهبنا اليه سابقا بأنّ المؤلّف لم يتخذه مصدرا أساسيا بحيث نجد بعض أحاديث واردة فيه ،فيكتفي بذكر مصادر أخرى دونه وفي المثال التّالي ما يدلّ على ذلك ٠ " ٥ ٠ قال صلّى الله عليه وسلم من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له " رواه الطّبري والبيهقيّ ولفظ الطّبريّ عن أبي عباس وابن مسعود موقوفا ومرفوعا لم يزدد بها عن الله الّا بعدا ٠ " (3)

وقد روي هذا الحديث في الجامع الصّحيح عن جابر بن زيد : "عن النّبي صلّى اللّه عليه وسلّم كان يقول هو وأصحابه : " من لم تنهه عن صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من اللّه إلا بعدا" (4) ٠

وفي المثال التالي ما يدلّ على عدم اهتمام المفسّر كثيرا بهذا المصدر فيقول : " ولم يصّح عند أصحابنا حديث البخاري ومسلم أنّ كل آدم يفنى إلاّ عجسم الذنب فانه يبقى ومنه يبني " (5) ٠

---

1) ن ٠م ٠ 3/1 ٠ تنبيهات لمصحح الكتاب عبد الله بن حميد السالمي ٠

2) (التّيسير) 241/5 ، وللاطلاع على مثال آخر ،ارجع الى ن ٠م ٠ حديث (أصبح من عبادي مومن ألخ ٠) رواه الرّبيع بن حبيب في الجامع الصّحيح لمسنده 16/1 مع اختلاف بسيط في بعض الكلمات والعبارات ٠

3) ن ٠م ٠ 686/4 ٠

4) (الجامع الصّحيح ، 15/4 ٠

5) (التّيسير ، 674/4 ،فقوله لم يصّح عند أصحابنا نهذا الرّأي يبدو أنّه نقله من كتاب السؤالات ،لأن عبد اللّه بن حميد السّالميّ أثبت صحته في شرحه لجامع الصّحيح لمسند الرّبيع وبل أنكر تأويله ،أنظر صفحة 63 ،564 من المرجع الأخير ٠

والحديث نفسه وارد في الجامع الصّحيح على النّحو التّالي : رواه أبو عبيدة عن جابر بن زيد : " ومن طريقه (1) عنه عليه السّلام ، كلّ ابن آدم تأكله الأرض إلا عَجْب الذنب فإنّه منه خلق ومنه يركّب" (2) .

ومما تقدّم يتضح لنا على الأقل عدم اهتمام المفسّر بهذا المصدر ... على مصادر الحديث الأخرى التي اعتمدها المفسّرون السّابقون ، في الوقت الذي كنّا نتوقع أن يتخذ هذا المصدر الأباضيّ في الحديث مصدرا أساسيّا وان لم يهمله اهمالا تامّا ، فقد رأينا أنه كان يشير الى ما يجوعلى الأقل (3) باستثناء هذه الملاحظة ، نجد المفسّر اهتم كثيرا بكتب الحديث الصحاح ، وبصفة عامّة استفاد من أشهر كتب الحديث .

مصادره من كتب الفقه :

تنقسم هذه المصادر الى قسمين :

1) القسم الأوّل ما يحمل من آراء المدارس الفقهية المختلفة ، التي لا نستطيع أن نتأكد من أن المفسّر قد استمدها من مصادرها ، ولم يقتبسها من كتب التّفسير ، لأنّنا نلاحظ أحيانا توافقا وتطابقا كبيرا بين طريقته في عرض هذه الآراء وطريقة مفسّر آخر ، ولتوضيح ذلك نضرب هذا المثل : في تفسير قوله تعالى : " وعلى الوارث مثل ذلك " الآية 233 من سورة البقرة ، فبعد عرضه لبعض الآراء يسوق رأي أبي حنيفة والشافعيّ "(4) وهذه الطريقة في الشّرح والعرض نلاحظها في كتاب (روح المعانيّ) (5) ، وفي تفاسيره أمثلة كثيرة يمكن للدّارس أن يعثر عليها لا سيّما في تفسير آيات الأحكام .

غير أنّ هذا لا يعني أنّ المفسّر لم يرجع إلى المصادر الفقهيّة للاستفادة منها رغم أنّ ايراد أسمائها في تفاسيره قليل بالمقارنة الى ورود أسماء أئمة الفقه (6) .

1) أي أبي هريرة .
2) (الجامع الصّحيح) 2 / 71 .
3) أنظر مثالا آخر على ذلك في (التّيسير) 1 / 544 ، (الجامع الصحيح) 1 / 69 .
4) (التّيسير) 1 / 335 .
5) (روح المعانيّ) 2 / 147 المجلّد الأول .
6) أنظر مثالا في (التّيسير) 1 / 501 .

2) والقسم الثّاني يتمثل في كتب الاباضيّة في الموضوع ومن أمثلة هذه المصادر : كتاب قواعد الاسلام (1) الدّيوان (2) السّوالات (3) القناطر (4) الايضاح (5) ٠
يعود الى هذه المصادر امّا لسوق رأي الاباضيّة في قضّية ما أوْ رأْي المؤلّف فحسب فقد يذكر اسم المصدر ومؤلّفه أو يكتفي بذكر المؤلّف دون الاشارة الى كتابه أو العكس ، ومن خلال هذه الامثلة يتّبين لنا ذلك :

فأثر ايراد رأي المذهب الاباضيّ في نهي المشرك غير الكتابي والمشرك الكتابي عن دخول المسجد الحرام أو غيره من المساجد أو مواضع الصلاة والمجالس يقول : " وفي السّؤالات وان دعا مشرك الى الجملة التّي يدعو اليها رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلم أو أمر بها أو كتبها أو صوّبها فانّه يجبر على التّوحيد ألخ ٠٠ " (6) ٠

وفي معرض تفسيره لقوله تعالى : " وما كان المومنون لينفروا ـ الى يحذرون " الآية 122 من سورة براءة يقول : " ٠٠ قال الشّيخ اسماعيل الجيطالي وقال أبو العبّاس أحمد بن محمد بن بكر لا يجوز أن يقصد بتعلّمه التّعليم ٠ " (7)

وفي اتخاذ الأوطان يقول : " ٠٠ ذكر الشيخ عامر نفعنا اللّه ببركته ورحمه الله ما حاصله أنّه من لّم يتّخذ وطنا لا صلاة له ألخ ٠٠ " (8) ٠

---

1) من تأليف اسماعيل بن موسى الجيطالي (أبو طاهر) ، تصحيح وتعليق عبد الرحمن بن عمر عمر بكلي ٠
2) ويدعى كتاب الاشياخ ألّفه سبعة من الفقهاء ويشتمل على 25 جزءا ٠
3) ألّفه عثمان بن خليفة المازغني السوفي (أبو عمر) من علماء القرن السادس الهجري ٠
4) قناطر الخيرات في أصول الدين من تأليف اسماعيل بن موسى الجيطالي (أبو طاهر) ٠
5) ألّفه عامر بن علّي بن عامر بن سيفا والشماخي (أبو ساكن) يشتمل على 3 أجزاء ٠
6) (هميان الزاد) 278/7 أنظر أمثلة أخرى في كتاب التّيسير 569/1 ، 472/5 ٠
7) (هميان الزاد) 451/7 ٠
8) (التّيسير) 415/6 ، رأي صاحب كتاب الايضاح 1/ 625 ٠

و من الفقهاء الإباضيين الذين كان المؤلف يحفل بآرائهم و يستشهد بها لا سيما في العقيدة عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي (أبو عمار) و يوسف بن ابراهيم السدراتي الورجلاني (أبو يعقوب) (500، 570 هـ).

ففي تفسيره لقوله تعالى: " و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء " الآية 116 من سورة النساء يقول المفسر: " .. و قال أبو عمار رحمه الله ما دون ذلك الصغار لأنها تغفر لمن اجتنب الكبائر و لو بلا قصد توبة منها ما لم يصر عليها .. " (1)
و في تفسير قوله تعالى: " أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين " الآية 14 / سبأ يستشهد بقول يوسف بن ابراهيم (أبي يعقوب) قائلا: " و بأن الشيخ يوسف بن ابراهيم قال من كان داخل بيت من زجاج لا منفذ له لا يسمع الصوت و لو ضربت عليه طبول الدنيا إلا أن لله خرق العادة. " (2)

كما كان يستشهد بمنظومة فتح بن نوح الملوشائي أبي نصر مثلما نلاحظ ذلك في قوله: " .. و قد عبر أبو نصر بتقدير في النونية.. " (3) عند تفسيره للآية 180 من سورة الأعراف.

و نخلص الى القول بأن المصادر الفقهية المتنوعة التي اعتمدها المفسر تتجلى في عرضه و سوقه لآراء الفقهاء المختلفة في قضية، كلما دعا تفسير الآية الى ذلك فاذا كنا لا نستطيع الجزم بأن المفسر قد استقى هذه الآراء من مصادرها و لم ينقلها من كتب التفسير، فاننا لا نشك في أن آراء المدرسة الإباضية استمدها من مصادرها، فقد وردت في تفاسيره بعض هذه المصادر المعتقدة أو أسماء مؤلفيها فاكتفينا بذكر أهمها.

مصادره من كتب مختلفة:

ان الملاحظة الملفتة للنظر في تفاسيره و التي تسترعي انتباه كل باحث هي تنوع المعلومات و يستدعي ذلك تنوع المصادر، غير أنه لا يمكن لنا التأكد من أن المفسر — كما سبق أن ذكرنا — رجع الى هذه المصادر للاستفادة منها، و لم يقتبسها من كتب التفسير، ففي القراءات على الرغم من اطلاع المفسر على هذا العلم و التأليف فيه (4) إلا أننا مع ذلك لا يمكن الجزم بأنه كان يعتمد على مصادر هذا العلم.

---

1) (التيسير) 1/ 741.
2) (هميان الزاد) 912/7.
3) (هميان الزاد) 7/ 58.
4) له كتاب تلقين التالي للآيات المتعالي مخطوط في خزانة محمد بابا نو بني يسقن ولاية غرداية موضوعه علماء التجويد و القراءات شرح لمنظومته التي سماها (جامع حرف ورش) تحتوي على 513 بيتا.

ففي المثال التالي نلاحظ تطابق شبه تام بين استشهاد المفسّر بقراءة زيد بن عليّ وابن مسعود واستشهاد محمود بن عبد الله الحسينيّ الآلوسيّ في كتابه (روح المعاني) يقول المفسّر: "..ويدل له قراءة زيد بن عليّ أنّه ملاقيكم بلا فاء وابن مسعود تفرون منه ملاقيكم " (1)

وجاء في معرض تفسير صاحب (روح المعاني) للآية ما يلي: "..وقرأ زيد بن عليّ أنّه ملاقيكم — بدون فاء... وقرأ ابن مسعود " تفرون منه ملاقيكم بدون (الفاء) (2).

نلاحظ هذا التّطابق في ترتيب القارئين خاصّة، وهذا ما يدعونا الى التّحفظ من اصدار حكمنا بأنّه استفاد من مصادر هذا العلم، وان لم نستبعد ذلك لتصنيفه فيه.

وقد اعتمد في التاريخ بعض المصادر، منها كتب السّير (3) والشيء الذّي يؤكد لنا ذلك ورود أسماء شخصيات تحدّثت عنها هذه الكتب منها كموسى أبو محمد (4) وأبو مرداس معاصر السّدراتي (من القرن الثّاني الهجريّ)، وجنون بن يمريان (5) وعلى سبيل المثال يورد نصيحة أبي مرداس لجنون بن يمريان قائلا: ".. قال أبو مرداس لجنون بن يمريان إيّاك ومفارقة المسلمين وبغضهم والتّرك بعد الاجتماع الخ.." (6).

---

1) (التّيسير) 6/ 219 تفسير الآية 08 من سورة الجمعة.
2) الآلوسي (روح المعاني) المجلّد 10، 28/ 97.
3) كتب السّير التي تترجم الشّخصيات الأباضيّة نخصّ بالذكر يحي بن أبي بكر (أبو زكريا) سيّر الأئمة وأخبارهم، أبو الربيع الوسياني (سير مشائخ المغرب) أحمد بن سعيد الدّرجيني (طبقات المشائخ بالمغرب) أحمد بن سعيد الشّماخي السّير.
4) ذكره أبو زكريا في كتابه سيّر الأئمة ص 167، 168 وترجم له الشّماخيّ في السّير ص 470، 471 نقلا من حاشية رقم 9 لأبي زكريا في سيره ص/ 172 بقلم اسماعيل العربي كما ذكره أبو الرّبيع الوسيانيّ سيّر مشائخ المغرب 2/ 14.
5) ذكره يحيّ بن أبي بكر (أبو زكريا) السّير ص 113، 124، 126، 155، 161، 166، 186 وترجم له أحمد بن سعيد الدّرجيني الطّبقات 2/ من ص 341 — ص 344 عدّة من الطبقة السابعة (300 هـ — 350 هـ).
6) (التّيسير) 6/ 311.

و من الكتب التّاريخيّة التّي ورد ذكرها في تفسيره ، كتاب الاستقصاء (1) ، يقول المفسّر متحدثا عن فتح الاندلس: " .. و في كتاب الاستقصاء أنّه دخلها صحابيّ واحد وقد ذكرت اسمه في غير هذه السّورة و هو المنيسار (2).

و من جملة المصادر اللّغويّة التّي يعتقد أنّه استفاد منها كتاب المحكم (3) يقول متحدثا عن رأي موءلفه : " .. و قال صاحب المحكم هو القدر المتوسّط من أعمار أهل كلّ زمان ، و هذا أعدل الأقوال " (4) و ذلك في معرض تفسيره لقوله تعالى : "و الذّين اتبعوه باحسان " الآية 100 من سورة براءة .

و ورد كذلك أسماء بعض اللّغويّين مثل الجوهرّي (1005م..) ، ففي تفسير قوله تعالى : " و من لّم يطعمه " الآية 249 من سورة البقرة ، يسرد المفسّر رأيه في مدلول الطّعم (5).

كما لا تخلو تفاسيره من ذكر بعض مراجع قواعد اللّغة لكنّها قليلة اذا أخذنا بعين الاعتبار اهتمام الموءلّف بهذا الجانب ، و ايراد أسماء النّحاة المشهورين و من أمثلة ذلك ذكره لرأي ابن مالك في (إلّا) في معرض تفسير قوله تعالى : "إلّا تنصروه " الآية 40 من سورة براءة قائلا : " .. و ابن مالك على جلالته في النّحو و التّصريف كثير همسا ن الحديث و التّفسير و الفقه و اللّغة و العروض ذكر إلّا في شرح التّسهيل من أقسام إلّا و انّما ذلك منه على جهة الغفلة أو زلّة القلم(6).

و من المصادر النحوية التّي اهتم بها المفسّر (شرح سيبويه) فقد روّي عن السّيرافيّ (قبل 270هـ363هـ) أنّ الواو كاف في الاباحة " (7) عند تفسير قوله تعالى : "فصّيام ثلاثة أيّام في الحجّ و سبعة اذا رجعتم " الآية 196 من سورة البقرة ، و هذا من بين الادلة التّي تثبت اهتمام المفسّر بهذا العالم و موءلّفه السّابق الذّكر.

---

1) كتاب الاستقصا في أخبار المغرب الاقصى لاحمد النّاصريّ السّلاويّ يشتمل على 4 أجزاء طبع سنة 1312هـ
2) التيسير 2/1043 .
3) المحكم والمحيط الاعظم معجم ألفه عليّ بن اسماعيل (أبو الحسن) المعروف بابن سيده الاندلسيّ (.. 458هـ)(.. 1066 م) رتبت ألفاظه على ترتيب كتاب "العين" للخليل لمزيد من المعلومات عن هذا المعجم راجع الى أحمد مختار عمر البحث اللغوّي عند العرب ص150،151 .
4) (هميان الزاد) 7/408 .
5) التيسير 5/362 .
6) هميان الزّاد 7/316 .
7) التّيسير 1/268 .

ومن المصادر المعتمدة في تفاسيره الكتب الأدبية منها الدّواوين الشعرية وذكر هذه المصادر لا ترد إلّا قليلا ، ويكتفي في معظم الأحيان بسرد الأبيات الشعرية دون ذكر اسم الشاعر، ومن اعترافاته اطّلاعه على ديوان الشعراء السّتة (1) مستدلا بقوله على جواز كتابة البسملة في الدّواوين الشّعريّة . : " . . وجدتها مكتوبة في نسخة قديمة بأكثر من خمسمائة عام من ديوان الشّعراء السّتة معروضة على أبي عليّ الشّلوبين وأعطى الاجازة فيها لبعض تلاميذه " (2).

وفي نقده لأبيات شعرية لامرئ القيس(500م ،540 م) موضوعة يقول : " . . بل ذلك شعر موضوع اقتبس من الآية كقوله قتل الانسان ألخ . . . فانّي لم أره في نسخ ديوانه ولا في شرحه ولا سيّما نسخة عتيقة موجودة صحّحت عند أبي عليّ الشّلوبين في أندلس ولم أجد فيها ذلك " (3)

ومن المصادر الأدبيّة التّي اهتّم بها المؤلّف ، واستعان بها في تفاسيره كتاب (الأمالي) لأبي عليّ القالي (901م-967 م) (4).

وللرّد على أهل الكتاب ، يبدو أنّ المؤلّف اطّلع على التّوراة والأنجيل ومما يدّل على ذلك قوله في معرض تفسيره تعالى : " برسول يأتي من بعدي " الآية 06 من سورة الصّفّ . تبشيرا تضّمنته التّوراة ، وقد بسطت أدلّة نبوءة سيّدنا محّمد صلّى اللّه عليه وسلّم ورسالته من الكتب المتقدمة في (ردّ الشّرود الى الحوض المورود)(5).

---

1) لعل شعراء السّتة هم الشعراء الجاهليّون ، امرؤ القيس والنّابغة وزهير ، وطرفة ، وعنترة ، وعلقمة ، ولمزيد من التّوضيح أرجع الى كتاب العصر الجاهلّي شوقي ضيف.

2) التّيسير 02/1.

3) التّيسير 495/6 ، مثال آخر في ن م . 303/5 و.

4) [illegible] ، العصر الجاهلّي 131/1 يعتبر شوقي ضيف كتاب الامالي من الكتب التي فيها انتحال كثير

4) أنظر مثالا في كتاب التيسير 96/6.

5) كتاب للمفسر طبع طبعة حجريّة في 1 صفر 1320هـ يحتوي على 233 صفحة يسوق فيه الأدلة على نبوءة سيّدنا محمد صلّى اللّه عليه وسلّم وصدق رسالته .

فمن ذلك ما في الفصل العشرين من السّفر الخامس منها ."(1)

وبعد عرض أهمّ المصادر التي آعتمدها المؤلّف في تفاسيره نخلص إلى القول بأنّ المفسّر لم يخرج عن سنّة المفسّرين الذين سبقوه فيما يخصّ نوعيّة المصادر التي آستعانوا بها في تفاسيرهم بآستثناء رجوعه الى المصادر الاباضيّة .

ومن خلال ما تقدم يمكن لنا تصوّر منهجيته في التّفسير والتي سنتعرض إليها في الباب الموالي من هذا البحث ، فاذا أهملنا ذكر بعض المصادر الخاصّة بعلوم أخرى كالطّب والفلك ألخ . . . أو بعض مؤلّفات شخصيات بارزة اهتم بها المفسّر مثل ابن تيمية ، وابن قيّم الجوزية والغزالي ، وغيرهم لاعتبارها من المصادر المشتركة بين معظم المفسّرين الذين ينتمون لمدرسة المفسّر ، وممّا لاحظناه من خلال دراستنا أنّه يقتبس كثيرا من المعلومات الواردة في المصادر السّالفة الذّكر من كتب التّفسير وهذا لا يعني حكمنا عليه بأنّه لم يستفد منها ، ولم يرجع اليها .

وفي فصول الباب الثالث سنحاول معالجة هذه القضية عند حديثنا عن منهجية المفسّر من خلال كتابه (التّيسير) ، ومقارنتها ببقيّة التّفاسير .

وقد نلجأ الى الاشارة الى بعض هذه المصادر اذا آقتضى الامر .

---

1) التّيسير 6/ 197 ، 198 .

الباب الثالث

منهجيته في تفسيره التيسير ومكانته بين بعض المفسرين

ـ الباب الثالث ـ

الفصل الاول :

ـ طريقته في التفسير .

اطار السورة :

لرسم معالم طريقة تداول علم من العلوم أو فن من الفنون يجدر بالباحث أولا أن يتعرف الى الاهداف المتوخاة منه باعتبار الطريقة وسيلة لتحقيق هذه الاهداف.

فمن بين الاهداف التي كان يرمي اليها المفسر من تأليفه لكتابه (تيسير التفسير) الذي نقتصر عليه في دراستنا هذه ، تذليل صعوبة هذا العلم لطلبته ولعل عنوانه خير دليل على ذلك ولذا فان أول ملاحظة يمكن استنتاجها هي محاولة الاختصار بالمقارنة بتفسيريه الآخرين وهذا الاختصار يتجلى في التمهيد للسورة اذ نجده في كثير من الاحيان يستغني عن هذا التمهيد ، ويشرع مباشرة في تفسيرها الا في بعض السور التي مهد لها اما :

1) بذكر مناسبة نزولها مثلما نلاحظ ذلك في بداية سورة العلق (1) وسورة الاسراء التي مهد لها بسرد الحادثة التاريخية المذكورة في مستهل السورة ، متعرضا الى بعض الاختلافات المتعلقة بها . (2) .

2) أو يستهل السورة بما ورد في تحريم تسميتها باسمها دون اضافته الى السورة وفي بداية سورة الرحمن مثال على ذلك (3) .

3) وقد يمهد لبعض السور بذكر أسباب نزولها ، على غرار تمهيده لسورة الانفال التي أستهلتها بسرد حادثة اختلاف المسلمين في غنائم بدر (4) .

4) والا يتعرض في التمهيد الى علاقة السورة بما قبلها مثلما نلاحظ ذلك في بداية سورتي النجم (5) والانشراح (6) .

---

1) (التيسير) 6/634 ـ 636

2) ن م . 3/675 ، 676 3) ن . م 6/ 52

4) ن م . 2/720

5) ن م . 5/569

6) ن م . 6/625 .

بعدها

5) و مهّد لبعض السور بمواضيع لها علاقة بها تعرضه الى الادلة التي تثبت وجوب الصلاة على النبي صلى الله عليه و سلم عند ورود اسمه في بداية سورتي المزمل (1) و يس (2) أو نهي الرسول صلى الله عليه و سلم من تعليم سورة يوسف للنساء في مستهل هذه السورة (3) ، و في بداية سورة براءة يذكر سبب عدم ذكر البسملة (4) .

6) و قد يقتصر في التمهيد على البحث في اسم السورة من حيث مدلوله ، و اختلاف اسمائها كما نلاحظ ذلك في سورتي الحشر (5) و الممتحنة (6) .

7) أو يبين فضل السورة مستشهدا بالاحاديث النبوية ، كما في بداية سورتي الملك (7) و الاخلاص (8) أو فضل بعض آياتها مثل تمهيده لسورة الحديد (9) .

8) و يقتصر في بعض الاحيان على سرد الاحاديث الدالة على صلاة الرسول صلى الله عليه و سلم بالسورة التي يمهد لها أو بغيرها في بعض صلواته المفروضة و المسنونة ، و النوافل ، و نجد مثالا لذلك في مستهل سورة المطففين (10) .

9) و قد يكتفي أحيانا بالاشارة الى بعض مميزات السورة مثل ملاحظته لعدم ورود لفظ الجلالة في سورة القمر (11) و الرحمن و الواقعة .

10) و نادرا ما يطرق موضوعا لا علاقة له بالسورة مثل تبيانه لطريقة بداية المراسلة في مستهل سورة الأحزاب (12) .

و المفسر يلتزم في كل ذلك الاختصار الا في بعض الحالات القليلة التي ينساق فيها وراء تفاصيل ، و يسرد الشواهد من الاحاديث النبوية ففي سورتي المزمل و (الكافرون) من أمثلة على ذلك ، ففي تمهيده للسورة الاولى راح المفسر يسرد أحاديث نبوية دالة على

---

1) ن م. 6/381 ـ 383
2) ن م. 4/985 المجلد 2 .
3) ن م. 3/285 .
4) م. 2/829
5) ن م. 6/136 .
6) ن م. 6/171 .
7) ن م. 6/277 .
8) ن م. 5/712 .
9) ن م. 6/69 .
10) ن م. 6/521 .
11) ن م. 5/602 .
12) ن . م. 4/795، 796 المجلد 2 .

وجوب الصلاة على الرسول صلى الله عليه و سلم و اختلاف الرواة فى متونها

(1) اما في السورة الثانية فيستهلها بحديثين نبويين فى موضوع صلاة الرسول صلى الله عليه و سلم بالسورة المعهدة لها و سورة الاخلاص فى ركعتي سنة الفجر ، و المغرب ، مبينا ان الوتر أفضل من سنة الفجر خلافا لمن يرى غير ذلك ، ثم يتعرض الى الطريقة التى كان يتعبد بها الرسول صلى الله عليه و سلم قبل البعثة . (2) .

و اذا استقصينا رأيه فى افتتاح بعض السور بالحروف ، و مدلول هذه الحروف وجدناه يلخصه فى بداية سورة البقرة قائلا : " الله هو العالم بمعناه و بمعنى المص و المر و الر ، و كهيعص وطه وطسم و طس و يس و ص و حم عسق و ق ، و ن " (3) و لكنه يذكر فى بعض الاحيان ما روى فى تفسيرها .

و المفسر لا يخرج فى اختتامه للسورة عن الطريقة المعروفة عند بعض السلف من المفسرين ، لا سيما الذين تأثر بهم و لذلك نجده يختمها باحدى الطرق التالية :

1) الصلاة على النبى صلى الله عليه و سلم واله ، مضيفا معها — أحيانا — عبارة (الله أعلم) و الحوقلة أو الدعاء الذى يكون فى الغالب مناسبا لمدلول نهاية السورة أو مدلولها العام مثل قوله عند تفسير الآية (56) من سورة المدثر : " اللهم اجعلنا من أهل هذه الآية " . (4) و عند اختتام سورة الانفطار يقول : " اللهم ببركة هذه السورة المختومة بلفظ الجلالة اغفر لنا ذنوبنا و اقض حوائجنا ، و سهل لنا يوم البعث و البرزخ و الحشر و الموقف . . " (5)

2) يذكر فى نهاية بعض السور و الاحاديث الواردة فى فضلها ، أو فضل بعض آياتها و خير مثال على ذلك حديث ابن مسعود رضي الله تعالى عنه : " . . فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه الفاقة أبدا . (6) .

---

1) ن م . 6/ 384 - 383

2) ن م . 6/ 690 ، 689

3) ن م . 6/01 .

4) ن م . 6/ 417 .

5) ن م . 6/ 521 .

6) أخرجه أبو عبيد ، و ابن الضريس و الحرث بن أبى ... أسامة و أبو يعلى و ابن مردويه ، و البيهقى (انظر (روح المعانى) المجلد 9 ص 27 / 162 رواه بهذا اللفظ من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا " ورواية محمود بن عمر الزمخشري (فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا) الكشاف 6/ 81 .

وقد أورد قبل هذا الحديث أحاديث أخرى في فضل التسبيح بعد تفسير قوله تعالى : " فسبح باسم ربك العظيم " الآية 96 من سورة الواقعة (1).

وفي نهاية سورة الصافات مثال آخر في سرد أحاديث فضل تلاوة " سبحان ربك ربّ العزة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين " (2) الآية 180 ــ 182 من نفس السورة .

3) وقد يسوق أحاديث في مواضيع أخرى لها علاقة بالسورة مثل حديث عائشة رضي الله عنها في وتر الرسول صلى الله عليه وسلم بسورة الاعلى (3)، وفي فضل ليلة القدر (4) وما يقوله الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تلاوة بعض الآيات (5) هذا هو الاطار الذي يحدده المفسّر للسورة، وكيف يتناول السّورة بالتفسير في هذا الاطار؟

ب. طريقتــه في تفسير السّورة :

في تفسيره للسّورة، لا يتقيّد المفسّر بالآية، وانما يراعي في التقسيم المعنى، فاذا وجد في الآية ما يتطلّب التوضيح والشرح وقف عنده ليبيّن معناه ويبسط مدلوله ثم يروح يفسّر بقية الآية واذا تطلب المعنى تجاوز الآية الى الآية الأخرى فعل ذلك، وليتضح لنا ذلك نسوق هذين المثالين :

1) تقسيمــه للآية تبعا للمعنى :

لتفسير قوله تعالى :" لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون" الآية 07 من سورة يسين، يجزّئ هذه الآية حسبما يقتضيه معناها فيقول :" (لقد حقّ) والله لقد صح وثبت (القول) قولنا لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين(6). وقولنا لأملأنّ جهنم منك (7) ألخ : وهذا أولى من تفسير القول بعلم الله عز وجل أو بقضاء (على أكثرهم) هم تبعة أبليس كما قال الله عز وجل لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين . (فهم) أي الاكثر (لا يؤمنون) .

1) ن م . 69/6
2) ن م . 1097/4 المجلّد 2
3) ن م . 560/6 .
4) ن م . 651/6 .
5) ن م . 297/6 .
6) هود / 119
7) ص / 85 .

أي بسبب حق القول عليهم مع اختيارهم ... فليست اجبارا اذ لا يخفى أن المكلف قادر على ترك المعصية و على فعلها الخ . . . " (1) .

2) تجاوز الآية الى الآية التالية لا تمام المعنى :

يلاحظ المفسر يجمع بين الايتين 08، 09 ، من سورة الرحمن ، لا تمام المعنى ثم يشرحهما بقوله : " يجوز أن يراد بالميزان العدل و الميزان الحسي جمعا بين الحقيقة و المجاز و ان يراد عموم المجاز اللام مقدرة أي لئلا تطغوا أي كراهة ان تطغوا الخ . . . " (2) .

و بهذه الطريقة يفسر المؤلف السورة منطلقا من الجزء الى الكل كما نلاحظ في تفسير قوله تعالى : " و لو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم " الآية 110 من سورة آل عمران يقول : " (و لو امن أهل الكتاب) اليهود (لكان) ايمانهم (خيرا لهم) نفعا و أفضل من كفرهم . " الى أن يقول ملخصا ما سبق " . . فان الايمان التام يكون أفضل لو علموا " (3) و بعد تفسيره للآيات من 04 الى 07 من سورة الغاشية يقول ملخصا ايماها : " . . و الآية تدل ان لاهل النار أشتياقا للشراب و الطعام فعذبوا بالعطش و الجوع كما عذبوا بالنار و الضرب و الزمهرير و القرآن و الحديث يدلان على ذلك و يصرحان به " (4) .

و قد ينتهي الى استخلاص معنى من جملة الآراء التي عرضها مثل قوله : بعد تفسيره للآيات من 05 الى 10 من سورة الليل : " . . و يتحصل من بعض ما تقدم من الاوجه انه أعطى فسوفقه و تكون الطاعة عليه أيسر الامور كقوله تعالى " فمن يرد الله أن يهديه الخ (5) . . و من بخل سنخذ له فتكون الطاعة عليه أعسر شيء كقوله تعالى : " يجعل صدره حرجا كما (6) يصعد في السماء (7) .

---

1) ن م . 4/989 المجلد 2

2) ن م . 6/05 .

3) ن م . 1/565 ، 566 .

4) ن م . 6/373 ، 374 .

5) ن م . الآية 125/ الانعام .

6) الصحيح كأنما يصعد الآية 125/ الانعام .

7) التيسير 6/ 611 .

كما يشرح الآية أحيانا جزءا جزءا دون التعرض في شرحه الى التفاصيل فيكتفي بابراز المضمر أو ذكر المحذوف ، أو الاتيان بالمرادف ، أو التوضيح أو بيان حالة اعراب ، ثم يتفرغ الى التفاصيل ، وهذا المثال يوضح لنا ذلك .

"(إنّ ربك) يا كل من يصلح للخطاب (يبسط الرزق لمن يشاء) البسط له (ويقدر) ويضيقه لمن يشاء التضييق له أو عليه " ، ثم يبين سبب نزول الآية منتقدا بعض الروايات التي لا تنطبق على الآية لكونها مكية ، ومحتملا أنها مدنية أدرجت في سورة مكية الخ ... على أنه لم يتجاوز في هذه التفاصيل أسباب نزولها ، ثم يواصل تفسيرها بقي من الآية : " (إنه كان بعباده خبيرا) بسرهم (بصيرا) بعلنهم " واثر ذلك يسترسل في شرح الآية متعرضا لمعناها ، وموضحا ومحللا ، ومنتقدا ، ومفندا رأي المعتزلة في مسألة إرادة الله ومصلحة العبد مبينا علاقة الآية بما قبلها وما بعدها (2).

ونخلص الى القول بأن المفسر لا ينتهج أسلوبا واحدا في العرض ، فتارة ينطلق من الجزء الى الكل ، مبتدئا بشرح أجزاء وحدة فكرية ومنتهيا الى تلخيصها ، أو يمهد لتفسير الوحدة الفكرية بتذليل بعض الصعوبات اللغوية أو النحوية أو غيرهما ، ثم يتفرغ الى التوسع في شرحها ، وإلا يكتفي بشرح كل جزء على حدة مثل تفسير قوله تعالى . " (يأيها الذين امنوا اتقوا الله)" في كل ما تفعلون أو تتركون فلا تؤذوا حبيبه صلى الله عليه وسلم (وقولوا) في حقه (قولا سديدا) مصيبا للحق مخالفا لقولكم فيه ، وفي زينب في زيد وقيل لا إله إلا الله وقيل ما يوافق ظاهره باطنه وقيل ما فيه صلاح والظاهر الاول لان الكلام في النهي عن الايذاء ولو كان يحتمل أن الخطاب لمن ضعف ايمانه فيأمره باخلاص لا اله الا الله و كذا يجب القول السديد في حق غير موسى ويجتنب السفه مطلقا ومن السفه قول بعض أهل هذه البلاد كذا مثل ذكر في أنثى ويريدون ذكرا في فرج أنثى يقولون ذلك تارة ولو في المسجد أو بحضرة من يستحي منه ويقولون مطلقا وهو لفظ فحش (يصلح لكم) يجعلها صالحا بالتوفيق الى الصلاح ومن لازم صلاحها قبولها والثواب عليها ، رتب الله عزوجل صلاح الأعمال من الجوارح على صلاح القول باللسان .

---

1) 30/اسراء 30/الاسراء

2) التيسير 3/718، 719.

الصادق الصادر من القلب ، و معنى يصلح لكم أعمالكم ، يتقبلها و يثيب عليها ، و ذلك تفسير باللازم . (و يغفر لكم ذنوبكم) يسترها بانتفاء العقاب عليها كانها لم تكن (و من يطع الله و رسوله) في الأمر و النهي (فقد فاز) حصل الفوز لنفسه في الدنيا و الاخرة(فوزا عظيما)(1) لا يعلم قدره إلا الله عز و جل " (2).

اذا كنا نلاحظ بعض الإشارات في تفسير جزء من الآية الى معنى الجزء السابق مثل ما ورد في تفسير قوله تعالى : " يصلح لكم أعمالكم) فذلك من باب الربط و تسلسل المعنى ، و محاولة توضيح مدلول الجزء المراد تفسيره .

" و قد ينطلق المفسر من الكل الى الجزء ، و إن كنا لا نلاحظ ذلك كثيرا فمن الامثلة تفسير قوله تعالى :" يأيها الذين امنوا إذا تداينتم" الآية 282 من سورة البقرة ،" تعاملتم و هو شامل للآخذ و المعطي فانه يجب أو يتأكد عليهما معا التوثيق " .. لئلا يضيع مال المعطي ، و ليقضى ورثة الآخذ إن مات أو هو أو نائبه دينه فلا يهلك و لكن اذا استوثق صاحب الحق بالكتابة و الاشهاد كفاه و ينبغي له مع ذلك أن يكتب و يقدم في ذلك لورثته و وصيته" .(3) ؛ "

نلاحظ في هذه الفكرة العامة المتعلقة بموضوع التداين ، ذكر طرفي في هذه العطية و نوعها و طريقتها و الحكمة من ذلك ، مع ان "الآيات التي تليها ستشرح هذه العناصر ، و تتعرض اليها بالتفصيل .

و الحديث عن هذا الاسلوب يسوقنا الى الحديث عن الطريقة التي يسلكها المفسر في تمهيده للآيات ، و الربط بينها ، و جوانب هذا الربط و التمهيد .

<u>1) التمهيد للآية التالية :</u>

" المفسر يكتفي أحيانا في نهاية تفسير آية بالتمهيد للآية التالية دون محاولة ايجاد علاقة بينهما لاحظ ذلك في المقالين "التاليين .

في نهاية تفسير الآية 01 من سورة المجادلة يقول تمهيدا للآية الموالية :" و شرع في بيان حكم الظهار بقوله "(4) و بعد انتهائه من تفسير الآية 33 من سورة سبأ يقول ممهدا للآية اللاحقة: " .. و قال الله تعالى تسلية لرسوله صلى الله عليه و سلم (5) :

---

1) 70/71 الاحزاب.
2) (التيسير) 4/ 890 ، 891 المجلد 2 .
3) ن م. 417/1 لعل الصحيح (ان مات هو او نائبه الخ ...)
4) ن م. 106/6 . 5) ن م. 929/4، 930 .

على أنّ هذا التمهيد يختلف من ناحية المضمون فقد يكون اشارة الى المضمون الاجمالي للآية الممهّدة لها كما لاحظنا ذلك سابقا وقد يمهّد للآية بذكر أسباب النزول كما يتجلى لنا ذلك في هذا المثال الذي يمهّد فيه لقوله تعالى : " ألم تر الى الّذين نهوا من النّجوى " الآية 08 / المجادلة ، في نهاية تفسير الآية السابقة لها يقول :

" .. وكانت اليهود والمنافقون ويتناجون ويتغامزون برأي المؤمنين ، يوهمونهم موت أقاربهم والمؤمنين في القتال ولا يزالون كذلك حتى تقدّم الاقارب والمؤمنون وكثر ذلك منهم فشكا المؤمنون الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك فنهاهم ولم ينتهوا ونزل قوله تعلى " (1).

2) الآية مكملة لمعنى الآية السابقة :

وقد يكون التمهيد للآية متمثّلا في ربطها بما سبقها بحيث تكون تتمة لمعناها ولتوضيح هذا الربط نسوق هذين المثالين :

في نهاية تفسير قوله تعالى : " ولا تجعل مع الله الها آخر فتلقى في جهنّم ملوما مدحورا " الآية 39 من سورة الاسراء يقول المفسّر محاولا ربطها بالآية التي تليها (2)

" .. ومن الاشراك وصف الله بالولادة ولا سيما أخس الاولاد هو الانات كما قال ." (3).

وتظهر هذه العلاقة بجلاء في تفسير قوله تعالى : " رجع بعيد " الآية 03 من سورة (ق) ... فرد الله تعلى عليهم بأنه عالم بما تفتّت ما في بينهم في الأرض فقال .. " (4).

3) الآية مؤكدة لمعنى الآية السّابقة :

وقد يتجلّى هذا الربط بين الآيتين في كون الثانية دليلا للآية الأولى ومؤكدة لها وهذا ما يبيّنه المثال التّالي .

يقول الله عز وجل : " ويستخلف من بعد كم ما يشاء " يقول المفسّر : " ... ويدلّ

---

1) ن.م. 6 / 119

2) ن. 40 / الاسراء

3) التيسير 3/ 727 .

4) ن.م. 5/ 496 .

لكون الاستخلاف الانشاء والجعل في مكان من أذهب قوله تعالى "(1) كما أنشأكم ذرية قوم آخرين " الآية 133 من سورة الانعام.

4) الآية التالية مدعمة لرأي المفسّر :

والمفسّر يستدل بالآية اللاحقة لدعم رأيه هو الرأي الراجح في نظره كما نلاحظ ذلك في تفسير قوله تعالى : " وللكافرين عذاب اليم " الآية 04 المجادلة يقول المفسر : " .. قلت المعنى المذكور كله صحيح الا انه لا يصحّ تفسير الآية به لانها ظاهرة في المشركين ألا ترى إلى قوله تعالى "(1) ان الذين يحادّون الخ ... " الآية 05 من سورة المجادلة.

5) الآية أو جزء منها مكمل للآية السابقة أو جزء منها في الاعراب:

وتظهر هذه العلاقة في أجزاء هذه الآية : " (كبر) فيه ضمير مفسر بقوله تعالى (مقتا) بالنصب على التمييز و المخصوص بالذم المصدر من قوله تعالى : " عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون " (3) الآية 3 من سورة الصف.

ولبيان هذا النوع من العلاقة بين الآيه والآية نورد هذا المثال يقول المفسر في شرح قوله تعالى : " اذا تتلى عليه ... اياتنا قال اساطير الاولين " الآية 13 من سورة المطففين . " نعت اخر لمعتد او لمنعوته المحذوف اي كل انسان معتد أثيم قائل " أساطير الاولين "(4).

6) الآية معللة لمعنى الآية السابقة :

يقول المفسر في نهاية تفسير قوله تعالى : " وبشرى للمحسنين " الآية 12 من سورة الاحقاف : " فيما سبب تعليل البشارة بقوله تعالى : " ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا " الآية 13 من سورة الاحقاف.

كما أنهى تفسير قوله تعالى " ومن كفر " بقرينة : " وأغنى عن الجواب تعليله لقوله تعالى : " فان الله غني حميد " (6) الآية 12 من سورة لقمان.

---

1) ن م. 417/2.
2) ن م. 116/6.
3) ن م. 195/6.
4) ن م. 527/6
5) ن م. 334/5.
6) ن م . 4/ 747.

ومن الملاحظ أن التمهيد أو العلاقة لا نجدها في جميع الآيات ، وهذا قد ينتقل المفسر " من آية الى أخرى أو وحدة فكرية الى أخرى دون محاولة ايجاد رابطة معنوية أو وحدة موضوعية بين الآيات ، وكأن معنى الآية مستقل عما قبله " ، لاحظ ذلك في المثال التالي :

في تفسير قوله تعالى : " يأيها الناس اتقوا ربكم . . . . ولا يغرنكم بالله الغرور" الآية 33 من سورة لقمان يقول في آخر تفسير هذه الآية : " . . . وقيل الغرور كمل ما غرك حتى عصيت الله سبحانه كمال وجاه وشيطان"الجن او الانس وقيل الدنيا " ، ثم ينتقل الى الآية التي بعدها وهي قوله تعالى : " ان الله عنده علم الساعة " من الآية 34 سوره لقمان ، فشرحها مبينا معناها وسبب نزولها والايات التي بعدها دون محاولة ايجاد علاقة بينها وبين الايات التي قبلها في الوقت الذي يمكن أن يجد هذه العلاقة التي تتمثل في أن الآيات السابقة تعالج موضوعا غيبيا ، بتحذير الناس من اليوم المرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون والآيات التالية لها تتطرق الى مفاتح الغيب الخمسة التي أخذ من الله بعلمها ، وهي دلائل قدرة الله تبارك وتعالى على التصرف في هذا الكون ، وعلى مشيئته ، وهذا تأكيد على تحقيق ذلك اليوم المرهيب الذي هو من عالم الغيب وكذا مفاتح الغيب الخمسة من الغيبيات التي تتحقق أمام الانسان وهي اقرب الى حواسه ، وهذه هي طريقة القرآن في تقريب الفهم من الانسان الذي في الغالب لا يؤمن الا بالحواس ويزداد ايمانه بالمشاهدة والمعاينة ، كما انه لم يمهد للآية الاخيرة (1) رغم وجود أسباب النزول .

هذه بصفة عامة منهج المفسر في عرض السور ، وتفسيرها ، محاولا الجمع بين الاختصار الذي اشرنا اليه سابقا وبين التوضيح والتبسيط تماشيا مع قدرات فهم القراء الذين الف الكتاب لهم ، ويتجلى التوضيح بصفة خاصة في طريقة استعانته واستغلاله لمصادر مساعده شأنه شأن بقية المفسرين ، وفي المبحث التالي سنحاول التعرض الى هذه المصادر المساعدة مع ايراد بعض النماذج في طريقة توظيفها .

---

1) ن م. 772/4

أ. تفسير القرآن بالقرآن:

الدارس لمنهجية التفسير منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يلاحظ بكل وضوح وجلاء أسلوب تفسير القرآن بالقرآن، واعتبره الباحثون النواة الأولى للتفسير (1)، ومن خلال دراساتهم للقرآن الكريم، وللقراءات استنبطوا قواعد أصبحت ـ بعد ذلك ـ من مجالات دراسة علوم القرآن ومن هذه القواعد حمل المجمل على المبين والعام على الخاص، والمطلق على المقيد ألخ ... وعدوا بعض القراءات تفسيرا للقرآن وللناسخ والمنسوخ أثر في فهم كتاب الله واستنباط الأحكام منه.

والمفسّر شأنه شأن المفسرين الذين تتلمذ في مدارسهم من خلال مطالعته لتفاسيرهم، وللمراجع المتعلقة بعلوم القرآن، اعتمد على هذا المصدر الأول في تفسيره واستعمله بطرق مختلفة سنورد بعضها فيما يلي :ـ

1. دعم معنى الآية بآيات أخرى :

لتفسير قوله تعالى : "حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا" الآية 61 من سورة الأنعام يسوق المفسّر في شرح هذه الآية بعض الآيات المشابهة لدعم معناها وبيان بعض ما ورد فيها مجملا، لاحظ ذلك فيما يلي : "ملك الموت وأعوانه وهذا كقوله تعالى "قل يتوفاكم ملك الموت" (2) وذلك عصر الارواح من الأجساد فاذا بلغت الحلقوم (3) قبضها الله فهذا كقوله تعالى : "يتوفى الأنفس حين موتها" (4)،(5).

2. حمل المجمل على المبين :

لبيان الحكم الذي تشير إليه الآية : "الا ما يتلى عليكم" الآية 01/المائدة ولا سيما المعنى الذي يشير اليه الاسم الموصول الوارد فيها يقول المفسّر: "بعد في هذه السورة اذا نزل وهو قوله : "حرمت عليكم الميتة(6) ألخ" (7).

1) التفسير والمفسرون 1/41 يوافق الاستاذ جولد زيهر في نظريته هذه .
2) السجدة / 11 .
3) الواقعة / 83 فلولا اذا بلغت الحلقوم .
4) الزمر / من الآية 42 الله يتوفى ألخ . .
5) التيسير 2/296 .
6) المائدة / 03
7) التيسير 2/ 3 أنظر مثالا آخر مشابهًا في ن.م. 4/296 المجلد 1 .

تشابه آيتين في طريقة التعبير :

ويتجلّي هذا التشابه في طريقة التعبير من حيث الفرض والتقدير بين قوله تعالى : "ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثمّ لا ينصرون" الآية 12 الحشر، وقوله تعالى : "لئن اشركت ليحبطنّ عملك" الآية 65 من سورة الزمر.

ويوضّح المفسّر هذا التشابه بقوله : ".. ولئن نصّروهم بعد الاخبار بأنهم لا ينصرونهم على سبيل الفرض أو التقدير كقوله تعالى : "لئن اشتركت ألخ" (1).

الاستدلال بالآية لاثبات استعمال :

لاثبات جواز الزيادة في الاجابة عن السؤال في قوله تعالى : "ونصر من اللّه وفتح قريب وبشّر المؤمنين" الآية 13 الصف يقول المفسّر : "وان الزيادة في الجواب على السؤال جائزة كقوله تعالى : "هي عصاي أتوكؤ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى" (2) من الآية 18 من سورة طه.

وفي الآية التالية : "ياأيها الذين آمنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة" الآية 09 من سورة الجمعة، يبين أنّ (من) بمعناها (في) ولاثبات هذا الاستعمال يسوق قوله تعالى : "أروني ماذا خلقوا من الارض" الآية 40 سورة فاطر، أي في الارض (3) ولاثبات أنّ السعي الوارد في قوله تعالى : "فاسعوا إلى ذكر الله" الآية 09 سورة الجمعة يفيد معنى المشي وان هذا الاستعمال وارد في القرآن يستشهد بقوله تعالى : "ولمّا بلغ معه السعي" الآية 102 من سورة الصافات أي المشي (4).

والمفسّر كلّما أراد اثبات استعمال معيّن سواء كان لغويّا أو تعبيريّا أو في القواعد يأتي بنظيره من القرآن، ولو كان الأمر متعلّقا باثبات وجهة نظر معينة فحسب تبنّاها هو أو غيره. في تفسير الآية التالية : "تومنون باللّه ورسوله وتجاهدون في سبيل اللّه" الآية 11 سورة الصف يبين وجهة نظر الأخفش في إعراب المضارعين الواردين في الآية فيقول : "وقال الأخفش المضارعان خبران لفظا، ومعنى مصدرهما بدل من تجارة أمّا على حذف حرف المصدر ورفع المضارع بعد حذفه" ولهذا الاحتمال الأوّل يسوق هذا المثال

---

1) ن م. 160/6.
2) ن م. 208/6.
3) ن م. 212/6.
4) ن م. 215/6.

من القرآن قائلا . ٪ . . كما هو وجه قوله تعلى : " و من آياته يريكم ألخ " (1) الآية 24 من سورة الروم .

5 . وجود علاقة معنوية بين الآيات :

يرى المفسر أن الآية 08 من سورة الأنبياء : " و ما جعلنا هم جسدا لا يأكلون الطعام و ما كانو خالدين " تتضمن الرد على القائلين : " مالهذا الرسول يأكل الطعام . " (2) الآية 07 من سورة الفرقان .

و تظهر هذه العلاقة — أيضا — في وجود كلمة في الآية المفسرة توضحها آية أخرى فمثلا ليوضح المفسر هلاك المسرفين في قوله تعالى : " و أهلكنا المسرفين " الآية 09 من سورة الأنبياء ، يسوق الآية قائلا : " وآل للاستغراق و أن المسرفين هم أصحاب النار" الآية 43 غافر . (3)

و على هذا النحو يوضح مدلول (الطيب) في قوله تعالى : " وهدوا الى الطيب" الآية 24 / الحج قائلا : " في الجنة و هو الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن . . الى لغوب" (4) الآية 34 / فاطر .

6 . اثبات معنى :

يلاحظ المفسر يسوق قوله تعالى : " و هم في الغرفات آمنون " الآية 37 من سورة سبأ "لاثبات أن (ال) للجنس في قوله تعالى : " أولئك يجزون الغرفة"(5) الآية 75 / الفرقان .

7 . التشابه في الدلالة :

يرى المفسر أن الآيتين التاليتين قوله تعالى : " فامطر علينا " ألخ الآية 32 / الأنفال و قوله تعالى : " فاتنا بما تعدنا " الآية 32 / هود متشابهتان في الدلالة مع قوله تعالى : " أفبعذابنا يستعجلون "(6) الآية 20 /الشعراء .

---

1) التيسير) 6 / 201 .
2) ن . م . 4 / 197 المجلد 1
3) ن . م . 4 / 197 المجلد 1
4) ن . م . 4 / 290 ، 291 المجلد 1
5) ن . م . 4 / المجلد 1 (481) .
6) ن . م . 4 / 527 المجلد 1 .

8) التدرج في التشريع :

يبين المؤلف عند تفسير قوله تعالى : " انما الخمر والميسر والانصاب والازلام الخ " الآية 90 من سوره المائدة التدرج في تحريم الخمر الذي مر على ثلاث مراحل فيقول في ذلك : " كان تحريمهما تدرجا فنزل قوله تعالى " يسألونك عن الخمر والميسر الخ " (1) فتركها بعض تحرجا من اثمها، وبقي بعض على شربها فنزل : " لا تقربوا الصلاة وأنتم سكرى " (2) فتركها بعض وقال بعض نشربها ونقعد في بيوتنا حتى لا نضر أحدا وشربها بعض حيث لا تضر بالصلاة ، حتى نزل : " إنما الخمر والميسر الى فهل انتم منتهون"(3).

9) التوفيق بين الآيتين :

يرى المفسر أن لا تناقض بين قوله تعالى : " انهم عن السمع لمعزولون " الآيه 212 من سورة الشعراء ، وقوله تعالى : " وانا لمسنا السماء الى رصدا " (4)الآية 8،9 من سوره الجن . ويجري المقارنة بين قوله تعالى : " او اتيكم بشهاب قبس " الآيه 7 من سوره النمل ، وقوله تعالى : " لعلي آتيكم " الآية 10 من سورة طه لمحاولة التوفيق بينهما يقول في ذلك : " لا تناقض بين الجزم هنا بالاتيان بالنار وبين ترجيه في قوله تعالى : " لعلي آتيكم لان الراجي اذا قوي رجاءه جزم ولأنه بنى الرجاء على أنه ان لم يظفر بالخبر والنار معا ظفر بأحدهما " (5) .

10) توضيح مفهوم :

كما يجري المفسر المقارنة بين آيتين ، قصد ازالة التباس في معنى أو مفهوم وفي المثال التالي يتضح لنا ذلك ، يقول في تفسير قوله تعالى : " وهم في الآخرة هم الأخسرون " الآية 5 من سورة النمل ، " أشد خسرانا من فساق الموحدين لان دركته دون دركه المشركين كفقا ما كان وأما قوله تعالى : " إن المنافقين في

---

1) 4/ 119 البقره . (242)
2) 43 النساء . -
3) التيسير 2/ 152 .
4) ن م . 4/ 528 المجلد 1 .
5) ن م . 4/ 542 المجلد 1 .

الدرك الاسفل من النار (1) ، ففي المنافق باظهار الشرك فلا تهم ولا تقلد ." (2) .

ب - الناسخ والمنسوخ :

أرى الخوض في هذه المسألة التي أصبحت موضوع بحوث ودراسات مستقلة ، انما أريد أن ابين من خلال بعض النماذج كيف استعمل المفسر هذا العلم لتفسير الآيات ، من حيث دراستها ، وتحليلها ، واستنباط الاحكام منها ، فمثلا ، يرى المفسر ان قوله تعالى : " يأيها الذين آمنوا لا تحلوا الى قضلا من ربهم ورضوانا " الآية 02 من سورة المائدة منسوخة بقوله تعالى : " اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم " الآية 05 من سورة التوبة ، وقوله تعالى : " فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا " الآية 23 من سورة التوبة متعرضا الى القول الذي نفى نسخها . (3) .

ويستعين في الشرح بما نسخ لفظا وبقي حكما ، ومن ذلك قوله في تفسير قوله تعالى من الآية 02 من سورة النور : " فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . . وفي هذه السورة وسورة الاحزاب قولان الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله والله عزيز حكيم (4) نسخ لفظه لا حكمه " (5) .

ولزيادة التوضيح نورد هذا المثال في شرح قوله تعالى : " وقتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم " الآية 190 من سورة البقرة يقول المفسر : " . . . والآية تدل على أنه لا يجوز لهم قتال من لم يقاتلهم ، وهذا المفهوم منسوخ بما نزل بعده وهو قوله تعالى : ' اقتلوا المشركين (6) وقوله : " واقتلوهم حيث ثقفتموهم (7) ، فتكون الآيتان على ما زعموا ناسخة سبعين آية نهي فيها عن القتال (8) .

---

1) النساء / 145 .
2) (التيسير) 4/541 المجلد 1 .
3) ن م . 2/07 .
4) رواه داود (أرجع الى روح المعاني) 18/79 المجلد 6 .
5) (التيسير) 4/ 363 المجلد 1 .
6) التوبة / 05 .
7) البقرة / 191 .
8) (التيسير) 1/254 وفي ن م . 1/256 مثال آخر .

و في تفسير قوله تعالى : " و لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن " الآية 221 من سورة البقرة ، يتعرض المفسر الى اختلاف العلماء في نسخها أو حمل الخاص على العام قائلا : " و لو كتابيات ذميات جوزوا على تحريم الكتابيات الذميات كغير هن ، ثم نزل نسخ تحريمهن لقوله تعالى : " و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب(1) و بقيت الكتابيات المحاربات و سائر المشركات على التحريم و لو اقترنت الآيتان لقلت أن ذلك تخصيص للعموم لا كما شهر في المذهب(2) ، و عن الشافعية من أن ذلك تخصيص العام و من جواز تأخير دليل الخصوص على العموم و لو كانت بين العام أو الخاص" .

ثم يعرض المفسر محاولا الرد على الرأيين مستشهدا بآيات أخرى قائلا : " و لك أن تقول لا نسخ و لا تخصيص بل المشركات في الآية الكتابيات لأنه كثير في الآيات مقابلة المشركات بالكتابيات كقوله تعالى : " لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب و المشركين " (3) و لو كان أهل الكتاب أيضا مشركين لقوله : " سبحانه عما يشركون (4)" (5) .

ج ـ القراءات :

و من فوائد الاختلاف في القراءات ، تيسير فهم القرآن و ادراك بعض معانيه بالاضافة الى المساعدة على استنباط الاحكام ، و ترجيح رأي ، و المفسر كغيره لم يفته هذا المصدر في استغلاله في أوجه التفسير ، منها :

1) بيان معنى :

ليبين المفسر أن لام الجر في قوله تعالى : واقع للكافرين " الآية 2 من سورة المعارج تفيد معنى (على) يقول : " أي واقع على الكافرين كما قرأ أبي" (6) .

2) ترجيح رأي و دعمه :

و بعد أن يسوق المعاني المختلفة لتفسير قوله تعالى : " ثم آتينا موسى الكتاب إلى . . . و هدى و رحمة " الآية 154 من سورة الانعام يقول : " و يجوز أن يراد تماما على كل من أراد الاحسان ، و يدل على إرادة جنس المحسن قراءة

---

1) المائده / 05
2) يعني به المذهب الاباضي
3) البينة / 01
4) التوبة / 31 .
5) (التيسير) 305/1 .
6) (التيسير) 6/ 338

عبد الله بن مسعود على الذين احسنوا و قراءة الحسن على المحسنين" (1).

3)- اختلاف قراءتين في الاعراب:

لا يكتفي المفسر بتبيان هذا الاختلاف بل نجده يوضح علاقة هذا الاختلاف بالمعنى و في تفسير قوله تعالى : " و نصفه و ثلثه " الآية 2 من سورة المزمل مثال لذلك : " . . و يجاب عن التخالف بين قراءتنا بالجر و قراءته بالنصب و ثلثه عطفا على أدنى فإن حاصلها انك تقوم أقل من الثلثين ، و تقوم نصف الليل تارة ، و تقوم ثلث الليل أخرى " (2).

4) بيان سبب الاختلاف في القراءات:

ليبين المفسر سبب اختلاف القراءتين لكلمة (معايش) في قوله تعالى : " و جعلنا لكم فيها معايش " الآية 10 من سورة الاعراف، نجده يعود الى أصلها ، و يتعمق في المباحث اللغوية و في الاخير يصل إلى نتيجه لا حظ ذلك: " و وزنه مفعلة بكسر العين نقلت كسرة الياء و الى العين ، و الياء أصل فصحت في الجمع و لم تقلب همزة ، و ذلك الرواية الراجحة عن نافع (3) و لا روي عنه قلبها همزة شذوذا ، لان الحرف قد تشبه الاصل بالزائد اذا كان على صورته كما سمع شذوذا مصائب بالهمزة نص عليه ابن عقيل ، و قياسه مصاوب بالواو لان عين المصيبة و أصاب و صاب واو أصلية قلبت ياء في مصيبة و الفاء في أصاب و صاب ، و ابن عقيل تلميذ أبي حيان . . و قد نص على همزة مصائب شذوذا . . . . صحيح ان قراءة معائش بالهمزة شاذة خارجة عن السبعة و ليست عن نافع بل قرأ بها أبو جعفر و الاعرج فاما على الشذوذ ، و اما على الميم أصلي و الياء زائدة فصح قبلها همزة و وزنه فعلية (3).

---

1) (التيسير) 2/ 462.

2) ن م. 6/ 393.

3) ن م. 2/492.

) بيـــان ما يكـون مجملا فـي الاحكـام:

ليبيـن فـي الآية التالية ان الاخ أو الاخت من الام يستشهد المفسر بقراءة أبي وسعد بن مالك(1) و سعيد بن أبي وقاص قائلا : " وله أخ أو أخت" الآية 12 من سورة النساء ،" من الام كما قرأبـــه أبي و قرأ سعد بن مالك و سعيد بن أبي وقاص أم هو إجماع ، ، ، " (2).

و من هذه الأمثله نرى أن المفسر يوظف القراءات كغيره لتوضيح بعض المعاني وترجيح رأى أو حكم و في تفسيره "أمثلة كثيرة تثبت ذلك و لا يخفى علينا أن القراءات تساعد في التفسير و تبين معاني و لا سيما القراءات الشاذة التي استغلها المفسرون لهذا الغرض(3).

تفسيـــر الـقرآن بالسنـة:

السنه من المصادر الاساسيه التي استعان بها المفسرون في تفاسيرهم باعتبار أول مفسر للقرآن الكريم ، هو الذى كان له الفضل في تبليغه ، و تطبيق تعليماته ، فجاءت السنـة سواء منها القولية أو الفعلية أو التقريريـة معبرة عن مضمون كتاب اللــه ، و مترجمة له ومفصلة لما جاء فيــه مجملا ، ففي السنة التي تناقلها المحدثون قسم خاص بالتفسير."

و نجد لهذا القسم اثــرا واضحا في تفاسير المؤلف ، و يتجلى ذلك من خلال الأمثلـة التي نسوقها من تفسيره الذي نحن بصدد دراسته ، فكما كان القرآن الكريـم و بعضه بعضا مصدرا اساسيا في تفسيره ، فان هذا القسم من السنة لا يقل أهمية منـه و قلـة مادة هــذا المصــدر .

و يهدف المفسر من استشهاده بقسم التفسيـر من السنة الى بيان رأى الرسول صلى الله عليه و سلـم في مدلول آية أو كلمة أو حكم من الاحكام "و ما الى ذلك ملاحظ ذلك في تفسيره لقوله تعالى : " الا من شاء الله " الآية 87 من سورة النمل و مما جاء فيه " أنه صلى الله عليه و سلم عن قوله تعالى الا من شاء الله فقال : هم الشهـداء متلديـن أسيافهم حـول العرش ، رواه أبو هريرة ، (4).

---

1) لم يرد هذا الاسم في تفسير الكشاف 1/ 234 و كذلك في تفسير روح المعاني) 4/ 230 ، المجلد 2 و هو اسم سعد بن أبي وقاص.

2) (التيسير) 1/ 591 قراءة سعد بن أبي وقاص) وله أخ أو أخت من أم) قراءة أبي " من الأم" ارجع الى تفسير الكشاف 1/ 234 .

3) و في هذا المعنى ما رواه مناع القطان مباحث في علوم القرآن ص/ 158 عن أبي عبيدة من كتابه (فضائل القرآن) .

4) (التيسير) 4/ 595 المجلد 1 .

في تفسير قوله تعالى : " فطرت الله التي فطر الناس عليها " (1) يقول مبينا شرح الرسول صلى الله عليه و سلم لكلمة الفطرة : " . . . فعن أنس عن رسول الله صلى الله عليه و سلم هي دين الاسلام " (2).

وفي تحديد قيمة القنطار في قوله تعالى : " من النساء و البنين و القناطير المقنطرة من الذهب . . الى . . . و الحرث" الآية 14 من سورة آل عمران يقول المفسر " . . . وأخرج الحاكم عن أنس عنه صلى الله عليه و سلم القنطار الف أوقية و مائتا أوقية و به قال معاذ وعبد الله بن عمرو أبو هريرة . . . " (3).

و قد يسوق الاحاديث النبوية التي تدخل في هذا القسم اى قسم التفسير والتي تبين اهتمام النبي صلى الله عليه و سلم بالقرآن و تدبره لبعض الآيات كما نلاحظ ذلك فى تفسير قوله تعالى : " و أن اتلوا القرآن " الآية 92 من سورة النمل يقول المفسر : " . . . كما روى أنه صلى الله عليه و سلم قام ليلة كرر في صلاته : " إن تعذبهم فإنهم عبادك (4) مستخرجا لمعانيها حتى طلع الفجر" (5).

و من الأحاديث النبوية التي استشهد بها ، تلك التي تحرض الصحابة على التفاعل مع معاني القرآن و تدبره ، مثل قوله : " . . قرأ رسول الله صلى الله عليه و سلم سورة الرحمن على أصحابه فسكتوا فقال : " مالي أسمع الجن أحسن جوابا لربها منكم، " رواه جابر بن عبد الله و لفظ بن عمر من رواية الطبري، و البزار، و الدارقطني الخ . . (6) و هذا في معرض تفسير قوله تعالى : " فبأي آلاء ربكما تكذبان " الآية 13 من سورة الرحمن .

و من الاحاديث التي تندرج في هذا القسم ، أحاديث فضائل السور و الآيات و هذا النوع من الاحاديث نلاحظه في تفسيره ، و من أمثلة ذلك سرده في مستهل سورة الاخلاص لأحاديث في فضل هذه السورة مثل: . . و في الحديث من قرأها مائتي مرة محيت عنه ذنوب خمسين سنة ، إلا أن يكون عليه دين و أنه من سام علي

---

(1) الروم / 30
(2) (التيسير) 717/4 المجلد 2.
(3) ن م . 454/1 .
4) المائده / 118 .
5) (التيسير) 601/4 المجلد 1 .
6) ن م . 38/6 .

بسبته

ى يمينه و قرأها مائة مرة قال تعالى له : " ادخل الجنة من يمينك ، وأن رجلا أحبها
ال صلى الله عليه وسلم : حبكما أدخلك الجنة بفضله الخ . " (1).

و من استشهاده بأحاديث فضائل الآيات ، حديث فضل الآية الاخيرة من
وره الاسراء يقول : " . . . و في مسند أحمد عن معاذ الجهني عن رسول الله صلى الله
عليه و سلم أنه كان يقول : " آية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا و لم يكن له شريك
الملك ، و لم يكن له ولي من الذل و كبره تكبيرا " (2) الآية 111 من سورة الاسراء.

و ما يدخل في هذا القسم تفسير الرسول صلى الله عليه و سلم لبعض
مستشكل على الصحابة، إما بطلب منهم أو لغرض التعليم، و يتضح في مثل هذه الاحاديث
سلوبه صلى الله عليه و سلم في التفسير و التعليم ، لاحظ ذلك في هذا الحديث الذي
ه المفسر لشرح كلمة الكوثر : " . . قال صلى الله عليه و سلم ما الكوثر ؟ قالوا الله و رسوله
لم ، قال: هذا نهر أعطانيه ربي في الجنة عليه خير كثير ترد عليه أمتي يوم القيامة الخ . . (3).

و من الاحاديث ما يتضمن أسباب النزول و سنتعرض لهذا النوع في مبحث
ص به ، اما القسم الثاني من السنة يستعين به المفسر لدعم رأي أو زيادة توضيح نجده يسرد
حيانا — أحاديث كثيرة في موضوع الآية أو السورة، و من خلال الامثلة تتجلى لنا الاغراض
توظيف هذا القسم من السنة.

تجاليسر

لبيان مراعاة الرسول صلى الله عليه و سلم في تطبيق القرآن الكريم بعد
ول أحكامه ، يقول المفسر : " . . و يناسب أنه لا يجوز له ما فوق الاربع أن غيلان
لم و تحته عشر فقال صلى الله عليه و سلم أمسك أربعا و فارق سائرهن " في تفسير قوله
الى : " فانكحوا ما طاب لكم من النساء . . . الى أو ما ملكت ايمانكم " الآية 03 من سورة النساء.

و في نفس السياق يتحدث المفسر عن بعض الاحكام المتعلقة بالزواج ،
خطبة فيقول مستشهدا بفعل الرسول صلى الله عليه و سلم في جواز النظر الى بعض
ء المرأة في الخطبة : " . . . و قد أمر الرسول صلى الله عليه و سلم رجلا

---

(1) ن م، 712/5.
(2) ن م، 3/ 600
(3) ن م، 6/ 595.

النظر

بالنظر" (1).

و لاثبات رأى الاباضية و الشافعية فى تحديد سن البلوغ يسوق حديثا نبويا فى معرض تفسير قوله تعالى : " و ابتلوا اليتمى حتى إذا بلغوا النكاح " الآية 06 من سورة النساء يقول المفسر : " . . حدّ النكاح و هو البلوغ باحدى علامات البلوغ فان لم تكن فخمس عشر سنة عندنا و عند الشافعية لقوله صلى الله عليه و سلم : " إذا استكمل المولود خمس عشرة سنة كتب ماله و ما عليه و أقيمت عليه الحدود " (2).

و إذا وجد فى الآية ماله علاقة بحديث أو أحاديث سواء من حيث اللغة ، أو الموضوع أو الاحكام ، ساقها كشواهد أو لتوضيح فكرة او لدعم حكم ، و فى الامثلة التالية ما يدل على ذلك :

ففي شرح قوله تعالى : " و أنزل التوراة و الانجيل " الآية 03 آل عمران يحاول المفسر إثبات عربيه (التوراة و الانجيل) بقوله : " . . ألا ترى أنه لا يقال فى الاعلام العجميه لموسى و لعيسى و النوح و نحو ذلك، و كذا العربية إلا للمح الأصل بلا قياس و ال فيهما للمح و لا يتعرض بالاسكندرية بال لأنه بياء النسب العربية . . و النبي صلى الله عليه و سلم قال : " اطلبوا العلم و لو بصين بدون ال و زاد الراوي ال العربى و لا يزيده . . "(3).

و فى معرض تفسير قوله تعالى : " فاشهدوا عليهم " الآيه 06 النساء يسوق حديثين لهما علاقة من حيث الموضوع بالآية لاحظ ذلك فيما يلي : " . . قال صلى الله عليه و سلم اتقوا مواقع التهم ، و قال صلى الله عليه و سلم من وجد لقطة فليشهد ذوي عدل و لا يكتم . (4).

و المفسر يلجأ إلى دعم تفسيره بأحاديث في نفس الموضوع، و كتابة زاخر بأمثلة و أحيانا نلاحظ اطنابا كبيرا فى هذه الناحية حتى يخال للقارئ أنه يتصفح كتابا فى الحديث ، و فى تفسير قوله تعالى : " يايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن " الآيه 12 الحجرات خير مثال نجد المفسر يسرد سبعة أحاديث فى موضوع

---

1) ن . م . 674/1
2) ن . م . 670/1 .
3) ن . م . 439/1 .
4) ن . م . 580/1 .

الآيــة وتخللّها شرح بعض الجوانب ، وذكر الحالات التي يجوز فيها ظنّ السّوء بالنّاس.
(1) ومن المواطن التّي يسوق فيها المفسّر الأحاديث آيات الأحكام ، ومن أمثلة ذلك قوله : " . . قال عقبة بن عامر سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : "إنّ أحـق الشّروط أن يوفّي ما استحللتم به الفروج " و عن صهيب قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم يقول : " من أصدق امرأة صداقا وهو مجمع على أنّ لا يوافيها إيـاه ثم مات ولم يعطها أيّـاه لقي اللّه عزّ وجلّ زانيـا " (2) وذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " وآتوا النسـاء صدقتهنّ نحلة " (4) النساء .

وقد يستشهد بحديث للمقارنة بين مدلول كلمة وردت فيه ومدلولها في الآيـة أو لغرض توضيح هذا المدلول فقط ، لاحظ ذلك في قوله : " . . ورد حديث الطبرانيّ قوله : " والحكم اتقوا اللّه تعالى (فانّ اللّه تعالى فاتح لكم وصانع " وهذا الحديث ساقه في تفسير قوله تعالى : " صنع اللّه الذّي أتقن كلّ شيء " الآية 88 النّمل ، غير أنّ المفسّر يعقّب على هذا الحديث بقوله : " إلاّ أنّـه يحتمل أن يكون صانع في الحديث بمعنى متصنع " (3).

والمفسّر يمضي في موقفه في توظيف هذا المصدر لأغراض مختلفة باعتباره المصدر الثاني في التّشريع ، بذكر السّند والمرجع تارة وبإهماله تارة أخرى ، وينقد بعض الأحاديث التّي تظهر له أنّها متناقضة مع موضوع الآية ، أو يستبعد صدورها من رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم ولكن دون بلوغ درجة التّصحيح ، المعروفة عنـد المحققيـن من المحدّثين .

وخلاصة القول أنّ المفسّر أولى أهميّة خاصّة لأحاديث الرّسول صلّى اللّه عليـه وسلّم وجعلها أدلة لاثبات بعض الأحكام ومصدرا لغـويّا وفقهيا ، ولم يغفل عن بيان فضائل السّور والآيات ، وبل ذهب إلى أبعد من ذلك بحيث كان يستشهـد ببعض الأحاديث في مواضيع علمية ، منها مثلا فائدة العسل الطّبيـة إذ ساق هذا الحديث " وفي البخاريّ ومسلم والترمذيّ عن أبي سعيد الخدريّ أنّـه جاء رجل الى رسـول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّـم فقال : " إنّ أخي استطلق بطنه فقال صلّى اللّه عليه وسلّم أسقـه عسلا فسقاه ، ثم جاء فقـال إنّي سقيته عسلا فلم يزد إلاّ استطلاقا فقال له ثلاثا ،

---

1) ن م . 5 / 430 ـــ 432 .
2) ن م . 1 / 675 .
3) ن م . 4 / 593 المجلّد 2 .

جاء الرابعه فقال : أسقيه عسلا فقال سقيته فلم يزد الا استطلاقا فقال صلى الله عليه وسلم صدق الله ، وكذب بطن أخيك . . . " (1) .

والاحاديث تحتمل جزءا كبيرا هي تفسيره ، يستشهد بها لزيادة توضيح الآيه ومعالجة موضوعها ، والامثلة السابقة تؤكد ما ذهبنا إليه ، ومن المصادر التي لها علاقة بالسنة آراء الصحابة والتابعين ، وسنبين فيما يلي كيف استدل المفسر هذا المصدر في تفسيره .

التفسير بآراء الصحابة :

يعود المفسر إلى آراء الصحابة لبيان معنى آية أو كلمة ، أو توضيح أحكام فقهية استنبطوها عن طريق الاجتهاد ، وتدبر الآيه ، وكان مرجعه الاساسي في ذلك عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه ، فلشرح كلمة الميزان في قوله تعالى : " ووضع الميزان " الآيه 07 من سورة الرحمن يقول المفسر : . . وعن ابن عباس المراد في الآية ما تعرف به المقادير وزنا أو كيلا أو ذرعا أو نحو ذلك (2) .

ولبيان مدلول كلمة العصف في قوله تعالى : " والحب ذو العصف " الآية 12 الرحمن رجع المفسر الى رأي الصحابي ابن عباس والتابعي الضحاك فيقول : " وفسره ابن عباس بالتبن وعن الضحاك أنه النخالة . "

ولا يقف المفسر عند هذا الحد بل يسوق آراء الصحابة في ميادين علمية كرأي ابن عباس في تكوين الارض في قوله تعالى : " والارض وضعها للانام " الآية 10 من سورة الرحمن يقول : " . . ومن ابن عباس خلق الله تعالى الماء ثم الارض من زبدة والانام الانس والجن عند الحسن والحيوان كله في رواية عن ابن عباس (3) . "

وفي معرض تفسير قوله تعالى : " ولملئت منهم رعبا " الآيه 18 الكهف يستشهد بحادثة عاشها ابن عباس ورواها سعيد بن جبير ويقول في ذلك " . . عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما غزونا مع معاوية نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف " (4) .

---

(1) ن . م 3/ 612
(2) ن . م 6/ 50
(3) ن . م 6/ 60
(4) ن . م 3/ 819

وفي تفسير قوله تعالى : " إلا أن يشاء الله " من " الآية 24 الكهف ينقل لنا آراء الصحابة في مدة الاستثناء قائلا : " .. قال ابن عباس يستثنى ولو بعد سنة أو أكثر أبدا ما لم يحنث لدليل الآية وعنه سنة وعنه شهر وعن سعيد بن جبير أربعة أشهر وعن الحسن وطاوس وعطاء حال تلاقيه وعن مجاهد سنتان .. " (1).

وهذه الامثلة المختلفة كافية للاستدلال على اعتماد المفسر على هذا المصدر ومن بين المصادر الاساسية التي كان يرجع إليها المفسر لابراز معاني القرآن الكريم والتي لا يستغنى عنها، أسباب النزول القرآن، ولأهميتها أفردنا لها بحثا خاصا.

<u>أسباب النزول :</u>

من الوسائل المساعدة على فهم القرآن الكريم، وادراك معانيه وأحكامه أسباب النزول باعتبارها احداثا وقعت في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم عالجها القرآن الكريم، فهي بمثابة نماذج من واقع المجتمع البشري ولذلك فان نزول الآية وحكمها لا يختص بالحادثة التي نزلت بمناسبة نزولها بل يعتبر توجيهات تشريعات صالحة لكل زمان ومكان، وقد كان المفسر يشير إلى هذه الفكرة عقب ذكر أسباب النزول أو قبلها بسرد إحدى هذه العبارات : " كما عمّ اللفظ ولو كان سبب خاص " (2) أو العبارة التالية : " الآية على عموم لفظها ولو خص سبب النزول " (3) وفي تفسير قوله تعالى : " ويل لكل أفاك أثيم " الآية 07 من سورة الجاثية يقول : " والآية عامة لفظا ومعنى ولو نزلت في أبي جهل " (4) والعبارة التي استعملها كثيرا هي " لأن المعتبر عموم اللفظ لا خصوص سبب النزول " (5).

ومن هنا نرى أن المفسر لا يهدف من وراء استشهاده، بأسباب النزول سوى توضيح المعنى أو الحكم، ولا يقصدها لذاتها، وبالتالي يعتبرها وسيلة ليست غاية في حد ذاتها ولذلك تجده في بعض المواضيع يمهد بها للآية أو السورة.

---

1) ن م. 3/ 629، 630.
2) ن م. 6/ 723
3) ن م. 5/ 456.
4) ن م. 5/ 301.
5) ن م. 5/ 292.

وفي بعضها يسوقها في معرض التفسير : ومن خلال الأمثلة التالية يتضح لنا ذلك
1) تمهيدا لقوله تعالى : "وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها " الآية 11/ من سورة الجمعة يقول المفسر : " .. قال البخاري ومسلم والترمذي عن جابر بن عبد الله بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما إذ قدمت عير المدينة فابتدرها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لم يبق إلا اثنا عشر رجلا أنا منهم وأبو بكر وعمر فانزل الله تعالى : " وإذا رأوا تجارة ألخ .. الى آخر السورة " (1).

2) وفي معرض تفسير قوله تعالى : " والذين يرمون أزواجهم الى .. أن كان من الصدقين " الآية 6/ النور ، يستعرض المفسر جملة من روايات عن سبب نزولها منها قوله : " .. ونزلت آيات اللعان بسبب هلال بن أمية أحد الثلاثة الذين تيب عليهم إذ رمى زوجه فلا عن بعد نزولها وقيل بسبب عاصم بن عدي وقيل بسبب عويمر بن نصر العجلاني .. "(2).

لما نجري مقارنة بين المثالين السابقين نستنتج ما يلي :—

في المثال الأول :

أ. مهد للآية بسبب نزولها .

ب. ذكر سنده .

جـ. يصور حادثة كانت سببا في نزول الآية وتحريم المعاملة في وقت صلاة الجمعة .

في المثال الثاني :

أ. سرد سبب النزول خلال تفسيره للآية لغرض التوضيح .

ب. عدم ذكر السند مع استعمال صيغة التبعيض لتعدد الروايات .

جـ. تبيان الآية لطريقة اللعان بعد وقوع حادثة قذف الزوج .

3) يجمع المفسر بين الطريقتين السابقتين لتفسير قوله تعالى : " ولما ضرب ابن مريم " الآية 57/ الزخرف .

يقول المفسر : " .. لما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنكم ما تعبدون من دون الله حصب جهنم " (3) قال عبد الله بن الزبعري قبل اسلامه : عيسى عبد صالح نبي ، عندك وقد عبدته النصارى .... فقد رضينا أن نكون نحن

---

1) ن.م. 5/ 218 .
2) ن.م. 4/ 374 المجلد 1 .
3) الأنبياء / 98 .

و المتنا معهم في النار لا يكون ذلك فسكت و نزل :"إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى"(1) ألخ و هذه الآية (2)، وقيل قال ما أجهلك بلغة قومك أنّ ما لمن لا يعقل و أظنّه موضوعا لانّها تكون في القرآن أيضا للعاقل و تكون لهما . . . و لما فرغ ابن الزبعريّ من كلامه فرحت قريش بذلك ظنّا منهم أنه حجّة فضحكوا و علت أصواتهم كما قال الله تعالى :" اذا قومك منه يصدّون"(3) الآية 57 الزخرف.

في هذا المثال يستعين المفسّر بسبب النّزول لتفسير الآية الأولى مع ذكر الآيتين اللّتين تشتركان معها في سبب النّزول ، ثمّ آعتبر ذلك تمهيدا للجزء الذاتيّ من الآية الّتي بصدد شرحها، و لا يفوت المفسّر نقد الرّواية الّتي لم يذكر سندها.

4) لتفسير سورتي الكافرين و الأخلاص، يسرد في شرحه الآية الأولى أسباب نزول هاتين السّورتين ففي السّورة الأولى يستعرض بعض الرّوايات و يعقّبها بقوله :" .. و على كلّ حال في ذلك نزلت السّورة أو كان ذلك جميعا فنزلت" (4) دون ذكر السّند بخلاف سورة الاخلاص يذكر المصادر الّتي آستمدّ منها الرّوايات بأسانيدها لاحظ ذلك فيما يلي :

" .. ففي البخاريّ و التّرمذيّ عن أبيّ بن كعب أنّ المشركين قالوا للنّبي صلّى اللّه عليه و سلّم أنسب لنا ربّك فأنزل اللّه تعالى قل هو اللّه أحد (5) ألخ " .. و في الدّابن و الطّبرانيّ .. "(6)

و خلاصة القول ، أنّ المفسّر كلّما أمكنه آعتماد هذا المصدر للتوضيح ، و الشّرح و ابراز المعانيّ وظّفه بالطّريقة الّتي أشرنا اليها سابقا ، و لا يكتفي في غالب الأحيان برواية واحدة ان تعددت الرّوايات مع نقد بعضها ، أو محاولة التّوفيق بينها .

و من المصادر الشبيهة بهذا المصدر في آستعراض أحداث واقعيّة تترجم الآيات أو السّور لكن مع خلاف بسيط يتمثّل في كون أسباب النّزول أحداثا وقعت في عهد الرّسول صلّى اللّه عليه و سلّم ، و عاشها عن كثبه تصور جانبا من المجتمع الّذي عاش

---

1) الأنبياء /101 .
2) أي ولمّا ضرب ابن مريم ألخ ..
3) التّيسير 259/5 .
4) ن.م. 699/6 — 700
5) الأخلاص / 01
6) التّيسير 713/6 .

في أحضانه وتعامل معه ، وهذه الأحداث كانت أسبابا مباشرة لنزول الآية أو السّورة بينما المصدر الثّاني الّذي هو القصص يعتبر أحداثا تاريخية مّرت على المجتمعات البشرية الماضيّة يستعرضها القرآن الكريم لغرض الاتّعاظ ، وهو ما يفهم من قوله تعالى " لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الّذي بين يديه وتفصيل كلّ شيء وهدى ورحمة لقوم يومنون " الآية 111/ يوسف.

المصادر التّاريخية :

أ. قصص الأنبياء .

من جملة المصادر التّاريخية قصص الأنبياء الّتي كانت خير عون في تفسير القرآن من حيث أحياء التّاريخ في شكل قصصيّ حيّ مجذّاب يشدّ القارىء ويؤثّر فيه مؤدّيا الغرض المنشود من اشتمال القرآن عليه .

فاذا كان المفسّر أولى عناية خاصّة لهذا المصدر مستعينا به في تفسيره محاولا ربط أحداث القصص بالعودة إلى تفاصيل القرآن أو الى روايات مختلفة فإنّ اغراقه ـ أحيانا ـ في تفاصيل لا تخدم الغرض بقدر ما تسيء إليه بتحويل وقائع هذه القصص إلى أحداث خياليّة لا يصدّقها العقل ولا المنطق مع أنّ القرآن واضح كلّ الوضوح في تصوير هذه القصص ، والهدف من سردها ميجعل الباحث يؤاخذ المفسّر على ذلك ، وإن كان المتأمّل في الحقبة التّاريخيّة الّتي عاش فيها المفسّر والمصادر الّتي استقى منها معلوماته ، يعذره ويخرج باحتمال أنّ المفسر يقصد من وراء ذلك إفادة قرّاء تلك الحقبة الّذين يلهثون وراء التّفاصيل والجزئيات ويبحثون عن الخوارق والأمثلة التّاليّة تؤكّد ما ذهبنا اليه :

1) في سورة البقرة من الآية 30 الى الآية 38 يتتبع المفسّر قصّة خلق آدم كما أوردها القرآن مبرزا مضمون كلّ آية أو جزء منها على حدة حسبما يقتضيه المعنى (1).

غير أنّنا نلاحظ ـ أحيانا ـ يستطرد ، ويسرد بعض المسائل الّتي تزيد القصّة وضوحا وتمدّ القارىء ببعض التّفاصيل منها مثلا : اختلاف المفسرين في الأسماء الّتي علّمها اللّه لآدم ، وفي أصل اسم آدم ، وما ورد فيه من آختلافات.

كما نلاحظ من جهة أخرى إغراقه في تفاصيل تجعل القصّة أقرب الى الخيال منها إلى الواقع ، لاحظ ذلك في المثال التّاليّ الّذي يبيّن فيه طريقة وسوسة الشّيطان

---

1) التّيسير 1/ 37 ـ 50 .

لآدم وحوّاء :" . فأسمعهما من خارج الباب أو دخل الجنّة متصوّرا في صورة دابّة من دوابّ الجنّة ولم تعرفه الملائكة ، أو دخل في فم الحيّة فمنه سمّها وكانت بقوائم على طولها من أحسن الدّوابّ فعوقبت بسلب القوائم وقيل تسورت الحائط وقيل وقف الطاوس . "ألخ . (2)

ومع ذلك قد تغري هذه التّفاصيل بعض الأفكار ، وتشد انتباه بعض القرّاء والمفسّر يستعين ـ أحيانا ـ ببعض آيات من سور أخرى لربط الأحداث أو توضيحها منتهجا بذلك طريقة تفسير القرآن بالقرآن ، ومن أمثلة ذلك ذكره للكيفية التي أزلّ بها الشّيطان آدم وحوّاء :" ابليس بقوله هل أدلك على شجرة الخلد (2) ألخ . . وقوله ما نهيكما ربكما ألخ (3) . . " (4) .

لا يسلم المفسّر بكل الآراء ، بل نجده ـ أحيانا ـ ينتقد ويفند بعضها ، ومن خلال هذا المثال الّذي يحدد فيه جنّة آدم وحوّاء يتضح ذلك :" . . وهي جنّة فارس وكرمان أو في عدن أو فلسطين والصّحيح أنّها دار السعداء ، وقيل جنّة في السّماء غيرها ولا دليل عليها ولا تعرف في السّماء جنّة" (5) .

واذا استعرضنا قصّة المائدة ، نلاحظ أنّ المفسّر يلم ببعض التّفاصيل التي لم يتعرض اليها القرآن لكونها لا تخدم الغرض المتمثل في العبرة والتّذكير لا غير ، وهذه الجزئيات والتّفاصيل اقتبسها أصحاب المغازي والمفسّرون من مصادر أهل الكتاب ، نتيجة ميل العقول الى الاستيفاء والاستقصاء (6) ، ومن طبيعة الانسان الفضولي تطلعه الى معرفة دقائق الأمور ، ورغبته في الحصول على اجابات عن التساؤلات ، والّا ما الدّاعي الى تعرض المفسّر مثله مثل جميع المفسّرين الّذين انتهجوا نفس الطّريقة ـ الى معرفة أطعمة المائدة ، وسرد مختلف الآراء المتضاربة ـ أحيانا ـ حول هذه الأطعمة ، وطيرانها بعد شبع القوم ألخ . . (7)

ونجده خلال سرده لبعض القصص كموقف ابراهيم من أبيه وقومه يعالج بعض المسائل العقائدية أو اللغوية كتعرضه الى نزاهة أجداد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم عن عبادة الأصنام والأوثان ، ومدلول الاراءة لغويا ومجازيا ، وتفسير ملكوت ، ورأي الاباضية في عصمة الأنبياء منذ صغرهم ألخ . . (8) .

---

1) ن م . 1/46 ، 47 .
2) طه 120 .
3) الأعراف 20 .
4) التيسير 1/46 .
5) ن م . 1/45 .
6) التفسير والمفسّرون 1/61 .
7) التيسير 2/200 ـ 203 .
8) ن م . 2/315 ـ 325 .

ورغم اهتمام المفسر بالجانب القصصي ، بآستعراضه لأحداثها وجزئياتها نجده يشير من حين لآخر إلى بعض العبر مثل قوله بعد تفسير قوله تعالى : " قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا " الآية 61 طه ما يلي : " .. لكن الرغبة في الرفعة والدفع عن النفس يري الحق باطلا ، وينسى النظر في العواقب. "(1)

ويكتفي في كثير من المواضيع بحصر الغرض في تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي تشبيه عناد المشركين وآذاهم بفعل أقوام بأنبيائهم ورسلهم للتجلد والصبر في سبيل نشر الدعوة ، وفي تفسير قوله تعالى : " وهل اتيك حديث موسى" الآية 09/ طه مثال على ذلك إذ يقول : " تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم بما أوذي به موسى عليه السلام كغيره أنهم من أقوامهم ما عراك في اعلان بأن شأن الأنبياء القيام بالتوحيد وأموره وتحمل المشاق " (2).

أو يرى المفسر أن هذه القصص تهديد للمشركين ، ووعيد لهم ، يقول في تفسير قوله تعالى : " ألم تر كيف فعل ربك بعاد " الآية 06 الفجر ، ما يلي : " ألم تعلم يا محمد أو من يصلح للخطاب ما فعل ربك بهم من العذاب ، وثمود وفرعون لكفرهم فليخف قومك تعذيبا مثله على كفرهم " (3).

فاذا كان المفسر يرى في أسباب النزول العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فاننا لا نراه يطبق هذه القاعدة على قصص الأنبياء التي تصور نماذج بشرية تنطبق على المجتمعات وعلى عينات انسانية في كل مكان وزمان ولم يستغل ذلك لاصلاح النفوس والمجتمعات عملا بقوله تعالى : " لقد كان في قصصهم عبرة" الآية 111/ يوسف ، بل آكتفى في كثير من الأحيان بسرد القصة متعرضا الى بعض جزئياتها ، واذا أشار الى العبرة حصرها في نطاق ضيق لا يتجاوز عهد نزول القرآن الكريم.

---

1) ن.م. 4/ 132 المجلد 1
2) ن.م. 4/92 المجلد 1.
3) ن.م. 6/ 581.

لكن المفسّر لا يقتصر استفادته من التاريخ على قصص الأنبياء ، بل نجده يستعين ببعض الأحداث التاريخية التي عاشها الانسان في مراحل حياته على وجه الأرض، وتختلف استفادته من هذه الأحداث تبعا لمضمون الآية ونوع الحادثة ، وفيما يلي نلقي أضواء على بعض أمثلة .

ب. الأحداث التّاريخيّة:

أهم ما يتميّز طريقة المفسّر في سرد الأحداث التّاريخيّة تعرضه الى الرّوايات المختلفة بما فيها الرّوايات الضّعيفة في بعض الأحيان ، وخير مثال على ذلك قصّة أصحاب الفيل .

نلاحظ في البداية يسرد القصّة بحذافيرها ، وبتفاصيلها متعرضا الى الاختلافات في تواريخها مثلا وأسباب وقوعها ، ثمّ يعيد سرد أحداثها خلال تفسيره للآيات دون الاشارة الى العبرة من هذه القصّة.(1)

وفي المثال الثّاني الشّبيه بالأوّل يذكر المفسّر مراحل بناء الكعبة واعادته وذلك في معرض تفسير قوله تعالى :" وأرنا مناسكنا " (2) الآية 128 / البقرة .

وفي تفسير قوله تعالى :" ومن أظلم ممّن منع . . .أولئك" الآية 114 / البقرة يضرب أمثلة من تاريخ تخريب بيت المقدس واعادة الفساد فيها ، ثمّ يذكر استيلاء الصّليبيين عليها وتحرير صلاح الدّين الأيوبيّ لها مستدلا بذلك على اثبات رأي التّفسير قائلا :" . . وليس في الآية أنه لا يدخلها أبدا بل فيها أنّه يتحقق هذا المقدار من عدم الدّخول الّا مع خوف فلا يرد ما ذكرت من دخول مساجد بلاد أخذوها ، ودخولهم المسجد الحرام وأخذهم الحجر الأسود ، ثمّ أنه ردّ وكون المقدس في يد الافرنج أكثر من مائة سنة بحيث لا يدخله مسلم الّا خائفا حتّى نزعهُ منهم النّاصر صلاح الدّين الأيوبيّ يوسف."(3)

---

1) ن.م. 84/6 — 638.
2) ن.م. 153/1 — 159.
3) التّيسير 142/1 ، 143.

وقد يسوق حادثة تاريخية في تفسير آية لاعلاقة هذه الحادثة بالآية وانما لورودها فيها ومثال ذلك الحادثة اللاي اقتبسها من كتاب الأمالي لأبي علي القالي، الواقعة في عهد عمر بن عبد العزيز، والتي تصور تمكّن الكفر من صاحبه بسبب نشأته عليه تجعل من المسير التخلّي عنه، فقد قال أحد المحاورين اجابة عن سؤال صاحبه القائل: "فتلتما بقي معك من القرآن قال: لا شيء الا هذه الآية ربما يود الذين كفروا لوكانوا مسلمين" (1) الآية 02 الحجر.

ومثل حادثة علي بن الحسين وجاريته (2) يرويها في تفسيرقوله تعالى: " الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ. الى والله يحب المحسنين" الآية 134 آل عمران، تبين هذه الحادثة وقع القرآن الكريم في نفوس أتباعه ومدى استجابتهم لتعاليمه، والعمل بمقتضاه.

وبحكم انتماء المفسّر المذهبيّ، نجده يفخر بأئمته، وكلّما وجد فرصة ذكرهم وأشاد بهم مثل قوله في معرض تفسير قوله تعالى "والذين جاؤوا من بعدهم "الآية 10 الحشر ما يلي: "..فنقول هم ان شاء الله مثل جابر بن زيد وأبي عبيدة والربيع بن حبيب.." ثم يسرد أيمة الشرق المشهورين مع تاريخ ولايتهم (3). على أنّ اعتزازه وافتخاره بالقادة والائمة لا يقتصر على أهل مذهبه بل نلاحظه يشيد بمواقف قادة المسلمين، ويتجلّى ذلك في سرده لحادثة وقعت في عهد يوسف بن تاشفين ويقول فيها: "..لمّا جمع أدفنش لعنه الله عزّ وجلّ جموعا كثيرة لملاقاة أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الذي دخل الأندلس للجهاد قال معجبا بحاله: "أقاتل بهذا الجيش ربّ محمد والانس والجن والملائكة، ورأى في نومه أنّه ركب فيلا وفي يده طبل صغير يضرب فيه فلم يعرف قسّيسوه تأويلها فسأل موحّدا فاستعفاه، فأبى، فقال تهلكون لقوله تعالى: "ألم تركيف فعل ربك بأصحاب الفيل" (4) مع قوله: فاذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على الكافرين غير يسير (5) فكانت الدائرة عليه كما عبّروفيها طعن طعنة أعرجته اعراجا لا زما له بقية عمره الى أن مات همّا

---

1) ن م 3/ 504.
2) ن م 1/ 590
3) ن م 6/ 156 مثال آخر في ن م 5/ 401 يشيد فيه بعبد الرحمن بن رستم وخلافته وفي ن م 5/ 451، 452 يعرّف بأئمة المذهب الاباضي.
4) الفيل: / 01
5) المدثر / 08، 09، 10.

وحزنا لقتل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ابنه ولقتل عساكره الى جهنم ودار الذل " (1) .

ولا يفوت المفسر نقل بعض الروايات عن مواقف أشخاص وتصرفاتهم مثل حادثة عمرو بن العاص مع علي بن أبي طالب قائلا : " .. ولما قصده داهية العرب عمرو بن العاص للقتال بقهر معاوية له على ذلك تحرك الى جهة علي بصورة القتال فلما قصده ليقتله كشف عورته فأدبر عنه علي فذهب ونجا وقد امتثل معاوية " (2)

كما نلاحظ اهتمام المفسر بتبيان الأحداث المأساوية التي فرقت المسلمين وشتتت شملهم ولا زال آثارها قائمة الى يومنا هذا تنهش جسم الأمة الاسلامية وهذه الأحداث تتمثل في ما يسمى فعلا بالفتنة الكبرى ، التي وقعت في عهد عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، ويحرص في سردها على تحليل الأحداث لاثبات موقف الرافضين للتحكيم وندم علي على قتال الخوارج ، وانفصال الاباضية عن بقية فرق الخوارج لتطرفهما وفي تفسير قوله تعالى : " وان طائفتان من المؤمنين .. الى آن الله يحب المقسطين " الآية 9 الحجرات ، مثال ذلك (3

واذا لاحظنا أن المفسر وظف في غالب الأحيان التاريخ في الشرح والتوضيح وضرب أمثلة ، نلاحظ من جهة أخرى ميله أحيانا الى بعض الاستطرادات التي لا تخدم هذه الجوانب بقدر ما كانت حشو وانسياقا وراء بعض الأحداث التي تأثر بها المفسر فذكره لأئمة المذهب الاباضي في مواضيع مختلفة وسرده لحادثة عمرو بن العاص وعلي وغيرها لا علاقة لها بمدلول الآيات المشروحة ولا يمكن أن يفسر ذلك الا بغزارة معرفة المفسر ، وعدم اعتماده منهجية واضحة في توظيف هذا المصدر ، وارادة ازالة الالتباس عن بعض القضايا لا سيما تلك التي كانت من أسباب الخلافات بين المسلمين وتصدع وحدتهم .

---

1) التيسير 6/ 402، 403

2) التيسير 5/ 454 .

3) التيسير 5/ 474، 475 .

واذا كان هذا أسلوبه في استعمال هذا المصدر فما هو اسلوبه في توظيف الشعر العربي وهذا ما سنراه في المبحث التالي .

الشعر العربي :

تواتر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّ شعر ا لديوان العرب (1) ، فكما كان الشعر العربي الجاهلي بصفة خاصة مصدرا للغة العربية ، وقواعدها فانه كان ولا يزال من أهم مصادر تفسير القرآن الكريم باعتبار نزول بلغة العرب ، وأنّ هذا الشعر يصوّر عادات العرب وبيئتهم السائدة حين بيئة نزول القرآن الكريم ، ومن هنا نرى ضرورة اطلاع المفسر على هذا المصدر والوقوف على معانيه ، وانطلاقا من ذلك نجد مفسرنا يرجع الى هذا المصدر مستعينا به لاستجلاء بعض المعاني ودعم افكاره وتوضيح مسائل في اللغة والقواعد العربية ، والعلوم البلاغية ويظهر من توظيفه لهذا المصدر تمام اهتمامه البالغ به ، واطلاعه الواسع على الشعر العربي في مختلف مراحله وتذوقه له ، ولبيان طريقة توظيف المفسر لهذا المصدر نسوق بعض الأمثلة :

1) اثبات استعمال لغوي :

أ . لتوضيح احدى مدلولات كلمة (الرقيم) في قوله تعالى : " أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم " الآية 9 الكهف ، يستدل المفسّر ببيت شعري لأمية بن أبي الصلت القائل : " وليس بها الا الرّقيم مجاورا .... وصيدهم والقوم في الكهف همّد ويعني به في هذا المعنى الكلب . (2)

ب : يستشهد بالبيت التالي دون ذكر صاحبه لاثبات احدى الاستعمالات كلمة (صيحة) في تفسير قوله تعالى : " فأخذتهم الصيحة " الآية 41 المومنون ، وذلك بعد استعراض بعض معانيها يقول : " .. أو الصيحة انقلاب الزمان بالسوء قيل :

صاح الزمان بآل برمك صيحة .... خرّوا لشدّتها على الأذقان (3) .

1) التفسير والمفسرون 1/ 53 .
2) التيسير 3/ 306 .
3) ن م . 4/ 342 المجلد 1 .

2) تدعيم فكـرة :

أ . لتدعيم فكـرة وردت في الآيــة : " وأنتم فيهـا خالدون " الآيــة 71 الزخرف وهي الخـوف من زوال النّعمـة ، وتأكيـد دوامهـا في هـذه الآيـة يقول المفسّر: " .. وفـي الخـلود تأكيـد في المعنى لقولـه " لا خوف عليكم " لأنّ زوال النّعمـــة ضـرر مخـوف وموجـب لكلفـة التّحفـظ قـال :

وإذا نظـرت فـان بـؤسا زائـلا ..... للمـرء خيـر من نعيم زائـل . (2)

ب . للمقارنـة بين تربيـة السامريّ وموسـى عليه السلام في تفسير قوله تعالـى : " وأضلّهم السامريّ " الآية 83 طه ، يستشهد المفسّر ببيتين قائلا :

اذا المـرء لـم يخلق سعيدا تحيّـرت .... قلوب مربّيه وخـاب المـؤمّــل

فموسـى الذّي ربّاه جبريـل كافــر .... وموسـى الذّي ربّاه فرعـون مرسـل (3)

ج . ليبيّن اعتقاد الكفرة بأنّ المصيبـة اذا عمـّت كانت أخـف وقعا على صاحبها عند تفسير قوله تعالى : " انكم في العذاب مشتركون " الآيـة 39 الزخرف يستشهد ببيتين للخنساء : "كما يزول بعض الهم اذا عمّت المصيبة وعموم البلوى يسلّي القلب في الدنيا قالت الخنساء :

ولولا كثرة الباكيـن حـولـي .... عـلى اخوانهم لقتلت نفسـي

ولا يكـون مثـل أخـي ولكـن .... أعزّي النفس عنـه بالتـأسّـي " (4)

د . في تفسير قوله تعالى : " ليعلم ما يخفين من زينتهن " الآية 31 النور ، يتعرض الـى متبينا يجـوز للرّجال ارتداؤه مبينّا أثر الثّياب فـي قيمـة الانسان ، مستشهـدا في ذلك ببيتين ملاحظ ذلك : " .. وأجيز الحرير للرجال في الحرب وكـذا يسّـن للرّجـال التزّييـن بلا اسراف قيل :

تجمّـل بالثيّـاب ولا تبـالـي .... فـانّ العيـن قبل الاختبـار

فلـو جعـل الثياب علـى حمـار .... لقـال النّاس يا لـك من حمـار (5)

---

1) الزخـرف / 69 .

2) التيسيـر 5/ 267 .

3) ن م 4/ 150 المجلد 1 .

4) ن م التيسير 5/ 251 .

5) ن م 4/ 396 المجلد 1 .

ب . قضية الحجاب : من القضايا التي اهتمّ بها الفقهاء والمفسّرون وبيّنوا أضرار التبرج وآثارها في المجتمع ، وليدعم المفّسر الفكرة التي ترى الخطر في النظر والتهاون فيه يسوق الأبيات التالية :

" كل الحوادث مبدأها من النظر .... ومعظم النّار من مستصغر الشرر
والمرء ما دام ذا عين يقلّبها .... في أعين العين موقف على الخطر
كم نظرة فعلت في قلب فاعلها .... فعل السّهام بلا قوس ولا وتر
يسترنا ناظراه ما ضرّ خاطره .... لا مرحبا بسرور عاد بالضّرر (1)

وهذا في معرض تفسير قوله تعالى : " وليضربن بخمورهن على جيوبهن " من الآية 31 النور .

واذا تصفّحنا تفسيره الذي نحن بصدد دراسته تجد المفّسر يدعم مضامين الآيات أو بعض أفكار لها علاقة بها أو تبناها هو بأبيات شعريّة مستعينا بها في زيادة التوضيح وتقوية الفكرة ويتجلى من ذلك تأثر المفّسر بالشّعر ونظرته اليه واعتباره مصدرا مساعدا على الفهم والتأثير على القارئ .

3) تبيان مسألة في قواعد اللّغة والعلوم البلاغيّة :

لا نريد التحدّث عن أهميّة القواعد في نظر المفسر لأنّ ذلك سنخصص له مبحثا خاصا ، وانما نريد هنا أن نبيّن أن الشّعر العربي لا سيّما القديم منه كان مصدرا أساسيا في تفسيره يستخدمه في اثبات استعمال معّين في قواعد اللّغة ، وسيتضح لنا ذلك من الأمثلة التّالية:

أ . لاثبات جواز استعمال ان الشرطيّة المدغمة في ميم دون زيادة نون التوكيد يستشهد بالبيت التالي : قال الشاعر :

" فاما تريني ولي لمّة ..... كأن الحوادث أولى بها " (2) .

وذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " فامّا نرينّك " الآية 77 غافر .

ب . استشهد بالبيت التالي القائل :

" العاطفون تحين لا من عاطف ..... والمطعمون زمان ما من مطعم " (3)

---

1) ن م 4/ 393 المجلد 1 .
2) ن م 5/ 148 .
3) ن م 5/ 03 .

لاثبات صحة من يرى التّاء في قوله تعالى : " ولات حين مناص" الآية 03 (ص) تابعة لحين وهو قول شاذ ، لأن المشهور أن (لات) فيها (لا) النافية ومذهب الجمهور أنها تعمل عمل (ليس) زيدت عليها تاء التأنيث مفتوحة فيكون حين خبرها منصوبا واسمها محذوف تقديره (ولات الحين حين مناص) (1).

ج. استدّل بأبيات لأبي عبيدة اللّغوي ليبرهن صحّة جمع (حم) على حواميم أي على وزن فواعيل على القياس بابدال الحاء واوا ويقول :

" وحلفت بالسّبع التّي تطّولت " الى أن يقول :

و بالحواميم اللّواتي سبعت * و بالمفصّل التّي قد فصّلت "(2).

د . يحتمل في تفسير قوله تعالى : " القيا في جهّنم كلّ كفّار عنيد "(ق) أنّ له لخطاب الواحد بألف المثنّى ليبين جواز استعمال ذلك والغرض منه يقول : " الألف ضمير الواحد خطابا له بخطاب الاثنين يدل خطابه بتكرير الفعل أي ألف كقوله : :

فأن تزجراني يابن عفان الزجر * وان تدعان أحسم عرضا ممنعا (3)

هـ. لتبيان توظيفه للشعر في العلوم البلاغيّة نكتفي بهذا المثال لأنّ التّعرض لهذا المصدر سيتّم في مبحث خاص، ففي تفسير قوله تعالى :" " مثل نوره كمشكورة " (4) يقول : . . . وفي الآية تشبيه الأعلى بالأدنى قال أبو تمّام يمدح المأمون :

أقدام عمرو في سماحة حاتم * وفي حلم أحنف في ذكاء اياس

فقيل له ان الخليفة فوق من مثّلته بهم فقال : :

لا تنكروا ضربي له من دونه * مثلا شرودا في الندى والبأس

فالله قد ضرب الأقل لنوره * مثلا من المشكاة والنبراس(5).

---

1) بهاء الدين عبد الله بن عقيل شرحه على الفيةابن مالك 1 / 319 ويذهب أبوعبيد معمر بن المثنى في كتابه مجاز القرآن 2 / 176 مذهب جمهور النحاة الذي أشرنا اليه مضيفا قوله هذا : " وبعض العرب تزيد فيها الهاء فتقول (لاه) فتزيد فيها هاء للوقف فاذا اتصلت صارت تا ".

2) التيسير 5 / 759 . 5 / 97.

3) ن.م. 5 / 511.

4) النور / 35.

5) التيسير 4 / 423 هذه الأبيات امتدح بها الشاعر أحمد بن المعتصم أنظر شوقي ضيف الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 222، 223.

4) الوعظ والإرشاد :

يهدف المفسّر أحيانا من توظيف الشّعر الى الوعظ والأرشاد والنّصح لا غيره لاحظ في ذلك من الأمثلة التالّية :

أ. في تفسير قوله تعالى : " أمات وأحيا " الآية 44 من سورة النّجم يسوق المفسّر هذين البيتين لغرض الوعظ : " .. قال بعض :-

ولدتك أمّك يابن آدم باكيا * والنّاس حولك يضحكون سرورا

فاجهد لنفسك أن تكون اذا بكوا * في يوم موتك ضاحكا مسرورا . " (1)

ب. لإبراز فضل الأم في التّربية ، وحقّها في الطّاعة عند تفسيره قوله تعالى : " وصاحبهما في الدنيا معروفا " من الآية 15 لقمان يسرد بعض الأبيات الشّعرية التّالية مستحسنا ايّاها : " وأما أحسن قول بعض :

لأمك حق لو علمت كبيـــر * كثيرك يا هذا لديه يسيـــر

فكم ليلة باتت بثقلك تشتكي * لها من حولها أنّة وزفيـــر .(2)

وفي الوضع لو تدري عليها مشقّة * فمن غصص لها الفؤاد يطيـــر" ألخ . . .

جـ. لبيّن حظّ النّاس في هذه الدّنيا في أرزاقهم وأنّ الأمر في ذلك راجع الى حكمة الله ، وقدرته لا الى قوّة العبد وسعيه ، يستشهد المفسّر بأبيات في معرض تفسير قوله تعالى : " أولم يروا أنّ الله يبسط ... لقوم يومنون " الآية 37 الرّوم . يقول : " فكم الأريب وطيب عيش الجاهل * قد أرشداك الى حكيم كامل

وقيـــل

كم من أريب فهم قلبه * مستكمل العقل مقلّ عديم

ومن جهول مكثر ماله * ذلك تقدير العزيز العليم" (3)

ومن هذه الأمثلة يتضح لنا أثر الشّعر في نفس السّامع والقارئ ، والدّور الذّي كان يلعبه في الأرشاد والنّصح ومكانته بين المثقّفين ، واعتماد المرشد عليه لأقناع المخاطبين بفصيح عين الكلمة ، بينما نلاحظ تقلّص دوره في هذا المجال في الوقت الحاضر لرقيّ العقل البشريّ من التّأثر العاطفيّ الى التّفكير المنطقيّ

1) (التّيسير) 5/ 596 .
2) ن م. 4/ 752 المجلّد 2 .
3) ن م. 4/ 721 المجلّد 2 .

نظرا لتطور الحضارة ، وسائل التقدم العلمي فقلما نسمع مرشدا أو مفسرا يستشهد بأبيات شعرية للتأثير في السامع أو القارئ اللهم الا من لا زال ينتهج الطريقة السلفية في القاء دروسه أو تأليفه ، فأحسن وسيلة للتأثير في الوقت الحاضر هي مخاطبة العقل ، ومحاولة الإقناع .

والشعر في نظر المفسر ومن نحا نحوه بمثابة المصدر القانوني الذي يعود اليه المحامي أو القاضي أثناء المقاضاة .

5) أغراض أخرى :

وتأثر القدماء بالشعر يجعلهم يعودون اليه ، ويحتجون به ولو على من لا يفهم هذا المصدر ، مثل النصارى ، فقد استشهد المفسر ببيت شعري لمجابهتهم ردا على تهجمهم على القرآن الكريم بعد أن ضرب لهم أمثلة وبين جهلهم بطرق الجدال فيقول : " .. ولم أر أجهل بطرق الجدال من النصارى ، يعيبون القرآن بما هو ظاهر البطلان راجع عليهم ولا يستحيون فهم كنا موسة نفخت على جبل عظيم لتزيله بنفختها وكأحمق بال في المحيط لينجسه وككلب عوى على البدر ليحطه من سمائه" .

" لو نبح البدر كلاب الورى ..... ما وصل النبح الى البدر " (1)

وذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل " الآية 03 سورة محمد .

وعند حديثه عن حادثة الافك ضمنها بعض ما قيل من أشعار تبرئ عائشة رضي الله عنها ، من هذه الاشعار نسوق الابيات المقتبسة من ديوان حسان بن ثابت

" حصان رزان ما تزن بريبة .... وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

حليلة خير الناس دنيا ومنصبا .... نبيء الهدى ذي المكرمات الفواضل " (2)

كما يسرد أبياتا في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم منها :

" صلوا على المختار فهو شفيعكم .... في يوم يبعث كل طفل أشيبا "

وقيل

" يا أمة المصطفى يا أشرف الامم   هذا نبيكم المخصوص بالكرم (3) الخ

---

1) ن م 5/ 365 .

2) التيسير 4/ 375 المجلد 1

3) ن م 4/ 796 المجلد 2 .

وهذا في معرض تفسير أوّل آية من سورة الأحزاب .

واستشهد بأبيات تصف غزوات الرّسول صلى الله عليه وسلّم ، وتجسد الأحداث التي وقعت في عهده (1) .

ومن بين الأغراض التي يوظّف فيها المفسرّ الشعر ، التضرّع الى الله ، ودعاؤه لا سيّما اذا كانت الآية تشتمل على الدّعاء لا حظ ذلك في تفسير قوله تعالى : " وهيّئ لنا من أمرنا رشدا " الآية 10 الكهف يسوق المفسّر هذه الأبيات .

" يارب هيّئ لنا من مزننا رشدا .... واجعل معونتك الحسنى لنا مددا

ولا تكلنا الى تدبير أنفسنا .... فأنفس تعجز عن اصلاح ما فسدا " (2)

شعر من نظمه :

من المعلوم أنّ المفسرّ قد نظّم الشعر في أغراض مختلفة ، سيّما في مدح الرّسول صلى الله عليه وسلّم ، وفي المتون ، وقد يسوق في تفسيره أبياتا شعريّة من نظمه مثلما فعل ذلك في تفسير قوله تعالى : " اعملوا آل داود شكرا " الآية 13 سبأ ، يقول متحدّثا عن نفسه : " .. وفي وصول هذه الآية أكلت ليلا خبز شعير بزيت وحده وهو معتادي فألهمني الله تعالى بيتا على ارتجال من المتقارب :

" وخبز الشّعير مع الزّيت كل .... ومن بعده الحمد للّه قل " (3)

والمفسّر ينظم أبياتا ليستشهد بها في مسألة وردت في القرآن الكريم مثل فعله في تفسير قوله تعالى : " استطعما أهلها " الآية 77 الكهف ، وتكرير كلمة أهل في هذه الآية التّي ذكرت من قبل في نفس الآية اذا أتيا : أهل القرية " أثار تساؤل المفسّرين وللاجابة عن ذلك يقول : " .. ولم أر من أجاب بالنظّم فأجبت بأبيات على أنّه قد يوجد في الأسقاط ما لا يوجد في الأسفاط وهي :

" خذ الحكمة القرّاء استطعما لها .... يلي صفة وجها لأهل اللّسان

ولو جيء بالضّمير لم يلف رابط .... من اللّفظ موجود ولا متفاني (4)

---

1) أنظر مثالا في ن م 4/ 827 ، 828 المجلد 2 .

2) ن م 3/ 809 .

3) ن م 4/ 909 المجلد 2

4) ن م 3/ 885 ويقول المفسر في ص886 معترفا بوجود منظومة في المسألة : " ثم بعد مضي نحو خمسين عاما وجدت جوابا لبعضهم " (ويسرد الأبيات) .

ونلاحظه في تفسير قوله تعالى : " حتى اذا بلغ مطلع الشمس " الآية 90 الكهف ينظم بيتين يتنبأ فيهما بمستقبل وادى ميزاب قائلا : " ... والآن بدا لي أن أقول معميّا وعلم الغيب لله .

" لويل مضاب (1) عن ثمان وأربع .... سوى فرحة من مومن وجحود
كذا لاح لي والله بالغيب أعلم .... فهذا ساحل لمومن وكنود

ومضى في ذلك مقدار وبقي نحو عشرين " (2) .

فاذا لاحظنا من الأمثلة السابقة توظيف المفسر للشعر في عدة أغراض مختلفة نلاحظ أيضا سرده لأبيات شعرية كثيرة في غرض واحد ولا يتطلب كل ذلك وان كانت هذه الملاحظة لا نعثر عليها الا نادرا ، فمثلا لتبيان غرض القرآن الكريم من تكرير ألفاظ وعبارات يقول : " وجاء التكرير في كلام العرب للتأكيد وللحكم الأخرى ، ومضى كلام في ذلك في سورة المرسلات ومن ذلك قول مهلهل يرثي كليبا بعد (3) أبيات على أن ليس .. " الخ فيسرد عدة أمثلة من شعراء مختلفين يبلغ مجموع الأبيات المستشهد بها ستين بيتا (4) كلها تدور حول غرض واحد من الاستشهاد بها .

ولا يقتصر المفسر على الشعر الاباحي والمعبر عن الأغراض النبيلة فاذا وجد المعنى يتطلب شعر المجون أو ما يشبه ذلك ساقه كمثال لغرض استنكار أو توضيح مسألة يلاحظ ذلك في المثالين التاليين :

أ . لتفسير قوله تعالى : " ما شاء ركبك كلا " 08 الانفطار يقول : " ردع عن الاغترار بكرمه تعلى فيجعل كرمه ذريعة الى المعاصي قبح الله قائلا :

" تكثر ما استطعت من الخطايا .... ستلقى في غد ربا غفورا
تعض ندامة كفيك مما .... تركت مخالفة الذنب السرورا (5)

ب . وفي تفسير قوله تعالى : " والشعراء يتبعهم الغاوون " الآية 224 الشعراء يشنع بشعراء المجون قائلا : " ... قبح الله الفرزدق وعمر بن ربيعة وأبا نواس

---

1) مضاب اسم وادى ميزاب بمنطقة تشمل الآن جزءا من ولاية غرداية بالجنوب الجزائري وتظم القرى السبع (غرداية ، العطف ، بني يزقن ، مليكة ، القرارة ، بريان) وهي مسقط رأس المفسر .
2) التيسير 3/ 903 .
3) والصحيح بعده .
4) التيسير 6/ من 506 ــ 509 .
5) ن م 6/ 518 و 519 .

وغيرهم ممّن يتشبّب بالشعر وذكر الفسق فهم داخلون في الآية لا من يروي شعرهم للعربيّة ، وقبّح الله من يرويه قاصدا مقصدهم " وروي أن سليمان بن عبد الملك سمع قول الفرزدق :

" فبتن بجانبي مصرعات .... وبتّ أفضّ أغلاق الختام .

فقال : " قد وجب عليك الحد ، فقال قد ردّ الله عنّي الحدّ بقوله : " انهم يقولون ما لا يفعلون " (1) الآية 226 الشعراء ،

ولا يسلّم المفسر بكل رواية ، دون نقدها ، فقد تصدى لنقد بعضها اذا لاحظ فيها عناصر تدل على وضعه وفيها يلي مثال ذلك : " .. ولا يصح ما نسب لامرىء القيس هكذا :

" أيتمنى المرء في الصيف الشتاء .... فاذا جاء الشتاء أنكره

فهو لا يرضى بحال واحد .... قتل الانسان ما أكفره "

بل ذلك شعر موضوع اقتبس من الآية كقوله : " قتل الانسان " الخ (2) فاني لم أره في نسخ ديوانه ولا في شرحه .. " (3) .

رأينا ممّا تقدم بأنّ المفسّر اتخذ الشعر العربي مصدرا من مصادر تفسيره عملا بقول عمر بن الخطّاب رضي الله عنه : " عليكم بديوانكم لا تضلّوا ، قالوا ومنا ديواننا قال شعر الجاهلية فانّ فيه تفسير كتابكم ومعانيّ كلامكم " (4) .

بذلك نرى أنه كان يعود الى الشعر العربي والقديم والشعراء المولّدين الذين اشتهروا بأشعارهم الفصيحة والتي كانت مصدرا لغويا لاثبات مسألة لغويّة وتوضيحها أو مسألة في القواعد العربيّة أو البلاغية ، وفيما عدا ذلك يستشهد بجميع الشعراء وقد يتولى نظم الشعر كما رأينا ذلك من خلال الأمثلة ، مما يؤكد لنا غرام المفسّر بالشعر وتعلقه به وأهميته على الأقل في نظره من حيث أثره في القارىء أو السامع وهذا ما دفعه الى استغلاله كوسيلة للتأكيد في القارىء سيّما في مواضيع الوعظ والنصح .

---

1) (التيسير) 4/ 836 المجلد 2 .

2) عبس / 17 .

3) التيسير 6/ 495 أنظر مثالا آخر في ن م 6/ 640 أبيات نسبت الى أبي طالب عم الرسول صلى الله عليه وسلم .

4) (التفسير والمفسرون) 1/ 74 نقلا من كتاب الموافقات للشاطبي 2/ 88 .

وإذا كانت هذه هي الطريقة التي وظّف بها المفسر الشعر، فكيف استعمل اللغة وقواعدها، وما هي الجوانب التي وظّف فيها هذين المصدرين، وهذا ما سنراه في المبحث التالي:

علوم اللغة:

نزول القرآن الكريم باللغة العربية يستوجب على دارسيه أن يفقهوا هذه اللغة، ويتطلعوا على أسرارها، وقواعدها، وعلومها بصفة عامة، ليتسنى لهم إدراك معانيه، والاغتراف من مناهله (1)، كما أن القرآن نفسه كان مصدر اللغة وعلومها، إذ هو المرجع الأساسي لها، فدارس اللغة يجد القرآن خير مساعد لمعرفة دقائقها، وقواعدها، فكل واحد منهما يخدم الآخر، غير أن القواعد وضعت أساسا لمساعدة متعلمي اللغة العربية على معرفتها والتحكم في أساليبها، إذ كان العرب يعرفون هذه اللغة بالسليقة ويعرفونها من ذوي أمهاتهم، فلم يجدوا صعوبة كبيرة لفهم القرآن ومعايشة أحداثه، وأفكاره (2)، فعندما اختلط العرب بالعجم وانتشر اللحن أصبح الانسان المسلم بحاجة الى تعلم قواعد اللغة، وعلومها والاستعانة بها لفهم القرآن والغوص في أسراره ومكنوناته، واستجلاء كنوزه ودقائقه، وبل كان القرآن الكريم السبب الرئيسي في وضع علوم العربية ويقول في ذلك شوقي ضيف: "... ولا نبالغ إذا قلنا أن كل ما كسبه العرب من معارف انما كان بفضل ما غرس فيهم القرآن من حب العلم كما قدمنا في غير هذا الموضع وقد أخذوا يشتقون منه مباشرة علوما كثيرة" ويذكر من بين هذه العلوم: "... علم نحوه واعرابه وعلم عامة وخاصة ممّا هيأ لظهور علوم البلاغة" (3)

وفي مثل هذا المعنى يقول عبد العزيز عتيق محددا أحد أهداف شغف الباحثين بالبلاغة العربية منذ صدر الاسلام "... أما الهدف الخاص فكان هدفا دينيا يرمي الى معرفة اعجاز كتاب الله.." (4).

1) مناع القطان مباحث في علوم القرآن 283.
2) أحمد أمين (فجر الاسلام) ص 195 — 199) أبو عبيدة (مجاز القرآن) 1/...
3) شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي) العصر الأموي 32/2.
4) عبد العزيز عتيق (علم المعاني) ص/ 35.

ولأهمية هذا المصدر استعان به المفسّر لتوضيح المعاني، وابراز الأفكار ودعم الآراء، وتبيان الأحكام ولتداخل علوم اللّغة ارتأينا أن نعالجها في مبحث واحد، وقدرة المفسّر في هذه العلوم تظهر بوضوح في حسن توظيفها، وتعمّقه في مباحثها، ولكن هذا التوظيف والتعمق يختلفان تبعا لما يقتضيه مضمون الآية ومن خلال الأمثلة التي نسوقها ستتبين لنا الجوانب التي كان يوظّف فيها المفسر هذه العلوم، على أنّ هذه الأمثلة تتناول جميع هذه الجوانب وانما سنكتفي ببعضها لأنّ الالمام بها يتطلب بحثا مستقلا.

أ. ابراز المضمر والمحذوف:

يكتفي المفسر-أحيانا-بإزالة غموض آية أو جزء منها بابراز المضمر أو المحذوف سواء كان ذلك محدثا، أو مفردة، أو حالة اعراب، ولبيان الحالة الأولى نسوق هذا المثال في تفسير قوله تعالى: " وقلنا لهم لا تعدّوا في السّبت 154/ النّساء،(قلنا لهم) على لسان داود وعلى لسان موسى (في السّبت) بصيد الحوت فيه " (1).

وأمّا الحالة الثّانية تظهر في تفسير قوله تعالى: " انّه كان في أهله "، " حال حياته في الدنيا (مسرورا) (2) باللّذات والاستهزاء بالمسلمين وغيبتهم والتّقص منهم وسائر المعاصيّ معرضا عن التّقوى والآخرة" (3).

والحالة الثّالثة يبينها المثال التّالي: يقول المفسّر في تفسير قوله تعالى: " ومن لا يجب داعيّ الله " (4) الجواب محذوف أي يعذّبه وناب عنه قوله عزّ وجلّ" (5).

وفي قوله تعالى: " ما لهم من الله " من الآية 27/ يونس يقول المفسّر: " أي من عذاب الله على حذف مضاف ويجوز أن لا يقدر مضافا كما تقول جاء في كتاب من زيد ويتعلق بمحذوف من ضمير الاستقرار " (6).

---

1) (التّيسير) 1/ 849 أمثلة في ن.م. 1/ 291.
2) الانشقاق / 13
3) (التّيسير) 6/ 53
4) الأحقاف / 32
5) (التّيسير) 5/359.
6) ن.م. 3/35 لمحل جاءني.

والمفسّر يمضي على هذه الطّريقة في ابراز مضمر أو محذوف مقدّر لغرض توضيح المعنى ومّما يمكن الحاقه بهذا الجانب ، بيان المدلول الّذي يعود اليه الضّمير حتى يتّضح على القارئ فهم المعنى ومتابعة سياق الآية ، ونلحظ ذلك مثلا في قوله تعالى : " ليحكم " (1) يقول المفسّر : " اللّه كما قرئ لنحكم . "(2) وفي قوله تعالى :" ولا تقربوا " من الآية 152 سورة الأنعام يقول :" أيّها الأوصياء والأولياء وغيرهم " (3) وهو ما يشير اليه واو الجماعة في الفصل المسبوق بلام النّاهيّة ، وقبل ذلك يبرز المفسّر دلالة اسم الاشارة في قوله تعالى : " ذلكم " من الآية 151 سورة الأنعام قائلا : " أي ما ذكر من ترك الاشراك ومن الاحسان بالوالدين وترك قتل الأولاد وترك قرب الفواحش ، وترك قتل النّفس الّتي حرّم اللّه " (4)

ومّما تقدم نلحظ أنّ المفسّر يتوخّى التّوضيح والبسط الّذي يعتبر احدى سمات تفسيره هذا قصد تحقيق غرضه من تأليف هذا الكتاب . والّا ما الغرض الّذي دعاه الى ابراز المضامين الّتي تعود اليها الضّمائر أو أسماء الاشارة ، أو اتمام معنى يفهم من سياق الحديث ؟ ولا يفسّر ذلك الّا بقصد التّسهيل على القارئ والتّيسير عليه .

ب. توضيح معان :

ولتأكيد ميل المفسّر الى التّوضيح ، نجده يستعمل اللّغة والقواعد والبلاغة لبسط المعاني المختلفة ، ويسوق عدّة أوجه مبّينا علاقتها بمعانّي الآية أو النّص المفسّر ، ولشرح قوله تعالى :" فلا تجعلوا للّه أندادا " من الآية 22 البقرة يسوق معانّي كلمة النّدّ واستعمالاتها مبّينا وجه الاختلاف بينها وبين كلمتي الشّكل والشّبه ثمّ يقول متعرضا الى النّاحيّة البلاغيّة :" .. وفي تسميّة الأصنام أندادا استعارة تهكميّة" معلّلا ذلك بقوله :" لأنهم علموا أنّها عاجزة لا فعل لها ولا تشارك اللّه تعالى في شيء ، كما يستعار أسد للجبان والتّبشير للوعيد ، وحكمة ذلك

---

1) البقرة / 213 .
2) (التّيسير) 1/ 291 .
3) ن م. 2/ 455 .
4) ن م. 2/ 454 .

الاشارة الى أنّ عليهم ذنب من آعتقدها مشاركة له في صفاته وأفعاله ." (1)

وفي المثال التالي يتجلّى لنا أسلوب المفسّر في آستغلال اللّغة والقواعد للتوضيح والشّرح ، وآتخاذه ذلك وسائل لابراز المعنى ، والتّعمّق فيه فيقول في شرح قوله تعالى : " وباءوا بغضب من اللّه " من الآية 61 البقرة مستعرضا عدة معان لكلمة (باءوا) وهي (رجعوا أو احتملوا أو استحقّوا أو أقرّوا أو لازموا حال كونهم ملازمين لغضب اللّه ، هوّ قضاءه الأزلي عليهم بالشّقوة وتوابعها أو موذّنه اياهم في الدّنيا وعقابه في الآخرة) (2) .

وهذه المعانيّ اللّغوية واردة في المعاجم (3) على أنّ المعنى الرّاجح هو (رجعوا) في هذه الآية وأن لّم يشر المفسّر الى ذلك الّا أنّه من عادته في الغالب تقديم الرّأي الرّاجح على بقيّة الآراء .

أنظر اليه في هذا المثال كيف يستخدم القواعد في توضيح المعانيّ يقول مفسّرا قوله تعالى : " في عمد " من الآية 09 الهمزة بعد تبيان ما قيل في مفردها (جمع عمود عند الفرّاء وقال أبو عبيدة جمع عماد وقيل آسم جمع) ثمّ يسترسل مبرزا حالة اعرابها " وهو متعلّق بمحذوف خبر لمحذوف أي هم في عمد والظّرفيّة مجازيّة لشدّة الوثوق حتى كأنّهم في داخل العمد " ويحتمل حالة اعراب أخرى لها : (.. أو بمحذوف حال من (ها) عليهم أو متعلّق بموصدة وفي بمعنى الباء على هذا والاطباق عليهم تشديد وايئاس .) (4)

ومثل هذا يقال في توظيف علوم البلاغة ، ينتهج نفس الطّريقة واليك مثال على ذلك : يقول في قوله تعالى : " ويجعلون أصابعهم في آذانهم) من الآية 19 البقرة (أطراف أصابعهم على المجاز بالحذف أو سمّاها بآسم الأصابع لأنّها بعضها والمجاز لغوّي ، ونكتته التّهويل بصورة جعل الأصابع الى أصولها) (5) .

---

1) ن م . 1/25 ، 26 .
2) ن م . 1/77 .
3) ارجع مثلا الى معجم آبن منظور (لسان العرب) 1/36، 37 معجم اللّغة العربيّة المعجم الوسيط 1/75 .
4) (التّيسير) 6/ 633 .
5) ن م . 1/ 20 .

وفي نفس سياق المعنى ، راح يحلّل تشبيهات تصرفات المنافقين ، وموقفهم من القرآن والاسلام قائلا : " .. وحاصل الشّبه بالصيب المذكور أنّ القرآن شبيه بالمطر اذ هو سبب الحياة الدّنيا والقرآن سبب لحياة القلوب وأنّ الكفر شبيه بالظلمات في مطلق الاضلال وعدم الاهتداء وفي مطلق الحيرة والوعيد عليه شبيه بالرعد في الارهاب والحجج شبيهة بالبرق في الظهور والحسن وسدّ اذانهم عن سماع القرآن شبيه بسدّها عن الصّواعق وترك دينهم شبيه بالموت عندهم وذلك تشبيه بمفردات ومفردات ، انّ شئت فتشبيه مجموع تمثيليّ " (1) أ.هـ. وذلك في معرض تفسيره للآيتين 19،20 من سورة البقرة.

ونلاحظ أنّ المفسّر يتّخذ من علوم البلاغة لا سيّما علمي البيان والمعانيّ وسيلة لتبيان أغراض استعمال الأساليب اللّغويّة من ذلك مثلا يبيّن الغرض من استعمال أسلوب الاستفهام في الآية التّالية : " أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم " الآية 21 غافر ، ويقول في ذلك معلّلا لنصب فعل (ينظروا) على أنّه جواب نفي النّفي (لأن الاستفهام أنكار والانكار بقي (2) دخل على نفي) (3).

وفي قوله تعالى : " قالوا فأدعوا .. " من الآية 50 غافر يبيّن غرض الأمر الّذي خرج عن معناه الأصليّ الى معنى آخر محتملا وجهين : " .. ويجوز أن يكون قولهم أدعوا تهكّما بهم (4) ، وعلى كلّ حال المراد بقولهم أدعوا الاقناط الا الاطماع في الاجابة " (5).

ومن هنا نرى أنّ المفسّر يوظّف اللّغة وعلومها لزيادة التّوضيح وتعميق الفهم لا يسوقها لذاتها ، أو لاستعراض المعضلات في هذه العلوم ، فنراه بذلك يجعلها تخدم التّفسير ، لا كما يوظّف النّحاة واللّغويّون القرآن لخدمة هذه العلوم ، لاحظه في هذا المثال البسيط كيف يبيّن الغرض من اضافة الجنّة الى المأوى فهو يرى أنّها : " اشارة الى أنّ الدّنيا ليست مأوى يتبوأ بل موضع الارتحال يرتحل منها الى ما هو المسكن الحقيق (6) ... والجنات

---

1) ن.م. 21/1 .
2) والصحيح نفي .
3) (التيسير) 118/5 .
4) تهكّم خزنة جهنّم على أهل النّار .
5) (التيسير) 129/5 .
6) الصّحيح الحقيقي .

كلّما جنّات المأوى ، وقد يرد لفظ جنّة المأوى لنوع منها يختصّ به نوع من المؤمنين . . . ثمّ يقارن في موضع آخر بين هذه الاضافة وقوله تعالى : "فمأويهم النّار " من الآية 20 السّجدة قائلا :" . . . ويجوز أن يعتبر في المأوى معنى ما يلجأ اليه للاستراحة كان لأهل الجنّة حقيقة ولأهل النّار تهكّما بهم على الاستعارة ومشاكلة لذكره في أهل الجنّة " (1)

وتأثر المفسّر ببلاغة القرآن جعله يعترف في بعض المواضيع بهذا التأثر اذ يقول مثلا في معرض تفسيره قوله تعالى :" وما علمناه الشّعر . ." الآية 69 (يس) " . . . وله صلّى للّه عليه وسلّم براهين تقوّية منها بلاغة القرآن التي لا تطاق وقد أدركت منها كثيرا بقدر طاقة المخلوق والحمد للّه وبعضها تتلوّر في قلبي ويعجز لساني عن بيانها ، الّا باطالة كلام . ."(2)

وفي موضع آخر يقول في نفس المعنى :" . . والحمد للّه الرّحمن الرّحيم الّذي منّ عليّ بأطلاعي على تحقّق بلاغته ومشاهدتي لطرقها وادراكي لها ، ولا كلام يفوقه ولا يقرب من مساواته ، وكلام رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم دون كلام اللّه في البلاغة ، واطلاق البلاغة في كلام اللّه تعلى سبحنه مجاز ." (3)

الشيء الملاحظ في اعترافه الأخير هو قدرته على ادراك بلاغة القرآن وأساليبها وترتيب هذه البلاغة في الدّرجة الأولى قبل بلاغة السّنّة ، فيعتبرها أحد أهمّ أوجه الأعجاز القرآنّي اذ يقول :" . . لا طاقة لهم (أي العرب) بفصاحته وبلاغته كما لا طاقة لهم اخباره بالغيوب مع أنّه مخلوق مثلهم " ثمّ يمضي مبرهنا على خلق القرآن بقوله :" . . والأعجاز انّما هو بالحادث" (4)

نستنتج من قوله السابق أنّ القرآن في نظره يتجلّى في وجهين :-

1) الفصاحة والبلاغة .

2) الأخبار بالغيب ، بينما نرى أنّ منّاع القطّان يحدّد أوجه اعجاز القرآن في ثلاثة :

1) الأعجاز اللّغوي :

2) الأعجاز العلميّ .

---

1) (التّيسير) 4/ 789 المجلّد 2

2) ن م . 4/ 1032 المجلّد 2 .

3) ن م . 3/ 48 .

4) ن م . 3/780 ونجد نفس المفهوم لأوجه الأعجاز في ن م . 5/ 562 .

3) الإعجاز التشريعيّ . (1)

غير أنّ المفسّر في كتابه (شامل الأصل والفرع) يذهب في تحديد أوجه الإعجاز الى أبعد من ذلك اذ يرى أنّه : " معجز بنظامه ومعجز أيضا بمعانيه " (2) .

وفي كتابه (الذهب الخالص) يوضّح الإعجاز ويحدّده في الأوجه التّالية :
" والاعجاز بالايجاز ، والبلاغة والبيان والفصاحة ، وبعدم كلال قارئه وملل مستمعه وبخرق العادة في نظامه ، وبالاخبار بالغيب ، وبالأخبار من مضى وبجمعه علوما لم يجمعها غيره من حلال وحرام ، ومواعظ وأمثال ، وبصرف الهمّة عن معارضته "
ثم يعرّف المعجزة بقوله : " الأمر النّاقض للعادة الظّاهر على يد المتنبّئ ، زمان التّكليف مقرونا بالتّحدّي من دعوى الرّسالة على جهة الابتداء متضمّنا للتّصديق " ويعقّب على هذا التّعريف قائلا : " أولى من هذا أمر خارق للعادة مصدّق للمتنبّئ حين اتيان النّبوءة معجز لمنكرها ، والتحدي دعوى الرّسالة ، فمن (3) في التّعريف الأوّل للبيان أو طلب المعارضة لشاهد الدّعوى " (4)

فمن هذا التعريف يمكن تلخيص رأي المفسّر في المعجزة بأنّها أمر خارق للعادة يساعد المتنبّئ على التّصديق به وقت نبّوته ويعجز منكره عن الأتيان بمثله ولذلك فأنّ أوجه الاعجاز التي حدّدها والتي لا تحمل الجديد ممّا هو معروف عن العلماء السّابقين (5) تتضمن معاني هذا التّعريف والتّعريف الذي سبقه والذي لا يختلف عنه الّا من حيث الصّياغة ، لأنّ عجز الأتيان بمثله يكون نتيجة للتّحدّي فسواء كان هذا التّحدّي بدعوى صريحة أو ضمنية الأمر سيّان لأنّ من عادة المرء محاولة معارضة كلّ التّحديات حتّى وان لّم تكن هناك دعوى لهذه المعارضة ولا يكون أمر معجزا الّا اذا وقف أمامه المعارض عاجزا عن الأتيان بمثله .

والمفسّر يحاول تبيان بعض مواطن الاعجاز ، لا سيّما ما يتّعلق منها بالفصاحة فنجده مثلا في تفسير قوله تعالى : " ولو كان من عند غير اللّه لوجدوا فيه اختلافا

---

1) مباحث في علوم القرآن من ص 223 ـ 233 .
2) (شامل الأصل والفرع) 1/ 48 .
3) فمن اشارة الى تعريف المعجزة " مقرونا بالتّحدّي من دعوى الرّسالة . "
4) الذّهب الخالص المنّورة بالعلم الخالص ص 21 ، 22 .
5) صبري المتولّي منهج ابن تيميّة في تفسير القرآن الكريم ص 251 ، 252 .

كثيرا " الآية 82 النّساء يقول واصفا القرآن : " . . . والقرآن كلّه على نهج واحد من الفصاحة" ثمّ يضرب أمثلة منفّيا التخالف بين الآيات ويقول في ذلك : " . . ولا تخالف بين لا يسئل عن ذنبه (1) ولنسألنّهم (2) لأنّ المعنى يسئل في موطن دون آخر ولا يسأل استفهاما ويسأل توبيخا ، ولا بين الى ربّها ناظرة (3) ولا تدركه الأبصار (4) لأنّ المعنى ناظرة الى رحمته ولا بين حيّة (5) وجانّ (6) وثعبان (7) فانّهما في العظم كالثّعبان ، وفي الخفّة كالجانّ وفي الخبث كالحيّة ، وغير ذلك من التأويل ، ولا في النّسخ لأنّ المنسوخ موقوف لوقته عند اللّه لمصلحة كنفع دواء في وقت وغيره في آخر ونفعه لنوع وغيره لنوع " ويظهر أنّ المفسّر له ذلسح في معرفة تطابق الآيات ويفهم ذلك من قوله : " . . والحمد للّه الذي أنعم علينا بأدراك تطابق آيات القرآن وتجاوبها كلّها ممّا أشكل لبادىء الرّأي" (8).

وفيما عدا بعض الأشارات الى جوانب من الأعجاز ، نلاحظ المفسّر يبيّن مواطن الفصاحة ، وبعض وجوه الأعجاز الأخرى دون ذكر أنّ ذلك من وجوه الأعجاز القرآنيّ ، مكتفيا ببيان الأسلوب أو المضمون ، وهذه الأشارات في معظم الحالات تكون في الآيات الدّالة على وجه من وجوه الأعجاز ، وقد ضربنا أمثلة على ذلك ، ولزيادة التّوضيح نسوق الأمثلة التّاليين وجها من وجوه الأعجاز يقول في تفسير قوله تعالى : " انّ هذا لسحر مبين " الآية 02 يونس ، " ظاهرو في وصفهم القرآن بالسّحر اقرار بأنّهم رأوا من القرآن أمرا خارقا للعادة من البلاغة والأخبار بالغيب مع عجزهم عن معارضته ولولم يخرق العادة لم يسمّوه

1) الرّحمن / 39 .
2) الحجر / 92 .
3) القيامة / 23 .
4) الأنعام / 103 .
5) طه / 20 .
6) القصص / 31 .
7) الشّعراء / 32 .
8) (التيسير) 1 / 769 .

سحرا"(1) ويعلق على عدم توافق الفواصل في الآيتين 42، 43 من سورة فصلت مع امكانية التوافق :" . . وذو عقاب للكافرين هكذا ولم يقل شديد مع أنه أنسب بقوله مجيد للإيماء الى أن تراكيب القرآن ليست كالأسجاع والخطب وأن حسنه ذاتي والنظر الى المعاني دون اللفظ كما يأتي فيه كثيرا ما يشبه الايطاء (2) " (3)

نستنتج مما تقدم أن المفسر يركز على المبنى لابراز وجوه الاعجاز القرآني ، ويوظف ذلك لزيادة التوضيح ، وتعميق الفهم ، وبيان الجمال التعبيري في القرآن ، ومما يلاحظ أن المفسر يوظف علوم اللغة لخدمة التفسير .

وإن كنا نلاحظ أحيانا — أغراقه في استعراض أوجه أعرابية أو بلاغية أو لغوية مختلفة حتى ليخال للقارئ أنه يقرأ كتابا في موضوع غير التفسير ، وربما يعود ذلك الى تمكن المفسر ، وغزارة علمه ، والرغبة في الافادة وتوسيع أفق القارئ في هذه العلوم التي يعتبرها القدماء مفاتيح فهم القرآن الكريم .

لاحظه مثلا في تفسير قوله تعالى :" . . ذواتا " من الآية 48 سورة الرحمن ، كيف يبين صيغ تثنيتها وجمعها ، ويضرب لذلك أمثلة غرضه زيادة التوضيح لكن الدارس يشعر وكأنه يقرأ كتابا في القواعد ، واليك هذا المثال :" صاحبتا نعت جنتان تثنيه ذات بمعنى صاحبة فأن ذات يثني على ذاتا بلفظه وهو القياس كما يثني على ذوا ويجمع ذو على ذووا ويثني أيضا على ذواتا برده الى أصله لأن التثنية ترد الشيء الى أصله نحو رحي ورميا ودعا ودعوا ، وتقول العصا والعصوان والفتى والفتيان والأخ والأخوان ، وقد لا ترد نحو يدان والأصل يديان ، وقالوا أصل ذات ذوات حذفت الواو للتخفيف وللفرق بين الواحد والجمع وبسطته في النحو ." (4)

وينتهج نفس الأسلوب لتبيان معاني " أفنان " من الآية 48 الرحمن اللغوية والمجازية مسندا بعض الروايات الى ابن عباس وعطاء متعرضا الى صيغها في الجمع والمفرد . (5)

---

1) ن.م . 3/ 05 .
2) الايطاء ، تكرار القافية في الشعر لفظا ومعنى .
3) (التيسير) 5/ 179 .
4) ن.م . 6/ 22 .
5) (التيسير) 6/ 22 .

إفاضة

ولكن رغم اضافة المفسّر في الشّرح وايراد أوجه مختلفة سواء كانت لغوية أو اعرابيّة أو بلاغيّة، فانّه يحاول توظيف ذلك لبسط معاني الآية أو الجزء المفسّر وتقريبها من أذهان طائفة معيّنة من القرّاء التي ألّف كتابه لتيسير الفهم عليها، ولاقناعها يستعمل المفسّر التّعليل، والاستدلال، ولعلّ هذا الأسلوب ميزة المفسرين الذّين يدافعون عن وجهة نظر معيّنة لغرض اقناع الطّرف الآخر، ولكنّ المفسّر يحاول في جميع المسائل اقناع القارئ مستعملا كلّ الوسائل، وهذا ما دعاه في كثير من الحالات الى الخوض في التّفاصيل والجزئيّات، وايراد شواهد والى نقد بعض الآراء وتفنيدها وان كان أصحابها علماء معتبرين مصادر وقطاعمل في جانب معّين، ويذهب أحيانا الى أبعد من ذلك، فيذكر أوجه جديدة في بعض المسائل.

علـوم مختلفـة :

انّ المتتبع للعلوم التّي نشأت أو تداولت على أيدي علماء مسلمين ، يلا حظ تأثيرها بالقرآن الكريم ، والسّنة النّبويّة وأثبت هؤلاء العلماء العلاقة بين هذا وذلك ، وأبرزوا الاعجاز العلميّ في المصدرين التّشريعيين، ولم يقتصر الأمر على ذلك بل حاول بعضهم أن يجعل من القرآن الكريم كتاب علم في اختصاص معيّن وانّ كانت هذه النظرة ناتجة عن اعجاب هؤلاء بهذا الكتاب المنزّل وتقديرهم له ، والشّغف في اكتشاف مكنوناته ، الاّ أنّ في بعض الحالات بل في كثير منها بلغت درجة التّعسّف الى حدّ صرف أنظار القرّاء لهذه الدّراسات عن المّهمات الأساسيّة التّربويّة التّي جاء القرآن الكريم لتحقيقها في المجتمع البشريّ أضف الى ذلك اقحامه في النظريّات العلميّة المتناقضة ، وممّا زاد للطّين بلة ، خوض غير المختصين في هذه العلوم في ادلاء بدلائهم في تفسير الآيات التّي لا يدرك أبعادها العلميّة الاّ ذوو الاختصاص ومحاولتهم استعراض عضلاتهم في ذلك ، ممّا أصبح كثير من تفاسير السّلف بحاجة الى التّنقيح والتحقيق ، وتفنيد النّظريات العلمية التّي أثبت العلم الحديث خطأها .

ولئن كان هدف معظم المفسّرين فيما يبدو من استشهادهم بمثل هذه النظريات هو ابراز دلائل قدرة اللّه ، وعظمته ، ووحدانيته ، بالاضافة الى الأخذ بيد القارئ أو السّامع الى تدبرها ترسيخا لايمانه وعقيدته ، غير أنّ هذا المبرر لايعذر هؤلاء المفسّرين ، ولا سيّما وأنّهم يستشهدون بها كحقائق علميّة ثابتة ويذهب بعضهم الى تفنيد بعض المسائل التّي أثبت علماء الاختصاص صحّتها ، فينصب نفسه ناقدا لعلوم ليست من اختصاصه .(1)

ولعلّ مفهوم العالم في عصور الوسطى الذّي يعني الانسان الملّم بجميع العلوم ، هوّ الذّي أدّى بهؤلاء الى التّجاسر على الخوض في ميادين علميّة مختلفة والى التأليف فيها ، وانّ كانت بضاعتهم قليلة .

---

1) أنظر مثلا في كتاب روح المعاني 15/29 المجلّد 5 ، فيه يرد المّصنف بعنف على تفسيرات العلماء للحياة في القمر ، ومحاولتهم الوصول اليه متجاسرا على تفنيد تفسيراتهم وكأنّه خبير في الميدان .

ولا أريد بهذا انكار التّفسير العلميّ للقرآن كما هو شأن صاحب كتـاب (التّفسير والمفسّرون) (1) ونقل ذلك أيضا عن الشاطبيّ، الّا أنّني أعتبر أنّ دور القرآن الأساسيّ هو توجيه حياة الانسان، وتربيته ليتربّع على عرش الخلافة في الأرض، وليتحمّل الرّسالة المنوطة به بأمانة، لذا أرى أنّ التّفسير العلميّ الّذي لا يخدم هذا الغرض، ولا ينشد هذه الحقيقة، محاولا جعل القرآن كتاب فنّ أو علم، يتعارض مع مقاصده، والأمر الذّاتيّ الّذي أريد تأكيده هو عدم التّعرض لهذا النّوع من التّفسير الاّ من ذويّ الاختصاص أو على الأقل التزام الأمانة في نقل رأي عالم متّخصص.

والمفسّر كغيره من بعض المفّسرين القدماء والمعاصرين لم ينج من هذه الورطة، اذ نجده يخوض في مسائل علميّة يستمدها من مصادر مختلفة دون ذكر أسمائها، غير أنّ التّشابه الكبير الملحوظ بين تفسيره وتفسير (روح المعانّي) للألوسيّ يجعل الدّارس يرجّح أنّه نقل كثيرا من المعلومات من هذا المصدر، مع محاولة الاختصار وانتقاء بعض المسائل، فمثلا في تفسير قوله تعالى: " انّ زلزلة السّاعة شيء عظيم" الآية 01 الحج، يذكر طريقة حدوث هذه الظاهرة الطّبيعيّة قائلا: " والمزلزل حقيقة هو اللّه جلّ وعلا في ذلك كلّه أو الملك، وفعله فعل اللّه سبحانه، والزّلزلة تكون بأمره ملكا موكلا على جبل قاف بتحريك عروق الأرض المتّصلة بجبل قاف، وتكون اذا أراد زلزلة أرض يأمره بتحريك عرق تلك الأرض" (2).

ونجد صاحب (روح المعانّي) يعّرف سبب وقوع الزّلازل بنفس التّعريف مع تغيير بسيط في الصّياغة، لاحظ ذلك: " وهو حركة الأرض العنيفة، وتحدث هذه الحركة بتحريك ملك بناء على ما روي أنّ في الأرض عروقا تنتهي الى جبل قاف، وهيّ بيد ملك هناك فاذا أراد اللّه عزّ وجلّ أمرا أمره أن يّحرك عرقا فاذا حرّكه زلزلت الأرض" (3)

---

1) (التّفسير والمفسّرون 3/157.
2) (التّيسيـــــر) 4/ 272، 273 المجلّد 1.
3) (روح المعانيّ) 17/ 111. المجلّد 06.

ما يلاحظ في تعريف هذا الأخير استعمال صيغة التّبعيض (ربّ) الدّالة على عدم تأكد المصنّف من صحّة الخبر بينما يظهر لنا من التّعريف الأوّل تصديق المفسّر للخبر وممّا يثبت ما ذهبنا اليه قوله في تعريف الفلاسفة لهذه الظّاهرة: " وزعمت الفلاسفة أنّ الزّلزلة باجتماع بخار بأحتباسه في بطن الأرض وغلظه مع أنتفاء منفذ فقد يكون منه خسف وأصوات ونار لشدة اشتعال البخار. "

ويضيف قائلا: " وإن صحّ فالله جاعله ، ومخرجه ومزلزل به اذا شاء ويناسبه شدة الزّلزلة وكثرتها في الأرض الصّلبة بالنّسبة الى الرّخوة " (1) أنّ العبارة الأخيرة دالّة على أنّ المفسّر لا يريد انكار تعريف الفلاسفة وتفنيده بقدر ما يريد اضافة الفعل لله ، وصاحب (روح المعاني) ينقل تعريف الفلاسفة الّذي لا يختلف عن التّعريف السّابق في شيء من حيث المعنى دون آستعمال كلمة (زعمت) ومع دعم رأيهم بالحجّة الأخيرة الواردة في التّعريف والتي هي كثرة الزّلازل في الأرض الصّلبة ، وشدّتها بالنسبة الى الأرض الرّخوة .

ويستمرّ دعمه هذا بقوله :" وممّا يستأنس به للقول . . . " (2) وممّا يؤكّد آستقصاء المفسّر لكثير من معلوماته من كتاب (روح المعاني) مجاراته في بعض الأحيان لآراء المصنّف ، ونقده أحيانا مع سرد نفس المعلومات وقد تجلى لنا ذلك في المثال السّابق ، أما نقده يمكن ملاحظته في المثال التّالي : في تفسير قوله تعالى :" من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشّاربين" الآية 66 النّحل .

يذكر الألوسي طريقة التّمثيل الغذائي عند الحيوان حسبما يعرّفها من سمّاهم الحكماء أهل التّشريح ويؤيّد رأيهم بقوله :" . . ويؤيّد ما ذكروه ما أخبرني به من أثق به من أنّه قد شاهد خروج الدّم من الضرع بعد اللّبن عند المبالغة في الحلب" (3).

---

1) (التّيسير) 4/ 273 المجلد 1 .
2) (روح المعاني) 17/ 111 .المجلد 6
3) ن م . 14/ 173 المجلّد 5 .

والمفسر من جهة يرد نفس المعلومات ،ولكنه يفند رأي الالوسي الأخيرفي اثبات ما ذهب اليه الحكماء : قائلا " ... وأما ما قيل من أن بعض من يوثق به شاهد خروج الدم بعد اللّبن في مبالغة الحلب فلا دليل فيه لامكان أن يكون لحصول الجرح بالحلب الشديد " (1)

ومما تقدم يتبين لنا - مما لا مجال فيه للشك - بأن المفسر قد استفاد كثيرا من كتاب روح المعاني في هذا المجال ،على أنّه لا يسلم بكل رأي وارد فيه ، ومما يؤكد هذه الاستفادة التشابه الكبير في سرد معلومات علمية ومجاراة المفسر - أحيانا - لصاحب الكتاب في ارائه دون ذكر المصدر ، ولكن لا يعني هذا أن المفسر لم يطّلع على مصادر الاختصاص اذ ألّف في الميدان العلمي مثل كتابه (تحفة الحب في أصل الطب) ،كتاب جمع فيه بين الطّب النبوي وتجارب الاطّباء ، وهذا الجمع بين ما ورد في الاثار من معلومات مختلفة وبين آراء العلماء المختّصين ظاهرة واضحة في تفسيره ، محاولا تارة التوفيق بين النظّريتين المتناقضتين والمتعارضتين أو ترجيح نظرة على الأخرى ، كمثال على ذلك ، انظر كيف يحاول التّوفيق بين رأي الطب في العسل ، ورأي النبي صلى الله عليه وسلّم .

يرى الطّب أن العسل : " يزيد أصحاب الصّفراء وأصحاب الحرارة والاسهال ضرا " أما رأي النبي صلى اللّه عليه وسلّم يظهر في حديث الذي رواه أبو سعيد الخذري حين جاء رجل الى رسول اللّه (ص) يشكو استطلاق بطن أخيه فنصحه بسقيه العسل ثم يعقب المفسر على هذا الحديث قائلا : " ... أوفي أنّه ليس اسهالا حقيقيا فسقاه فبرئ ، وكأنه نشط من عقال علم اللّه جلّ وعلا انّ شفاء هذا الرّجل بالعسل ولوكان للرّجل اسهال وللعسل اسهال وأيضا أعانه على الاسهال حتى فرغ بدنه منه ، ومن الطّب المجمع عليه ترك الاسهال على حاله أو أعانته اذا كان تخم أو امتلاء أو هيضة وحسبه مضر ... " ثم يحاول التوفيق بين الآية و طبّ العسل بقوله : " ... والآية على الغالب والامكان وليس فيها أنه شفاء لكل داء في كل أحد وقيل أنها على العموم ... " (2)

---

(1) التيسير 3/ 608 .

(2) ن.م 3/ 612، 613 .

واذا تعارض النّص مع المعلومات، انّما يحاول أن يجد للنّص تفسيرا آخر ويضعه ويردّه، لاحظ ذلك في المثال التّالي: في تفسير قوله تعالى: " والشّمس تجري لمستقرّلها " الآية 38 يس يقول: ".. وجاء في أحاديث أنّها تسجد تحت العرش وهي تدل أنّ المستقرّ اسم مكان وأنّها تمسك عن الجري حال السّجود حتّى زعم بعض عن عكرمة أنّها تبيت اللّيل كلّه ساجدة، وجاء أنّها تطلب اللّه في سجودها أن لا تطلع لأنّها تعبد من دون اللّه . ثمّ يستدرك الرّد على هذا القول: ".. وأنت خبير بأنّها تدور الى جهة الشّمال دائما اذا غربت وأنّه لا وقت هو ليل على الدّنيا كلّها فوقت واحد يكون ليلا على أهل موضع ونهارا على أهل موضع آخر والأوقات كلّها متتابعة كذلك ففي أيّ ليل من ليالي الدّنيا تسجد في ليل مضاب (1) أو في ليل عمان (2) وهكذا" ويحاول — بعد ذلك — ايجاد تفسير للحديث قائلا: " وأمّا بالحديث ولعل المراد ليل قائل ذلك صلّى اللّه عليه وسلّم وهو ليل مكّة أو المدينة أو ليل الخارج عن المعمورة ولو كان ذلك نهارا في أماكن كثيرة أو تسجد مع سير، وقد قرأ ابن مسعود (والشّمس تجري لامستقرلها) أي تجري أبدا لا وقوف لها الى يوم القيّامة". (3)

والمفسّر لا يتوانى في رد بعض النّصوص المنسوبة الى الصّحابة أو التابعين اذا كانت المعلومات الواردة فيها متناقضة مع ما يراه علميّا أو واقعيّا فقد ردّ ما رواه: " الطّبرانيّ وابن المنذر عن ابن عبّاس أنه خلق اللّه تعلى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها ومن وراء ذلك جبلا محيطا بها يقال له قاف، وخلق من وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مرّات، وخلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثمّ وراء ذلك جبلا يقال له قاف السّماء الثّانيّة مترفرفة عليه حتّى عدّ سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة له جبل وذلك قوله تعلى: " والبحر يمده سبعة أبحر " (4) ثمّ يعقّب على هذه الرّواية بقوله: "... واللّه أعلم بصحة ذلك، واللّه تعلى قادر على ما لا يحصى من ذلك، وهب أنّه ذكره

---

1) وادي ميزاب تقدّم تعريفه .
2) سلطنة عمان، دولة في الخليج العربيّ عاصمتها مسقط أحد ربوع المذهب الأباضيّ .
3) (التّيسير) 4/ 1010، 1011 المجلّد 2 .
4) لقمان / 27 .

كعب الأحبار رضيّ اللّه عنه لكن لعلّه أخذه من كتب الاسرائيليين وهو في نفسه ثقة ، ويحث بأنّه اذا كان ثقة لم يرو الا ما صحّ فيجاب بأنّه رواه ظانا أنّه صحيح مع أنّه ليس ممّا يقطع فيه العذر ." (1)

ومن الأمثلة السابقة يتضح لنا أنّ المفسّر جمع بين آراء من سمّاهم الأطباء أو فلاسفة أو علماء الهيئة أو حكماء وبين الأقوال المأثورة عن الرسول صلّى اللّه عليه وسلّم والصحابة والتابعين وغيرهم ، على أنّه كثيرا ما يتحامل على الفلاسفة ، وهذا لم يمنعه من تأييد آرائهم أحيانا وتفنيد بعض الأقوال المأثورة ، وهذا التحامل يظهر في استهلال أقوالهم بكلمة (زعمت) أو يعقب اسمهم — أحيانا — بهذا الدعاء (قبّحهم اللّه).

والمفسّر كغيره من المنتمين الى مدرسة السّلف التي انتهجت طريقة التّفسير بالرّأي لم يمنع من الخوض في مسائل علمية ، والظاهر بمعرفة علوم لا يتجاوز فيها تحصيله معارف المبتدئين ، ممّا كان يقع في معلومات خاطئة وفي تفسيره كثير من الأمثلة نقتبس منها ما يلي : في تفسير قوله تعالى :" الشمس والقمر بحسبان " الآية 05 الرّحمن يقول :" .. والشمس تجري لمستقر لها وهو الظاهر ولا يلتفت الى زعم من زعم أنّ المتحرّك هو الأرض " (2).

وهذا متناقض لمّا هوّ معروف في علم الفلك ، الّذي أثبت حركة الأرض حول الشمس (3) ممّا ينتج عنها الفصول الاربعة ، وفي المثال التّالي نلاحظ كيف يبرهن على صغر النّجوم بالنّسبة لحجم الأرض ، وينكر بذلك احدى الحقائق العلميّة :" .. وتسعها الأرض مع كثرتها وعظمها بأنّ يصغرها اللّه تعلى أ، ليست كبيرة كما في علم الهيئة بل هيّ كما ترى أو أكبر بقليل وهذا هوّ الصّواب ، ألا ترى الى تقاربها وادراك العين لما يحصيه اللّه عزّ وجلّ ويجمعها مقدار من الأرض تحيط به العين "(4).

مع أنّ علماء الفلك أجمعوا على وجود كواكب أكبر بكثير من الأرض (5) ، لكنّنا نلاحظ من جهة أخرى ينتقد بعض الروايات التي لا يتقبلها المنطق والعقل ، ويردّها

---

1) (التّيسير) 4/ 764 ، 765 .
2) ن.م. 6/ 04 .
3) عليّ موسى ، مخلص التّربي علم الفلك ، مفاهيمه وأسسه ص/ 44،45 .
4) (التيسير) 6/ 501 .
5) علم الفلك ص/ من 44 / 45 .

بعضه من ترجيح ما جاءت به النصوص التي اعتبرها صحيحة ويحاول ايجاد تفسيرات لها ، ففي المثال التالي ، نجد المفسر يورد ، بعض بعض الروايات ، بعد سرده لما جاء في الحديث أن بين كل أرض وأخرى خمسمائة عام فيقول مؤيدا ذلك : " . . وجاء ذلك العدد ومقدار ما بين الارضين منصوص ، فحديث أحمد والترمذي الا الغلظ ، ويحكي به غلظ كل واحدة خمسمائة عام ، فيقول : " وذلك هو الصحيح وعليه الجمهور " ثم ينتقد الروايات الأخرى قائلا : " لا ما قيل أن في كل واحدة من الست ما في هذه من آدم ونوح وجميع الأنبياء وجميع ما في هذه فيكون اختتامه صلى الله عليه وسلم يختم النبوة باعتبار هذه الأرض وذلك تغليط وقيل سبع أرضين متماسة يحملهن قور على صخرة الى آخر التخاليط" (1)

والمفسر يستغل مختلف العلوم التي تعرض لها لتبيان قدرة الله ودلائل وحدانيته وعظمته ، بصرف النظر من صحتها أو خطئها فقد تعرض لعلم الفلك في الآيات المشيرة الى ذلك ، كما تناول بالبحث مواضيع في الطب والعلوم الطبيعية ، ففي الطب مثلا في تفسير قوله تعالى : " من قبل إن تنزل التورية" الآية 93 آل عمران يذكر رأيا يرى أن ما حرم اسرائيل على نفسه يقتصر على الامتناع من تداوي عرق النسا ثم يستفيض في تعريف هذا المرض ، وطريقة علاجه (2) واذا وردت في آية قصرة راح يذكر منافعها مثل الزيتون وما يشتق منه من زيت وما يفيده من الناحية الطبية يقول : " : كتحسن اللون ، وتصفية الأخلاط وشد الأعصاب ، وفتح السدد واخراج الدود والأذرار وتفتيت الحصى واصلاح الكلى " . ثم يبين طريقة الاستعمال فيقول : " . . شربا بالماء الحار" (3) ففي العلوم يبين أصل الانسان قائلا : " . . ان أصلهم الذي تكونوا منه من تراب وهو آدم أو الأغذية التي تكونوا منها تراب " (4) موضحا بعض الصفات الوراثية في تفسير قوله تعالى : " . . من نطفة أمشاج " الآية 2 الانسان فيقول : " . . . ماء الرجل أبيض غليظ ومنه العصب والعظام وأن علا كان الشبه له ، وماء المرأة أصفر رقيق ومنه اللحم والدم والشعر فان علا (5) كان الشبه لها ، فاذا اجتمعا في قعر الرحم اخضر الخ . . " (6).

---

1) (التيسير) 6/ 257 .
2) ن م . 1/ 546 . 547 .
3) ن م . 6/ 680 ففي سورة (المؤمنون) يبين منافع الزيت ومضارها . ن م . 4/ 336 المجلد 1 .
4) ن م . 4/ 276 المجلد 1 ففي سورة (الانسان) الآية الاولى توضيح أكثر لهذه المسألة ،
5) ن م . 6/ 434 .
علا
6) ن م . 6/ 435 ففي تفسير الآية بعض التفاصيل في الموضوع .

من العلوم الانسانية التي عالجها المفسر علم النفس في تفسير قوله تعالى " وجعل لكم السمع والابصار والافئدة " الآية 78 النحل تعرض لقضية الادراك قائلا : " .. واعلم أن النفس تدرك الكلي والجزئي باستعمال الحواس وبدونه ؛ والصحيح أن الادراك للعقل خاصة والحواس أبوابه ومعنى الحس المشترك أنه أدركت فيه الشيء الحواس والعقل معا بمرة وأنكره بعض المتكلمين " ثم تحدث عن عقل الجنين فقال : " والانسان اذا كان جنينا له عقل هيولاني له به العلم بالاحساس بالجزئيات " (1)

وفي موضع آخر يرد على من يرى أن الصبي " لا يدرك في سبعة أيام من ولادته شيئا ، ولا يدرك راحة ولا ألما " فيقول : " ويرده بكاءه اذا أصابه ضر من جوع أو غيره وأنه عالم بنفسه " (2).

كما كان يستعين بعلم الجغرافيا للتعريف بالانهار (3) والجبال (4) أي ما يدعى بالجغرافية الطبيعية و تناول — أيضا — بالبحث الجغرافية السياسية فيبين مثلا استيلاء فرنسا على الجزائر وتقسيمها للمغرب الاقصى (5) الى عمالات وان كان هذا خارجا عن موضوع الآية التي يقول فيها تبارك وتعالى : " رب المشرقين ورب المغربين " الآية 17 الرحمن لاحظ ذلك فيما يلي : " ومن الاوسط الجزائر جزائر بني مزغنة أخذها فرنسة سنة ست وأربعين ومائتين وألف وفي تقسيم فرنجة فرنسة وسائر الافرنج أن المغرب الاقصى عمالة فاس ، عمالة مراكش ، وعمالة سوس ، وعمالة درعة وعمالة تفيلا لت " (6).

ويمضي المفسر على هذا المنوال مستعينا بالعلوم المختلفة المعروفة عند المفسرين الذين تأثر بهم وتتلمذ على كتبهم ، مكتفيا — أحيانا — بسردها ومتدخلا حينا لنقدها بالطريقة التي أشرنا اليها سابقا ، وجامعا بين آراء العلماء وما تواتر عن الرسول صلى الله عليه وسلم والسلف ، هدفه من ذلك توضيح ما تضمنته الآية ، أو ابراز عظمة الله وقدرته في مخلوقاته أو بيان غرض القرآن من ذكر بعض العناصر

---

1) ن م . 624/3 .
2) ن م . 623/3 .
3) ن م . 564/3 .
4) ن م . 455/6 .
5) المملكة المغربية حاليا .
6) ن م . 10/6 ليستقيم النص يمكن صياغته على النحو التالي (وفي تقسيم . . . وسائر الافرنج المغرب الاقصى الى عمالة . . .) .

وما ينتج منها من فوائد وما يتجر عنها من مضار، مقتبسا مختلف الآراء، ومرجحا في معظم الحالات ما ورد في النصوص، فهو ممن أشرنا اليهم في مقدمة هذا البحث.

وعلى غرار مدرسة التفسير بالرأي السلفية يخوض في علوم، بضاعته قليلة ومعلوماته عامة في حاجة الى التحقيق، مما كان يسرد بعض المعلومات الخاطئة أو ينتقد بعض الآراء الصحيحة حبذا لو نسبها الى أصحابها بذكر السند، أو المرجع الذي استمد منه هذه الآراء والمعلومات، ولا يعني هذا أنه كان يجمع المعلومات، ويسردها دون نقد ها والتعليق عليها وأبداء آرائه.

ومن خلال البحث التالي سيتضح لنا أسلوبه في تناول المصادر المختلفة السابقة الذكر، والاستعانة بها في تفسيره.

أسلوبه في التفسير:

رأينا فيما سبق أن المفسر توخى الايجاز والتوضيح في تفسيره قصد التيسير على القراء لا سيما طلبة هذا العلم، وقد كان يوجز في المواطن التي لا تحتاج الى العناء للفهم، وعندما تقتضي الضرورة التوضيح نجده يطنب ويسرد مختلف الآراء منتهجا في ذلك أسلوب التحليل، والتحليل الذي يحتم عليه أن يتعرض للنقد قصد ترجيح رأي على آخر أو التوفيق بينهما أو تفنيدها، واذا لاحظنا أغراق المفسر — أحيانا — في بعض التفاصيل والاستطرادات، وهذا يتناقض مع منهجية التأليف التي تتطلب الالتزام بالموضوع، فاننا نعزو ذلك الى تمكنه، وغزارة علمه، والرغبة في الافادة وتوسيع أفق القارئ في العلوم والفنون المختلفة التي استعان بها، وهذه الملاحظة تظهر أكثر وضوحا في الجوانب اللغوية والبلاغية، ومسائل الخلاف التي يحاول بكل طريقة اقناع القارئ بوجهة نظره منتهجا أسلوب التعليل والاستدلال بالشواهد وضرب أمثلة.

فاذا كان المفسر يحترم آراء من استمد منهم معلوماته، ويثق فيهم ولعل ذلك من العوامل التي جعلت تفسيره يتضمن بعض المعلومات التي لا أساس لها من الصحة أو بحاجة الى التحقيق وقد أشرنا الى بعضها، وسنتعرض لأمثلة أخرى في محلها فانه رغم ذلك نلحظه يتصدى للنقد، ويستوي عنده جهابذة العلماء بغيرهم، ففي المثال التالي عند تفسيره قوله تعالى: " يسأله من في السماوات والأرض " الآية 27 الرحمن يستعرض آراء كل من أبي صالح وابن عباس وابن جريج

ثمّ يعقّبها بقوله :" وأنا متعجّب من أين التخصيص إلاّ أن أريد التمثيل والصواب في كلّ حاجة .ودخل فيها سؤال دفع المضار بل شملت الآية سؤال المعاصي وهو محرم بمعنى أنكم تحتاجون الى الله تعالى في كلّ شيء" (1)

ومن الملاحظ أنّ المفسّر يدعو في كثير من الحالات الى التعميم ويرجح الرأي الذّي ينزع الى ذلك ، فمثلا في تفسير قوله تعالى :" والسّابقون السّابقون " الآية 10 الواقعة يستعرض عدّة آراء تخصّص معنى الآية فيختار منها رأيي ابن كيسان وسعيد بن جبير لأنه فهم منهما التعميم فيقول :".. والعموم المذكور عن ابن كيسان وسعيد بن جبير أولى فلعل غيره ممّا ذكر من الأقوال تمثيل" .(2)

وفي المثال التالي لاحظ كيف ينتقد الزّمخشريّ رائد مدرسة التّفسير بالرّأي ، وذلك عند تفسير قوله :" وما صاحبكم بمجنون" الآية 22 التكوير قائلا :" .. ومن الخطأ أدّعاء الزّمخشريّ فضل جبريل عليه السّلام على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بمدح جبريل دونه " ، ثمّ يمضي في تبيان وجه الخطأ والرّدّ عليه :" وجه الخطأ أنّ مدح أحد دون أحد لا يدلّ على فضل من لم يمدح بل يحتمل العكس ، والمساواة ، أنّ المقام ليس مقام مدح له صلّى الله عليه وسلّم ومع أنّ المقام ليس لمدحه هو مدح له اذا أرسل اليه من هو أعزّ عليه فالمرسل اليه أفضل من المرسل ..." (3)

نلاحظ من الأمثلة السّابقة أنّ المفسّر لا يكتفي برد الرّأي أو اضعافه دون تبيان وجه الصّواب والخطأ ، وكما أنّ النقد لا يقتصر عنده على الجانب المعنويّ فحسب بل يشمل جميع أوجه التّفسير ، ولقد ضربنا بعض أمثلة عند تعرضنا لمصادر تفسيره في هذا الفصل ، ونؤكّد ذلك بالمثال التّالي الذّي ينتقد فيه قول الفرّاء في تفسير قوله تعالى :" فيهن " الآية 56 الرّحمن يقول :" أي في الجنّات والجمع باعتبار أنّ لكلّ خائف جنّتين أو لكلّ خائف من الانس جنّة ولكلّ خائف من الجنّ جنّة ، فهؤلاء جنّات.

---

1) التّيسير 6/ 14 .
2) (التّيسير) 6/ 36 ، 37 .
3) ن.م. 6/ 513 .

وهذا يعني عن قول الفـراء أنّ الضمير للجنتين ، وأنّه كثيرا ما يعبر عن أثنين بما للجمع" (1)

وقد يكتفي في نقده بنفي الدليل على أثبات قضية أو رأي ، وفي المثال التالي يتضح لنا ذلك يقول في تفسير قوله تعالى :" أنّ اللّه اصطفيك " الآية 42 آل عمران وعن طريقة تبليغ الخبر الى مريم آبنة عمران يقول :".. وقيل المعنى كلّموها بالالهام وهو دعوى بلا دليل" (2) ومثل ذلك نلاحظ في تفسير قوله تعالى " فيكون طائرا بأذن اللّه ".. وانما استيقظ ليتميز عمّا خلق اللّه لا على يد عيسى وهكذا قيل ولا حجّة له ، وظاهر القرآن بأباه ولو ثبت لقد حوا فيه " (3).

كما ينتقد بعض الروايات الشاذة التي لا يستسيغها المنطق ولا الواقع كقوله :
".. ولا يصح ما قيل أنّه يصلّي ركعتين الأولى بتبارك الملك ، والثانية بتنزيل السجدة ويدعو بعدهما " (4). ... أي عيسى عليه السلام ويقول في تفسير قوله تعالى :" وأمرأتي عاقر " الآية 40 آل عمران :".. وأمّا ما قيل أنّه دعا فيه قبل بشارته بأربعين عاما أو ستين فنسي دعاءه فقال : " أنّى يكون لي الخ . .فبعيد جدا ولا سيّما مع ظاهر التعقيب.

وفي قوله عزّ وجلّ فنادته الخ .." (5)

ومن الملاحظ أنّ المفسّر يحاول في ردّه ، ونقده اقناع القارئ منتهجا أسلوب التحليل والاستدلال ، لاحظ مثلا كيف يردّ على قول مجاهد الذي يرى أنّ اللّه مسخ قلوب أصحاب السبت ولم يمسخ صورهم "" قلت قوله فجعلناها نكالا (6)" ردّ لقول مجاهد أنّهم لم يمسخوا صورة ولكن قلوبا ومثّلوا قردة ، اذ تحويل قلوبهم لا يظهر لكل أحد حتى يكون رادعا وموعظة ولو ظهر لم يتبين قبحه لجمهور الناس بخلاف مسخ صورهم فانّه يظهر قبحها للموحد والمشرك والمطيع والعاصي" (7)

---

1) (التيسير) 24/6 .
2) ن.م. 493/1 .
3) ن.م. 502/1 .
4) ن.م. 504/1 .
5) ن.م. 305/1 .
6) 66 / البقرة .
7) (التيسير) 34/1، 35 .

ولتأكيد ما ذهبنا اليه نسوق هذا المثال الذي يرد فيه على من يرى أن الخطاب في قوله تعالى: " وان كنت في شك لمن يصلح للشك وفي: مما أنزلنا اليك (1) لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول معللا ومستدلا بأمثلة: "لانه لا يجوز خطابان في كلام واحد مثل أن تقول أكرمك وتريد بخطاب أكرم زيد وبخطاب الكاف عمر " (2).

والمفسر في نقده تارة يرجح رأيا أو يورده مع تبيان العلة وتارة يرجح رأيا على آراء موضحا السبب، ولذلك في كثير من المواضع شخصيته ويستعمل في ذلك عدة صيغ، فاذا شك في رأي أو رواية استخدم صيغة التمريض، وفي معظم الأحيان يبدأ بالرأي الراجح عنده حين يستعرض الآراء والأقوال ولو كانت مخالفة لرؤية يتسه أو شاذة في نظره، ففي تفسير قوله تعالى: " أخرجنا لهم دابة " الآية 82 النمل، يسرد أوصاف الدابة التي يتكون شكلها من بعض الحيوانات ثم يعقب على ذلك بقوله: " وأنا أذكر هذه الأمور كارها ليتروح اليها السامع ولو لم أصدقها " ثم يمضي نقده قائلا" ومن أبعد ما قيل أنها ترى من المغرب والمشرق مع أنا لا نرى ما على المشرق من السماء، ولا نرى الشمس والقمر والنجوم اذا غربت " (3).

ولعل هذا ما يفسر تضمين تفسيره لبعض الآثار التي يعوزها التحقيق دون التعقيب عليها أو التثبت من صحتها، مما دعا بعض الدارسين الى مؤاخذته عليها (4) اضافة الى ذلك يهمل ذكر المصدر والسند أحيانا، ولتأكيد ما ذهبنا اليه نضرب هذه الأمثلة في تفسير قوله تعالى: " انهم كانوا قبل ذلك مترفين ". الآية 45 الواقعة يستهل تفسير الآية بذكر معناها، ثم يستعرض بعض أوجه تفسيرها قائلا: " تعليل جملي أي عذابوا بذلك لأنهم كانوا قد جعلهم الله ترفين أي تابعين لمواهم، وذلك خذلان من الله تعلى ولهم اختيار ولا اجبار لهم".

---

1) 94/ يونس.
2) (التيسير) 3/ 110.
3) ن.م. 4/ 591، 592 المجلد 2.
4) (التفسير ومناهجه عند علماء الاباضية) محاضرة ص12، 13.

ثمّ ينتقل الى آستعراض بعض أوجه التّفسير فيقول : " أولاً انّهم كانوا قد جعلهم اللّه تعلى متكبرين عن الحّق ، أو لا ًنهم كانوا قد أبطر هم اللّه أيّ جعلهم بطرين بالنّعمة أو أبطر تهم النّعمة " ولكن شخّصية المفسّر تأبى الاقتصار على سرد الأقوال دون التّصدّي لنقدها ، فلذلك نراه يعلق على هذا الوجه الأخير من تفسير الآية قائلا : " ويبحث بأنّه ليس كلّ أهل النّار مكثرة لهم النّعم في الدّنيا والجواب بأنّ ذلك حكم على المجموع لا كلّية ضعيف ويبعد بحسب الظّاهر أن يراد كلّ أحد منعما عليه بنعمة البدن الصّحيح والعقل والحياة ونو مع قلّة المال لا يستشكل بمن ليس كذلك لقلّة المرضى وأصحاب الآفات بالنّسبة " (1)

وشخصيّة المفسّر تظهر بجلاء في هذا النّص الّذي يعترف فيه ضمنيا بمقدرته على الاستدلال والتّحقيق ، ويرى أنّ ذلك لا يصدر الا من عالم مارس المعقول والمنقول ، ويعتزّ فيه بآجتماع شروط الاجتهاد لديه ودونك النّص الّذي موضوعه مسألة زيادة الايمان ونقصه " .. وليس كلّ عالم يحسن الاستدلال ، وانّما يحسنه من مارس المعقول والمنقول ، فتمّسك بما قررته لك فانّك لا تجده مسطّرا على هذا التّحقيق في غير هذا الكتاب ، ثمّ خذ عنّي تحقيق آخر هو أنّ الايمان يجوز اطلاقه على مجرد التّوحيد وهو التّصديق كما يطلق على ذلك مع الاقرار والعمل وهو الايمان الكامل لا يدخل الجنّة الّا به ، فيشتق منه ذلك ممّا تجده مسطرا ، ولو لا أنّه لا يجوز لي كتمان علم ظهر لي لاجتماع شروط النّظر ما فممت بذلك ما يخالف غيري " (2).

وهذا النص الّذي سقته من كتابه (هميان الزّاد) يؤكّد آعتزاز المفسر بشخصيّته وعلمه ، ومقدرته على التّحقيق والاستدلال ، وأنّ كان هذا الاعتزاز في فيما يبدو جاء في مرحلة مبكّرة من حياته وهيّ الّتي ألّف فيها تفسيره الأوّل السّابق الذّكر ، أمّا تفسيره الّذي نحن بصدد دراسته فلا نعثر فيه كثيرا

---

1) (التّيسير) 6/ 49 ، 50 .
2) (هميان الزّاد) 7/ 97 ، 98 .

على هذه الاعتراضات ، لأنّه قد أثبت - عمليا - جدارته ومقدرته على التأليف ، وفرض وجوده كعالم في عصره على الأقل في محيطه ، ولذلك نلاحظ في أسلوب تفسيره رزانة في التّحليل ، والنّقد ، وإنّ استعمل - أحيانا - العنف ، وكذلك نلاحظ التّعمّق في الاستدلال والتّحقيق ، غير أنّه رغم ذلك لم يتخلص من جمع بعض المسائل الّتي لا يستفيضها العقل ولا المنطق ، وحشا بها تفسيره .

ومن أمثلة ذلك تنبؤه بوقت نزول المسيح عليه السّلام وحدوث تغييرات في مسقط رأسه ويقول في ذلك :" .. وينزل إن شاء اللّه تعالى على ما ألهمت وروّيت على تمام أربعين عاما بعد ألف وثلاثمائة وخمسة وعشرين إلا أنّ ابتداء الحساب أنّ شاء اللّه يكون من الحادي عشر من ذي الحجّة من عام خمسة وعشرين وثلاثمائة وألف وعند العشرين الأولى من الأربعين يتغيّر مضاب (1) والعلم للّه لا لغيره "(2)

وبعد سرده لدعاء عيسى عليه السّلام لمّا يريد تبرئة الأكمه والأبرص يذكر هذه الرّقية :" .. وإذا قرئ هذا على المجنون وكتب وسقي له برئ بإذن اللّه عزّ وجلّ ... " (3).

ولا غرو في ذلك لأنّ رأي المفسّر في الاستشفاء واضح في قوله : " ..ويجوز الاستشفاء بالقرآن تعليقا وغسلا ومسحا بالغسالة ، وشربا ولو بفعل الإنسان ذلك بنفسه " (4).

غير أنّ هي هذا التفسير كان أكثر دقّة وتحقيقا ، ففي هذه المسألة مثلا يقول في موضع آخر تعقيبا على حديث نبويّ في الاستشفاء بالقرآن :" ...وليس على ظاهره من أنّ معنى الآية أنّ القرآن دواء لوجع الصّدر بل معناه أنّه دواء لدنس القلوب بنيّة المعاصيّ بل قياس منه صلّى اللّه عليه وسلّم للمرض الجسدّي على المرض المعقول من الذّنب ".

---

1) وادي ميزاب تقدم تعريفه .
2) (التيسير) 261/05 .
3) ن.م. 1/ 503 .
4) ن.م. 3/ 772 .

الى أن يقول :" بل قد يكون المرض المعنوي سببا للحسي فيقرأ القرآن ليزول المعنوي الذي هو سبب الحسي" (1) بينما نراه في كتابه (هميان الزاد) غارقا في سرد بعض الرقيات الشبيهة بالتمائم من أمثلة ذلك قوله عقب تفسير قوله تعالى :"..وما النصر الا من عند الله ان الله عزيز حكيم " الآية 10 الأنفال :".. ومن كتب في بطاقة في السابع والعشرين من رمضان وما جعله الله الا بشرى الآية وجعلها تحت فص خاتم وحمله هو أو غيره لم يزل حامله مسرورا منصورا على عدوه (2)."

فاذا أجرينا مقارنة بسيطة بين تفكيره في تفسيره الأخير وتفسيره (التيسير)لا حظنا عمقه مع بروز بوادر الحركة الأصلاحية ، ولم يتخلص من بعض المآخذ التي ذكرناها أو سنتعرض لها في الفصول اللاحقة.

ونخلص الى القول بأن المفسر ، رغم تأثره بالحركة السلفية ، وبل ببعض مفسريها الى درجة اقتفاء آثارهم في المادة والمنهجية ، لم يصرفه هذا التأثر عن ابراز شخصيته في الأدلاء بآرائه في بعض المسائل ، والرد على آراء الغير ، وتفنيدها أو ترجيح ما يراه صائبا منتهجا أسلوب التحليل والتعليل ، كما يتميز في تفسيره هذا بالعمق في التفكير ، ويتجلى ذلك من خلال معالجته لبعض القضايا التي تعرض لها ، وسيظهر هذا العمق أكثر في موقفه من بعض المسائل التي سنتناولها بالبحث في الفصل الثاني من هذا الباب.

---

1) ن م، 3/66، 67 أنظر رأيه في القضية في ن م. 3/ 771.
2) (هميان الزاد) 7/ 127.

موقفه من بعض المسائل

يصور تفسيره وجهات نظر تجاه بعض أمهات المسائل ، المتعلقة بالأديان والمذاهب وموقفه من بعض المنطلقات وقضايا عصره ، ومعالجته لهذه المسائل تختلف باختلاف موقفه منها ، وانتماءاته ، فنجده يتعاطف مع بعضها وينتقد بعض الآخر بشدة وعنف أحيانا ، ولكن المفسر ينظر اليها من وجهة نظره الخاصة باعتباره عالما مجتهدا ، محاولا اقناع القارئ بهذه الوجهة ، ولا يعني هذا أنه تحرر من انتمائه المذهبي لأن مثل هذا التحرر يتطلب مستوى فكريا وحضاريا نعتقد أنه لم يرق اليه بعد الفكر العربي ، لا سيما في ذلك العصر ثم أنه ليس من السهل التخلص من مخلفات ورثها الانسان واكتسبها وأصبحت جزءا من كيانه وشخصيته ، فكثيرا ما يدعي بالتزام الموضوعية وحرية التفكير ، لا يعدو أن يكون قناعا يخفي وراءه أغراضا يهدف صاحبها الى تحقيقها باسم هذه المواصفات وعلى هذا الأساس يمكننا تبيان موقف المفسر من مذهبه .

موقفه من المذهب الأباضي :

يتميز المذهب الأباضي كغيره من المذاهب الاسلامية ببعض الآراء في الأصول والفروع التي يختلف فيها عن غيره ، وان كان يتفق مع مذهب في مسألة ويختلف فيها مع آخر ، فيحاول المفسر أن يبين هذا الاختلاف وهذا الاتفاق كلما لاحظ ذلك وكأني به يريد أن يثبت للقارئ ولا سيما لأولئك الذين أساءوا فهم المذهب ومكانته بين المذاهب الاسلامية ، ولا يمكن تفسير ذلك بتحيز المفسر الى مذهبه والدفاع عنه والتعصب المذهبي لسببين اثنين : أولهما أن الايمان بفكرة يقتضي من صاحبها الدفاع عنها وتبنيها بقوة لا سيما المسائل المتعلقة بالعقيدة والدين والا كان ايمانه عنها سطحيا ، والسبب الثاني دعوة المفسر الى وحدة المسلمين وتجاوز الخلافات المذهبية وهذه النقطة سنتناولها بالبحث في موقفه من المذاهب الأخرى .

انّ أول ما يسترعي الانتباه في اعتزاز المفسّر بمذهبه هو مدح أئمته والتّعريف بهم في مواضع مختلفة من تفسيره ولا سيّما اذا كانت الآية تختصّ بمدح قوم فمثلا عند تفسير قوله تعالى : " فسوف يأتي الله بقوم ألخ " المائدة 54 يقول مادحا للأئمة الرّستوميين والقوم الفرس والمسلمون المبيّن أدرهم في الدّين كالامام عبد الرحمن ابن رستم والامام أفلح والامام عبدالوّهاب والامام محمّد لما نزلت الآية وفيهم نزل وأنّ تتمولوا يستدل قوما غيركم (1) أيضا ضرب صلّى الله عليه وسلّم يده على كتف سلمن الفارسيّ فقال :"هذا وذووه أو قال : لو تعلّق الدّين بالثّريا لنا له رجال من أبناء فارس " ثم يذكر حادثة وقعت في تونس(2) ، وبعد عرضها أمام المحكمة أصدرت الحكم التالي :" وحكم بأنّه من طعن في المزابيّين(3) يقتل شرطا أن لم يتب لأنّه طعن في الاسلام جملة ، ونحن كذلك تجمعنا كلمة التّوحيد . والميزابيّون يوفون بالقول والعمل " .(4)

ولا يجد المفسّر فرصة للاشادة بأئمة مذهبه الا انتهزها ، مبرزا مآثرهم فقد ذكر باعجاب وتقدير رفض سلطان زنجبار حمود بناء مقام الاباضيّة على غرار مقامات المذاهب الأخرى فقال في معرض تفسير قوله تعالى :" واتّخذوا من مقام ابراهيم مصلّى " من الآية 125 البقرة وقد قال أمير مكة للسّلطان حمود وهو سلطان زنجبار أعوام أقامته بمكّة ابني مقاما لك وللاباضيّة أهل مذهبك فقال : " تفعل لأنّه خلاف الشّريعة ولأنّهم لا يقبلون ذلك عنّي ولا عنك ولا يقف فيه أحد منهم فلذلك ونحوه قلت فيه :—

حمّودنا بن محمّد وشيعته * ضلّ البريّة والحقّ شريعته . القصيدة"(5)

ويتجلّى من هذه الحادثة افتخار المفسّر بمذهبه واعتزازه بأتباعه الّذين يرفضون البدع .

ومن القضايا الاساسيّة الّتي بنّى عليها المذهب الاباضيّ ، لا سيّما في المعتقدات قضيّة التّأويل ، وقد أنكر عليه غيره اعتماده في تفسير بعض المسائل الاعتقاديّة ، فما رأي المفسّر في ذلك ؟ كيف يردّ على من أنكر التّأويل ؟ .

---

1) محمد / 38 .

2) دولة عربيّة في المغرب العربيّ بجوار الجزائر .

3) سكان ميزاب بالجنوب الجزائري ويطلق على أتباع المذهب الاباضيّ في تلك المنطقة .

4) التّيسير 2 / 111 أنظر مثالا آخر في ن م . 1/ 829 .

5) ن م . 154/1 .

يقول المفسّر في تفسير قوله تعالى :" أمنتم من في السّماء " من الآية 16 الملك نفيًا للتشبيه :" ولا يزول الاشكال الّا بالتأويل" الى أن يقول :" وتأويل المتشابه هو الحق ويعقب ذلك بالرّدّ على من ينكر التّأويل قائلا :" وجمهور سلف قومنا (1) على ابقاء المتشابه بلا تأويل ويقول أنّه على ظاهره الّا أنّه بلا تكييف وهو جهالة وظلمة مع وجود العلم والنّور وكثيرًا ما أوّل ابن عباس وغيره من الصّحابة المتشابه ، فلو كان التّأويل حراما أو مكروها لما فعلوه ، والتأويل تصحيح لقوله تعالى : " ليس كمثله شيء" (2) عمل به وفي تركه مع امكانه تقصير في الدّين وابقاء للمرتاب على ارتيابه وتقوية واعانة للتّشبيه وأمّا قوله صلّى اللّه عليه وسلّم :" آمنوا بمتشابهه" فليس فيه النّهي عن التّأويل بل أمر بالايمان ونهي عن انكاره وجعله من غير اللّه أو أمر بالوقف لمن لم يدرك التّأويل " ويختم كلامه بقوله :" وما لا ندرك معناه نبقه بلا تأويل ونؤمن به " (3).

وفي موضع آخر من تفسيره (4) يرى أنّ التّأويل يطلق على التّفسير الصّحيح والتّفسير الباطل ، أو يكون المراد منه المعنى الأوّل ولكنّ في زعم المبتغين للفتنة (5).

وقد ذهب الدّارسون في قضية التّأويل مذاهب ، فمن هؤلاء من اعتبرها بدعة أو لمن فتح بابها الخوارج وأدّت الى نتائج عمليّة خطيرة (6) أمّا صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) فبعد تبيانه للفرق بين التّفسير والتّأويل يعرف الأوّل بقوله :" ما كان راجعا الى الرّواية " ويعرف الذّاتي بقوله :" ما كان راجعا الى الدّراية " (7) ومن هذا التّعريف يحكم صابر طعيمه على الاباضيّة بقوله :" وهكذا وقع الاباضيّة في منهج عقليّ اعملوا فيه تأويل النّصوص الشّرعية مخالفين بذلك مذهب جمهور المسلمين" (8)

---

1) يطلق هذا الأسم على الاشاعرة.
2) الشّورى / 11.
3) التّيسير 6/ 290.
4) عند تفسير قوله تعالى :" وابتغاء تأويله " من الآية 7 آل عمران.
5) ن م. 1/ 443.
6) آراء الخوارج الكلاميّة 1/ 103.
7) التّفسير والمفسّرون 1/ 19 ـ 22
8) صابر طعيمة الاباضيّة عقيدة ومذهب ص 99.

أمّا صاحب كتاب (مباحث في علوم القرآن) فنراه يفرق بين مفهوم التأويل عند الأوائل الذي يعني التفسير ومفهومه عند المتأخرين الذي هو: " صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح الى الاحتمال المرجوح لدليل يقترن به " وأطلق على هذا الأخير التأويل المذموم ويؤاخذ المتأخرين عليه قائلا: " انّما لجأ إليه كثير من المتأخرين مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى عن مماثلة للمخلوقين كما يزعمون، وهذا زعم باطل أوقعهم في مثل ما هربوا منه أو أشد " ويمضي في شرح ذلك. (1)

ويفهم من القول الأخير أنّ تأويل المتشابه من آيات لا يقتصر على الأباضيّة والخوارج فقط أو غيرهم من المعتزلة، وانّما هو اتّجاه المتأخرين.

وقد تعرضنا لهذه المسألة، فرجعنا اليها من باب المقارنة ليتجلّى اتّجاه المفسر في هذه المسألة التي هيّ أساس تفسير الآيات المتشابهة المتعلقة بمسائل عقائدية مثل انكار الرؤية، والاستواء على العرش وغيرها ولا يعني هذا أننا سنتعرض لجميع ما يتميز به المذهب الأباضيّ من المسائل وانّما سنكتفي بضرب أمثلة الغرض منها تبيان أسلوب معالجة المفسّر لهذه المسائل ووجهة نظره منها.

فلاثبات نفي رؤية الباري يوم القيامة في قوله تعالى: " وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة " الآيتان 22، 23 من سورة القيامة يسوق أدلة لغويّة ونقلية وعقليّة، ففي الهداية يتعرض لصيغة الآية، وللجانب اللّغويّ فيقول: " قدّم بطريق الاهتمام والحصر، وللفاصلة " أي شبه الجملة المشتمل على الجار والمجرور (الى ربها) ثم يشرع في الرّد قائلا: " المتبادر يفيد أنّه ليس المعنى تنظر أبصارهم الى ذاته تعالى، لأنّ مدّعي الرّؤية لا يقول ينظر الى ذاته فقط كما ثما، وان قيل التقديم ليس للحصر، بقي أنّ النّظر الى الذات ولو أقلّ من لحظة موجب للتحيّز تعلى الله عنه " ويسوق — بعد ذلك — الأدلة التي تثبت أنّ النّظر هنا قد يفيد معنى الانتظار فيقول: " وناظرة خبر ثان ومعناه منتظرة ومن تعدّي النظر بمعنى الانتظار الى قولهم أنظر الى الله ثمّ اليك أي أنتظر فضل الله ثمّ فضلك وقول الشاعر: —

وجوه ناظرات يوم بدر * الى الرّحمن يأتي بالفلاح

---

1) مباحث في علوم القرآن ص 186 — 188.

وقول شاعر :ـ

سبحانه كل الخلائق ينظرون سبحانه

نظر الحجيج الى طلوع هلال .

وقوله تعالى فنظرة الى ميسرة (1) قال الامام علي ناظرة تنتظر حتى يأذن لهم ربهم في دخول الجنة أو الى بمعنى النعمة . . . أو ثواب ربها أو رحمة ربها " إلى أن يقول :" وكل حذف أو تأويل ولو كان خلاف الأصل مقدم على عدمه إذا كان عدمه يؤدي الى التشبيه أو نحوه والتقدير والتأويل هما المناسبان لقوله تعالى ليس كمثله شيء (2) المتفق عليه ، ولكونه لا يتحيز ولا يتجسم ولا يتجسم كما هو المتفق ، ولتنزهه عن الحلول كما هو المتفق عليه ولتنزهه عن الزمان كما هو المتفق عليه وذلك كله بالذات ، وما بالذات لا يتخلف بأختلاف الأزمنة ولتنزيهه عن اللون والطول والقصر والغلظة والرقة ورؤيته تنقض هذه الأصول كلها وتثبت غيبته من المواضيع الأخر والتجزيء ولزمهم أن الله محسوس لخلقه ويتنقل بعد ذلك الى الحديث عن كلام الله تعالى قائلا :" وهؤلاء قوم لا يخفى عليهم في بعض الأصول كما قالوا أن موسى سمع كلام الله النفسي القديم أثبتوا الكلام النفسي وأثبتوا له مسموع مع أنه غير صوت وقد أبطل هذا بعض حذاقهم وشنع على الغزالي والأشعري في قولهما سماع كلام الله الأزلي ، وقال اتفقوا على أنه لا يسمع غير الصوت وقد رجع إليها من قال معنى سماع الكلام الأزلي أنه معلوم بسماعنا من الشرع أن الكلام النفسي ثابت قلنا أيضا لا نسلم بثبوت الكلام النفسي ."

ويعود ثانية للرد على من يثبت الرؤية قائلا :" . . ولا عاقل يترك ما هو توحيد الى ما يخالفه ووضعوا أحاديث منها أنهم ينظر اليهم وينظرون اليه ولا يقطعون نظرهم حتى يحتجب عنهم ومنها أن أكرمهم على الله سبحانه من ينظر اليه صباحا ومساءا ولا يخفي عن مدعي الرؤية دعوى أنها ليست على المعتاد لأن حاصلها الانكشاف وهو منزه عنه ، ولا يضرهم الانتظار لأن ما هم

---

1) البقرة / من الآية 280 .
2) الشورى / 11 .

فيه من النّضرة نعمة عظيمة تنفي مع الانتظار بل جعل الله الانتظار نعمة أخرى "(1).

ومن الملاحظ أنّ المفسّر يدافع بكلّ ما لديه من حجج عقليّة ونقليّة عن وجهة نظر الإباضيّة، لا سيّما في المسائل العقائدية، فاذا وجد من يميل من غيرهم الى آرائهم أو في وجهة نظره ما يقرب منها، جعل ذلك حجّة للخصم وتباهى به، وقد يعالج مع القضيّة الرّئيسية قضايا أخرى لها علاقة بها مثلما هو الشّأن في المثال السّابق اذ كان يتناول بالبحث قضيّة نفي الرّؤية والرّدّ على مفسّري الآية الكريمة حسب معناها اللّغويّ دون تأويل، ولكنّه تطرّق في نفس الوقت الى قضيّتين أخريين ألا وهما: صفاته سبحانه وتعالى، وكلامه، وهما من القضايا الخلافيّة أيضا.

ومن تحمّس المفسّر لمذهبه، ودفاعه عن وجهات نظره، وانتهازه لكلّ فرصة لاثبات آرائه في قضايا مختلفة، فلنأخذ على سبيل المثال قضيّة الرّؤية الّتي أشرنا اليها سابقا، نجده يتعرض لها في عدّة مواضع، فقد أشار اليها في تفسير قوله تعالى: " هو الّذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب" من الآية 07 آل عمران (2)، كما ذكرها مع قضايا أخرى خلافيّة في قوله تعالى: " ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيّنات" من الآية 105 آل عمران (3)، وتصدّي للرّدّ على القائلين بالرّؤية في قوله عزّ وجلّ: " فأخذتهم الصّاعقة بظلمهم " من الآية 153 النّساء (4) وفي تفسيره أمثلة كثيرة (5).

ولزيادة التّوضيح نلاحظ كيف يستدل بقوله تعالى: " حتى نرى الله جهرة " من الآية 55 البقرة على كفر من يثبت الرّؤية فيقول: " والآية دليل على كفر (6) مجيز الرّؤية دنيا وأخرى، وذلك لأنّ اجازتها ولو في القلب إجازة لتكييفه وتكييفه ممتنع لأنّ فيه تشبيها وادراكه بالقلب تكييف لا يتصور بدونه، فلا يصحّ قولهم، بلا كيف، وتكييفه في القلب بلا تقدير أن يكيّفه لغيره هو من نفس المحذور " (7).

---

1) التّيسير 6/ 426، 427.
2) ن م. 1/ 442.
3) ن م. 1/561.
4) ن م. 1/848.
5) أنظر أمثلة أخرى في ن م. 5/579 — 4/993 المجلّد 2 — 1/372.
6) في اصطلاح الاباضيّة كفر نعمة على المسلم الفاسق.
7) التّيسير 1/68. اطلاق

نلاحظ في الأمثلة أنّ المفسّر لا يكتفي بتبيان وجهة نظر المذهب الأباضيّ بل يتصدى للرّد على مخالفيه ، واذا وجد عالما أو مذهبا يوافق الأباضيّة في رأي ذكره مثلما فعل عند تعرضه لمسألة الشّفاعة في قوله تعالى :" ولا تقبل منها شفاعة ، ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون " الآية 48 البقرة يقول المفسّر في هذا الصدد : " ... والآية دليل لنا وللمعتزلة على أنّ لا شفاعة لأهل الكبائر لأنّ الآية ولو كانت في المشركين لكنّها في وصف يوم من شأنه أنّه لا شفاعة فيه بدفع العذاب عن مستحقّه ، ولا مقام أو زمان من مقامات الموقف وأزمنته نصّ على ثبوتها للفساق ولا لشخص مصر " (1).

ويتهج نفس الأسلوب لاثبات رأي الأباضيّة في نفي المغفرة للموحّد المصر على المعصية في قوله تعالى :" لا ينفع نفسا ايمانها ... أو كسبت في ايمانها خيرا " من الآية 158 الأنعام يقول المفسّر :" وفي الآية دليل لنا وللمعتزلة على أنّ التّوحيد المقرون بالمعصية المصرّ عليها لا ينفع. " الى أن يقول :" وهو مذهب المحدثين من قومنا أيضا " (2).

ومن دعم رأي مذهبه بذكر عالم من مذهب آخر يوافق المذهب الأباضي في في مسألة قوله في صفات الله :" .. قال ابن العربيّ الأندلسيّ المالكيّ ما بين من يقول صفاته غيره ومن يقول أنّ الله فقير (3) الّا تحسين العبارة " (4).

نجد المفسّر يؤوّل كلّ آية يفهم منها التّشبيه ، ويحملها على المعنى المجازيّ فمثلا في قوله تعالى :" الله الّذي رفع السّموات بغير عمد ترونها " من الآية 02 الرّعد يردّ على قول مجاهد وعكرمة اللّذين نفيا الصّفة وأثبتا العمد التّي :" لا ترى وهيّ جبل قاف محيط بالدّنيا بعد المحيط من زمرد أخضر اذ تبقى السّموات أو يدعى أنّ أطرا فهنّ كلّمن على جبل قاف ولا ندري أصح

---

1) ن.م. 59/1 .
2) ن.م. 468/2 ، 469 .
3) آل عمران / من الآية 181 .
4) التيسير 404/3 .

أم لا والصّواب أنّ الحمد فرض ثبوتها هيّ القدرة ، والقدرة لا ترى وانّما يرى أثرها فالحمد هيّ قدرة اللّه عزّ وجلّ وهيّ واحدة ذاتيّة وأمّا جمعها فتمثيل أو بأعتبار تعدّد متعلّقاتها " (1).

ومن هذا المثال نستنتج أنّ المفسّر يدافع عن آراء مذهبه ولا غرو في ذلك ما دام يعتبرها هيّ الصّحيحة ، والصّواب ، وهذا ديدان كل مفسر وبل كل معتنق لمذهب أو فكرة ، ومن هنا نحكم أنّ تفسيره هذا يمثّل تمثيلا صحيحا وجهة نظر المذهب الاباضيّ ، وخاصة في ما يسمّى بالاصول أو مسائل العقيدة ، وممّا يلاحظ أقتصاره — أحيانا — على عرض رأي مذهبه دون الرّدّ على مخالفيه وعلى سبيل المثال في قوله تعالى : " ولا يشفعون الّا لمن آرتضى " من الآية 28 الانبياء يسرد رأيه في الشّفاعة وهوّ رأي الاباضيّة قائلا : " أي آرتضاه اللّه عزّ وجلّ أن يشفعوا له وهوّ من يقول لا اله إلّا اللّه وأتبعه بالعمل الصّالح ومات على غير كبيرة وشفاعتهم الاستغفار في الدّنيا ويوم القيامة . . " (2).

ولم يقتصر المفسّر على تبيان وجهة نظر مذهبه في المسائل العقائديّة بل تناول — أيضا — بالبحث المسائل الشّرعيّة الاخرى غير أنّه كان في هذه المسائل أكثر تفتّحا وتحرّرا بأعتبارها مسائل فرعيّة ، ولكن هذا لم يمنعه من تأييد آراء مذهبه وبيان حججه فلا حظاه مثلا كيف ينتقد في البداية حجّة المذهب في تحريم المسّ قبل الاطعام في الظّهار " . . قال اللّه تعلى في العتق والصّوم من قبل أن يتماسّا (3) ولم يقله في الاطعام فقيل المراد فيه أيضا من قبل أن يتماسّا حملا للمطلق على المقيّد وذلك مذهبنا ، وعندي أنّ الحمل على المقيد يكون اذا كان الاطلاق والتّقييد في مسئلة واحدة نحو أطعم أهلك براحتيّ يشبعوا أطعمهم برّا صبحا ، وقيل يجوز المسّ قبل الاطعام اذ لم يقيّد " ثمّ يعود للتأييد رأي مذهبه بقوله :" والاوّل قولنا وهوّ أحوط ونسب الثّاني لمالك" (4).

---

1) ن م . 3/ 408 .
2) ن م . 4/ 209 المجلّد 1 .
3) المجادلة / 3،4 .
4) التّيسير 6/ 113 .

نلاحظ ـ أحيانا ـ تناقضا في بعض المعلومات ، وإن كان ذلك قليلا ، و نعزو هذا الاختلاف في المعلومات إلى أولا عدم مراجعة المفسّر لما يكتبه ، وثانيا الى زيادته في الاطلاع ، ففي تفسير قوله تعالى :" قل قتال فيه كبير " من الآية 217 البقرة . يدلي المفسّر برأي مذهبه في قاعدة شرع من قبلنا فيقول :" . . والمذهب أن شرع من قبلنا ليس شرعا لنا " ثمّ يعقّب عليه قائلا :" والذي عندي أنه شرع لنا و وأنّه يقدم على الاجتهاد ما لم يناقه القرآن أو الحديث أو الاجماع بدليل راجح و لا خلاف في أنّه ليس شرعا لنا اذا صرّح في ذلك بخلافه ولا يصّح أنّ شيئا شرع لمن قبلنا الّا اذا ذكر عنهم في القرآن أو الحديث أو الاجماع أو رواه ثقة أسلم منهم كعبد الله بن سلّام (1).

و يقول في موضع آخر بعد استعراضه لآراء حول نفس المسألة واردة في كتاب السؤالات :" . . وقيل لم نتعبد بشيء من شرائعهم الّا ما لا يفسخ كالتوحيد ومحاسن الأخلاق وإليه يتوجه قوله تعلى فبهداهم اقتده (2) و بهذا القول يقول بعض أصحابنا " وبعد انتهائه من سرد ما جاء في كتاب السؤالات يضيف المفسّر قائلا :" والبعض الآخر من أصحابنا شرائع من قبلنا شرع لنا الّا ما نسخ بالقرآن وغيره و من التشرع بشرع من قبلنا قول صاحب الوضع (3) في الصوم فصل في صوم التطوّع روّي أنّ رجلا جاء الى ابن عباس الخ (4) " (5)

نلاحظ ممّا تقدم أن النّص الأوّل يروي عن الاباضيّة عدم عملهم بقاعدة شرع من قبلنا شرع لنا بينما النّص الثّاني يذكر أنّ جماعة منهم تعمل بها ، واذا رجعنا الى كتاب الاباضيّة نجد صاحبه يعتبرها قاعدة يعمل بها الاباضيّة و يقول في ذلك " شرع من كان قبلنا شرع لنا اذا لم ينسخ و قصه الله تبارك وتعالى أو رسوله عليه

---

1) ن . م . 298/1 .
2) الأنعام / من الآية 90.
3) يحي بن أبي الخير الجناوي (أبو زكريا) النّفوس مكتاب الوضع التّصريف بكتاب الوضع و مؤلفه ابراهيم أطفيش ، أبو اسحاق .
4) يحي بن أبي الخير الجنّاوي الوضع من ص 162 ـ 167 .
5) التيسير 341/2 ، 342 .

السّلام علينا على جهة التّشريع" (1) وإذا قارنّا هذا القول بقول المفسّر في النّص الأوّل ، نلاحظ سقوط الأجماع من هذا التّحريف الأخير ورواية ثقاة من أسلم من أهل الكتاب.

ولعلّ أطلسّ في بداية الأمر على رأي المعارضين ثمّ أكتشف جماعة أخرى من علماء الأباضيّة يؤيّدون العمل بهذه القاعدة الشّرعيّة ، وإنّ كان المفسّر في المسائل الفرعيّة يبيّن آختلاف علماء مذهبه مثلما هو الشّأن في تفسير قوله تعالى :" وإن يتفرّقا " الآية 130 النّساء يقول :" بالطّلاق أو الفداء وهو طلاق خلافا لجابر ابن زيد اذ عدّه فرقة غير طلاق" (2).

وفي قوله تعالى :"ولن يجعل اللّه للكافرين على المومنين سبيلا" من الآية 141 النّساء يبيّن آختلاف جمهور علماء الأباضيّة مع أحد أئمتهم في حكم مال المؤمن اذا آستولى عليه الكافر فيقول :" ومذهب الجمهور من أصحابنا وغيرهم أنّ الكافر اذا آستولى على مال المؤمن لم يملكه ، فاذا قدر عليه فهو للمومن ، وقال الرّبيع بن حبيب وبعض العلماء تجوز معاملة المشرك فيه وهبته وتملّكه منه بالغنم فيكون فيئا للمسلمين" (3).

ولا يتحرج في ردّ بعض النّصوص الواردة في مصادر الأباضيّة مثلما فعل في تفسير قوله تعالى :" وأزواجه أمّهاتهم" الآية 06 الأحزاب ، فقد ردّ ما روي عن جابر بن زيد أنّه كان يسأل عائشة رضيّ اللّه عنها عن جماع النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم فيقول :" . . ولا يصّح ما يروى عن جابر بن زيد أنّه خلا بعائشة رضيّ اللّه عنها أو لم يخل بها وأنّه سألها حاشاها وحاشاه عن كلّ ما بدا له حتّى سألها عن كيفيّة جماع النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم كيف يجسر على ذلك وكيف ترضى له هذا السؤال ولم تنهره عنه وكيف تجيبه مع نهيه صلّى اللّه عليه وسلّم عن أن يصف الرّجل أو المرأة ما فعل أحدهما مع الآخر في الجماع وإن قيل سألها عن جماعه هكذا لا بقيد أنّه معها فجسارة أيضا حاشاه عنها . . ." (4).

---

1) الأباضيّة ص 60 .

2) التّيسير 1/ 328 .

3) ن م . 1/ 338 .

4) ن م . 4/ 303، 304 المجلّد 2 .

هذه الحادثة وردت في كتب الاباضيّة وغيرهم (1) واذا تصفّحنا الجامع الصّحيح للرّبيع بن حبيب نجد فيه أحاديث رواها جابر بن زيد عن عائشة في مسائل الجماع والاغتسال والحيض (2)، ومن هناك لا نستبعد حدوث هذه الواقعة، ثمّ أنّ حرص أعلام التّابعين على معرفة كلّ شاردة وواردة من سلوك رسول اللّه صلّى اللّه عليه وسلّم وحياته بآعتبار سنّته مصدر التّشريع، يجعلهم يسألون دون حرج أو خجل طلبا للمعرفة، وحفاظا على السّنة النّبويّة، ولكن نراه — من جهة أخرى — يدافع عن آراء مذهبه سائقا أدلّة قبل آستعراض الرّأي المخالف وأدلته والرّدّ عنه ونجد مثالا لذلك في تفسير قوله تعالى: "فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصّلوة" من الآية 101 النّساء يقول في قصر صلاة السّفر: ".. والقصر واجب فمن صلّى سفر تماما ولم يعدها قصرا هلك ولزمته المغلّظة ورخّص في المغلّظة كما ذكره الشّيخ موسى ابن عامر وكذلك قال بوجوب القصر أبو حنيفة كما قلنا ولنا قول عائشة رضي اللّه عنها فرضت الصّلاة ركعتين والمغرب ثلاثا وزاد اللّه في الحضر (3) على غير المغرب والفجر ركعتين فالتّقصير عزيمة وأبقى المغرب لأنّه وتر النّهار والفجر لأنّه يسن فيه طول القراءة ولنا أيضا قول عمر صلاة السّفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيّكم صلّى اللّه عليه وسلّم، وليس في نفي الجناح ما ينافي الوجوب، لأنّه دفع لما يتوهم أنّ القصر ذنب على حدّ ما في قوله عزّ وجلّ، لا جناح عليه أن يطوف بهما (4) ثمّ ينتقل الى ذكر رأي الشّافعيّ الذي يرى أنّ القصر رخصة لا عزيمة مع سوق أدلة ويتفرغ — بعد ذلك — الى ردّها ونقدها . (5).

---

1) الرّبيع بن حبيب الجامع الصّحيح 4/ 04 مجلّد واحد، يحيّ محّمد بكّوش فقه الامام جابر ابن زيد 1/ 75، 76.

2) الجامع الصّحيح أنظر أمثلة في 1/ 29، 30.

3) رواه بهذا المعنى الرّبيع بن حبيب، النّسائيّ وروى مثله أحمد ومسلم وأبو داود والنسائيّ عن ابن عباس.

4) البقرة / 158.

5) التيسير 1/ 794، 795.

واذا كنّا قد لاحظنا بوضوح وقوف المفسّر مع آراء مذهبه وممّا يدّل على ذلك المثال السّابق، وتكراره فيه لقوله، و(لنا)، لكّنه لم يمنعه ذلك من مخالفته أو ترجيح رأي يراه صوابا مخالفا لأحد أئمّته، ولتأكيد ما ذهبنا اليه نسوق هذا المثال من تفسير قوله تعالى: "ليلا يكون للنّاس على اللّه حجّة بعد الرّسل" من الآية 165 النّساء يتعرض فيه لرأي الاباضيّة في حجّة اللّه على عباده قائلا: "والآية دليل على أنّ حجّة اللّه على عباده الكتب والرّسل والعقل وهذا مذهبنا" ثمّ يستعرض رأي المعتزلة والأشاعرة فيعود ثانية لتوضيح رأي الاباضيّة في القضيّة قائلا: " والمذهب أنّ عليه الحجّة بمعنى الحق عنده، والحكمة أنّ تعذيبهم بلا بيان لهم ظلم " ثمّ يعقّب على هذا القول: " ألا أنّي أقول حجّة اللّه في توحيده على خلقه أيضا العقل فانّه يدرك انفراد اللّه بالألوهيّة بعقله لدلائل المخلوقات فاذا أدرك الانفراد دعاه ذلك الى خدمة من أوجده وأنعم عليه فيذهب ولو كان في جزيرة لم يلق أحدا الى من يعلّمه كيفيّة الخدمة، فيصبح بهذا أنّ صاحب الجزيرة غير معذور ان لّم يكن على دين نبيء من الأنبياء والرّسل والكتب مبيّنة ومفصّلة لدلائل العقل" (2) وفي كتابه كشف الكرب يوضّح هذه المسألة أكثر ويبيّن الفرق بين رأيه ورأي مذهبه قائلا: ".. مع ما ضممت اليه من أنّه اذا أدرك التّوحيد أداه الى شكر المنعم فيخرج لينظر بما يشكره به لكّن مذهبنا أنّ شكر المنعم وجب بالشّرع لا بالعقل" (3).

ومن هنا نلاحظ أنّ رأيه لا يختلف كثيرا عن رأي المعتزلة الّا من حيث بعض التّفاصيل، وانّ كان المفسّر ينتقدهم بشدة في هذه المسألة، وهذا ما سنراه في في مبحثه الخاص به.

---

1) يرى علّي يحي معمّر صاحب كتاب الاباضيّة أنّ "حجة اللّه تقوم على الخلق بالرّسل والكتب". ص60.

2) التّيسير 1/863.

3) كشف الكرب 1/ 29.

و يقول ردّا على من يعتقد أنّ أصحاب الأخدود مؤمنون في تفسير قوله تعالى : " و هم على ما يفعلون بالمومنين شهود " الآية 07 البروج :" بالاضمار واظهار المومنين فانّ الضّمير لا يرجع الى المومنين بل للكفّار الذين هم أصحاب الأخدود ودعوى أنّ الضمير عائد الى الكفّار المعلومين من المقام ، وأنّ أصحاب الأخدود هم المومنون تكلّف بارد " ثمّ ينتقد في هذه المسألة صاحب العقيدة (1) قائلا :" وقول صاحب العقيدة رحمه الله أنّ أصحاب الأخدود من أهل الجنّة (2) و أنّهم المومنون و المقتولون بالنّار أخذ من الآية لا تفسير لها " (3).

و لا يفوت المفسّر ذكر اختلاف علماء الأباضيّة في بعض المسائل ، وقد يرّجح الرّأي الذّي يميل اليه أو يكتفي بعرض هذه الاختلافات و من خلال هذا المثال يتّضح لنا ذلك ، في تفسير قوله تعالى :" أو الطّفل الذّين لم يظهروا على عورات النّساء" من الآية 31 النّور يقول في حكم المراهق :" وفي المراهق في المذهب قولان : بعض يحكم عليه بحكم البالغ ، و بعض لا يحكم عليه به و هوّ الصّحيح ، و كذا قولان في الشّافعية و المسح أحوط " (4).

و ميل المفسّر الى الحكم الأحوط ، اتقاء للشّبهات من مميّزات [illegible] ، الذّي في معظم الأحيان — يختار الرّأي الذّي يحتاط في الحكم .

كما أنّه يبيّن الاختلافات في بعض المسائل بين علماء المشرق والمغرب واذا اختصّ أحدهما برأي في قضية ما ، نسبه اليه ، لاحظ ذلك في تفسير قوله تعالى : "و من خفّت موازينه " من الآية 09 الأعراف يقول : " وقال قومنا وأهل عمان من أصحابنا رحمهم الله الثّقل و الخفّة بكثرة الحسنات وقلّتها وان تساوت الحسنات و السّيئات فمن أصحاب الأعراف ." (5).

---

1) يجهل كاتبها غير أنّ ناقلها من اللّغة البربريّة الى العربيّةهو أبوحفص عمرو بن جميع من القرن الثّامن الهجرّي وقام بشرحها كلّ من بدر الدّين أبي العبّاس أحمد بن سعيد الشماخيّ (....،928هـ) و أبو سليمان داود بن ابراهيم الثّلاتيّ (....،967) أنظر ترجمتها في مقدمة التّوحيد و شروحها ، مؤلف التّرجمة ابراهيم أبو اسحاق أطفيش من ص02 — 10).
2) ن.م . ص/65 يذكر من بين أهل الولاية من الرّجال المعصومين أصحاب الأخدود .
3) التّيسير 548/6 .
4) ن.م . 395/4 المجلّد 1 .
5) ن.م . 490/2 أنظر مثالا آخر في ن.م . 741/1 ، ن.م . 537/2 و رأي المغاربة من علماء الأباضية يرون أن ما تمحضت تائبا محيت سيّئاته و ان ما تمضّرا بطلت حسناته .

ومن الملاحظ — أيضا — أنه في كثير من الأحيان — عند آستعراضه لآراء المدارس الفقهية المختلفة في مسألة من المسائل يبدأ بذكر رأي مذهبه ، ثم ينتقل الى آستعراضه بقية الآراء ، وفي المثال التالي ما يثبت ذلك : في تفسير قوله تعالى :" واذا ضربتم في الأرض " من الآية 101 النساء يقول مبينا حد السفر شرعا :" جاوزتم فرسخين مما اتخذتموه وطنا ولو في الحوزة لحديث الربيع رحمه الله أنه صلى الله عليه وسلم جاوز فرسخين من المدينة الى ذي الحليفة وقال أريد أن أعلمكم حد السفر (1) وقال مالك . . الخ " (2) ولكن لا يعني هذا أن المفسر يلتزم بهذه القاعدة في جميع تفسيره فقد نجده — أحيانا — يؤجل ذكر رأي مذهبه الى النهاية أو يذكره بين بقية الآراء لا سيما اذا آتفق مع مذهب آخر ، لاحظ في هذا المثال ، آخر ما يذكر فيه رأي المذهب الأباضي بعد آستعراضه للأصناف الذين لا جزية لهم :" والمذهب أخذها من الأعمى " (3).

وقد يذكر — كما أسلفنا — رأي مذهبه في مسألة ما مع بقية المذاهب الأخرى المتفقة معه أو يكتفي بدمجه في رأي الجمهور ، وهذا ما سنراه حين نتعرض لموقفه من المذاهب الأخرى .

وقد تناول المفسر بالبحث أهم القضايا التي يتميز بها المذهب الأباضي لا سيما العقائدية ، والأمثلة السابقة كافية لتصور وجهة نظر المفسر منها ، وطريقة تناولها .

ومن المسائل التي تعرض لها المفسر والتي يراها بعض الدارسين السبب المباشر لظهور المذهب الأباضي ، المسائل السياسية ، وعليه ترتكز مبادؤه في نظر هؤلاء ، ومن أهم هذه المسائل فكرة الامامة التي تبلور مفهومها بعد الفتنة الكبرى التي كان يشير اليها المفسر كلما وجد آية لها علاقة بالخلافة أو الامامة محاولا تبيان رأي مذهبه في هذا الخلاف الذي آنعكست آثاره السلبية على وحدة المسلمين ، وأحدثت في مجتمعهم تصدعا ، وفي المثال التالي يبين لنا المفسر وجهة نظر مذهبه من هذه

---

1) ما جاء في كتاب الجامع الصحيح للربيع بن حبيب 4/ 90 مجلد واحد ، قال أنس بن مالك أن رسول الله (ص) صلى الظهر بالمدينة وصلى العصر بذي الحليفة ركعتين وبينهما في القياس والتقدير خمسة أميال الى ستة أ هـ .
2) التيسير 1/ 794 أنظر مثالا آخر في ن م . 5/ 338، 339 .
3) ن م . 2/ 338 .

الأحداث التي تعتبر مفترق الطرق في تاريخ المسلمين وذلك في تفسيره قوله تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " من الآية 46 الأنفال يستهل حديثه باستعراض الأحداث في عهد عثمان بن عفان ويبين أنها تمثل جذور خلاف المسلمين متحدثا عن تصرفات الخليفة وحاشيته ثم يعقب على ذلك بقوله: " واجتماع هذه الأمور ونحوها مسقطة لأن يقال فيه فعل ذلك لمصلحة شرعية اقتضاها الحال " ثم ينتقل الى عهد علي بن أبي طالب مبرزا ندمه على قتل أهل النهروان (1) فيقول: "وقد ندم علي بن أبي طالب على قتل من قتل وقال: " انهم أصحاب القرآن والتوراة والانجيل، الا أنه لم يكمل ندمه " ويبين سائر ذلك — رأي أنصاره الذين انشقوا عنه وقاتلهم فيقول: " وقد قالوا لا تنزع منك اسم الامامة وقد ثبتت لك ولو كره معاوية " ثم يدعم رأيهم بتأييد عمر بن عبد العزيز لهم قائلا: " وقد ارتضاهم الامام عمر بن عبد العزيز وأثبت الامامة لعلي " ويختم كلامه بقول المسعودي: " ارتقى الأمر بأصحاب معاوية الى أن جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير ويلعنونه على المنابر" (2).

وفي موضع آخر من تفسيره راح يثبت رأي مؤيدي امامة علي، واستنكارهم للتحكيم على أساس: " أن الامامة استحقها هو ولا يجوز لمعاوية منازعته فيها، ولا لعلي تركها " (3).

انطلاقا من موقف الاباضية من هذه الحادثة يبين المفسر رأيهم في الامامة في تفسيره قوله تعالى: " فمن نكث فانما ينكث على نفسه " الآية 10 الفتح ومن استعراضه لجملة من آراء المذاهب يستخلص منها رأي الاباضية الذي يشتمل على مبدئين، الأول: " والآية تدل على وجوب الامامة الكبرى ونصح الناس وكل آية أوجبت الاقامة العدل (4)، واقامة الدين فهي موجبة بالامامة فهي من القرآن استنباطا وكذا في الأحاديث " الى أن يقول: " وكان صلى الله عليه وسلم يأمر باتباع الأئمة ماداموا على الحق فوجوبها بشرع ".

---

1) أنظر الواقعة بشيء من التفصيل في شذرات الذهب لابن العماد 1/50، 51.
2) التيسير 2/791، 792.
3) ن.م. 5/ 475.
4) لاقامة العدل.

أمّا المبدأ الثّاني يتمثل في شروط الامامة فيقول في ذلك : " ويجب أن يكون واحد (1) لئلّا يختلفا فيكون الفساد ، ولا يجب أن يكون الامام أفضل القوم" ثمّ يضيف قائلا : " ويكون الامام من قريش اذا وجد وصلح لا امامة (2) والّا فمن غيرهم ولا يجب أن يكون من بني هاشم " ومن شروطه حسب رأيه : " ولا يكون الامام بدويا أو عبدا أو طفلا أو جبانا أو أعمى أو أصم أو أبكم أو لا رأي له وان لم يجدوا الّا بدّويا نصبوه " وقد أشار من قبل الى أحد أسباب عزله في رأي الاباضيّة وهو : " وينعزل بالفسق اذا أصّر عليه (3)" وكعادته يدعّم رأيهم بعالم من مذهب آخر يتبنّى نفس الفكرة فيقول : " وذكر ابن العربيّ أنّه اذا كان الامام لا ينظر في أحوال النّاس ولا يمشي فيهم بالعدل فقد أزال نفسه من الامامة في نفس الأمر دون الظّاهر واختار أنّه اذا فسق انعزل فيما فسق فيه لأنّه لم يحكم فيه بما أنزل اللّه تعالى ".(4).

من خلال ما تقدم يتجلّى لنا بوضوح انتماء المفسّر الى المذهب الاباضيّ وتعبيره عن وجهة نظر هذه المدرسة الاسلاميّة معتزا بأئمّته ، ومؤيدا لآرائه السّياسيّة والعقائديّة والتّشريعيّة ، وان لاحظنا جرأته ، ونزاهته العلميّة وتناول بعض المسائل ولا أدّل على ذلك من مخالفته لبعض آراء مذهبه في التشريع ، ولا غرابة في ذلك لأنّه أفتى بعدم جواز عمل المجتهد بغير رأيه الّا أن ضاق الوقت عن الاجتهاد في مسألة ، وأجاز ذلك بشرط ذكر السّند والمصدر وان كان مخالفا لرأيه (5).

فهذا هو موقفه من المذهب الاباضيّ ، فما هو موقفه من المذاهب الاسلاميّة الأخرى ؟.

---

1) واحدا.
2) للامامة.
3) أصر.
4) التّيسير 5/414 ، 415.
5) كشف الكرب 1/84.

موقفه من المذاهب الاسلامية :

اذا وقف امرء تجاه مذهبه أو حزبه أو رأيه موقف مدافع، لا متعصبا له، وانما كان ذلك عن اقتناع، لأنه تشرب مبادئه، وأصبح يعتقد صحتها اعتقادا جازما في هذه الحالة لا يمكن اتهامه بالتعصب والتقوقع، لا سيما اذا كان متفتحا على بقية الآراء، وهذا ما ينطبق على المفسر، اذ نجده، رغم دفاعه عن مذهبه بأدلة وحجج، مثله مثل سائر المفسرين السلفيين، يتعرض للمذاهب الاسلامية الأخرى، ويدعو الى وحدة الأمة الاسلامية، وتجاوز الخلافات، ففي تفسيره قوله تعالى: " ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " من الآية 46 الأنفال يقول :

" ... والنزاع الآن فشا في أهل التوحيد، فملكهم أهل الشرك، ولو رجعوا الى مذهبنا في الأصول أو غضوا عن مسائل الخلاف كأن لم تكن وكانوا يدا واحدة لغلبوا على أهل الشرك" (1)، واذا لاحظنا دعوته الى الرجوع الى المسائل المذهب الاباضي الأصولية، لاعتقاده بصحتها، لأنه يرى: " في كل مذهب راجح ومرجوح وأكثر مسائلنا في الفروع راجحات والحمد لله وكلها حق في الأصول" لكن نزاهته، واذعانه للحق جعله يرى أن : " اذا ترجح قول غيرنا في مسألة من الفروع على قولنا بأدلة أو ذكروا مسألة لا بأس بها ولم تذكر في المذهب جاز ذكرها " ويرد على من يتعصب للمذهب وينكر عليه استفادته عن المذاهب الأخرى والرجوع الى مسائلها اذا كانت صحيحة قائلا : " ومن العجيب أن تكون المسألة حقا فتترك لأنها جاءت من مخالف هذا غلو وأذكروا قوله تعالى : في غير أهل القبلة، "ولا يجرمنكم شنآن قوم" (2).

ويستنكر على من يرى مسائل الغير معيبة قائلا : " ومن أين لك أن تعيب مسائلهم كلها ؟" الى أن يقول : " وقد علمت أن الغلو حرام " (3).

---

1) أمحمد بن يوسف أطفيش (التيسير) 2/ 79 .

2) المائدة/ 08 .

3) كشف الكرب 1/ 90، 91 ـ 95 .

ويذهب المفسر الى أبعد ذلك ، اذ يستحسن الدعوة الى الرجوع الى السنة لاستنباط منها الأحكام ، وحرق كتب الفروع ، وورد ذلك في تفسيره للآية الأولى من سورة الحجرات حيث يقول : " وقد أمر عبد المؤمن بتحريق كتب الفروع ورد الناس الى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها ، وكتب بذلك وهو في المغرب الأقصى الى جميع طلبة العلم من بلاد أندلس والعدوة قلت ذلك حسن ولولا أنه لا يقدر الطلبة كلهم على الاستنباط وليس يوجد في كل قطر طالب يستنبط فقد يتعطل أمر العامة بذلك ، وليس يوجد في كل موطن مجتهد .."(1)

استحسانه لهذه الدعوة دال على ايمانه بتقارب المسلمين ، والمذاهب ، وان دل هذا على شيء ، فانما يدل على تحرره من التعصب المذهبي السائد في عصر الانحطاط وهذه الفكرة تعتبر سابقة لأوانها في ذلك العصر .

واذا قلنا التحرر لا يعني ذلك ـ نبذ المفسر للفكرة المذهبية ، وانما نقصد منه تعرضه للمذاهب الاسلامية المختلفة دون عقدة نقص ، فنجده يسرد آراءها وكأننا نقرأ كتابا في الفقه الخلافي ، حتى لا نكون مبالغين حين نقول في الفقه المقارن ، ومن غير الانصاف الحكم عليه بالتعصب اذا أخذنا بعين الاعتبار عصره ، وأفكاره التي أشرنا اليها سابقا (2) ، على الرغم من ظهور بوادر الحركة الاصلاحية التي لم تتبلور أفكارها على الأقل في المغرب العربي ، ومن خلال دراستنا لموقفه من المذاهب الاسلامية المختلفة تتجلى رؤيته أكثر وضوحا .

<u>موقفه من الأشاعرة :</u>

يبدو للدارس من أول وهلة أن المفسر أولى اهتماما خاصا لآراء المذاهب الأربعة ، ومنها لمعتقدات الأشعرية ، وذلك بتعرضه لها في المسائل الخلافية وغيرها ، ويظهر انحيازه في رؤيته السالفة الذكر من المذاهب ، ويؤكد هذه الرؤية في حديثه عن الاستفادة من كتب الحديث قائلا : " . . . وما خالفونا فيه أولته ، وان كان هو الحق أبقيته وصححته ولا حرج مع من خالفنا في الأصول " (3).

---

1) التيسير 5/458 ، 459.
2) التفسير والمفسرون 2/521.
3) التيسير 4/860 المجلد 2 .

ومن هذا ينتقد هذه المدرسة في مسائل الأصول ، وأحيانا يكون انتقاده عنيفا يخرج من ايمان المفسر بمسائل الاباضية الأصولية واعتقاده بصحتها ونظرته هذه نابعة - أيضا - من ايمانه أن الحق في الأصول مع واحد وغيره مخطئ بينما الحق في الفروع مع واحد فقط ، وقد يخطئ الباقون ولا اثم على المخطئ (1) ، وهو رأي المذهب الاباضي في هذه القضية ، ولا عجب - اذن - اذا وجدناه ينتقد آراء غيره في الأصول ويخطئها ، ويدعو الى اعتقاد آراء مذهبه ، ولذلك نجده يستنكر الخلاف في الأصول قائلا :" في تفسير قوله تعالى :" ولا تكونوا كالذين تفرقوا .." الآية 105 آل عمران" وكالقائلين في هذه الأمة الاباضية بما لا يجوز الخلاف في نفيه كرؤية البارئ ، وكون صفات غيره ، واثبات الجوارح بلا كيف" ولكنه يجيز الخلاف في الفروع ويتجلى ذلك في قوله :" .. وأما الاختلاف فيما يجوز فيه من الفروع للمجتهدين من الصحابة ومن بعدهم فلا بأس به بل هو رحمة" (2) ولكننا لا نجد تفسيرا لقوله :"وقوما يفسدون جمعتهم برفع الأيدي وأخذ الأيمن على الشمال لأحاديث وضعها أوائلهم أو غيرهم وهب أنها صحت عنه صلى الله عليه وسلم لكن ذلك لداع مثل أن يقع سلاح من تأبطه للشعر هل صح أنه أدام صلى الله عليه وسلم ذلك كما يديمه هؤلاء ، ولو أدامه لشهر ولم يختلف (3) فيه وكذا يفسدون سائر صلواتهم" (4) فاذا أجاز المفسر - كما رأينا سابقا - الاختلاف في الفروع فلا يمكن الحكم على فساد الصلاة برفع الأيدي والقبض اللهم الا اذا تحقق عدم صحة الأحاديث الواردة في الموضوع ، ويتطلب ذلك دراسة تسلط على هذه الأحاديث مقاييس التحقيق لمعرفة مدى صحتها أو ضعفها ، وربما حكمه هذا صادر عن استنكاره لذلك لا غير فلعل أقسى حكم أصدره في حق مخالفي المذهب الاباضي كان في قوله تعالى :" والآية (5) دليل على كفر مجيز الرؤية دنيا وأخرى ، وذلك لأن اجازتها ولو في القلب

---

1) كشف الكرب 1/34 .
2) التيسير 1/561، 562 .
3) يكون الصحيح ، ولو أدامه لشهر لم يختلف فيه .
4) ن م ، 6/215 .
5) البقرة / 56 .

اجازة لتكييفه ، وتكييفه ممتنع لأن فيه تشبيه ، وادراكه بالقلب تكييف لا يتصور بدونه فلا يصح قولهم بلا كيف وتكييفه في القلب بلا تقدير أن يكيفه تغيره هو من نفس المحذور" (1) ويرى في موضع آخر ردا على من يفسر الآية الكريمة " ثم استوى على العرش" الآية 3 يونس على ظاهرها" مع القول بلا كيف انه دخول في الأنظمة بعد ورود التصور ويمضي في تفنيد هذا الاعتقاد ، واثبات عدم امكانية ذلك (2) وقد تعرض لهذه المسألة في سورة الأعراف بتفصيل أكثر ومما ورد فيها قوله " ومن فسر الاستواء بظاهره كفر" (3) والمفسر في مناقشته لأفكار مخالفيه يستعرض آراءهم وحججهم ثم يتصدى للرد عليها ، وتفنيدها ، لاحظ ذلك مثلا في تفسير قوله تعالى :" لقد رأى من آيات ربه الكبرى " الآية 18 النجم فبعده يسرد أحاديث رواها السيوطي من الرؤية ثم يناقشها محاولا تفسيرها تفسيرا ينفي الرؤية ، أو يحتمل وضعها ويمضي رده بقوله :" . . وحجج اثبات الرؤية والتأويل اليها ، وحجج خلق الفاعل فعله (4) وحجج المجبرة (5) واهية متكلفات كما هو شأن العاجز شبهة يتعمد العناد " ثم يذكر ما روي من أحمد بن حنبل :" انه سئل عن الرؤية قال :" رآه ، رآه رآه حتى ينقطع نفسه عنادا وعجزا وذلك ليلة الاسراء أو قال يراه ، يراه يراه وذلك في الجنة "(6).

ويسوق في كثير من الحالات حججهم وردودهم بغية تفنيدها : أنظر في المثال التالي كيف يسوقه هذه الحجج بقوله :" . . ولقومنا هذا تخاليط تؤدي الى التشبيه يردها المبتدىء المعتقد بأنه لا يشبه شيء ولا يشبه شيئا فيتنحون فيقولون ويقولون بلا كيف كقولهم نادا ه بكلامه القديم الذي لا صوت فيه وقولهم بالتجلي له بما شاء حتى سمع كلامه بصوت ، ومن وجبت مخالفته للحوادث سبحانه تعلى وجب أن لا تمسه الحوادث بأذن ولا عين ولا بغيرها والا ناقض المخالفة " (7).

---

1) ن.م. 1/ 63 .
2) ن.م. 3/ 05 ، 06 .
3) ن.م. 2/ 545 ، 546 .
4) مذهب المعتزلة والامامية أنظر محمد جواد مغنية معالم الفلسفة الاسلامية ص146، 147 14
5) قول جهم بن صفوان (133هـ) وأتباعه ويدعون الجبرية .
5) التيسير 5/ 578 ، 579 .
7) ن.م. 4/ 623 المجلد 02 .

وفي بعض المواضع يقتصر على سرد آرائهم دون التعليق عليها لاحظ ذلك في هذا المثال الذي تعرض فيه لقضية مرتكب الكبائر فبعد استعراضه لرأي الاباضية في القضية يقول : " ... والأشاعرة أجازوا العفو عن الكبائر غير الشرك بلا توبة ومنها الاصرار على الصغائر وهذا تفسير لما قبله أو يراد بما قبله الكبائر وبهذا الصغائر " (1) وذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " ويعفو عن السيئات " الآية 25 الشورى .

ومما تقدم نستنتج أن المفسر ينقد آراء الأشاعرة المخالفة لمذهبهم في الأصول ، ويحكم عليها بالبطلان محاولا ردها وابطالها ، مع احتمال وضع الأحاديث المعتمدة أو تأويلها بما يتفق مع أساليبها وكان رده كما سبق ذكره عنيفا شديدا أحيانا يدل على استنكاره لهذه الآراء والتي يراها مخالفة للصواب وعلى اعتقاده الجازم بصحة آراء مذهبه .

غير أن رؤيته في الفروع تختلف كل الاختلاف ، فقد جعل من تأليفه في الفقه والتفسير كتبا جامعة لآراء الاباضية والمذاهب الاربعة ، وبل يتعداها أحيانا الى بقية المذاهب الاسلامية ، وقد وردت فيها أسماء أئمة المذاهب الاربعة وأعلامهم ومختلف آرائهم مع آراء المذهب الاباضي ، وليبين أسبقية نشأة المذهب الاباضي على المذاهب الاربعة يستعرض تواريخ ولادة أئمتهم في تفسير قوله تعالى : " كل حزب بما لديهم فرحون " الآية 53 المؤمنون ، وقبل ذلك أشار الى أن المسلمين كانوا : " لا يعرفون الا القرآن والسنة والاجماع والاجتهاد لمن تأهل له " ثم ينتقل الى بيان نشأة المذاهب قائلا : " ثم كانت المذاهب والتقليد ، وانما ظهر بعضها في أواخر القرن الثاني ، فان عمر مالك عام واحد حين مات امامنا جابر بن زيد اذ مات عام ستة وتسعين ومالك ولد عام خمسة وتسعين ومات عام مائة وتسع وسبعون وعمر أبي حنيفة حين مات جابر خمسة عشر عاما لأنه ولد عام ثمانين من الهجرة ومات عام مائة وخمسين ، ولا وجود للشافعي وأحمد في زمان جابر لأن الشافعي ولد سنة مائة وخمسين ومات سنة أربع ومائتين وأحمد سنة مائة وأربع وستين ومات عام مائتين وواحد وأربعين " ويسترسل ... اثر ذلك في الحديث عن تاريخ انتشار بعض هذه المذاهب ، وما تلقى أئمتهم من الاضطهاد ثم ينتقم

---

1) ن.م. 5/ 222 .

حديثه بقوله : " فأين الاتفاق على هؤلاء الأربعة " .(1)

واذا وجد اتفاقا في مسألة بين الاباضية وأحد هذه المذاهب ، ذكرهما معا مثلما فعل في تفسيره قوله تعالى : " ويجركم من عذاب اليم " الآية 31 الأحقاف حيث يذكر اتفاق الاباضية ومالك بن أنس في اعتقادهما أن لا دار للمكلف بعد البعث الا الجنة والنار والجن يثاب أو يعذب كالانسان ولا فرق بينهما (2).

كما يذكر مثل هذا الاتفاق مع المعتقدات الأشعرية ونجد مثالا لذلك في تفسير قوله تعالى : " لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل " الآية 165 النساء اذ يقول : " والآية دليل على أن حجة الله على عباده الكتب والرسل والعقل ، وهذا مذهبنا ومذهب الأشاعرة" (3).

ومن خلال دراسته للمذاهب الأربعة واطلاعه الواسع عليها ، يستنتج أن : " أبي حنيفة وهو عالم كثر التوافق بينه وبيننا معشر الاباضية الوهبية في المسائل" (4) ولعل هذا التقارب بين المذهبين ناتج عن تشابه العوامل المحيطة بهما في بيئة عصرية ، وفي خضم التيارات عقائدية ، وجدال في علم الكلام ، والعامل الثاني الناشئ من الأول وهو انتماؤهما الى مدرسة الدراية .

ونراه في هذا المثال كيف يجمع بين المذهب الاباضي والمذاهب الأربعة في مسألة السعي في الحج مستعرضا آراءها وأدلتها مرجحا رأي الاباضية وأبي حنيفة وذلك في تفسير قوله تعالى : " فمن حج البيت أو اعتمر " الآية 152 البقرة يقول المفسر : " . . ولا حجة فيه لمن قال بأنه غير واجب لأحاديث الوجوب وهذا مذهبنا ومذهب أبي حنيفة وان لم يسع لزمته شاة وقيل بدنة ، وقال مالك والشافعي يبطل الحج بتركه للحديث وقال أحمد سنة غير واجبة ويرده الحديث" ويمضي في استعراض أدلتهم الى أن يقول : " ولنا الحديث دليل الوجوب ولا دليل للشافعي ومالك على أنه ركن يبطل الحج بتركه " (5).

---

1) ن . م . 4/349 المجلد 1 .

2) ن . م . 5/358 أنظر مثالا آخر يذكر فيه اتفاق الاباضية مع الشافعي في ن . م . / 1/383 و 388 وفي ن . م . 6/242 ـ 255 ، وفي ن.م. 1/262 أيضا يشير الى اتفاق الاباضية مع أبي حنيفة .

3) ن . م . 1/363 .

4) ن . م . 1/326 .

5) ن . م . 1/139 .

وبهذه الطريقة يتعرض المفسر في المسائل الفقهية خصوصا لآراء علماء الاباضية والمذاهب الأربعة ، تارة يجمع بين الاباضية وأحد هذه المذاهب أو أكثر وتارة أخرى يكتفي بذكر رأي مذهب واحد اذا أنفرد برأي في مسألة خالفه فيها غيره وقد يجمع بين رأي بعض الاباضية وغيرهم مثلما فعل في هذا المثال الذي تحدث فيه عن مدة قضاء رمضان : " وذكر بعض أصحابنا وشهروه وبعض قومنا (1) أنه ان بدأ من أول الشهر أتمه زاد على رمضان أو نقص" (2).

بينما نجده في هذا المثال يذكر الشافعي الذي أنفرد برأي في القتل قائلا : " .. عمم الشافعي القتل بمثل ما قتل به محتجا بالآية كقتل بمحدد وخنق وحرق وتجويع وتغريق حتى لو أغرقه في عذب لم يغرقه في ملح ." (3). وذلك في تفسير قوله تعالى : " فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم " الآية 194 البقرة.

ويسلك نفس الطريقة مع بقية أئمة المذاهب الأخرى أو علمائها ، كما تناول بالبحث الخلافات المعروفة عن أئمة هذه المذاهب في بعض المسائل ، أو التي تكون بين علماء المذهب الواحد على غرار ما رأينا في معالجته للمذهب الاباضي ، فلاحظ ذلك في المثالين التاليين .

في تفسير قوله تعالى : " فما استيسر من الهدي ، فمن لم يجد ... في الحج " الآية 196 البقرة يستعرض آراء المذاهب في وقت ذبح الهدي قائلا : " .. وقال المنقية اذا جاء يوم النحر لم يجز الا الذبح ، ومذهبنا ترجيح تأخير ذبح هدي المتمتع الى يوم النحر والمشهور عند أبي حنيفة أنه بين الاحلال من العمرة والاحرام بالحج وأجازه بعد الاحرام به ، وقال الشافعي يذبح بعد الاحرام بالحج ، وعن أبي حنيفة أنه يذبح يوم النحر فقط ويذبح في الحرم فقط ." (4)

---

1) يطلق هذا الاسم على المذاهب الأربعة.
2) ن م. 1/233.
3) ن م. 1/253.
4) ن م. 1/257.

وفي تفسير الآية " وسبعة اذا رجعتم" يسرد الآراء المختلفة في وقت صيام هذه الأيام قائلا : " ومذهب أبي حنيفة في مكة وقال الشافعي اذا وصلتم أهلكم وله قول كقولنا وقول أبي حنيفة ومن ابن عباس اذا بلغتم أمصاركم وحكم ساوي الاقامة بمكة حكم واصل أهله ... وقال مالك يجوز صيامها في أيام التشريق" ويرد على القول الأخير " ويزعم أن فيه حديثا ." (1)

يستخلص مما تقدم أن للمفسر اطلاعا واسعا على مسائل الأشاعرة العقائدية والأحكام الفقهية في المذاهب الأربعة ، يتجلى ذلك بوضوح في تفسيره ، وبل في معظم كتبه الفقهية ، وقد كان يفند مسائلهم الخلافية في الأصول جملة ، بينما يعتبر ما في الفروع آراء لها قيمتها ، يستعرضها مع آراء الأباضية ، وكأني به يريد التقريب بينهما ، ولا يغفل عن الاستشهاد بأدلتها النقلية والعقلية ، ورد ما يراه يستدعي الرد ، وكان — أحيانا — عنيفا لا سيما في المسائل الأصولية ، ومن هنا كان تفسيره شاملا لآراء هذه المدارس الاسلامية الفقهية واتجاهاتها ، محاولا ابراز المدرسة الأباضية كمدرسة لها كلمتها في التفسير والفقه ، ولا تختلف عن غيرها .

موقفه من الشيعة :

إن موقفه من الشيعة يختلف تمام الاختلاف عن موقفه من الأشاعرة وهذا الاختلاف يتجلى في الرد عليهم ، الى درجة تكذيبهم في بعض المسائل لا سيما في قضية الخلافة ، وما وضعوا من الأحاديث في هذا الموضوع ، وانتقادهم لآرائهم في بعض مسائل أخرى .

ففي قضية الخلافة يرد دعواهم في أن عليا أحق بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول في تفسير قوله تعالى :" كما استخلف الذين الخ ..." الآية 55 / النور :" والآية حجة على صحة خلافة لأئمة الثلاثة والرابع علي وهو نفسه مقر بامامة الثلاثة قبله ومن ذلك أنه استشاره عمر في قتال فارس بنفسه الخ .."(2)

---

1) ن . م . 1/ 263 .
2) ن.م . 4/ 428 المجلد 1 .

وفي موضع آخر يرد زعم الشيعة المنحرفة المعتقدة أن عليا أحق بالرسالة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلى الفريق الذي يرى الرأي السابق في الخلافة قائلا : " . . . وزعمت بعض الشيعة أنه هذا المرتى على الناس وأن عليا هو الامام بعد ه الآية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لا رسول الله وأن عليا هو الرسول ، وأنه هو المراد بلفظ الرسول في الآية وأن المعنى انما وليكم الله ومن اتصف بالرسالة والايمان واقامة الصلاة الخ . . . وبعض الشيعة أنه الامام بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أبو بكر ولا غيره وأنه المراد بقوله الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون" ثم يسوق أدلتهم ويفند ها(1) وذلك في معرض تفسيره قوله تعالى :" انما وليكم الله ورسوله والذين . . الخ " الآية 55 / المائدة .

واستنكر اره لغلوهم في الصحابة دفعة الى اعتبارهم ممن فرقوا دينهم مثلهم مثل أصحاب الديانات السابقة ويتجلى ذلك من تفسيره قوله تعالى :" ان الذين فرقوا دينهم" 159 / الأنعام ويقول ضاربا أمثلة :" . . وأن عليا أولى بالامامة ، وأن الامامة في أولاده آلا الحسين بن علي بن الحسين بن علي لانه لم يبغض أبا بكر وعمر ، وكذبت الشيعة فانه لم يبغضهما أحد قبله أيضا من أولاد علي " (2) .

ويرى أن الغلو أدى بهم الى تقديس آل البيت ، ووضع أحاديث في شأنهم واعتبارهم أن بعض الآيات نزلت في مدحهم ومن ذلك ما نقرأه في تفسيره قوله تعالى :" الذين اصطفينا من عبادنا " 32 / فاطر .

وزعمت الشيعة أنهم آل البيت والصحيح أنهم الامة أو عنصارها ، فيدخل متقو آل البيت أولا . " (3) .

ومن الأمثلة في وضع أحاديث لاشادة بعلي وآل البيت قوله في تفسير الآية 35 / طه :" انك كنت بنا بصيرا " .

---

1) ن م . 2/ 112، 113 .
2) ن م . 3/ 472، 473 .
3) ن م . 4/ 973 المجلد 2 .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم اشرق ثبير اشرق ثبير اللهم اني أسألك مما سألك أخي موسى أن تشرح لي صدري وأن تيسر لي أمري وتحل عقدة من لساني يفقهوا قولي واجعل لي وزيرا من أهلي عليا أخي أشدد به أزري وأشركه في أمري كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا انك كنت بنا بصيرا وهو حديث رواه أسماء بنت عميس فيما ذكره ابن مردوية والخطيب وابن عساكر وأطلقه موضوعا وضعته الشيعة ليستدلوا به على أن عليا أولى بالامامة من الصديق وعمر وعثمان ويذهبوا الى ما يروا من قوله صلّى الله عليه وسلّم له أنت مني بمنزلة هرون من موسى والمراد بحل عقدته عليه الصلاة والسلام دوام فصاحته والا فلا رتة له الا ان أراد رتة ولده الحسن كما مر" (2).

وبلغ به الشك في مثل هذه الاحاديث التي رواها الشيعة الى حد تحذير القارىء منها في قوله : " .. واذا جاءك حديث في أهل البيت وفي سنده شيعي فكن حذرك فانهم يكذبون " (2).

ومن القضايا التي تعرض لها المفسر ، منتقدا فيها الشيعة ، ولا سيما الامامية قضايا في التشريع منها مثلا الميراث ، لا حظناه في هذا المثال كيف يرد على .. امامية في تفسير قوله تعالى : " وللنساء نصيب مما ترك .. أو أكثر" الآية 7 النساء . " .. وقبح الله الامامية اذ خصوا الابن الكبير بالفرس والقلم والسيف والمصحف والخاتم والثوب البدني من تركه الميت بلا عوض عند أكثرهم وهو مخالف لكلام الله تعالى كعدم توريث النساء من العقار" (3)

ومما ينسب الى الامامية قولهم بجواز الوصية للمشرك لمن كان أبا أو أما أو ولدا (4) ، ويقول عن الشيعة في مسألة أمهات المؤمنين : " .. وزعم الشيعة أنه صلّى الله عليه وسلّم أمر عليا أن يطلق من شاء منهن بعد موته وانه طلق عائشة يوم الجمل ، وذلك كذب عنه صلّى الله عليه وسلّم وعن علي" (5) وذلك في معرض تفسيرقوله تعالى . " وأزواجه أمهاتهم" 06/الاحزاب.

---

1) ن م . 4/308 ، 309 ، لمحل الصحيح ، بيروت .
2) ن م . 3/ 187 .
3) ن م . 1/681 .
4) ن م . 4/ 305 المجلد 2 .
5) ن م . 4/304 المجلد 2 .

وكان في مسائل أخرى يسردّ آراءهم مع بقية المدارس الفقهيّة الأخرى ومن ذلك قال : " وأجازت الإماميّة من الشّيعة شهادة العبد المسلم البالغ العدل " الى أن يقول بعد ذكر بعض العلماء الّذين يتفقون معهم " وهو مردود " (1).

ومن هذه الأمثلة يتّضح لنا موقف المفسّر الواضح من هذه المدرسة الذي يدّل على رفضه لأفكارها التّي يراها مخالفة لاجماع المسلمين ، ولاسيّما في مسألة الخلافة التّي كانت مصدر افتراق المسلمين إلى شيع ومذاهب.

وأمّا في القضايا الأخرى التّي لا يظهر تناقضها الصّريح مع مدلول الآية ويشتمّ منها رائحة تأييد اتجاهاتهم وأفكارهم مثل بعض الأحاديث أو تأويل بعض الآيات فمثل هذه القضايا يذكرها على أساس أنّها قضايا اجتهاديّة تمثّل وجهة نظر تلك المدرسة.

موقفه من المعتزلة :

لعلّ حكم صاحب كتاب " التفسير والمفسرون " على تأثر المفسّر بآراء المعتزلة ومجاراتهم في بعض عقائدهم (2) يعود الى عدم اطلاعه الواسع على عقائد الاباضيّة التّي تتفق مع هذه المدرسة في بعض المسائل (3) كما تختلف معها في مسائل أخرى ، وهذا الحكم ينطبق على جميع المدارس الاسلاميّة التّي تكوّن مجموعة المذاهب المعتدلة والمتفقة على الثّوابت والمبادىء الأساسيّة ، فموقف المفسّر من هذه المدرسة نابع من هذا الاختلاف والاتّفاق ، فعندما يتعرض لمسائل الخلاف ينتقد بشّدة هذه المدرسة ، ويرّد بعض آرائها ويظهر ذلك في الأمثلة التّاليّة : ـ

1) خلق الأفعال أو حرية الانسان :

يعالج هذه المسألة في تفسير قوله تعالى : " ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلّهم جميعا " الآية 99 / يونس، مبتدأ شرح الآية بتبيان وجهة نظر جمهور العلماء ثم تعرض لرأي القدرية والمعتزلة قائلا : " .. قول القدريّة أنّ المراد مشيئة الالجاء وهم المعتزلة (4) اذ زعموا " أنّ أفعال العباد مخلوقة لهم لا للّه ، وأنّهم القادرون عليها " وبعد استشهاده بحديث القدّرية مجوس الأمة ، واعتبار علماء ما وراء النّهر هذه الفرقة شرّا من المجوس يضيف قائلا : " لأنّ كلّ فاعل عندهم خالق

1) ن.م. 1/ 421.
2) التّفسير والمفسرون 3/336.
3) آراء الخوارج الكلّامية 1/ 133 ، 184.
4) يعزو أحمد أمين تسمية المعتزلة القدرية واعتبارهم فرقة واحدة لاتفاقهم على هذه المسألة وهذا ما جعل المفسّر يطلق على المعتزلة القدرية فجر الاسلام / 287.

لفعله حتي الدّواب " (1).

وفي معرض تفسير قوله تعالى : ".. فتبارك الله أحسن الخالقين " 14 / المومنون يقول ردّا على المعتزلة : ".. زعم المعتزلة أنهم خلقوا أفعالهم ومعنى حسن خلقه للأشياء اتقانه أو انتفاء القبح في فعله وهو تعالى يخلق القبيح والحسن لا كما قالت المعتزلة أنه لا يخلق المعاصي (2).

2) التّحسين والتّقبيح العقليان : (3)

يوء من الفكر الاعتزالي بأهمية العقل في ادراك الحسن والقبيح ، ولو بدون أن يسترشد بشريعة المبيّة تضع له الضّوابط ، وتبين له الخير والشّرّ ، والمفسّر ينتقد هذه المدرسة في نظريتهم هذه في عدّة مواضع من تفسيره منها قوله : ".. ولا نقول بالتّقبيح والتّحسين العقليين كما قالت المعتزلة أن العقل يدرك الأمور الشّرعيّة كلّها بلا كتاب ولا رسول ، انّما الكتب والرّسل للتّشبيه ، وأنّ معنى الآية لم يبق على الله حجّة وان لّم يرسل الرّسل والكتب ، فقد نصّت الأشعريّة على أنه لا حجّة عليه أيضا لأنّ له أن يفصل في خلقه ما شاء والمعتزلة بهذا أولى لأنّ العقل عندهم وحده حجّة" وذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " لئلا يكون على الله حجّة" الآية 165/ النّساء (4).

وقد ندّد المفسّر باعتقادهم في هذه المسألة في بعض المواضع وشبّههم بتصرفات ابليس من ذلك قوله في تفسير الآية 12/ الأعراف " قال ما منعك ألا تسجد إذ آمرتك" ، يقول المفسّر : " وفي جوابه إشارة الى أنّ من شأنه الخلق من النّار لا يحسن السّجود لمن ليس منها فكيف يومر والمعتزلة اخوانه في التّحسين والتّقبيح العقليين (5) في التّكليف " (6).

1) التّيسير 3/114
2) ن.م. 4/333
3) نقل عمّار طالبي في كتابه آراء الخوارج 1/156 ــ 159 عن أصحاب المقالات إعتبار الخوارج بما فيهم الاباضية من القائلين بالتّحسين والتّقبيح العقليين ، ويوءكد هذا الرّأي عند حديثه عن الخوارج والمعتزلة ن.م. 134.
4) ن.م. 1/ 363.
5) العقليين.
6) ن.م. 2/ 496.

3) مسائل مختلفة :

ومما نسب المفسر الى الفكر الاعتزالي انكاره للحساب وورد ذلك في تفسير قوله تعالى : " يحاسبكم به الله " البقرة / 284 حيث يقول : " وأنكرت المعتزلة والروافض (1) الحساب ويرده عليهم القرآن والسنة وتأويلهم تكلف " (2).

وأورد صاحب تفسير (روح البيان) نفس الفكرة عن المعتزلة والروافض في تفسير نفس الآية قائلا : " أي يجازيكم يوم القيامة وهو حجة على منكري الحساب من المعتزلة والروافض. " (3)

إن المتأمل في هذا الحكم على المعتزلة الذين يؤمنون بالوعد والوعيد ويبنون عليها بعض مبادئهم ، ويقولون بخلود الفاسق في النار ويعتقدون بمبدأ العدل يرتاب منه ، ويدعوه الى التحقيق في ذلك ولعل اعتماد سوء لاء العقل دعاهم الى انكار محاسبة ما توسوس به النفوس أو يعزم عليه الانسان من المعاصي فهذا مورد احتمال ، لكن ما لا يتقبله المنطق هو انكارهم للحساب جملة ، ولعل هذا الحكم ناتج عن سوء فهم بعض النصوص وتفسيرها بغير حقيقتها .

وهذه الظاهرة أدت في كثير من الأحيان الى اتهام فرقة من الفرق بمسألة ربما تعتقد نقيضها ، ولا عجب في ذلك سيما اذا صدر هذا التصرف من علماء عصر كثر فيه الجدل ، ومادام يصدر من باحثين معاصرين وفي رسائل جامعية مثل ما ورد في كتاب (آراء الخوارج الكلامية) الذي اعترف بتمسك الأباضية بالسنة والاجماع الى درجة تكفير من ينكر أحدهما ولكن في موضع آخر من الكتاب يشاطر القائلين بانكار الخوارج للسنة ويسوق لذلك دليلا من أحد كتب مفسرنا قائلا : " ولكن ينبغي أن نعترف بصواب بعض ما أشار اليه البغدادي الذي زعم أن الخوارج أنكرت جميع السنن لأنها تكفر مخالفيها من الرواة ، وذلك لأن الأباضية التي وصلتنا بعض مؤلفاتها تقرر عدم الأخذ بقول المخالف لهم ، ولا يحسن عندهم النقل وان كان ثقة عالما .

---

1) الروافض والرافضة فرقة من الشيعة رفضوا خلافة الخليفتين أبي بكر وعمر ، وجعلوا الامامة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي .

2) التيسير 1/ 480 .

3) اسماعيل حقي البروسوي (روح البيان) 3/444 المجلد 1 .

اللّهـم الّا اذا كان ما ينقلـه حقّا " (1)

اعتمد في نقله للرّأيين على كتاب (شامل الأصل والفرع) للمفسّر، واذا أمعنّا النظر فيهما نلاحظ تناقضا بينهما، فمن جهة يعترف بتمسك الاباضية بالسّنة والاجماع ومن جهة أخرى يستدل بما يؤيّد رأي القائلين بأنكار السّنة، واذا ليجهد الباحث نفسه قليلا وتصفح المصدر الذي استقى منه معلوماته، وأمعن النظر أكثر في النص الذاتي، للتوصل الى نتيجتين:

1) يريد من قوله الثاني التشديد في قبول الرّوايات من المخالفين، وتحرّي الصحة، وهذا ما يدعو اليه كلّ المحدّثين الذين يشدون تنقية السّنة من الشوائب والوضع.

2) يجد في مصدره نفسه أحاديث كثيرة استشهد بها في مواضع مختلفة، استمدّ مادّتها من كتب الصّحاح، وباعترافه أنه استفاد من هذه الكتب لوضع كتابه في الحديث (جامع الشمل) و (وفاء الضمانة) وقد أشرنا الى ذلك في هذه الدّراسة.

ولذا فمن الانصاف وتحرّي الموضوعية العلمية والنقاد الحقيقية أن لا نسلّم بالتهم الموجّهة الى الخصم في ظروف سادت فيه العداوة والبغضاء بين الفرق الاسلامية الا بعد التحقيق في صحّتها، والعودة في ذلك الى مصادرها وهذا ما دعا ابراهيم أبو اسحاق الى القول: ".. ولا أظن أن المعتزلة مع ما بلغوا اليه من العلوم وتبحّروا في الفلسفة حتى قيل لهم حكماء الاسلام يقولون بخلق الافعال على معنى الايجاد والابداع" الى أن يقول: "ثم أن الحروب المذهبية تدفع الغلاة الى الافتراء على الاخصام تشويها للسمعة وكيدا في مبالغة في النكاية وما يدرينا أن ما نراه منسوبا الى كثير من الفرق الاسلامية من قبيل الدعاية القاهرة المهزومة مادمنا لم نقف على نصوصها في كتبهم وانما يحكيها الخصم عنهم وازداد يقيني في هذا بما أراه لهؤلاء القوم من الاباطيل التي يعزونها لاصحابنا رحمهم الله "(2).

---

1) آراء الخوارج الكلامية 1/161 ـ 163.
2) مجلة المنهاج العدد 3، 4، ص80، 81.

وما يقع في عصر البحث العلميّ من افتراءات على الخصم لا سيّما في المجال العقائديّ والفكريّ يجعلنا نشاطر هذه الفكرة، وندعو الى التأكد من الأخبار التي تبلغ الأسماع، فقد يكون هذا الافتراء عن نيّة سيئة مبيّتة أو سوء فهم النّص وعدم تفسيره في نطاق الظّروف المحيطة بالقائل، ولكن هذه الأسباب تزنا ب من انكار المعتزلة للحساب.

ويواصل المفسّر تفنيد بعض اعتقادات المعتزلة وآرائهم من جملة هذه الاعتقادات النّاجمة عن ايمانهم بمبدأ العدل، وقولهم بالواجب على الله في قبول التوبة من التّائب ويركّز عليهم المفسّر قائلا: "... وان تاب في بعض المعاصي وأصرّ على بعض صحّت توبته عن ذلك البعض فلا يعاقب في الآخرة الا على ما أصرّ عليه وأكثر المعتزلة على أنّها غير صحيحة، وقبول التّوبة غير واجب على الله عزّ وجلّ ولا واجب على الله عزّ وجلّ خلافا للمعتزلة" (1).

ومن هنا نستنتج الخلاف بينهم وبين الأباضيّة في مسألة الوعد والوعيد والمتمثّل في الوجوب على الله تحقيقهما في نظر المدرسة الأولى، وفي نظر المدرسة الثّانية لا وجوب على الله ولكنّه صادق في وعده ووعيده، بينما يقول الأشاعرة: "لا يجب على الله شيء وله أن يعاقب المطيع ويثيب العاصي." (2)

وعملا بمبدأ الوجوب على الله يرى المفسّر أنّ المعتزلة والاماميّة (3) من الشّيعة يقولان بوجوب نصب الامامة على الله تعالى (4) ولكنّ صاحب كتاب (معالم الفلسفة الاسلاميّة) يفرّق بين رأي المعتزلة والاماميّة بقوله أنّ المدرسة الأولى ترى بوجوب نصب الامام على المسلمين بحكم العقل والثّانية ترى أنّ وجوب نصبه على الله بحكم العقل. (5)

---

1) التّيسير 5/211.
2) معالم الفلسفة الاسلاميّة ص 223 علّي يحي معمر - الأباضيّة ص 57.
3) الاماميّة.
4) م.ن 5/ 414.
5) معالم الفلسفة ص 138، 139.

وعند استعراضه لرأي الخوارج في نفيهم لوجوب نصب الامام يؤيد المفسر ما ذهب اليه المعتزلة قائلا : " والاصح من المعتزلة "، ويستطرد قائلا : " والحق وجوب نصب الامام اذا أمكن " ثم ينتقل الى تبيان أسباب ذلك ولخصها في القاعدة الفقهية القائلة : " وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب " (1)

ويرى المفسر أن المعتزلة اعتمدوا هذا المبدأ في تفسيرهم للآيات وتأويلها من ذلك مثلا قوله في تفسير قوله تعالى : " قال هذا صراط علي " 41/ الحجر . " ... وأبقى المعتزلة (علي) على ظاهرها من الوجوب لانهم أوجبوا على الله الاصلح " وقبل هذه الآية أي في تفسير قوله تعالى : " لأزينن لهم في الارض " الى المخلصين " 39، 40/ الحجر .

يستعرض آراءهم المختلفة في هذه المسألة انطلاقا من تأويلهم للاغواء وتفسيرها بالنفي اعتقادا منهم بأنه لا يجوز أن يحدث الله القبائح، ثم يفرغ من ذلك للرد عليهم (2) .

وقد بلغ في رده أحيانا درجة العنف والشدة، الى أن جعلهم اخوانا للشيطان في تفسير قوله تعالى : " قال أنا خير منه " 12/ الاعراف ، لاحظ ذلك في قوله : " .. فكيف يومر والمعتزلة اخوانه في التحسين والتقبيح العقليين في التكليف " (3) .

غير أنه يجاريهم في بعض المسائل دون التصريح بذلك ، لقد سبق أن أشرنا في مسألة حجة الله على عباده معقبا على رأي الاباضية : " الآتي أقول حجة الله في توحيده على خلقه أيضا العقل فانه يدرك انفراد الله بالالوهية بمقتله لدلائل المخلوقات ، فاذا أدرك الانفراد دعاه ذلك الى خدمة من أوجده وأنعم عليه ، فيذهب ولو كان في جزيرة لم يلق أحدا الى من يعلمه كيفية الخدمة فيصح بهذا أن صاحب الجزيرة غير معذور وان لم يكن (4) على نبي من الانبياء والرسل والكتب مبينة ومفصلة لدلائل العقل " (5) .

---

1) التيسير 5/ 414 .
2) ن م . 3/ 523، 524 .
3) ن م . 2/ 496 العقليين .
4) لعل الصحيح : " غير معذور ان لم يكن " بحذف الواو .
5) ن م . 1/ 363 .

وإذا تأملنا النص وأمعنا النظر فيه لا نجد فرقا كبيرا بين ما ذهب اليه المعتزلة في أن العقل هو الحجة، وبين قدرة العقل – في نظر المفسر – على ادراك خالقه وبحثه عن طرق خدمته، ففي الحالتين العقل هو الحجة.

هذا هو موقف المفسر من مسائل الخلاف، أما موقفه من المسائل المتفقة عليها بين المدرستين والمختلفة فيها مع بقية المدارس الفقهية الاسلامية يذكر توافقهما بأعتزاز مبينا قوة دلائلهما، وضعف مخالفيهما، ومن هذه المسائل مرتكب الكبيرة، الخلود في النار، نفي رؤية الباري في الآخرة، تأويل ما يفيد التشبيه، الشفاعة الخ...

ولعل اتفاق المدرستين في كثير من المسائل العقائدية يعود الى اتجاههما الى اتجاه الدراية، وعدم تمسك المدرسة الاباضية بحرفية النص وظاهره بالاضافة الى الظروف والمحيط التي نشأتا فيهما. ومهما يكن من أمر فان التشابه الملحوظ بين المدرستين جعل بعض الدارسين يخلطون بينهما، ودعا – كما أسلفنا – صاحب كتاب (التفسير والمفسرون) الى اتهام المفسر بمجاراة أفكار المدرسة الاعتزالية وتأييدها، فان كنا قد لاحظنا ميله الى بعض هذه الافكار فان ذلك لم يؤد به الى الخروج عن معتقدات مذهبه.

موقفه من الخوارج :

تعرضنا في تمهيد هذه الدراسة الى الآراء المختلفة في نسبة الاباضية الى الخوارج ولا نريد الخوض في هذه القضية مرة أخرى، وانما يكفينا استشفاف رأي المفسر في هذه المسألة من خلال اعتراضاته على آرائهم، التي خالفوا فيها المدرسة الاباضية ومن ابرز هذه الآراء والذي كان في نظر المفسر هو الحد الفاصل بين هذه المدرسة وفرق الخوارج، تحليلهم دماء المسلمين وأموالهم بالذنب ويقول المفسر في ذلك: "واما قالت الصفرية والنجدية والازارقة بتحليل الدماء والاموال بالذنب خرج عنهم الاباضية الوهبية.

يفهم من هذا النص أن الأباضيّة كانوا فرقة من الخوارج ثم انفصلوا عنهم وأصبح هذا الاسم - في نظر المفسّر على الأقل - لا يطلق إلا على الفرق الثلاثة المذكورة في النص السابق، ومن هنا كان مفهوم الخوارج في بداية الأمر يعني الخروج عن صفّ عليّ ورفض التحكيم، ويتضح ذلك من قوله :" .. وقد ندم على آخر حاله بقتال الخوارج عنه " (1) أي عليّ، ثم تغيّر هذا المفهوم وأصبح يطلق على الفرق الثلاثة ويحمل دلالة دينية، بعد غلوها في الحكم على الموحدين بالشرك، وهذه المسألة تعتبر أساس الخلاف بين الأباضية وهذه الفرق، ولذا كلما فسر آية لها علاقة بهذه المسألة ردّ على الخوارج ومن ذلك مثلا قوله في تفسير الآية 48/ النساء" إنّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء" اثر تعرضه لاختلاف الآراء في مرتكب الكبيرة يقول :" ... والآية حجة على الخوارج اذ قالوا أن كلّ ذنب شرك أو كلّ كبيرة شرك وهم الصفرية والنجدية والأزارقة .. " (2).

وفي تفسير قوله تعالى :" ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا أنخ " 10/الحشر يندد بالفرق التي تشتم الصحابة فيقول :" .. وذلك كالصفرية والنجدية والأزارقة القائلين بتشريك عليّ وكلّ من فعل كبيرة ويحل دم الفاعل لها وماله " ولكن المفسّر يجيز " أن يقال الحق مع فلان من الصحابة أو غيرهم لا مع فلان وأنّ فعل كذا غير صواب، وأنّ فعل كذا كبيرة يستحق فاعلها العقاب" (3).

وقد يسوق بعض آرائهم في المسائل الفقهية التي انفردوا بها أو اختلفوا فيها مع غيرهم ومن أمثلة ذلك رأيهم في المقدار الذي يقام الحد على السارق فيقول في تفسير الآية 38/ المائدة :" والسارق والسارقة " " وابن عباس في القليل والكثير بلا حدود قال الخوارج :" كما روي عنهم عدم قولهم بالحرز (4).

---

1) التيسير 475/5 .
2) ن م . 741/1 مثال آخر في ن م . 228/1 .
3) ن م . 207/6 .
4) ن م . 30/2 .

يتجلّى من خلال ما تقدم من الأمثلة أنّ المفسّر لم يعر اهتماما كبيرا بهذه الفرق باعتبارها خارجة عن اجماع المسلمين لقولهم بتشريك مقترف الكبيرة وفي رسالة ألفها في الرّدّ على الصّفريّة والأزارقة استجابة لبعض علماء عمان تظهر اعتراضاته أكثر على هذه الفرق، واستنكاره الشّديد لها وتهمّم للأمّة الاسلاميّة.

موقفه من التّصوّف :

انّ الدّراسات الاباضيّة التي اطلعنا عليها لم تتحدث عن وجود نزعة التّصوف في هذا المذهب (1) ولعلّ ذلك راجع إلى أصولهم في العقيدة، والخوف من التّقول على الله، وهو أحد الأسباب التي أدّت – كما رأينا – الى قلّة التّفسير عندهم ولذلك نجد أنّ المفسّر يحمل حملة عنيفة على هذا التّيار الفلسفيّ الذي تزعّمه ابن عربيّ، وهذه الحملة تظهر في التّنديد بأفكارهم والبراءة منهم، على أنّه يكتفي في بعض الأحيان بسرد آرائهم كعادته دون التّعليق، لاحظ ذلك في معرض تفسير قوله تعالى : " هو الأوّل والآخر والظّاهر والباطن " 03/ الحديد . .

" ومن التّصوف قول الجنيد الأوّل بشرح القلوب والآخر بغفران الذّنوب والظّاهر بكشف الكروب والباطن بعلم الغيوب" (2) كما يفنّد آراءهم مثل قوله في تفسير الآية 17 النّساء" ثم يتوبون من قريب" " زعم أهل التّصوّف والمعاملة أنّه هو ما قبل أن تتصور النّفس الشّرّ ويكون لها كالطّبيعة فيتعذر الرّجوع وليس مرادهم منع القبول بل الجهد " (3).

ويظهر من المثال التّالي توقّل هؤلاء في الاشارات الدّقيقة التي تعتبر ضربا من الوهم، وتحميلا للنّص القرآنيّ مفاهيم بعيدة كلّ البعد عن مقاصده، ومعانيه يقول المفسّر في نهاية تفسير قوله تعالى : " وخسف القمر، وجمع الشّمس والقمر" 08، 09 / القيامة " فالقمر الرّوح والشّمس مكان لضمير القدس، والملائكة الأطلون وان لم يصرّح بك هذا فاضرب به وجوه الصّوفيّة الخارجة عن طريق الجنيد

---

1) يذكر أبو اسحاق في مقدمة كتاب شامل الأصل والفرع من أنّ الاباضية لم يتأثروا بأفكار الباطنية، ويعزو ذلك الى تمسّك أهله بالكتاب والسّنة.

2) التّيسير / 5 / 73.

3) ن م . 2 / 596 لعلّ الصحيح فيتعذّر .

فيحمهم اللّه عزّ وجلّ ." (1)

يفهم من النصوص السابقة أنّ المفسّر يقف من أفكار الجنيد موقفا يختلف عن موقفه المتشدد والمعارض لأفكار التصوّف ، والرّافض لها ، ومن هذا المثال يتضح لنا موقفه أكثر من أفكار التصوّف المتطرفة ففي تفسيره للآية الأولى من سورة الانسان يقول : " وزعم بعض الصوفية أنّ هل للنفي وأن المعنى لا أزل للزمان ولا للانسان يوجد ويفنى بلا أوّل لذلك وهذا اشراك ولا أظن موحدا يقوله وهو نفي للأزل عن اللّه واثبات للقدماء مع اللّه ولعلّ الرّواية لم تصح " (2).

ويبلغ به الحدّ في تفسير السّورة الآية 21 / الانسان الى البراءة من هذه الاشارات الخفية قائلا : " . . . وتبرأ الى اللّه تعلى بتفسير الأساور بالأنوار تفيض على أهل الجنة بحسب أعمالهم تتفاوت الذهب والفضة ومن تفسير الشراب الطهور بتجل ربّاني مسكر ونحو ذلك مما يخالف الظاهر " (3).

ومهما يكن موقف المفسّر من هذا الاتجاه ، فانّ الدّارس لردوده يتأكد من معارضته لأفكاره ولا سيما تلك التي تتناقض مع صريح الآية أو اجماع جمهور المفسّرين ، غير أنّه — مع ذلك — يحترم بعض العلماء المشهورين بهذه النزعة مثل ابن العربي ويتعجب من بعض أفكاره الصوفية ويبدو ذلك من قوله : "وقد ذكر ابن العربي في الفتوحات المكية أنه اجتمع مع سيدنا ابراهيم عليه السلام فسأله عن خطيئته المذكورة في قوله تعالى : " والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين (4) قال اضافتي المرض الى نفسي حيث قلت : " واذا مرضت فهو يشفين (4) ، وانه كان يقول بذلك قبل أن يسأل ابراهيم ، وهذا رجل عجيب في كلامه هو جامع للظاهر والباطن وهو مع ذلك محقق " .

---

1) ن م . 6/ 422 .
2) ن م . 6/ 435 .
3) ن م . 6/ 446 ، 447 .
4) الشعراء / 82 .
5) الشعراء / 80 .

ويندد ببعض ادعاءات المتصوفين ، كقولهم برؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة فيقول مجيبا من استفسره عن مدى صحة ذلك : " إنه لا يصح كلام السكوت عنه ، كذبوه وازجروه وابرؤوا منه " (1) .

نستنتج مما تقدم أن موقف المفسر من الصوفية المغالية في حمل القرآن معاني باطنية تتعارض مع صريح أسلوبه ، ومضامينه موقف معارض ومندد ، لكن موقفه من آرائهم الأخرى ، لا تختلف عن مواقفه من جميع المسائل الخلافية الأخرى التي لا تتعارض مع أصول العقيدة الاباضية .

موقفه من بعض الفرق الأخرى :

وقد كان المفسر يشير الى بعض الفرق الأخرى المنتسبة الى الاسلام ويفند آراءها ومن هذه الفرق القدرية ، ففي تفسير قوله تعالى : " إنا كل شيء خلقناه بقدر " 49 / القمر ، يرد على هذه الفرقة مبينا بأدلة عقلية صحة القدر ، مستشهدا بأحاديث نبوية تندد بهذه الفرقة وبالمرجئة ومن هذه الأحاديث : " .. صنفان من أمتي ليس لهما في الاسلام نصيب المرجية والقدرية نزل فيهما إن المجرمين ... إلى بقدر (2) رواه ابن عباس " وفي الأخير يبين رأي القدرية معللا سبب تسميتهم في الحديث بخصماء الرحمن قائلا : " سماهم خصماء الرحمن لأنهم ينفون قدرة الله على أفعالهم فقالوا : إنهم خلقوا أفعالهم لم يخلقها الله ، وقالوا لا يقدر أن يخلق المعصية ويعذب عليها فاعلها ، ولا يعلمها حتى تقع .. " (3) .

ومن آراء القدرية قولهم : " أن الحرام يرزقه الانسان نفسه بينما الحلال رزق من الله فيقول المفسر ردا على هذا الاعتقاد : " فإن الحرام أيضا رزق من الله تعالى يعاقب الانسان على تناوله " (4) .

1) كشف الكرب 1/ 105 ، 106 .
2) القمر / 47 ـ 49 .
3) التيسير 5/ 621 ، 622 .
4) ن م ، 3/ 40 .

أمـا المرجئـة ينتقدها في مفهومها للايمـان ، اذ ترى أنّ المعصية لا تضر مع الايمـان ، كما لا تنفـع الطّاعـة مع الكفر ، ولذلك ترى أنّ كلّ مسلم مؤمن تحـرم عليه النّار ، ومن الآيات التي يستشهدون بها لاثبات هذا الاعتقاد قوله تعالى :" " أنّ العذاب على من كذّب وتولّى " 48/طه يقول المفسّر ردّا عليهم :" فلا دليل في الآية للمرجئة القائلين أنّ الموحّـد الفاسق لا يدخـل النّـار" (1).

وهذا الاعتقـاد منهـم كان في نظر أحمد أمين . ردّ فعل لغلوّ الخوارج والشيعـة ، واظهر هذه الفرقة في بداية نشأتها حزبا سيّاسيّا ، وقف من الفتن والخلافات في عهد الصّحابة موقفا محايدا ، غير أنّه ما فتئ أن أصبـح يبحث في الأمـور اللاهوتيّة ، فتبلورت معتقداته المبنيّة أساسا على موقفهم السّياسي السّابق الذّكـر . (2)

ومن بين المذاهب التّي انتقد آراءها المذهب الظّاهري الذّي يرى تجديد الوضوء في كلّ صلاة ويقول المفسّر في ذلك :" فبطـل قول الظّاهريّة أنّـه ينتقض بدخـول وقت الصّـلاة بعد الأوّل ، وأنّ لكلّ صلاة طهـارة ويردّه صلاته صلّى الله عليه وسلّم الخمس بوضوء واحد وصلاة الأئمّة كلّ صلاة بوضوء بعده صلّى الله عليه وسلّم ندبا ولم يجب (3) الخبر عن الامام أي أنّه يفعل ذلك ولا يثبت ما قيل أنّ الآية (4) على ظاهرها من أنّ لكلّ صلاة طهـارة ثمّ نسخ هذا التجدد لأنّ سورة المائدة من آخر ما نزل فلم ينزل بعدها ناسخ من قرآن ولا جاءت سنّة متواترة " ثمّ يستشهد بالأحاديث النّبويّة (5).

ويمضي المفسّر بهذه الطّريقة يناقش آراء بعض الفرق ، وينتقدها مبيّنا أوجه الخطأ مستدلا كعادته بحجج عقليّة ونقليّـة .

---

1) ن م . 21/4 المجلّد 1
2) فجر الاسلام ص 279 — 282 .
3) لم يثبت .
4) المائدة / 06
5) التيسيـر 27/2 ، 28 .

وتخلص الى القول أن المفسّر تناول بالبحث في تفسيره آراء المدارس الاسلاميّة والفرق المنتسبة الى الاسلام مقارنا بينها مع سوق حججهم، وعند تعرضه لتفنيدها، وانتقادها يدعم آراءه بأدلة محاولا اقناع القارئ بصحتها، وخطأ وجهات نظر الخصم، مستعملا — أحيانا — أسلوب العنف الذي يدل على استنكاره المفسّر لمعتقدات المخالف، واعتقاده ببطلانها تماشيا مع أسلوب النقد اللاذع السّائد في كتب التفسير التي تتلمذ عليها.

هذه هي وجهة نظر المفسّر نحو هذه المدارس والفرق، وموقفه منها وأسلوبه في مواجهتها فما هو رأيه — يا ترى — من مسألة الاسرائيليّات؟.

موقفه من الاسرائيليّات :

أنّ طبيعة الانسان مجبولة على حبّ الاستطلاع، ومعرفة أسرار الكون، وما يلف حوله من الغيبيات، ولعلّ هذا العامل يعتبر رئيسيا ولا نقول وحيدا لنقل المعلومات من أهل الكتاب قصد اشباع هذا الميل ولم يكن أنذاك من هو أعلم ببعض التفاصيل التي تغاضى عنها القرآن الكريم من علماء أهل الكتاب، وقد كانوا مصدر هذه المعلومات لا سيّما أولئك الذين أعلنوا اسلامهم.

ولا نريد في هذه التوطئة التعرض لرأي الشرع في ذلك لأنّ الكثير من الدّارسين تناولوا هذه المسألة بالبحث والتفصيل، غير أنّنا نريد أن نبيّن أن المفسّر لم ينفرد بذلك، بل هو متأثّر بمن سبقه في هذا المجال، كما لا ننكر خوضه في الاسرائيليات التي يستسيغها العقل ويتقبلها الشرع، وفي ما لا يجد لها الدّارس تفسيرا، الا كونها من الحشو، ونقل معلومات لا تمت بصلة لمقاصد القرآن، وان كان في تفسيره الذي نحن بصدد دراسته أكثر تحقيقا ودقّة من سابقه، وقد أشار فيه — كما أسلفنا — الى تعمده لنقل معلومات : " ليتروح اليها السّامع " على حدّ تعبيره وذكره لهذه المعلومات كما قال : " عن كره " (1) ونعزو ذلك الى رغبته في جعل تفسيره شاملا جامعا لما ورد في التفاسير السّابقة.

والملاحظة الثّانية هي استهلاله للأخبار الاسرائيليّات في كثير من الحالات بصيغة التّبعيض التي تدل على عدم تأكّده من صحتها، لاحظ ذلك : —

---

1) ن.م. 91/4 ، 592.

مثلا في الحوار الذي جرى بين الله عز وجل والعناصر التي شاركت في حادثة بدء الخليقة في تفسير قوله تعالى: " وناديهما ألم أنهكما عن الخ.. " 22/الاعراف " ويقال ناداه ربه يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك قال أطعمتني حواء وقال لحواء لم أطعمته قالت، أمرتني الحية، وقال للحية لم أمرتها، قالت أمرني ابليس فقال: أما أنت يا حواء فلأدمينك كل شهر، كما أدميت الشجرة، وأما أنت يا حية فاقطع أرجلك فتمشين على وجهك وليشدخن رأسك كل من لقيك، وأما أنت يا ابليس فملعون " (1).

والقارئ للقصص القرآنية في تفسيره كثيرا ما يعثر على مثل هذه النماذج القصيرة بالقصص الخيالية المنسوجة التي لا تترك مجالا للشك على أنها من صناعة خيال القصاصين أو من الاسرائيليات، فهي قصة محبوكة بشكل أشبه بالمسرح أو الرواية لاشتمالها على الحوار.

وقد يشير في بعض المواضع – وإن كان ذلك قليلا – الى أنها من الاسرائيليات وهذا ما نلاحظه مثلا في تفسير قوله تعالى: " فأنجيناه والذين معه في الفلك " 64/الاعراف، فبعد أن يصف سفينة نوح يقول: " وهذا من الاسرائيليات " (2). كما ينتقد الروايات التي يشتم منها رائحة الكذب والمبالغة ولكن هذا لا يمنعه من ذكرها، ففي تفسير قوله تعالى: " وبعثنا منهم أثني عشر نقيبا " 12/المائدة يقول منتقدا قصة عوج بن عنق: " ولا يصح ما قيل من أنهم لقوا رجلا اسمه عوج بن عنق من الجبارين وأن طوله ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعا، وأنه يحتجز بالسحاب ويشرب منه، ويتناول الحوت من قعر البحر فيرفعه الى عين الشمس فيشويه فيأكله، وأن ماء الطوفان ما جاز ركبتيه وقيل كعبيه وأنه عاش ثلاثة آلاف سنة.. " الى آخر أوصاف هذا العملاق، ويتصدى إثر ذلك للنقد ومنه قوله: " .. وكيف يقوي على حملها مع أنها تنضج الحوت في يده مع أن حرها منتشر في الجوانب لا كحر النار.. " ويقول: " وكيف يبقى وينجو من الغرق وهو كافر وقد قال الله عز وجل: " وجعلنا ذريته هم الباقين " (3).(4)

---

1) ن م. 2/506.
2) ن م. 2/561.
3) الصافات/77.
4) ن م. 2/ 38، 39.

ويرفض أيضا الروايات التي يشتم منها رائحة طعن في نبي أو رسول، أو يحاول حملها على وجه اذا احتمل صحتها مثل قوله في تفسير الآية 83/الأنبياء، مسّني الضر" فبعد ذكر مرض أيوب قائلا : " . . . وتساقط الدود في جسده وتفسح واحدة فيردها ويقول كلي رزقك " يرد على ذلك فيقول : " قلت : لا يصح هذا بل لا يجوز فكيف يفعله " وبعد سرده لما جرى بين فرعون وشعيب، وامتناع أيوب من اعانة شعيب على فرعون وما أصيب به من ابتلاء فيختم هذه الحادثة قائلا : " والله أعلم بصحة ذلك " (1).

اذا كان المفسر يذكر المبالغات في الوصف والعدد الوارد في القصص مما تجعل الدارس يقف منها موقفا متحفظا ، فانه يعترف بعدم اطمئنانه لها قائلا : وفي نفسي من اكثار العدد في القصص بعض الانكسار" وهذا في تفسير قوله تعالى : " فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى" 66/ طه ثم يصف حيل السحرة حسب رواية الأخباريين قائلا : " ذكر الاخباريون أنهم جعلوا في العصي والحبال زيبقا فاهتزت لحرارة الشمس كأنها تمشي ومن غرائب أهل القصص أنهم حفروا تحتها الأرض وجعلوا النار تحتها " ثم يتصدى للرد عليهم قائلا : "فلم لا تحرق الحبال وان قويت النار لا تحرق العصي الضعاف وان كانت الحبال والعصي قليلا أمكن ذلك بأعماق النار بحيث توجد حرارتها في الزيبق ولا تحرق وكيف ذلك وقد قيل أخذت ميلا في ميل ان صح " (2)

ومما يلحق بهذا الموضوع شغف المفسر بذكر أسماء الملوك والمدن والانبياء والرسل وأهلها ، فمن أغرب ما ذكر في هذا الصدد أسماء ملوك مدين التي هي : " أبو جاد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت" (3) وهذه الأسماء توافق الأبجدية ومن أمثلة تعرضه لأسماء الأنبياء تعريفه بنبي الله شعيب في تفسير قوله : " أخاهم شعيبا" 85 / الأعراف ومما يقول في نسبه : " هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن ابراهيم وقيل شعيب ابن توبة ابن مدين وقيل شعيب بن يثرون بن مدين وبعض يقول ميكائيل بدل ميكيل وقيل هو ابن يشجر بن لاوي بن يعقوب وهو تصغير .

---

1) ن م . 4/ 249، 250 أنظر مثلا آخر في ن م . 6/ 355 ، ومثلا آخر في ن م . 2/ 532 .

2) ن م . 4/ 136 .

3) ن م . 2/ 591، 592 .

شعب بفتح وإسكان اسم جبل أو بكسرها فكان وهو الطريق في الجبل والصحيح أنه مرتجل وأسماء الأنبياء لا تصغر بعد الوضع وأما قبله هكذا فجائز" ألخ (1)

وفي تفسير كثير من الأمثلة، ولا يمر بآسم الا ورتبه به، وآستعرض الآراء المختلفة في نسبه، محاولا أن يجد له أصلا على النحو الذي رأيناه آنفا.

ومما يعترض الانتباه - أحيانا - نسبة الرواية الى ممن عرف باسلامه من أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام، وكعب الأحبار ووهب بن منبه، وآبن جريج بآعتبار هؤلاء أقطاب الروايات الاسرائيلية (2).

ولهؤلاء مكانة مشرقة عند المفسر، ويفهم ذلك من الترحم عليهم، والاعتزاز باسلامهم وتكذيب الروايات المنسوبة إليهم إذا اشتم منها رائحة الوضع، وهذا ما نلاحظه في تفسير الآية الأولى من سورة القلم اذ يستهل الرواية المنسوبة الى كعب الأحبار بقوله: " وزعموا عن كعب الأحبار أن ابليس وصل ذلك الحوت فقال: " القي ما على ظهرك من الناس والجن، والحيوان، والشجر، والدواب والجن فهمت ذلك فادخل دابة في منخرها، وضجت الى الله تعالى فأخرجها فهي كلما أرادت الالقاء عادت الدابة فهي تنظر اليها والله أعلم بصحة ذلك" (3)ه

ومن الملاحظ أن هذه الرواية تبدو في نظره غير صحيحة وعلى الأقل يشك في صحتها وفي نسبتها الى كعب الأحبار ويفهم ذلك من قوله: (زعموا) و (الله أعلم بصحة ذلك)، وهذا موقفه في معظم الأحيان من الاسرائيليات اذا لم يتحقق من صحتها أو كذبها خشية انكار الصحيح من الأخبار، وتصديق الكاذب منها عملا بقوله صلى الله عليه وسلم: " لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم " وقد يكتفي - أحيانا - بسرد ما روي عنه مثل قوله في تفسير الآية 44/الرحمن: " ويطوفون بينها وبين حميم - ان" مصورا حالة أهل جهنم قائلا: " وعن كعب الأحبار يساقون الى واد فيه دم وقيح أهل النار بالأغلال فيغمسون فيه ويخرجون وقد أحدث الله عز وجل قوة ويردون إلى النار" (4).

---

1) ن م. 2/332.
2) التفسير والمفسرون 1/183.
3) التيسير 6/297، 298.
4) ن م. 6/20.

كما نقل عن عبدالله بن سلام الذي يعتبر في نظره أوثق من ذكرنا هم سابقاً، وان لم يصرح بذلك وانما يستشف من ذكره في مواطن مدح أهل الكتاب الذين تمسكوا بالحق، أو يستدليه من تصرفات أهل الكتاب تجاه الرسالة المحمدية، ففي المثال التالي يتضح لنا ذلك، يقول في تفسير الآية 159 / الأعراف: " ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون " ثاربا المثال لهؤلاء بقوله: " كعبد الله بن سلام " (1).

وقد نقل عنه بعض الأخبار مثل قوله: " وعن عبدالله بن سلام مكتوب في التوراة أن صفة محمد وعيسى بن مريم يدفن معه، وفي البيت، قيل موضع قبر عيسى عليه السلام " وهذا في معرض تفسير قوله تعالى: " اسمه أحمد " 06 / الصف.

ولعل هذه الأمثلة كافية لاثبات نقل المفسر من هؤلاء الذين اعتبروا مصادر الروايات الاسرائيلية وموثقه منهم.

ونخلص الى القول بأن المفسر لم يتحرج كغيره من كثير من المفسرين من الخوض في الاسرائيليات، غير أنه في تفسيره هذا كان أكثر تصحيحا ونقدا للروايات، وان اكتفى بسرد بعضها دون الادلاء برأيه أو استعمال صيغة التمريض الدالة على شكه في صحة الرواية، وبل قد نلاحظ تجاوب المفسر مع الأحداث التي تصورها هذه الروايات، ويسوقها كمعلومات مساعدة على ابراز معنى الآية أو الوحدة ويمكن تفسير ذلك بخوفه من تكذيب الصحيح وثقته فيما ينقله من المصادر المختلفة، وقد ينقلها لمجرد اثراء تفسيره، ويترك الحكم للقارئ، وهذا ما يلاحظه الدارس في بعض المواضع من تفسيره.

ومن أمثلة ذلك ما ذكره من أوصاف جالوت والطريقة التي قتله بها داود فيصفه بأنه: " جبار من العمالقة من ولد عمليق بن عاد في بيضته ثلاثمائة رطل حديد والله ميل وقيل طوله . . " .

---

(1) ن م. 2/564 مثال آخر في ن م. 2/630.

ويقول في طريقة قتل داود جالوت : " .. ومرّ الى جالوت داود على ثلاثة أحجار واحد بعد واحد كل يقول : يا داود تقتل جالوت بي فحملهن ، وقيل قال له الأول احملني فاني حجر هرون والثاني احملني فاني حجر موسى والثالث احملني فاني حجرك الذي تقتل بي جالوت وحملهن في مخلاته وصارت حجرا " ثم يحتمل الطريقة التي أصابت بها الأحجار الثلاثة جالوت قائلا : " ولعل الثالث هو الذي يتصل بجالوت ويخرقه والآخران متصلان به كذلك .. " الخ (1).

الآخران

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على هذه القصة التي أوردنا جزءا منها فقط نستطيع أن نستنتج ما يلي : —

إغراق 1) اغراق المفسر في ابراز التفاصيل التي استغنى عنها القرآن الكريم .

2) تفاعل المفسر مع مثل هذه التفاصيل ويظهر ذلك من محاولته لايجاد احتمال طريقة اصابة الاحجار الثلاثة جالوت واستحضاره لمختلف الروايات مع احتمال بعضها بصيغة التبعيض .

وبهذه الطريقة تعرض المفسر للاسرائيليات ، معتمدا تارة أسلوب النقد والتشكيك في الرواية ومكتفيا .. تارة أخرى — بسردها ونقلها كسائر المعلومات المساعدة على الشرح والتوضيح وفي الحالتين لم يشذ المفسر عن جمهور المفسرين وموقفه هذا يترجم نوعية ثقافته في هذا المجال والتي لم تتعد حدود ثقافة السلفيين من المفسرين ، ولكن رغم ذلك فقد ظهرت في تفسيره بوادر الحركة الاصلاحية وتتمثل في موقفه من بعض قضايا عصره ومجتمعه .

بوادر الحركة الاصلاحية في تفسيره :

من أمهات القضايا التي عالجتها الحركة الاصلاحية ، والتي كانت أحد أسباب نشأتها مجابهة حركة التنصير التي أخذت تغزو العالم الاسلامي فوقفت بكل حزم ترد هجماتها الشرسة على الاسلام والمسلمين ، فتفطن المفسر الى مكائدها ، فتصدى لمجابهتها والرد عليها كلما تجرأت على الطعن في مقومات المسلمين : يقول المفسر ردا على النصارى واستهزاء بهم : " .. ولم أر أجهل بطرق الجدال من النصارى يعيبون القرآن بما هو ظاهر البطلان راجع عليهم ، ولا يستعيبون فهم كناموسة تفحت(2)

1) ن م ، 1/365 .
2) والصحيح نفخت .

على جبل عظيم لتزيله بنفختها وكأحمق بال في المحيط ليفجسه و كلب عوى على البدر ليحطه من سمائه ، لو نبح البدر كلاب الورى * ما وصل القبح الى البدر ويكررون المحسوسات والبديهيات (1) ويدعون وقوع المحالات كلما زادوا جد (2) زادوا آفتضاحا لا تبلغ الأعداء من جاهل ما يبلغ الجاهل من نفسه " ثم يهاجم اليهود قائلا :" ويقا ربهم اليهود الا أن ذلهم دعاهم الى اللين فتستروا به بخلاف علماء الاسلام وحججهم فكما قيل :—

اعد ذكر نعمان لنا ان ذكره * هو المسك ما كررته يتضوع

وما أرى النصارى مع المسلمين الا كما رقي أن جاهلا جادل عالما فعجز وبصق في وجه العالم وقال :" أضعف حجتك أيها العالم " (3) ، فمن الملاحظ أنه يستعمل في الرد عليهم أسلوبين :—

1) نقل المناظرات التي جرت بينهم وبين بعض علماء المسلمين ،

2) الاستشهاد بما جاء في الأنجيل ،

ومن أمثلة الأسلوب الأول قوله في تفسير الآية 81 / الزخرف :" قل أن كان للرحمن ولد ، فأنا أول العابدين " .. قال أحمد بن قاسم الأندلسي الحجري جاء في نصراني بورقة كتبها وقال في الحمام من الله أنه أراد أن يجعل في الأرض السماء هو خليفته فيها وهو عيسى وكتب ذلك في ورقة مبتهجا به ، فقلت له فينبغي اذا لعيسى أن يجعل الها يكون خليفته بعد موته وكذا بعد فآفتضح النصراني وبقي بورقته في يده متحيرا .."(4).

ولتبيين رأي النصارى في ادعائهم أن عيسى روح من الله قال :" .. وأما أن يقولوا انه جزء من روح الله أو هي روح الله كلها فلا يصح لعاقل لان الله جل وعلا لا يتجزأ أولا يتصف بالروح ولا بالحلول ، فلو كان ذلك لبقي الله بلا روح أو بروح ناقصة بآنتقال بعضها الى عيسى في زعمهم ان زعموه وذلك من صفات الخلق ولم يختص عيسى بذلك " ثم يستشهد في رده من الأنجيل

---

1) لعل الصحيح البديهيات ،
2) جدالا ،
3) التيسير 5/ 365 ، 366 .
4) ن م ، 5/ 271 .

والتوراة قائلا : ففي أنجيل لوقا قال : يسوع لتلاميذه أن أباكم السماوي يعطي روح القدس وهو في بطن أمه وفي التوراة قال الله تعالى لموسى عليه السلام اختر سبعين من قومك حتى أفيض عليهم من الروح التي عليك وفيها وفي حق يوسف عليه السلام يقول الملك : " هل رأيت مثل هذا الفتى الذي روح الله عز وجل حال (1) فيه وفيه أن روح الله حلت على دانيال وغير ذلك " ويسوق اثر ذلك بعض المناظرات قائلا : " وناظر بعض النصارى بعض أكابر المسلمين بأن في القرآن ما يشهد أن عيسى جزء من الله تعالى وتلا قوله تعالى : " روح منه (2) فعارضه المسلم بقوله تعالى : "وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه (3) فليزم أن تكون الأشياء جزء منه وهو محال باتفاق فأسلم النصراني والمسلم هو علي بن الحسين الواقدي " . (4)

وقد ألف المفسر رسالة في الرد على أنجليزي سماها (قذى العين على أهل الغبن) أشار اليها في تفسير قوله تعالى : " ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون " 78/آل عمران (5) ، كما تعرض في تفسيره لمكائد الحركة التنصيرية ، منها مثلا محاولة تحريف القرآن لكن يرى أنها باءت بالفشل (6) .

ويظهر من كلامه في تفسير قوله تعالى : " كل حزب بما لديهم فرحون " 53/المومنون ، أنه نال حظوة لدى علماء المسلمين في عصره مما كانوا يوجهون اليه أسئلة ويشيدون بمؤلفاته ومواقفه ، فبعد آستعراضه لتواريخ ظهور المذاهب الاسلامية وآنتشارها يقول : " وسبب ميل علماء مصر التي مع تخالف المذهب وتباعد البلاد أنه أشكلت عليهم مسألة في الربا وأرسلوا التي سؤالا في مضاب وجادلهم انجليزي وأرسلوا الي سؤالا فأجبت لهم بما آستحسنوا وأيضا اطلعوا على (شرح النيل) وغيره مما طبع في مصر من تآليفي " ويبدو أنه كان على اتصال بعلماء عصره منهم عبد الحق الذي ذكره في النص السابق وقال فيه : أنه " دخل تونس وأمرهم أن يسألوا الفقير صاحب هذا التفسير في كل ما أشكل وكذا عالم قبله مثله في مصر " (7) .

---

1) الصحيح حل فيه .
2) النساء / 171 .
3) الجاثية / 13 .
4) التيسير 868/1 ، 869 .
5) ن م ، 531 .
6) ن م ، 392/2 .
7) ن م ، 348/4 ، 349 والصحيح تآليفي

وكان يساند الحركة الاصلاحية، ويدعو الى توحيد كلمة المسلمين بتجاوز الخلافات المذهبية لمواجهة جبهة الشرك التي تتآمر على المسلمين الذين انصرفوا عن الجهاد ويصور ذلك في تفسير قوله تعالى :" ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " 46/الانفال " . . والنزاع هنا في أهل التوحيد فلكم أهل الشرك ولو رجعوا الى مذهب في الأصول أو أقصوا عن مسائل الخلاف كأن لم تكن ، وكانوا يدا واحدة لغلبوا على أهل الشرك ، وأهل الشرك مشغولون بالاحتيال فيما يملكون به غيرهم " ثم ينتقل الى استعراض حالة المسلمين قائلا :" وأهل التوحيد بعضهم معين لهؤلاء ، وبعضهم بطال معرض ، وبعضهم يعبد الله عز وجل ولا يشتغل بالدعاء عليهم ، وبعضهم مكب على التأليف ، ولا يحسن الا ما كان على طريق الشيخ عبده والشيخ مصطفى بن اسماعيل والشيخ قاسم بن سعيد واذلك قلت اكب على التأليف اذ لم نجد بلا غازيا ولا من بهم نغزو" (1)

وتبدو من هذا التعريض رغبته في الجهاد ومحاولة أهل الشرك ، والدعوة الى وحدة المسلمين ، ومساندة الحركة الاصلاحية بالاشادة بآراء المصلحين وطرقهم في التأليف.

وقد عبر في تفسيره عن كرهه للنصارى الذين يمثلون التيار الاستعماري المعادي للعالم الاسلامي ويتجلى ذلك في الدعاء عليهم بالخزي في تفسير آخر سورة المائدة :" ومنه خزي النصارى وتعذيبهم دنيا وأخرى واذاقة المسلمين فيهما ونصرهم فيهما " (2).

وأما تأييده للحركة الاسلامية ، وموقفه من نصرتها تظهر في قوله :" " فاكثروا الطواف والقراءة وادعوا الله عز وجل ينصر السلاطين الحدمانيين يسدد هم الله لا اله الا هو رب العرش العظيم ، ياحي يا قيوم ياذا الجلال والاكرام " (3) وذلك في معرض تفسير قوله تعالى :"واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة " 82/النمل .

---

1) ن م. 2/791، 792.
2) ن م. 2/209.
3) ن م. 4/592 المجلد 2.

ورغم سيطرة المشركين ، وظهورهم بقسوة فانّ عزّة الاسلام في نظر المفسّر ومبادئه تستقطب النّصارى ، وتستميلهم الى الدّخول في حوزته باعتناقه ، ويذكر ذلك في تفسير قوله تعالى : " ولتجدنّ أقربهم مودّة للّذين آمنوا الّذين قالوا انّا نصارى " 82 / المائدة فيقول : " والى الآن يسلمون عام ألف، وثلاثمائة وأحد عشر" (1) .

اذا كانت الحركة الاصلاحيّة قد واجهت هجومات النّصارى ودافعت عن القيم الاسلاميّة ، فهي ترى أنّ داء العالم الاسلاميّ يكمن في الآفات الاجتماعية وانتشار البدع التي كانت تغذّيها حركة التّنصير العالميّة ، ولذلك لم يغفل المفسّر عن هذا الجانب ، فقد تصدّى في تفسيره الى محاربة بعض المظاهر المشينة الناتجة عن تفشي الجهل والأمّية منها التقرب بالذبائح الى الجنّ ، والاعتقادات الفاسدة ، فقد عبّر عن استنكاره لها في تفسيره لقوله تعالى : " أن لّو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين " 14 سبأ يقول المفسّر : " . . وفي الحديث "لتتبعنّ سنن من قبلكم حتّى لو دخلوا جحر ضبّ لدخلتموه أو ركبوا متن ضبّاة لركبتموه ففي هذه الأمّة من يميل الى ذلك ، بل يتقرب اليهم بالذبائح " (2) وفي تفسير قوله تعالى : " وأنّه كان رجال من الانس . . . فزادوهم رهقا " 06 / الجنّ ، يستعرض هذه المعتقدات الفاسدة في الجنّ قائلا : " ومن العياذة بالجنّ القاء الملح والرّماد حيث عثر الانسان أو أصيب بضر ظنّا أنّ ذلك من الجن ، ومن العياذة بهم ذبح شاة في بعض الموضع الذي يريدون حفر البير فيه أو في دار أريد الحفر فيها للبير (3) وكلّ ذلك حرام ، لأنّ قصدهم التّملّق الى الجنّ بالقاء الملح والرّماد فهو كالذّبح لهم وكذا القاء التّبهير أو نحوه لهم بدار أو بلا دار " (4) .

وكان في مواضع من تفسيره يبّين موقفه من بعض البدع ، ويدعو الى التّخلّي عنها من ذلك مثلا قوله في تفسير الآية 28 / نوح : " رب اغفر لي . . " الخ " واعلم أنّه

---

1) ن م . 2/144 .
2) ن م . 4/911 المجلّد 2 .
3) ن م . لعلّ التبهير للبخور .
4) ن م . 5/870 .

جرت عادة بني مناب اذا قرأوا آيات و سور مخصوصات آخرهن سورة النّاس أن يبسملوا و يقرأوا ربّ أغفر لي و لوالديّ ألخ .. قلت نعم أنّ أصحابنا كرهوا قراءة البسملة وسط قراءة القرآن و أبدأ(1) بها في غير أوّل سورة في قراءة القرآن فتركوها و قال جاهل : أنّ قولنا ربّ أغفر لي و لوالديّ ألخ السورة ليس قرآنا قوله لأنّا دعونا به دعاء و هذا كفر شرك لأنّه تضمن القرآن و قد يعتبر قوله لأنّا دعونا به تأويلا فيكون لنا قولنا !! (2).

قولنا

كما عبّر عن بعض التصرفات النّاتجة عن الجهالة ، و التي كانت من مخلّفات الفتن في صدر الاسلام مثل لعن ما لكيّة وثلة من بيغض عليّ و معاويّة و عثمان في مآذنهم و يقول في ذلك :" و أي داع لهم الى آستمرارهم على ما يوهم لعن الصحابة و الجهرية في الآذان و لا يوجد ذلك في بلد من بلاد الاسلام و لا في بلاد الشرك " (3).

و من القضايا التي عالجها المفسّر ، قضية الاجتهاد التي تحدث عنها معتبرا كلّ مجتهد مأجورا و ان أخطأ ، شريطة أن يقصد في آجتهاده الحقّ لا اتباع الهوى (4) و هذا يعتبر دعوة صريحة الى آستعمال هذا المصدر التشريعي و تقريب وجهات نظر الفقهاء .

كما دعا الى تطوير أسلوب الوعظ و الذّكر و نقرأ ذلك في تفسير قوله تعالى : " و ذكّر فانّ الذّكرى تنفع المؤمنين " 55/الذّاريات ، حيث يقول :" و ينبغي للنّاس أن لا يطيل فيملوا فتذهب بركة العلم " الى أن يقول :" و ينبغي لمن يطيل أن يذكر لهم في مجلسه ما يتبسّمون به ترويحا لهم " ثمّ ينتقل للتحدث عمّا ينبغي أن يفعله السّامع قائلا :" و ينبغي للمستمع أن يقول للواعظ أو المعلّم كلّما حدّثه بحديث أن يقول له صدقت أو أحسنت ليكون راغبا و لا بدّ من حذر الرّياء "(5) و يريد بذلك أن يكون تجاوب بين المعلم و المتعلم ، و يراعي الأوّل طاقة الثاني .

و من تمسّك المفسّر بآنتمائه العربيّ الاسلاميّ ، آعتزازه بأصالته البربريّة ، و شعوره بكيانه المغربيّ ، استنكاره لوجود كلمات أعجميّة في القرآن و يقول في ذلك

1) و الصحيح و البدء .
2) ن م . 6/ 365 .
3) ن م . 5/434 .
4) ن م . 1/216 .
5) ن م . 5/546 .

مثلا في تفسير الآية 30 / ص : " انه أوّاب " يقول : " ومن العجيب أن يوجد للكلمة معنى صحيح في العربية ويحملوها على العجمية مثل أن يقول : " الاوّاب في الآية لفظ حبشي معناه المسبح " . (1) .

ويبدو افتخاره بلغته البربريّة من الاستعانة بها في الشرح كقوله مثلا : " في تفسير الآية 35 / المدّثر " انها لاحدى الكبر " نقول بلغتنا البربريّة فلان واحد منهم اذا عظم أمره وقلّ مثيله مثلا " (2) .

وفي تفسير قوله تعالى : " الذين اتبعوه في ساعة العسرة " 117 / التوبة يتجلّى شعوره بانتمائه المغربيّ في اعتباره مؤلّفات من مؤلّفات المغاربة : " ويقول في ذلك : " كمواهب القسطلانيّ ودلائل الثعالبي وشرحي على توثية المديح والسّحيلي والقاضي عياض " (3) .

هذه بعض بوادر الحركة الاصلاحيّة ، وقضايا السّاعة في تفسيره ، واكتفينا بنقل بعض العيّنات ، التي تدلّ على معايشة المفسّر لأحداث عصره ، ورغبته في اصلاح مجتمعه ، ولكن رغم ذلك لم يبلغ تفسيره درجة تفاسير الحركة الاصلاحيّة التي تهدف الى التأثير في البيئة الاجتماعيّة ومعالجة آفاتها باتّخاذ القرآن مصدرا لذلك بجانب السنة النبويّة ومصادر التشريع الاسلاميّة وان كنّا قد لاحظنا دعوة المفسّر الى جمع شتات المسلمين ، ونبذ الخلافات وعيا منه بالخطر المحدق أمّته ومساهمته في اصلاح المجتمع ومحاربة البدع الضّالة ودعوته الى تطوير أساليب الوعظ والارشاد الخ . . .

فهذا بصفة عامة موقفه من بعض قضايا عصره في تفسيره ، وموقفه من أمهات المسائل الواردة فيه .

---

1) ن م . 10/5 .
2) ن م . 412/6 .
3) ن م . 1086/2 .

- الباب الثالث -

الفصل الثالث: مكانة تفسيره بين بعض التفاسير .

مدخل .

ليس من السهل على الدارس أن يتبين مكانة تفسير ما بين عدد كبير من التفاسير التي تزخر بها المكتبات العالمية ، مهما حاول أن يصنفها ، و يتفحصها ، وكل ما نرى في بعض الدراسات من مقارنات بين تفسير و تفاسير أخرى ، فهو في اعتقادنا مجرد محاولات لا تتعدى بعض الجوانب.

و من هذا المنظور ارتأينا اجراء مقارنة بين التفسير الذي نحن بصدد دراسته و ثلاثة تفاسير :

أولها : يمثل مدرسة المفسر ، وقد عاصر صاحبه و تأثر به ، وقد بينا ذلك في مبحث المصادر و رأينا أن هذا التأثير قد يلمح درجة تقل بعض الأفكار و العبارات بحذافيرها ، و هذا التفسير هو (روح المعاني) للألوسي .

ثانيها : يمثل أحد التفاسير الجزائرية ، وأن يفصل بينهما فاصل زمني كبير ، فيرأنهما يشتركان في الانتماء الى شعب واحد ، و بيئة واحدة ، و نرمي من هذه المقارنة الى تبيان مميزات كل واحد منهما ، و أوجه الاختلاف والتشابه و هذا التفسير هو (جواهر الحسان) للثعالبي .

ثالثها : يمثل مدرسة الاصلاح التي عاصرها المفسر ، و عاش بعض أحداثها ، و من خلال المقارنة نحاول التوصل الى ابراز أوجه التشابه و الاختلاف بينهما مبينين أسباب ذلك و هذا التفسير هو (المنار) لمحمد عبده و رشيد رضا .

و دراستنا هذه لا تتعدى مقارنة أهم الجوانب ، مكتفين في كل تفسير بما يتميز به ، وفقا للمنهجية التي اتبعها مؤلفه ، و لا نغفل عن ذكر الأسباب كلما أمكن ، حتى نصل الى تصور واضح لمكانة تفسيره بين هذه التفاسير الثلاثة التي تمثل - في نظرنا - مدرسة التفسير بالرأي ، ومدرسة التفسير بالمأثور ، ومدرسة التفسير الاصلاحية و ذلك على التوالي .

وأوّل سؤال يتبادر الى أذهاننا ، ونحن نريد اجراء مقارنة بين تفسير أمّحمد أطفيش وتفسير الألوسيّ هو ما هي أوجه التّشابه والاختلاف في منهجيّة هذين التّفسيرين طالما أنّنا حكمنا على تأثّر الأوّل بالثّاني ؟

المقارنة بين منهجيّة (التّيسير) ومنهجيّة (روح المعانيّ).

لا نرى اختلافا كبيرا بين التّفسيرين من حيث المنهجيّة العامّة ، طالما أنّهما ينتميان الى مدرسة واحدة ، ألا وهي مدرسة التّفسير بالرّأي ، فكلّ منهما يسلك المنهج التّاريخيّ النّقديّ الّذي يعتمد آراء المفسّرين السّابقين وغيرهم من العلماء ، ثمّ يعقّبهما بالنّقد وابداء آرائه الخاصّة ، أو ترجيح أحد الآراء المعتمدة ، لذلك يقول محمّد حسين الذّهبيّ في وصف (روح المعانيّ) : " فهو جامع لخلاصة ما سبق من التّفاسير " ويضيف قائلا : "ينصب نفسه حكما عدلا بينها ، ويجعل من نفسه نقادا مدّققا ، ثمّ يبدي رأيه حرّا فيما ينقل" (1).

وقد رأينا أنّ الحكم نفسه ينطبق ـ إلى حدّ ما ـ على كتاب (التّيسير) ومن هنا نرى أنّ التّباين بينهما يظهر أكثر وضوحا في وجهات النّظر تجاه بعض المسائل ، ويعود ذلك الى اختلافهما في البيئة ، والانتماء المذهبيّ .

موقفهما من المخالفين :

فاذا كان صاحب كتاب (التّيسير) ينتقد بعنف وشدّة ـ أحيانا ـ آراء المخالفين للمدرسة الاباضيّة المتاتّدية على وجه خاصّ ، ويحاول تفنيدها واثبات صحّة آراء مدرسته ، مقرّا بذلك على انكاره للاختلافات في الأصول ومجيزا ايّاها في الفروع فانّ صاحب كتاب (روح المعانيّ) يذهب نفس المذهب ، منتصرا الى آراء السّلف في العقيدة رافضا كل الأفكار المخالفة لهم ولأهل السّنّة ، ويعتبر الاختلاف في الأصول مذموما حيث يقول : " ثمّ انّ الاختلاف المذموم محمول كما قيل على الاختلاف في الأصول دون الفروع ، ويؤخذ هنا التّخصيص من التّشبيه " وذلك في تفسير قوله تعالى : " ولا تكونوا كالّذين تفرّقوا واختلفوا .. " 105 /آل عمران .

غير أنّه يحصر الاختلاف المحمود والجائز في اختلاف الصّحابة والمجتهدين المعتدّ بهم ، قائلا : " فالحق الّذي لا محيد عنه أنّ المراد اختلاف الصّحابة رضيّ اللّه تعالى عنهم ومن شاركهم في الاجتهاد كالمجتهدين المعتدّ بهم من علماء الدّين ليسوا

---

1) التّفسير والمفسّرون 1/356 .

بمبتدعين، وكون ذلك رحمة لضعفاء الأمة ومن ليس في درجتهم، مما لا ينبغي أن ينتطح فيه كبشان ولا يتنازع فيه اثنان." (1)

ولعله يقصد بالمبتدعين المبتدعين كل المخالفين لآراء أهل السنة، لأن هذا اللقب يطلقه — في الغالب — على الفرق المخالفة (2) وهذه نظرة ضيقة بالمقارنة بنظرة أمحمد أطفيش الذي لم يخص فرقة في جوازه للاختلاف في الفروع ويلاحظ هذا من قوله :" .. وأما الاختلاف فيما يجوز فيه من الفروع للمجتهدين من الصحابة ومن بعدهم فلا بأس به بل هو رحمة" (3).

ويظهر ميل الألوسي الى آراء السلف في العقيدة بوضوح في انكاره للتأويل ودعوته الى الايمان بظاهر الآية ويستشف ذلك من قوله في تفسير الآية 16 / الملك" أأمنتم من في السماء" معقبا على بعض الآراء :" وأنا أقول في التأويل اتباع الظن وقول في الله عز وجل بغير علم والا لا تجد ما يذكرونه من المعنى فيه مع أن الأمر ليس كذلك، حيث يذكرون من التأويل شيء واحد (4) وجوها من الاحتمالات وفيما عليه السلف سلامة من ذلك ويكفي هذا في كونه أحسن المسالك.

"وما علي اذا ما قلت معتقدي * دع الجهول يظن الجهل عدوا نا" (5)

بخلاف أمحمد أطفيش الذي يدعو الى تأويل كل آية يؤدي معناها الى التشبيه ويرى ذلك .. كما رأينا — واجبا.

ولكن الألوسي .. مع ذلك — يؤيد آراء أهل السنة، ويتبناها، ويدافع عنها محاولا رد كل الآراء المخالفة لها، شأنه — في ذلك — شأن أمحمد أطفيش في دفاعه عن آراء الاباضية واثبات آرائهم، وهذا المثال يوضح ذلك.

ففي تفسير قوله تعالى :" ويعفو عن السيئات" 25 / الشورى يتعرض في بداية الأمر رأي مذهبه قائلا :" صغائرها وكبائرها لمن يشاء من غير اشتراط شيء كالتوبة للكبائر واجتنابها للصغائر .. " ثم يتعرض لرأي المعتزلة الذي يشترط التوبة في الكبائر واجتنابها للعفو عن الصغائر باعتبار هذه الآية تعميما بعد تخصيص فيقول ردا عليهم

---

1) روح المعاني 4/23 — 25 المجلد 2.
2) أنظر مثلا في ن.م. 1/266 المجلد 1.
3) التيسير 1/562.
4) لعل الصحيح (تأويل شيء واحد).
5) روح المعاني 29 / 18، 19 المجلد 10.

وتدعيما للرأي السابق : " والظاهر مع أهل السنة إذ لا دلالة في النظم الجليل على تخصيص السيئات ، نعم المراد بها غير الشرك بالاجماع ." (1)

فاذا كان المفسران يتفقان في الرد على مخالفي المدرسة الاباضية وأهل السنة في المسائل المشتركة بينهما الا أنهما يختلفان — أحيانا — في وجهات النظر في فهم هذه المسائل وعلى سبيل المثال في تفسير قوله تعالى : " ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون " 44/المائدة .

يرى الألوسي أن المرء من الفاسق — في نظر الخوارج — كافر ويقول في ذلك : " واحتجت الخوارج بهذه الآية على أن الفاسق كافر غير مومن " (2) بينما نجد أمحمد أطفيش يفرق بين مفهوم الكافر في رأي الاباضية والخوارج قائلا : " واستدلت الصفرية بالآية على شرك فاعل الكبيرة وأخطاوءا لمنعهم الله لان الكفر في الآية ليس شركا على الاطلاق بل معنى عام قابل للشرك " ويتضح رأيه أكثر في هذه المسألة في قوله : " على أن الكفر كفر نعمة أو كفر شرك على التشبيه لا الحقيقة تغنيظا عليهم " . (3)

واذا أمعنا النظر بعد هذا الاختلاف الظاهري في الفهم نلاحظ اتفاق المفسرين في وجهة النظر في هذه المسألة على الرغم من محاولة اثبات كل منهما لرأي مذهبه ومعتقده . (4)

فاذا كان مفهوم الكفر عند أهل السنة حسب رد أمحمد أطفيش محصورا في الشرك (5) فان ما يفهم من كلام الألوسي أن هناك رأيا يرى : " المراد من الأخيرين منها الكفر — أيضا — بمعنى المحققين ، وذلك بحملهما على الفسق والظالم الكاملين .." (6).

يجعلنا لا نرى هناك فرقا بين مفهوم الكفر عند هوءلاء والاباضية ، اذا أريد به كفر نعمة .

---

1) ن.م. 36/25 المجلد 09 .
2) ن.م. 145/6 المجلد 2 .
3) التيسير 93/2 ، 94 .
4) روح المعاني 145/6 ، 146 المجلد 2 ، التيسير 93/2، 94 .
5) التيسير 94/2 .
6) روح المعاني 6/ 146 المجلد 2 .

و يظهر أيضا ـ اتفاق المفسّرين في التحذير من أخبار الشيعة ، فيقول الآلوسي :" أخبار الشيعة من أهل البيت أوهن من بيت العنكبوت وأنه أوهن البيوت" (1) ، وممّا يؤكد ذلك قوله :" وكلّ ما يروونه في ذلك كذب صريح وفيه القول بالرّجعة الّتي لا ينهض لهم عليها دليل :" وورد هذا النّقد في اعتبارهم الدّابّة المذكورة في قوله تعالى : " واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابّة " 82/ النّمل هيّ عليّ بن أبي طالب ، وهذا قول بالرّجعة .(2)

وكما انتقدا بشدة آراء المذاهب المخالفة ، استعملا ـ أيضا ـ العنف في الرّدّ على أئمّتهم ، وهذا المثال يبيّن ذلك ، ففي تفسير قوله تعالى :" وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه " 43/ الأعراف يقول الآلوسيّ ردّا على الزّمخشريّ :" .. فاعرض المعتزلة في الدنيا المهتدي بنفسه على قول اللّه تعالى حكاية عن قول الموحّدين في مقعد صدق (وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه) واختر لنفسك أيّ الفريقين تقتدي به ولا أراك أيّها العاقل تعدل بما نسبه اللّه تعالى به قول ضالّ يتذبذب مع هواه وتعصّبه ، ولمّا رأى الزّمخشريّ هذه الآية كافحة في وجوه قومه فسّر الهدى باللّطف الّذي يسببه بخلق العبد الا مهتدا لنفسه وهو لعمري بكلام من حرّم اللطف نسأل الله تعالى العفو والعافية"

وبهذه الطريقة ، ومن هذه الوجهة يستعرض المفسّران آراء مذهبهما ويتصران اليهما بكلّ ما لديهما من حجج عقليّة ونقليّة ، مفندين آراء مخالفيهما وحججهم ، ومحاولين الرّدّ عليهم ، وهما بذلك يتعصّبان لنفسيهما مدافعين عن وجهة نظر مذهبية ، نشأ عليها ، وتشربا مبادئها حتّى أصبحت جزءًا من كيانهما وعقيدتهما ، وينظران اليها على أنّها الحقّ الّذي لا محيد عنه ، وتمثّل في نظر كلّ واحد منهما العقيدة الصّحيحة وغيرها ضالّة وزائغة عن الحقّ ، ورغم أنّ الاختلاف في المسائل العقائديّة كان من عهد الصّحابة ، والتّابعين الأوائل ، ولا أدلّ على ذلك من أنّ كلّ واحد منهما يستدل على صحّة عقيدته ببعض هؤلاء ولعلّ ما ينسب الى السّلف والخلف من باب التّغليب فقط ، أو مجرد دعاية لفكرة ومذهب ولكن مع ذلك نرى أنّ هذا الدّفاع لا يعتبر تعصّبا ، اذا صدر عن اقتناع وايمان راسخ بصحّة ما ذهبا اليه لأنّ طبيعة العقيدة تتطلّب ذلك .

---

1) ن م . 11/33 المجلّد 4 .
2) ن م . 20/22 المجلّد 10 .
3) ن م . 03/121 المجلّد 03 .

ولكن نظرتهما الى مسائل الفروع تختلف كلّ الاختلاف ، فيكتفيان فيها باستعراض الآراء المختلفة وترجيح الرّأي الّذي يراه كلّ واحد منهما صائبا ، وفي الغالب يقع الاختيار على رأي مذهبه ، فمثلا في مقدار عدد المصلّين الّذين تصحّ بهم صلاة الجمعة في تفسير قوله تعالى :" فاسعوا الى ذكر اللّه " الآية 09/الجمعة يرجّح الألوسيّ رأي أبي حنيفة قائلا :" وأنا أقول أرجحها مذهب الامام أبي حنيفة " ثمّ يمضي في تدعيم رأيه بقوله :" وقد رجحه المزني وهو من كبار الآخذين عن الشّافعيّ ، وهو اختيار الجلال السّيوطيّ ، ووجه اختياره مع ذكر أدلّة أكثر الأقوال بما لها وعليها مذكور في رسالة له سمّاها (ضوء الشّمعة في عدد الجمعة) ، ولولا مزيد التّطاويل لذكرنا خلاصتها ، ومن أراد ذلك فليرجع اليها ليظهر له بنورها حقيقة الحال ." (1)

فاذا قارنّا بينه وبين أمحمد أطفيّش لاحظنا اكثار الأوّل من ذكر المصادر الّتي يستمدّ منها هذه الآراء ، بينما الثّاني يكتفي في معظم الحالات ، بسردها ، وفي بعض المسائل يكتشف الدّارس تشابه هذه الآراء المختلفة المنسوبة الى أئمّة المذاهب أو غيرهم من العلماء ، ممّا يجعله يحسّ اعتماد أمحمد أطفيّش تفسير الألوسيّ مصدرا ، ولا يعني هذا أنّه كان يسايره في جميع آرائه أو ينقل ذلك عنه حرفيّا دون اضافات ، ومن هذا المثال يتّضح لنا ما ذهبنا اليه : ففي تفسير قوله تعالى :" فاسعوا الى ذكر اللّه "الآية 9/الجمعة يتّفق المفسّران في سرد الآراء المختلفة في تقدير عدد المصلّين المشترط لصحة صلاة الجمعة كما يتّفقان في رفض قول القاشانيّ الّذي يشترط شخصا واحدا ، غير أنّ الألوسيّ يذكر المصدر الّذي استقى منه القول الأخير والّذي هو (شرح المهذّب) ، وأمّا أمحمّد أطفيّش فقد اقتصر على ردّ هذا الرّأي ، لكنّه من جهة أخرى يبين الفرق بين رأيي الشّافعيّ القديم والجديد في القضية قائلا :" وهو جديد الشّافعيّ وهو في مصر اذ هرب اليها وقديمه ما له في بغداد قبل الهروب" كما أنّه يحاول ايجاد احتمال لنقض أبي القاسم للبيع المنعقد بين أسرته والعطّار أثناء صلاة الجمعة قائلا :" قلت لعلّه انتقض لأنّ البائع قد لزمته الجمعة ، ولو لم تلزم النّساء والخدم والأطفال من أهله "(2) بينما الألوسيّ قد اكتفى بسرد الحادثة مع بيان ما تفيد هذه الحادثة قائلا :" وظاهره حرمة البيع اذا يؤدّي للصّلاة على غير من تجب عليه أيضا " (3).

---

1) ن م . 102/28 ، 103 المجلّد 10 ، أنظر مثالا آخر حول ترجيح رأي مذهبه في مسألة جواز الاستعانة بالكفّار في قتال المشركين وهو مذهب أبي حنيفة في ن م . 120/3 المجلّد 1 .
2) التّيسير 216/6 .
3) روح المعاني 102/28 ، 103 المجلّد 10 .

ومن هنا لا يستبعد أنّ يكون (روح المعاني) مصدر أمحمد أطفيش في اقتباس آراء المدارس الفقهية المختلفة ، هذه الآراء التي تعتبر احدى ميزات التفسيرين ، وان كان تفسير أمحمد أطفيش يزيد على الأول في ابراز آراء المدرسة الاباضية الفقهية ، ومكانتها بين بقية المدارس الأخرى بأدلتها وحججها ، ووجهة نظرها .

وجهة نظرهما من الاسرائيليات:

أول ما يلاحظه الباحث من آختلاف بين أمحمد أطفيش والآلوسي في هذه المسألة ، ذكر هذا الأخير - في معظم الأحيان - للمصادر التي آعتمدها في استيفاء المعلومات ، بخلاف أمحمد أطفيش الذي يستغني - في كثير من الحالات عن ذكرها ويتفقان في نقد بعض الروايات وتفنيدها ، والمثال التالي يبين طريقة الآلوسي في نقل الأخبار ونقدها .

ففي تفسير قوله تعالى :" اهبطوا بعضكم لبعض عدو" 24 / الأعراف ، يقول بعد نقل رواية الأجهوري عن الغزالي التي تعزو نزول آدم من الجنة الى البحث عن مكان لقضاء حاجته نتيجة أكله من الشجرة المحرمة ، فيقول معقبا على هذه الرواية :" وأنا لا أرى لهذا الخبر صحة" (1)

غير أنه قد يكتفي بسرد الرواية مع آستهلالها بصيغة التبعيض دون ذكر المصدر مثلما فعل في روايته لكيفية نزول المائدة ومحتوياتها ، وقد آستهلها بقوله :" روي أن عيسى عليه الصلاة والسلام . ." (2) وذلك في تفسير قوله تعالى :" لا أعذبه أحدا من العالمين" 115 / المائدة .

ومن هنا نرى أنّ الاختلاف الوحيد بين المفسرين هو مدى ذكر المصادر المعتمدة في هذه المسألة ، فقد كان الآلوسي يذكر هذه المصادر أكثر من نظيره .

---

1) ن م . 102/08 المجلد 03 .
2) ن م . 63/07 المجلد 03 .

وجهة نظرهما من التّفسير الاشاريّ والتّصوّف.

ولعلّ أوّل ما يلفت نظرنا ونحن نتصفّح التّفسيرين، موقف الألوسيّ المؤيّد للتّفسير الاشاريّ والتّصوّف، وموقف أمحمّد أطفيّش الرّافض لهما، وقد يتجلّى موقف الألوسيّ مثلا في تفسير قوله تعالى: " انّ آية ملكه " 248/البقرة يقول المفسّر: انّ آية ملكه عليهم وخلافته من قبل الرّبّ فيكم أن يأتيكم تابوت الصدر فيه سكينة أي طمأنينة من ربّكم وهي الطّمأنينة بالايمان والأنس بالله تعالى ألخ.." (1)

بينما يرفض أمحمّد أطفيّش التّفسير قائلا: " أو التّابوت القلب والسّكينة ما في القلب من العلم والاخلاص واتيانه مصير القلب كذلك بعد أن لم يكن وهو ضعيف لأنّه لا يلائم أنّه آية ملك طالوت لخفائه " (2).

والألوسيّ يصرّح بموقفه المؤيد بصراحة في قوله: " وأمّا كلام السّادة الصّوفيّة في القرآن، فهو من باب الاشارات الى دقائق تنكشف على أرباب السّلوك، ويمكن التّطبيق بينها وبين الظّواهر المرادة، وذلك من كمال الايمان ومحض العرفان " ثمّ يمضي في قوله مدافعا عن هذا الاتجاه انكار جمهم لظاهر الآية الذّي يؤدّي الى نفي الشّريعة بالكلّية، ويبرّيء الصّوفيّة عن هذا الاعتقاد، ويختم قوله: " فلا ينبغي لمن له أدنى مسكة من عقل بل أدنى ذرّة من ايمان أن ينكر اشتمال القرآن على بواطن يفيضها المبدأ الفيّاض على بواطن من شاء من عباده.. " ويعتبر انكار ذلك قصورا في العقل ويقول في هذا الشّأن: " فالانصاف كلّ الانصاف التّسليم للسّادة الصّوفيّة الّذين هم مركز للدّائرة المحمّديّة ما هم عليه واتّهام ذهنك القاصر فيما لم يصل لكثرة العوائق اليه " (3).

ويذهب به الأمر الى أبعد من ذلك، اذ يبين انكارهم للخلود في النّار" مبني على مشرب آخر وتجلّ لم يكشف لنا والكثير منهم قد بنى كلامه على اصطلاحات ورموز واشارات قد حال بيننا وبين فهمها العوائق الدّنيويّة والعلائق النّفسانيّة" (4).

---

1) ن م. 175/03 المجلّد 1
2) ن م. التّيسير 360/1، 361.
3) روح المعاني 07/1، 08 المجلّد 01.
4) ن م. 142/1 المجلّد 01.

ويوء من ببعض الخوارق التي تعتقد ها الصوفيّة ، ويتحامل على من ينكرها لاحظ ذلك في قوله :" كما يحكي عن بعض الأولياء قدّست أسرارهم ، أنّهم يرون في وقت واحد في عدّة مواضع ، وما ذلك الّا لقوّة تجرّد أنفسهم وغاية تقدسها ، فتمثل وتظاهر في موضع وبدنها في موضع آخر . . . وهذا أمر مقرّر عند السّادة الصوفيّة مشهور فيما بينهم وهو غير طيّ المسافة والانكار من يتكبر كلامهما عليهم مكابرة لا تصدر الّا من جاهل أو معاند "(1)

من هذه الأمثلة يتجلّى للقارئ موقف الألوسيّ وايمانه بالتّفسير الاشاريّ وانسياقه وراء أفكار المتصوفين ، حتى ليخال له أنّه أمام تفسير يمثل هذا الاتجاه لكثرة ما ورد فيه من أفكار مدرسة التّفسير الاشاريّ والنّزعة الصوفية ، وقد رأينا موقف أحمد أطفيش الرّافض لهذا النّوع ، وتحامله على نزعة التّصوّف ، والبراءة من بعض أفكارهم المتطرفة وقد استعمل في نقده لها بعض العبارات الدّالة على استنكاره لهذه النّزعة مثل : زعم أهل التّصوّف ـ وان لم يعجبك هذا فاضرب به وجوه الصّوفيّة . الخ (2) ، غير أنّه ـ مع ذلك ـ يبدي احتراما لآراء بعضهم مثل الجنيد وابن العربيّ ، ويؤمن بصحة كرامات الأولياء وهذا المثال يؤكّد ذلك :" ففي تفسير قوله تعالى :" وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا . ." 7/16 النّحل ويقول المفسر:" . . فلا تنافي كرامات الأولياء ولا تبطلها في طيّ مسافات الأرض فيصلون المواضع البعيدة في زمان قريب بقرينة الوجود ومشاهدته " (3) .

ويتجلى ممّا تقدّم اختلاف وجهة نظر المفسّرين من التّفسير الاشاريّ ومذهب التّصوّف ، مع اتّفاقهما في الايمان بكرامات الأولياء ، والاعتراف بفضل علماء التّصوّف في خدمة العلم ، واستنكارهما لما ابتدعته الصّوفيّة من عادات مخالفة للشرع ، ومن اعتقادات باطلة .(4)

ولعلّ ما يمتاز به (روح المعاني) عن (التّيسير) اشتماله على آراء مدرسة التّفسير الاشاريّ وأفكار المتصوفين ، بحيث يتيح للقارئ فرصة الاطلاع على هذا الاتّجاه بكلّ ما فيه من محاسن ومساوئ ، غير أنّه من الانصاف مؤاخذة الألوسيّ على انسياقه وراء النّزعة الصّوفيّة وايمانه بأفكارها الى درجة اعتبارها أمورا ورموزا يعجز

---

1) ن م ، 13/23 ، 14 المجلّد 08 .
2) ارجع الى هذا البحث ص
3) التّيسير 3/353 .
4) أنظر رأي الألوسيّ في ذلك في تفسيره روح المعاني 20/12 و 21/70 المجلّد 07 .

شخصيّا عن فهمها وقد تحول – في حدّ تعبيره –" بيننا وبين فهمها الدقائق الدّيكورية والعلائق النّفسانيّة" (1) وما مسألة أنكارهم للخلود في النّار الّا دليل على ذلك .

<u>المسائل العلميّة واللّغويّة :</u>

لا يلاحظ الدّارس اختلافا كبيرا في هذه المسائل بين المفسّرين . ففي المسائل العلمية لا تتعدّى معرفتهما حدود عصور الأخطاء ، فهما ينسبانها الى أهل الهيئة أو الفلاسفة مع التّشكيك في أقوالهم – أحيانا – وهذا ما يفهم مثلا من تعليقهم على قول أهل الهيئة بوجود مسافات شاسعة بين الكواكب تقدر بملايين الفراسخ كما هو الحال بين كوكب الشّمس والأرض ، فيختتم الألوسيّ هذا الخبر بقوله : " الى آخر ما زعموا " (2) وذلك في تفسير قوله : " زيّنا السّماء الدّنيا بمصابيح " 05/ الملك :

كما يذهبان الى التّوفيق بين العلم والأثر ، اذا وجدا تناقضا بينهما ، وخير مثال على ذلك ما جاء في الأثر أن الشّمس تسجد تحت العرش ، وما يعرف عنها فلكيا ، يقول الألوسيّ : " .. والتّي يخطر بالبال في حلّ ذلك الأشكال والله تعالى أعلم بحقيقة الحال ، أنّ الشّمس وكذا سائر الكواكب مدركة عاقلة كما ينبئ عن ذلك قوله تعالى الآية : " كلّ في فلك يسبحون " (3) حيث جيئ بالفصل مسندا الى ضمير جمع العقلاء ، وقوله تعالى : " انّي رأيت أحد عشر كوكبا والشّمس والقمر رأيتهم لي ساجدين " (4) .

لنحو ما ذكر يدلّ وعليه ظاهر ما روّي عن أبي ذرّ من أنّها تسجد وتستأذن ، فأنّ المتبادر من الاستئذان ما يكون بلسان القال دون لسان الحال .

وقد يستنجد الألوسيّ بأفكار الصّوفيّة لتفسير الظّواهر الكونيّة مثل قوله :

" ... فيمكن أن يقال أنّ للشّمس نفسا مثل تلك الأنفس القدسيّة ، وانّها تنسلخ عن الجرم المشاهد والمعروف مع بقاء نوع من التّعلّق لها به ، فتعرج الى العرش فتسجد تحته بلا واسطة وتستقر هناك وتستأذن ولا ينافي ذلك سير هذا الجرم المعروف ، وعدم سكونه حسبما يدّعيه أهل الهيئة وغيرهم .. " غير أنّه يرجّح القول الأوّل ويبقى

---

1) ن م . 1/142 المجلّد 01 .
2) ن م . 29/09 المجلّد 10 .
3) 40/ يسن .
4) 04/ يوسف .

الذاتي مجرد احتمال .(1) ، ويرى أن الحكم على الظواهر الكونية يتم حسب الحالات التي تظهر ما لم يثبت دليل قطعي خلاف ذلك : " حينئذ نميل الى التأويل وبا بسمه وا سمح"(2).

وطريقة الألوسي في الاستعانة بالعلوم لابراز مضامين الآيات الكريمة لا تختلف ــ كما رأينا ــ عن طريقة أمحمد أطفيش الا من حيث لجوء الأول الى أفكار الصوفية ، واختلافهما في الايمان ببعض المسائل ، وجرأة الثاني على نقدها ، وقد تعرضنا لذلك في الفصل الثاني من هذا الباب.

أما المسائل اللغوية ، فكادت وجهات نظرهما تكون متفقة في طريقة توظيف هذه المسائل في التفسير ، وان كان هذا لا يمنع من ملاحظة اختلاف هذه الوجهات في تفسير هذه المسائل واستغلال كل منهما برأيه الخاص ، وبل نجد أمحمد أطفيش يعارض الألوسي في مواقفه من أبي حيان في المسائل النحوية ، ويستنكر موقف بعض البغداديين من بينهم فيما يبدو الألوسي ويقول في ذلك :" ورد علي تفسير قبل هذه السورة بمقدار البغدادي يكثر فيه الرد على أبي حيان ، ولي همة في الجواب عنه ، لكن لي أشغال"(3) وبل يرى أن ردهم على أبي حيان لا يقصد به الا الرد وكأني به يريد أن يتهمهم بنصب العداء له ، وهذا ما يفهم من قوله :" وما مراده الا الرد على الامام أبي حيان ، ولو أنصف لهذا الامام لكان أولى ،(4) ولعل استعماله لضمير المفرد الغائب اشارة الى الألوسي الذي يلاحظ الدارس في كتابه ردودا كثيرة على أبي حيان (5) وبلغ الأمر بالمفسر الى درجة اتهام المعارضين بتصيد أخطاء أبي حيان ، والتجاوز عن حسناته ، ويقول في ذلك :" وأرى بعض المشارقة البغداديين اذا رأوا لأبي حيان حسنة دفنها أو بغى لها جوابا ، أو رأى سيئة أشاعها ، ومتى شاء أغتنم منه الفائدة" (6).

ولعل هذا المثال يجلي لنا ضرورة عن الخلافات بين المشارقة والمغاربة ، وانتصار كل مفسر لعلماء منطقته ، كما يتجلى منه اختلاف المفسرين في وجهات نظرهما تجاه بعض المسائل اللغوية والنحوية ، لكن أسلوب استغلال هذا المصدر في التفسير لا نلاحظ

---

1) روح المعاني 13/23 ،14 المجلد 08 .
2) ن م . 100/27 المجلد 09 .
3) التيسير 49/06 .
4) ن م . 153/3 .
5) روح المعاني 160/30 المجلد 10 ،144/27 المجلد 09 .
6) التيسير 583/6 .

فيه اختلافا يذكر ، و نفس الحكم ينطبق على المسائل العلمية التي تعكس ثقافة كل مفسر لكنها ثقافة لا تعدو أن تكون المساما ببعض المعارف العامة في علم الفلك و الطبيعة و الفلسفة ، بمفهومها المعروف في عصور الانحطاط ، و ان كانت لا تخلو من بعض المعلومات المعاصرة للمفسرين .(1)

و نخلص الى القول بأن المفسرين يمثلان المدرسة السلفية في التفسير و ينتميان الى مدرسة الدراية ، و يمثل كل واحد منهما وجهة نظر انتمائه العقائدي والمذهبي و الدفاع عنها بكل ما أوتي من أدلة و حجج ، مع محاولة تفنيد أدلة خصمه ، و هذه نظرة ليست غريبة عن التفاسير التي ظهرت بعد تبلور المدارس الاسلامية .

المقارنة بين (التيسير) و (جواهر الحسان) .

يمثل تفسير (جواهر الحسان) لعبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (733، 784هـ 373، 375هـ) مدرسة التفسير بالمأثور ، و يرجع الى القرن التاسع الهجري بينما تفسير (التيسير) يعتبر حديثا بالمقارنة بسابقه ، و يمثل مدرسة التفسير بالدراية ، و رغم هذا الفاصل الزمني ، واختلاف منهجية التفسير لا يلاحظ الدارس اختلافا كبيرا من حيث طريقة التأليف و المحتوى ، و هذا راجع الى المصادر المعتمدة في التفسيرين ، التي لا تتعدى أمهات التفاسير المعروفة ، في هذا العلم و هذا لا يعني اتفاق وجهات نظر المفسرين في رؤية يتهما للمسائل المختلفة .

كما أن هذا لا يمنع من وجود اختلاف واضح و بين في منهجيتهما في التفسير و هذا الاختلاف يظهر في الجوانب التالية :ـ

1) طريقة الاستفادة من المصادر :

فاذا كان الثعالبي قد اعتمد في مؤلفه تفسير ابن عطية ، مما دعا عبد الوهاب فايد الى اعتباره مختصر هذا الاخير (2) ، و قد اعترف المفسر نفسه بذلك في مقدمة مؤلفه قائلا : " فقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية"

1) أنظر أمثلة في روح المعاني 145/28 المجلد 10 ، 100/27 المجلد 09، 93/29، 94 المجلد 10 (كرية الارض) يطلق على أهل الآراء المعاصرة (فالسفة العصر) أهل الهيئة الجديدة الحكمة الجديدة ألخ . أنظر أمثلة في التيسير 6/ 59 تقسيم الفرنسيين للمغرب العربي و تاريخ استيلائهم على الجزائر العاصمة .

2) عبد الوهاب بعبد الوهاب فايد منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم ص 294 .

لكنّه أضاف اليه ـ على حدّ قوله ـ فوائد كثيرة من المصادر الأخرى ، ويفهم ذلك من قوله : " وزدته فوائد جمّة من غيره من كتب الأئمة وثقات أعلام هذه الأمة" كما ضمّنه ـ أيضا ـ بعض آرائه الخاصّة وكان يرمز اليها بحرف (ت) وقد التزم في قوله الأمانة العلمية ، والنقل الحرفيّ لآراء غيره خوفا من الخطأ ويقول في ذلك :"وكل ما نقلت عنه من المفسّرين شيئا فمن تأليفه نقلت وعلى لفظ صاحبه عوّلت ، ولم أنقل شيئا ذلك بالمعنى خوف الوقوع في الزّلل ، وانّما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها اليه ..".

وبالفعل يلاحظ الدّارس ، في الغالب ذكر السّند والمصدر وقد أولى أهمّية لهذا الجانب ممّا دعاه الى توجيه القارئ لتصحيح ما أشكل عليه الى المصادر التّي آعتمدها وتجنب استخدام رأيه في ذلك ، ويفهم هذا من قوله :" ومن أشكل عليه لفظ في هذا المختصر فليراجع الأمّهات المنقول منها ، فليصلحه منها ، ولا يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع في الزّلل من حيث لا يشعر " .(1)

وهذه النصوص تدل دلالة واضحة على آهتمام المفسّر بالتّحقيق ، والتزامه بالأمانة العلميّة في النّقل ، ونسبة الرّأي الى صاحبه ، وهذه الميزة لا نجدها في كتاب (التّيسير) المشتمل بدوره على آراء أعلام التّفسير وأئمّة الفقه ، والتّاريخ ، وعلوم أخرى ، لكن صاحبه لم يبلغ درجة تحقيق النّص التّي بلغها صاحب كتاب (الجواهر) . ممّا يستدعي من الدّارس ـ في حالة تحقيق النّصوص ـ الرّجوع الى كتب التّفسير والمصادر الأخرى ، وتكبّد عناء البحث ، بينما لا يجد في ذلك صعوبة كبيرة في كتاب (الجواهر) ، وقد يحتمل الدّارس اعتماد أمحمد أطفيّش في نقل بعض الآراء على مراجع أخرى غير مصادرها مثل ما لاحظنا ذلك في بعض المسائل التّي لا نستبعد نقلها من كتاب (روح المعاني) .

ولكنّ (التّيسير) يتفوق على (الجواهر) في آشتماله على معلومات مختلفة ويعتبر موسوعة في التّفسير بالمقارنة به ، اذ يحتوي على آراء مختلفة الاتّجاهات في هذا العلم ، وتبرز فيه شخصية المفسّر بوضوح ، بينما لا يعدو كتاب (الجواهر) أن يكون مختصرا لكتاب ابن عطيّة مع اضافات أخرى ، وتدّخلات المؤلّف القليلة ممّا دعا محمد حسين الذّهبيّ الى القول : " انّ الثعالبيّ في تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والتّرتيب الّا عمل قليل ، وأثر فكري ضئيل "(2)

---

1) الجواهر 1/03،07 .
2) التّفسير والمفسّرون 1/ 250 .

ففي المسائل الفقهية كثيرا ما يقتصر على آراء المذهب المالكي ، محاولا الانتصار له وان تعداه لا يتجاوز — في أغلب الأحيان — مذاهب أهل السنة ، والعقيدة الأشعرية أو السلفية، وان ساق آراء غيرها قصد بذلك الرد عليها وتفنيدها ، مثلما نلاحظ في مسألة رؤية الباري ، فبعد استعراضه لآراء أهل السنة في القضية وأدلتهم وحججهم العقلية والنقلية ، راح يرد على ابن عطية قوله تعقبا على قول مجاهد وغيره : "ان الله عز وجل قال له : " يا موسى لن تراني (1) ولكن سأتجلى للجبل وهو أقوى منك وأشد فان استقر وأطاق الصبر لهيبتي فستمكنك أنت رؤيتي " فقال ابن عطية : " فعلى هذا انما جعل الله الجبل مثالا " ثم يقول ردا على ذلك : " قلت وقول (ع) (2) ولو بقينا مع هذا النفي بمجرده لقضينا أنه لا يراه موسى أبدا ولا في الآخرة قول مرجوع لم يتفطن له رحمه الله ، والحق الذي شك فيه أن (لن) لا تقتضي النفي المؤبد " واثر ذلك يرد على الزمخشري : " وذكر الزمخشري في (أنموذجه) أن لن لتأبيد النفي وحامله على ذلك اعتقاده أن الله تعالى لا يرى وهو اعتقاد باطل لصحة ثبوت الرؤية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويستدل بما يفهم عن (لن) التأبيد " (3).

ويبلغ به الحد الى التحذير من مطالعة تفسير الزمخشري مجاراة لآراء شيوخه ويقول في ذلك : " وحذر الشيخ ابن أبي جمرة من النظر في تفسير الزمخشري ، ونبه على عدم جواز مطالعته لوجوه نبه عليها وبه أقول وقد أدركت جماعة من مشائخي الورعين الخائفين يجتنبون النظر في تفسير الزمخشري ومن خاف على نفسه احتاط لها " (4)

والعامل الذي دفعه الى اتخاذ هذا الموقف المعادي لتفسير الزمخشري تمسكه بالعقيدة الأشعرية وآراء أهل السنة ، ولا سيما المذهب المالكي وهذا المثال يؤكد لنا ذلك ، فيقول في آية اللعان (5) : " ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة ولا يحتاج معها الى تفريق حاكم وتحريم اللعان أبدي باتفاق فيما أعلم من مذهب مالك " (6).

واذا قارنا هذا الموقف بموقف أحمد بن يوسف أطفيش وجدنا هذا الأخير أكثر تفتحا على المذاهب والفرق ، لا من حيث تناول آرائها ، ولا من حيث الاستفادة من أئمتها .

---

1) الأعراف / 143
2) يرمز بحرف العين (ع) لابن عطية .
3) الجواهر 2/68 / 69 .
4) ن م ، 5/191 .
5) النور / 09
6) الجواهر 3/172 .

2) أسلوب الاختصار:

يظهر أسلوب الثعالبي في الاختصار في عدة جوانب منها خاصة :-

أ . عدم تعرضه لاختلاف الفقهاء من مسائل الفروع إلا نادرا ، إذ يكتفي - في معظم المسائل - بآراء علماء المذهب المالكي ، وإذا تعرض لغيرها لا يتجاوز في ذلك المذاهب الأربعة المعروفة .(1) بينما نجد كتاب (التيسير) أكثر شمولية لآراء المدارس الاسلامية بما فيها المدرسة الاباضية ، غير أن كليهما يلتزم الاختصار فاذا كان الأول يبيد واختصاره فيما تقدم ذكره ، فان الثاني يستغني عن ذكر المراجع والسند - وأحيانا - الأدلة .(2)

وكلاهما يحيل القارئ في بعض المسائل على كتب الفقه فمثلا يقول الثعالبي في نهاية تفسير آية الظهار ما يلي : " وفروع الظهار مستوفاة في كتب الفقه فلا نطيل بذكرها ".(3) ويقول أمحمد أطفيش في بعض مسائل الوراثة : " وبسطت المسألة في شرح النيل وشرح الدعائم" (4) ومما يلاحظ أن هذا [illegible] الأخير كثيرا ما يحيل القارئ على مؤلفاته .

ب . يتجنب التكرار وهذه سيمة بارزة في كتاب (الجواهر) وقد أشار المفسر الى ذلك قائلا : " وقد استوعبت فيه بحمد الله مهما - ابن عطية وأسقطت كثيرا من التكرار وما كان من الشواذ في غاية الوهي ."(5).

ففي قضية الرؤية مثلا في تفسير قوله تعالى : " وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة" 23 / القيامة يقول المفسر : " وقد تقدم استيعاب الكلام على هذه المسألة وما في ذلك من صحيح الأحاديث" وذلك بعد أن ساق رأي أهل السنة .(6)

ويبلغ به الاختصار الى درجة الاستغناء عن تفسير بعض الآيات ، أو الاقتصار على تذليل الصعوبات اللغوية تحاشيا للتكرار والاطالة ، ففي آخر تفسير قوله تعالى : " يخالفون عن أمره " 63 /النور يقول : " وباقي الآية بين والحمد لله " (7)

---

1) أنظر أمثلة في الجواهر 1/ 185 - 133 (مسائل الحج)
2) أنظر أمثلة في (التيسير) 1/260 - 273 (مسائل الحج).
3) الجواهر 4/ 331 .
4) التيسير 1/ 698 .
5) الجواهر 4/ 692 .
6) ن م . 4/ 522 .
7) ن م . 3/ 199 .

وفي تفسير قوله تعالى : " والسّماء ذات البروج " 1/ البروج يقول : " هي المنازل التي عرفها العرب وقد تقدّم الكلام عليها " (1).

يصف المفسّر كتابه بقوله : " كفاية للمبتدئ يستغني به عن المطوّلات" (2)، ولعلّ هذا الوصف يصدق الى حدّ بعيد على مؤلّفه ، كما أنّ وصف أمّحمد أطفيش لكتابه (التّيسير) بقوله :" لترغبوا فيه لأنّه غير طويل بل متوسط مع جمعه ما ليس في المطوّلات"(3) يدُلّ على مدى التزام صاحبه بالاختصار لكنّه يلجأ الى التّكرار ولا سيّما في مسائل الخلاف رغبة منه في تثبيت آرائه في ذهن القارئ ، وقد ضربنا مثالا على مسألة الرّؤية التي تعرّض لها في عدّة مواضع من تفسيره ، كان بامكانه الاقتصار على توضيحها في موضع واحد ، ولكن لا يعني هذا أنّ هذه الملاحظة تنطبق على جميع المسائل الواردة في تفسيره ، وقد يشير الى أنّ بعضها قد سبق شرحها مثل قوله في تفسير :" ووجدك" 8/ الضحى ، "مثل ما مرّ " (4) ، والمفسّر لا يؤمن بالتّكرار في القرآن من أجل التّكرار ، لذلك يحاول أنّ يجد في تفسيره للآيات المتشابهة عدّة أوجه ، وقد أشار في سورة (الكافرون) الى انكاره للتّكرار من أجل التّكرار قائلا :" وعلى كلّ وجه لا تكرير في الآية" (5) ، وقد يحاول زيادة بعض الاضافات التي لها علاقة بسياق الآية مثل تفسير قوله تعالى :" اذا السّماء انفطرت" 1/ الانفطار، يقول :"كلّها فللأفراد بعد بتأويل الجماعة أو السّماء الدّنيا (انفطرت) مطاوع فطرها أي شقّها فانشقّت لنزول الملائكة يوم تشقق السّماء بالغمام و نزّل الملائكة تنزيلا"(6)" (7).

وقوله :" اذا السّماء انشقت" 1/ الانشقاق ، يقول المفسّر :" مطاوع شق، توجهت ارادة اللّه الى شقّها فانشقّت ومثله انفطرت أي انشقت بالغمام ، كما قال اللّه سبحانه وتعالى :" يوم تشقّق السّماء بالغمام " يسلّطه عليها فتنشقّ به ، وقيل تنشقّ لهول يوم القيامة ، لقوله تعالى :" وانشقت السّماء فهي يومئذ واهية" (8) ولا مانع أن يكون الهول هو تسلّط الغمام فذلك قول واحد .. " (9).

---

1) ن م، 4/593.
2) ن م، 4/153.
3) كشف الكروب 1/96.
4) التّيسير 6/620.
5) ن م، 6/701.
6) الفرقان / 25.
7) التّيسير 6/515.
8) الحاقة / 16.
9) التّيسير 6/535.

ولعلّ حرص المفسّر على جعل كتابه شاملا وجامعا مع محاولة الاختصار هو الذّي فرض عليه هذه الطّريقة في التّأليف.

جـ- يختصر المفسّر في سرد الرّوايات الإسرائيليّة، ويختارها يراه مساعدا على الشّرح، والذّي دعاه الى ذلك ـ أيضا ـ شكّه في صحّتها لضعف سندها ولعدمه، فبعد سرده للأسلوب الذّي قاتل به داود جالوت وهو شبيه بما ذكره أمحمد أطفيش يقول المفسّر: "وقد أكثر النّاس في قصص هذه الآية، وذلك كلّه ليّن الأسانيد، فلذلك انتقيت منه ما تنفكّ به الآية، ويعلم به مناقل النّازلة."(1)

وقد يستغني من بعض التّفاصيل قصد الاختصار مثلما فعل في وصف مائدة بني اسرائيل التّي يعقّب وصفها بقوله: " وأكثر النّاس في قصص المائدة ممّا رأيت اختصاره لعدم سنده " (2)

واذا قارنّا بينه وبين أمحمّد أطفيش، نجد هذا الأخير لا يتحرّج من سرد الرّوايات المختلفة على أنّه كان يستعمل معظمها بصيغة التّبغيض أو يشير الى أنّها من الاسرائيليّات وهذا لم يمنعه من خوضه ـ أحيانا ـ في هذه المسألة ويتفوّق في هذا الجانب على كتاب الثّعالبيّ، لكونه يشتمل على الرّوايات المختلفة التّي تساعد الدّارس والباحث على الاطّلاع عليها، غير أنّ الثّعالبيّ كان أكثر تحقيقا واحترازا من الخوض في هذه المسألة التّي عابها معظم المحقّقين، وآخذوا عليها الخائضين فيها.

ونخلص الى القول بأنّ كلّ تفسير من هذين التّفسيرين يحمل مميّزات خاصّة، لا يستغني عنها القارىء المغربيّ بصفة عامّة والجزائريّ بصفة خاصّة، فالجواهر يمثّل أفكار أهل السّنّة ولا سيما المذهب السّائد في هذه الرّقعة من العالم الاسلاميّ تجاه بعض المسائل الواردة في القرآن الكريم منها ما أشرنا اليها، ومنها وجهة نظر هذه المدرسة من التّصوف.(3) كما أنّه يعتبر مختصرا لتفسير ابن عطيّة مع ما يتضمن من آراء مفسّرين وعلماء الى المؤلّف ولا يخلو من بعض أفكاره فهو من هذه النّاحية يمثّل وجهة نظر المفسّر العقائديّة والفقهيّة السّائدة في تلك الحقبة التّاريخية، بالاضافة الى بعض المعلومات التّي استغنينا عن الاشارة

---

1) الجواهر / 1/ 238، 239.

2) ن م. 1/597.

3) يرى عمّار طالبي أنّ وجهة نظر المفسّر من هذه القضية، لا تختلف عن وجهة نظر السّنّيّة فلا يذهب مذهب الحلول أو النصوص أو مذهب وحدة الوجود للمزيد من التّفصيل، ارجع الى الجواهر المقدمة بقلم عمّار طالبي 1/أ ـ ص.

اليها لأنّها لا تختلف كثيرا عمّا ورد في كتب التّفاسير ، وممّا يمتاز به هذا التّفسير تحقيق النّصوص ونقدها ، والحرص على ذكر السّند والمصدر ، فلا يبذل الباحث جهدا كبيرا لمعرفة مصادر المعلومات التي أوردها في تفسيره وهذه الميزة لا نجدها في كتاب (التّيسير) الّذي يمثّل بدوره وجهة نظر مدرسة اسلاميّة المتاقدّية ألا وهي المدرسة الأباضيّة ، بالاضافة الى اعتباره دراسة شبه ... مقارنة لآرائها وآراء مدارس اسلاميّة أخرى ، وبل وجهات نظر بعض الفرق ، فهذا التّفسير يمتاز بدوره عن الأوّل بنوع من الشّموليّة وغزارة المعلومات سواء كان ذلك في المسائل الدّينيّة أو اللّغويّة أو العلميّة أو غيرها .

أمّا فيما عدا ذلك فلا نلاحظ اختلافا يذكر بين التّفسيرين ، لا من حيث المنهجيّة التّي طغت عليها النّاحية التّاريخيّة ، ولا من حيث بعض المضامين ، وما يشد انتباه الدّارس لهذين التّفسيرين نزعتهما المغاربيّة التّي تظهر في اعتماد مصادر علماء هذه المنطقة وترجيح آرائهم في كثير من المسائل ، أو على الأقل اثبات وجود هذه المصادر في تفسيريهما ، وقد ذكر الثّعالبيّ آراء ابن العربيّ ، وعبد الحق الغرناطيّ أو البّجاويّ (1) ، كما ذكر أمحمّد أطفيّش هود بن محكم الهواريّ ، وابن العربيّ والثّعالبيّ وغيرهم ممّن أشرنا اليهم في البحث .

وآخر ما يمكن ملاحظته ، تيسام عمار طالبي بتحقيق (الجواهر) وتخريجه في طبعة مشوّقة تيسّر على القارئ دراسته وترغبه في ذلك ، وبقاء كتاب (التّيسير) على حالة طبعته الحجريّة المليئة بالأخطاء ، وان كانت وزارة التّراث القوميّ والثقافة بسلطنة عمّان قامت بمبادرة طبعه ، لكن دون تحقيقه واعادة ترتيبه .

---

1 - ن م . 1 / ل .

المقارنة بين التّيسير والمنار:

من المعلوم أنّ الشيخ محمّد أطفيّش قد عاصر الحركة الاصلاحيّة، التّي تزعمها جمال الدّين الأفغانيّ ومحمّد عبده من بعده، وهذه المعاصرة تقتضي من المفسّر أن يتأثّر بها، ويؤثّر فيها، ولا سيما وهو يمثّل أحد الدّعاة الى معاداة الحركة الاستعماريّة وتوحيد كلمة المسلمين كما بيّنا ذلك في المبحث الخاصّ بتعريفه، وانّ كنّا لا ننفي هذا التأثير نفيا كلّيا فانّنا لا ندّعي بأنّه بلغ درجة التّي بلغها أولئك الدّعاة المصلحين وهذا في نظرنا يعود الى سببين رئيسيّين:

1) ثقافة المفسّر التّي تختلف عن ثقافة نظيريه محمّد عبده ورشيد رضا، هذه الأخيرة تحمل سيمات النّهضة الثّقافيّة العربيّة، وبداية عصر الانبعاث، بينما ثقافة أمحمّد أطفيّش هي ثقافة سلفيّة محضة.

2) اطلاع محمّد عبده وتلميذه رشيد رضا على الثّقافة الأوروبية ونهضتها، ومعايشتهما لبوادر الحركة التّحريريّة في العالم، بينما أمحمّد أطفيّش عاش في بيئة عرفت حركة استعماريّة شرسة، ولم يكن اطلاعه على النّهضة الأوروبيّة الحديثة ومعايشته لأحداث حركة التّحرير كاف ليتأثّر بها، ويتحرّر من الثّقافة السّلفيّة القديمة، ويعادي حركة الاصلاح غير أنّه قد أشاد بموافقات هذه الحركة مستنكرا غيرها التّي لا تدعو الى الانعتاق من الاستعمار(1) كما تشير بعض اعترافاته الى إنّه كان على اتّصال بمحمّد عبده عن طريق المراسلة.

ولهذه الأسباب، فانّ تفسيره يختلف عن تفسير (المنار) الّذي ألفه رشيد رضا، مدّونا فيه أقوال أستاذه محمّد عبده، ونظرا للطّريقة التّي تمّ بها تدوين هذه الأقوال، وانتماء كلّ منهما الى مدرسة الاصلاح ومحاولة رشيد رضا محاكاة منهجيّة أستاذه مع تغيير بسيط(2)، فانّنا نرى مقارنة هذا التّفسير من حيث كونه يمثّل وجهة نظر المدرسة الاصلاحيّة بالتّيسير لبيان أوجه الاختلاف والتّشابه بينهما.

---

1) التّيسير 2/791.
2) التّفسير والمفسّرون 3/248.

1) الثـورة على التّقليـد :

أوّل ما يلفت انتباه الدّارس لتفسير (المنار) ثورة مؤلّفيه على التقليد الأعمى، واعتماد مبدأ حرية التّفكير منهجا في تفسير القرآن، وهذا ما دعاهما الى محاولة فهم الآية أولا وادراك أبعادها ومعانيها قبل الرّجوع الى كتب التّفسير خشية التأثّر بغيرهما (1). وهذه المنهجية أملاها عليهما الهدف الأساسي الّذي حدّداه من نزول القرآن الكريم ويتمثّل فيما يلي :" والتّفسير الّذي نطلبه هو فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد النّاس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدّنيا وحياتهم الآخرة، فانّ هذا هو المقصد الأعلى منه، وما وراء هذا من المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله " (2).

ولذلك فهم يريان أنّ :" أكثر ما كتب في التّفسير يشغل قارئه عن هذه المقاصد العالية والهداية السّامية " (3).

فالدّارس من خلال ما تقدّم يتصور منهجيّة جديدة كلّ الجدّة في تفسير (المنار) تختلف عن منهجية سابقيهما، تبتعد عن الاستطراد في مباحث تحجب القارئ عن مقاصد القرآن الأساسية، غير أنّه يفاجأ عند مطالعته للمنار التّباين الواضح بين ما أقرّاه في المقدّمة وبين المنهجيّة المتبعة في هذا التّفسير، التي أدّت بهما الى ما حذّرا منه واستنكراه لا سيما ما كان من تأليف رشيد رضا، ولكن هذا الأخير يعلّل ذلك في المقدمة بقوله :

" وهذا انّني لمّا استقللت بالعمل بعد وفاته (4) خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتّوسع فيما يتعلق بالآية من السّنّة الصّحيحة سواء كان تفسيرا لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللّغويّة أو المسائل الخلافيّة بين العلماء وفي الاكثار من شواهد الآيات في السّور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتدّ حاجة المسلمين الى تحقيقها، بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر، أو يقوّي حججهم على خصومه من الكفّار والمبتدعة أو يحلّ بعض المشكلات الّتي أعالجها (5) بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النّفس" لكنّه ينصح القارئ بقراءة الفصول الاستطرادية الطّويلة مستقلة عن التّفسير (6).

---

1) ن.م. 3/224 - 244.
2) المنار 1/17 مقدمة التّفسير.
3) ن.م. 1/07 مقدمة رشيد رضا.
4) وفاة أستاذه محمد عبده.
5) لعل الصّحيح (أعالجها).
6) المنار 1/16 مقدمة رشيد رضا.

ومحمد عبده لا ينكر هو الآخر استعانته ببعض علوم البلاغة واللغة وقواعدها وقواعد الأصول (بقدر ما يحتمله المعنى) (1).

ومن هنا نستنتج أن (المنار) لم يلج — كغيره — من بعض المسائل التي تجعل التفسير يبتعد عن مقاصده ، وتقحمه في خلافات لغوية ونحوية ، وكلامية وفقهية ألخ . . حتى من اختصاص مؤلفات هذه الفنون والعلوم ، كما تجعل من التفسير التزام الموضوعية ، والتحرر من الدفاع عن وجهة نظر معينة في المسائل المذكورة آنفا ، والتي لا تخلو من التأثيرات الموروثة والمكتسبة من انتماء المفسر ، وتربيته ودراسته ، وكتاب (المنار) لا يختلف عن (التيسير) في هذا الجانب ، فقد تعرض مؤلفاه لهذه المسائل كما لاحظنا ذلك في (التيسير) ، واذا كان الأمر كذلك فأين تظهر ثورته على التقليد ؟ .

تظهر هذه الثورة في بعض المفاهيم منها : —

اعتبار القرآن مصدر هداية الناس وارشادهم لما فيه خير دنياهم وآخرتهم ، وينبغي لذلك أن يكون : " أصلا يحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذي يحمل عليها ، ويرجع بالتأويل والتحريف اليها ." (2)

ومن الملاحظ أن الفكرة الأخيرة بحاجة الى النظر ، اذ كل مذهب يرى أنه استمد أفكاره ومعتقداته من القرآن والسنة ، فهي مطابقة لما جاء فيهما ، واذا لجأ الى تأويل آية كان ذلك في نظره — تأويلا يقتضيه معنى هذه الآية ، ومن باب حمل المتشابه على المحكم ولذلك فان هذا المفهوم يحتاج الى أدلة تثبت صحة تجعل تفسير معين أو مذهب خاص الا ما هو معروف من الفرق الضالة التي أجمع المسلمون على زيغها وانحرافها عن الأصول الثابتة ، ويلحق بهذا المفهوم الاعتقاد بمذهب السلف الذي تمسك محمد عبده ، ورشيد رضا الأول في قوله تقبلاعنه : " . . وأنا على طريقة السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بالله تعالى وصفاته وعالم الغيب" والثاني في قوله : "(أقول) أنا مؤلف هذا التفسير انني ولله الحمد على طريقة السلف وهديهم عليها أحيا وعليها أموت ان شاء الله

---

1) ن م . 12/1 مقدمة التفسير .
2) ن م . 70/1 ، 71 .

تعالى :" وكأنّ المذاهب الأخرى تنكر آراء السّلف مع أنّها تستدل بها في صحّة عقائدها ، ومن المغالطة — اذن — الاعتقاد بأنّ هناك مذهبا سلفيّا محضا ، ولكن رغم تمسّكهما بمذهب السّلف الّذي يتجنّب التّأويل — على حدّ تعبيرهما — فانّهما يجمعان بين طريقتي السّلف والخلف في بحثهما للمسائل ويبرّر محمّد عبده ذلك بقوله :" وانّما نسير في فهم الآيات على كلا الطريقتين لأنّه لا بد للكلام من فائدة يحمل عليها ، لأنّ الله عزّ وجلّ لم يخاطبنا بما لا نستفيد منه معنى " ويضيف رشيد رضا غرضا آخر ألا وهو تخطئة الآراء المخالفة لمذهب السّلف وتفنيدها ، والجمع بين النّقل والعقل (1) ، ولكن محمّد عبده كان أكثر تحرّرا من تلميذه ، ويظهر ذلك من دعوته الى توحيد المسلمين وتجاوز الخلافات المذهبيّة مهما كانت في الأصول أو الفروع باعتبار هذه المذاهب :" معتمدة بكتاب وسنّة واجماع وما يشبه ذلك والنّصوص فيها متعارضة من الأطراف" ويحاول ايجاد عدّة احتمالات لتفسير حديث (ستفترق أمتي)لأنّها دالفرق الاسلاميّة عن الفرقة الهالكة ، ويقول في آخر بحثه لهذا الموضوع :" وممّا يسرّني ما جاء في حديث آخر أنّ الهالك منهم واحدة" (2) وذلك في تفسير قوله تعالى :" انّ الّذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعا .." 159/الأنعام .

ويرى رشيد رضا أنّ هذا الحكم قد صدر منه :" أيام اشتغاله بعلم الكلام في الأزهر ممتازا باستقلال الفكر وعدم التّقليد والبراءة من التّعصب والحرص على جمع كلمة المسلمين ، ولكنّه كان ينقصه سعة الاطلاع على كتب الحديث" وبعد دراسته لمذاهب المتكلمين والفلاسفة والصّوفيّة ، هداه الله الى مذهب السّلف .(3)

فهذه النظرة التوحيديّة للمسلمين بتجاوز الخلافات المذهبيّة دعوة نادى بها — كما رأينا — أحمّد أطفيّش في تفسيره قوله تعالى :" ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم " 46/الأنفال (4) ، غير أنّ التّحرر من النّزعة المذهبيّة يتجلّى في (المنار) أكثر من (التيسير) من حيث طريقة مناقشة آراء المذاهب الأخرى التي تعتمد الاقناع والدّليل منهجا ، ومن حيث مخالفة المذهب في بعض المعتقدات منها مثلا قضيّة الوعيد في أكل الرّبا مما جاء

---

1) ن.م . 252/1 ، 253
2) ن.م . 221/3 ، 222 .
3) ن.م . 222/3 .
4) التّيسير 791/2 .

فيها : " .. وما الوعيد بالخلود هنا الاكالوعيد بالخلود في آية قتل المسد ، وليس هناك شبهة في اللفظ على ارادة الاستحلال ، ومن العجيب أن يجعل الرازي الآية هناك حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة في النار ، انتصارا لأصحابه الأشاعرة ، وغير من هذا التأويل تأويل بعضهم للخلود بطول المكث . " (1) وجاء فيه ... أيضا ـ استنكار المؤلف لموقف أهل السنة من أئمة الجور ، فبعد الاشادة بمحاربيهم واعتبارهم فدائيين يقول : " وجمهور أهل السنة يرجعون في هذه المسألة الى قاعدة تعارض درء المفاسد وجلب المصالح ، وقاعدة ارتكاب أخف الضررين في مقاومة الظالم وأهله لئلا يفضي الى فتنة التفرق والشقاق ، ولكنهم أيدوا الظالمين وأطاعوهم بشبهة هذه القواعد حتى ضاع الاسلام وشرعه وتضعضع كل ملك لأهله ، لأنهم لم يحكموا تحكيمها وتطبيقها " . (2)

ونظرة أ محمد أطفيش الى المسألتين السابقتين مستوحاة من آنتماءه المذهبي ، نجده يؤمن بخلود الفاسق في النار اذا لم يتب (3) ويتجلى موقفه من أئمة الجور في قضية التحكيم وقتال الفئة الباغية (4) ودعوة الى عزل الامام الفاسق إن أصر على فسقه . (5)

فاذا كان هناك تقارب بين وجهات نظر المفسرين من مسألتي الخلود في النار ومحاربة أئمة الجور ، فان رؤية صاحبي (المنار) مستوحاة من موقفهما تجاه حالة المسلمين واستقراءهما لنصوص القرآن بينما وجهة نظر (التيسير) مستمدة أصلا من مبادئ المذهب الأباضي وان كان هذا لا يعني اتفاق وجهات نظرهما تمام الاتفاق .

ومن آثار ثورتهما على التقليد نقد الآثار الموضوعية من الأحاديث والروايات الاسرائيلية وهذا النقد يعود الى نظرتهما لهذه الآثار ، والتي ترى أن الصحيح منها قليل : " وأكثر التفسير المأثور قد سرى الى الرواة من زنادقة اليهود والفرس ومسلمة أهل الكتاب كما قال الحافظ ابن كثير : " وقد مست هذه الروايات قصص الرسل وأقوالهم

---

1) المنار 3/98، 99 .
2) ن م . 3/224، 225 .
3) التيسير 3/34 .
4) ن م . 5/474، 475 ــ 2/791، 792 .
5) ن م . 5/415 .

وأموراً لغيبٌ (1)، ويرى محمّد عبده أنّ هؤلاء المفسّرين أخذوا — ما سموه — من أهل الكتاب: " من غير تفريق بين غثّ وسمين، ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل " (2) كما يعود الى مفهوم منها لمقاصد القرآن، والاعتماد على نصوصه في الفهم، واعتباره المصدر الأوّل في التشريع، فلا عجب — اذن — اذا ناقش محمّد عبده أحاديث واردة في الصحيحين البخاريّ ومسلم، وأنكر منها ما يخالف غرض القرآن أو نصّه، وهذا ما دعا محمّد حسين الذّهبي الى القول: " فهو لا يثق بصحة الحديث رغم رواية الشّيخين له ويقول: " فلا ما نسح عندهم من عدم صحّة ما يرويه البخاريّ " الى أن يقول ردّاً عليه: " وهذا في نظرنا هدم للجانب الأكبر من السّنة للكتاب في منزلة المبيّن من المبيّن " (3)، ويبدو أنّ في هذا الحكم شيئاً من القساوة على محمّد عبده الّذي لم ينكر السّنة الصّحيحة ولم يستغن عنها، انّما كان يحمل بعض الأحاديث على معان توافق أغراض القرآن من ذلك مثلاً ما جاء في تفسير (المنار) ردّاً على أولئك الّذين يرون أنّ حوّاء خلقت من ضلع آدم: " .. وحديث أبي هريرة في الصّحيحين " فانّ المرأة خلقت من ضلع " على حدّ " خلق الانسان من عجل " (4) بدليل قوله: " فان ذهبت تقيمه كسرته، وان تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنّساء " أي لا تحاولوا تقويم النّساء بالشدة ." وذلك في تفسير قوله تعالى: " ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنّة .. " 19/ الأعراف . (5)

وقد تعرّض صاحب (التّيسير) — أيضاً — للنقد بعض الأحاديث بالتّشكيك في صحّتها بقوله: "اذا صحّ الحديث" أو بنقد سنده كقوله: " وفي سنده أبو هدبة وقد جرّب عليه الكذب" (6) أو بقوله: " ولا ندري أصحّ الحديث أم لم يصح وعلى صحّته فهو تمثيل لما سيكون" (7) والأحاديث الّتي تعارض وجهة نظر مذهبه يحاول حملها على معان موافقة لما إنّ احتمل صحّتها أو يردّها مثل قوله في رفع الأيدي في الصّلاة والقبض: " لا أحاديث وضعها أوائلهم أو غيرهم، ومذهبنا أنّها صحّت عنه صلّى الله عليه وسلّم لكن فعل ذلك لداع مشمل أن يفتح مسلاح من تأ بدله للشّرّ " (8).

---

1) المنار 1/ 97، 98.
2) ن.م. 1/ 13 مقدّمة التّفسير.
3) التّفسير والمفسّرون 3/ 243 المجلّد 2.
4) 37 / الأنبياء.
5) المنار 8/ 346.
6) التّيسير 4/ 457، 458 المجلّد 1.
7) ن.م. 4/ 228 المجلّد 1.
8) ن.م. 6/ 214، 215.

فقد اعتبر بعض الدارسين ذلك النقد وتمحيص الحديث ورد ما يخالف صريح القرآن من باب انكار السنة كما ذهب الى ذلك محمد حسين الذهبي، وهذا الاتجاه في تحقيق الحديث، أو على الأقل من السنة ناتج — في نظرنا — عن التشبث المفرط بالسنة صحيحها وضعيفها حتى أصبحت لدى بعض الفقهاء والمفسرين متقدمة على القرآن، ومقاصده ولا سيما ما ورد في الصحيحين، وان كان هناك تعارض واضح بين القرآن والسنة أو بين السنة والواقع والمنطق، فاذا حاول بعض المحققين التوفيق بينهما مع تقديم النص القرآني على السنة، ثارت ثائرتهم واتهموهم بانكار السنة أو تفسيرها على هواهم، وتصرف هؤلاء المحققين — في نظرنا — يعتبر دعوة منهم الى اعادة النظر في تمحيص السنة، وانتقاء الصحيح منها، واعادة تفسيرها مع ما تقتضيه مقاصد القرآن وأغراضه، ولا يعني هذا أن رد حديث أو أحاديث تعارض رأيا ما أو مذهبا في مسألة من باب التحقيق الذي أشرنا اليه، لغرض الرد وانما يكون ذلك بأدلة صحيحة باعتماد المنهجية التي سطرها دارسو السنة مع الاستعانة بالمناهج الحديثة في دراسة النصوص، فيتساوى في ذلك جميع كتب الحديث، لتخلص الى باقة من السنة الصحيحة تكون مصدر فهم القرآن، وتطبيق تعاليمه.

ومما تقدم يمكن استخلاص أن ثورة (المنار) على التقليد أدت الى ظهور مفاهيم جديدة في تفسير القرآن على ضوء الواقع، ودعوة الى تجديد منهجية التفسير، لكن رغم ذلك لم يتخلص من الاغراق في بعض المسائل التي عالجتها التفاسير السابقة، والتي كانت من أبرز أوجه التشابه بينه وبين (التيسير) الا أنه قد تناولها بطريقة أكثر تحررا منه، ولو تقيد مفسراه بالخطة والمنهجية التي رسماها في المقدمة، لخرج تفسيرهما من المألوف، ولكان أكثر تحقيقا للهدف الذي حدداه والمتمثل في كون القرآن كتاب هداية وارشاد.

وعلى التفسير أن يكون في خدمة الغرض لا كتابا حاقا مبعدا عن الله وعن كتابه وهو ما يقصد به حل الألفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمي اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيرا، وانما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرهما .." (1).

---

1) المنار 1/24 مقدمة التفسير.

وإذا قارنّا بين التّفسيرين في الرّوايات الإسرائيليّة وجدنا فرقا واضحا بينهما يظهر في اعتماد (التّيسير) على هذا المصدر في شرح بعض المسائل في القصص والغيبيّات وبيانها ، بينما يتجنّب (المنار) الخوض في هذه المسائل بإعتبار أنّ قصص القرآن تهدف الى العبرة لا الى الجانب التّاريخيّ الّذي هو ليس من مهمّة الدّين (1) ويحذّر محمّد عبده من هذه القصص قائلا :" وقد قلت لكم غير مرّة أنّه يجب الإحتراس في قصص بني اسرائيل وغيرهم من الأنبياء ، وعدم الثّقة بما زاد عن القرآن من أقوال المؤرّخين والمفسّرين .." الى أن يقول :" فنحن نحذر المفسّرين الّذين حشدوا كتب التّفسير بالقصص الّتي لا يوثق بها لحسن قصدهم ، لكنّنا لا نقول على ذلك بل ننتهي عنه ونقف عند نصوص القرآن لا نتعدّاها ، وإنّما نوضّحها بما يوافقها اذا صحّت روايته " (2)، لكن مع كلّ هذا الحذر والتّحذير نجد رشيد رضا يساق وراء بعض الرّوايات الّتي ينقلها من التّفاسير السّابقة ، أو من التّوراة والإنجيل محاولا التّعليق على بعضها .(3)

ولذلك فانّه رغم دعوة المفسّرين الى الإستفادة من عبر قصص القرآن ، والأكتفاء بما ورد فيها ، فانّ تفسيرهما لم يخل من الرّوايات الإسرائيلية .

الدعوة الى اصلاح المجتمع في التّفسيرين :

انّ أبرز ما يميّز تفسير (المنار) هو دعوته الصّريحة الى اصلاح حال المسلمين بالقضاء على البدع والشّعوذة والتّدجيل في العقيدة ، والعبادات والسّلوك والمعاملات والتّحذير من مكائد الإستدمار والأخذ بأسباب الحضارة فهذه الدّعوة كانت احدى المبادىء الأساسية للحركة الإصلاحيّة ، نجد أثرها واضحا في تفسير (المنار) انطلاقا من دورته على التّقليد والمقلّدين سواء في فهم القرآن وتفسيره ، أو في اتّباع الأئمّة دون استخدام العقل والرّجوع الى القرآن والسّنّة لإستلهام التّشريع والهداية ، ويظهر ذلك ممّا جاء فيه :" أنّ المسائل الدّينية المحضة وهي العقائد والعبادات تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السّنّة لها ، بالقول والعمل ، على الوجه الّذي كان عليه الصّدر الأوّل من الصّحابة ، فما أجمعوا عليه فلا عذر لأحد في مخالفته ، وما اختلفوا فيه يظهر في دلائله ويرجح بعضه على بعض .." ويضيف قائلا :" ولا يلتفت الى الشّذوذ ولا يجوز بحال من الأحوال احداث عبادة جديدة أو الإتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الّذي كان

---

1) ن م ، 279/1 .
2) ن م ، 347/1 .
3) أنظر مثلا في ن م ، 347/1 ، 343 وقصّة المائدة في ن م ، 256/07 ، 257 .

عليه النبيّ (ص) و جمهور أصحابه (رض) لا بقياس، و لا بدعوى اجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة، و لا بغير ذلك من العلل و النّظريّات و ذلك في تفسير قوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا تسئلوا عن أشياء ان تبد لكم . ." 101/المائدة (1).

و في تفسير قوله تعالى :" وقالت اليهود عزير بن الله . . . ولو كره المشركون" 30 ـ 33 / التّوبة يستنكر على مقلّدي شيوخ المذاهب ، والاعراض عن الكتاب و السّنّة ولا سيّما أولئك الّذين يتّبعون " مشايخ الطّرق في بدعهم و قلوبهم " و يستدرك قائلا : " و يوجد فيهم في هذا الزّمان من هم مثل من ذكر الرّازيّ ومن هم شرّ منهم ".(2)

و هذه الحملة الّتي شنّها على التّقليد و المقلّدين هي ميزة هذا التّفسير ، و تبيّن لنا مدى تحمّس محمّد عبده و رشيد رضا الى التّجديد ، والقضاء على أسباب تخلّف المسلمين و الاقتداء بالسّلف الصّالح من عهد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم و الخلفاء الرّاشدين ، كما يشيدان بالحضارة الغربية الاسلاميّة في عهد آزدهارها .

و التّقليد في نظرهم قسمان تقليد الآباء و المشايخ المشعوذين ، و تقليد أوروبا في قوانينها المخالفة للشّريعة الاسلاميّة و يفهم هذا من قوله :" فهما ضلالتان ـ ضلالة التّقليد و العصبية للآباء و الأجداد ، و لا تزال تكأة أكثر الضّالين في أصل الدّين و في فهمه وفي الاهتداء به ـ و ضلالة الغلو في الحرية الشخصيّة الّتي لم تكن فتنتها في زمن ما أشدّ و أعم في هذا الزمن ، بما بثّ الافرنج انفاتون المفتونون لدعوتها في كلّ الأمم . " وقد قال من قبل :" ومن عجيب أمر حكومتنا المصريّة أنّها تقلّد الافرنج في نظام التّعليم وفي اطلاق الحريّة الشّخصيّة" (3).

وقد كانت مباحثه تدور حول هاتين المسألتين في معظم ما تناوله في اصلاح المجتمع والحكم ، وما هو السّبيل الى تحقيق ذلك في نظره ؟

لا يسترجع المجتمع الاسلاميّ مجده الّا بالرّجوع الى ما كان عليه السّلف الأوّلين الّذين كانوا يهتدون بالقرآن و السّنّة المبيّنة له ، والاستفادة من حضارة أوروبا مثلما استفادوا هم

---

1) ن م. 7/193.
2) ن م. 10/363.
3) ن م. 8/530 و 531.

من الحضارة الإسلاميّة ، وبل مباراتهم في العلوم والفنون . (1)

فيهاجم بشدة دعاة التّقليد والمقلّدين ، وما ينشرونه من دعايات توهم العامّة أنّ دعوة التّجديد الى الاستقلال في فهم الكتاب والسّنّة والاجتهاد ، إنّما هي الخروج من الإسلام .

كما دعا الى التحرّر من الاستعمار بكل الوسائل المتاحة المسلمين تحت راية الجامعة الإسلاميّة ، ويبين التّقاعس عن ذلك خيانة ، وقد وجّه في هذا الغرض نداء بعد أن استعرض مكائد الغرب وغزوهم المبادئ الإسلاميّة ومحاولة انشاء التّفرقة بين المسلمين ومساعدتهم لليهود على قيام دولتهم في فلسطين وجاء ذلك في تفسير قوله تعالى : " قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر . " 29/التّوبة (2) .

وان قارنّا ذلك بوجهة نظر أمحمّد أطفيّش ، لا نجد في تفسيره سوى بعض اللّمحات الّتي تدعو الى وحدة المسلمين ، وقتال النّصارى ، وتجنب البدع (3) ، وقد أشرنا الى بعضها في الفصل الثّاني من هذا الباب ، وقد كان يتابع باهتمام ـ فيما يبدو ـ حروب المسلمين مع أوروبا ، ولذلك كان يدعو للخلافة العثمانيّة بالنّصر . (4)

وهذا الاختلاف في رأينا ، يعود الى الأسباب الّتي ذكرناها في مدخل هذا المبحث والى هدف كلّ واحد من تفسيره ، فقد ألّف أمحمّد أطفيّش تفسيره لسدّ الفراغ الّذي عرفه المذهب الإباضيّ في هذا العلم ومساعدة طلبته على دراسته ، بينما كان يهدف محمّد عبده ورشيد رضا من تأليفه الى معالجة القضايا المعاصرة لهما ، ابتغاء تحقيق الأهداف السّالفة الذّكر ، وان كان هذا لا يمنع أن يكون غرضهما ـ أيضا ـ هو التّعليم ويبدو ذلك من المباحث الّتي أضافها رشيد رضا في تفسيره ، فهو بذلك يجمع بين غرضي الإصلاح والتّعليم .

3) توظيف العلوم الحديثة :

أنّ توظيف العلوم في التّفسير ظاهرة تعود الى عصر ظهور التّفسير على شكله المعروف ، ولا نبالغ حين نقول بأن عصر الصّحابة والتّابعين قد عرف هذه الظّاهرة وتدل على ذلك ما ورد في الآثار من آرائهم في بعض الظّواهر الكونيّة ، الا أنّ التّفسير لم يعرف

---

1) ن م ، 253/11 ، 254 (دحض شبهة في اقامة حجّة) .
2) ن م ، 306/10 ـ 321 ، 226/8 ـ 232 .
3) التّيسير 370/5 .
4) ن م ، 592/4 المجلّد 02 .

التّوظيف بمعناه الحقيقيّ ألاّ في العصور المتأخّرة ، و يعزو صاحب (المنار) ذلك الى تفسير الفخر الرازيّ . (1)

غير أنّ ما ورد في هذه التّفاسير من جملتها كتاب (التّيسير) لا يعدو أن يكون علوما عامّة ، بحاجة الى التّدقيق ، و لم تخضع ـ أغلبها ـ للتّحقيق العلميّ و التّجربة و هو من تراث الأمم السّابقة منها العرب معرفتهم ممزوج بما أضافه علماؤهم بآستثناء بعضها ، بينما نجد بصمات العلوم الحديثة و الاختراعات واضحة في (المنار) و قد وظّفها لضرب أمثلة لتوضيح بعض المفاهيم الغامضة ، مثل ضربه لمثل تطوّر الهاتف لتصديق احتمال وصول العلماء الى اختراع جهاز ينقل الصّورة و الصّوت عملا بقياس ما يكون على ما كان بعد العلم بوحدة الوسائل ، و هذا المثال ضربه للتّصديق بالغيب و قدرة الخالق و ذلك في تفسير قوله تعالى :" و اذ قال ربّك للملائكة . ." 30/البقرة (2) ، أو يوظّف هذه العلوم لتوضيح الآية ، و افادة القارئ بمعلومات جديدة لها علاقة بها على غرار من سبقه لكن بآستعمال العلوم الحديثة ، مثل تعرضه للغازات الموجودة في الهواء و تعريفه بتركيباتها ، و فوائدها و مضارها و معلومات أخرى حول الرّياح الخ . . و ذلك في تفسير قوله تعالى :" و هو الّذي يرسل الرّياح نشرا . . . لقوم يشكرون" 56 ، 57/ الأعراف (3) .

و يحسّ القارئ لهذه المعلومات في (المنار) بآطّلاع صاحبه على بعض العلوم الّتي عرف كيف يستغلّها في تفسيره و ان كان قد وصل به الإطناب ـ أحيانا ـ الى الخروج عن مقاصد القرآن ، و هو ما عاب عليه المفسّرين الّذين سبقوه .

و اذا استثنينا المسائل الّتي ذكرناها و الّتي تبيّن أوجه الاختلاف و التّشابه بين التّفسيرين في مجال التّجديد و التّقليد ، لا نلاحظ في المسائل الأخرى فرقا كبيرا بين التّفسيرين ، إلاّ من حيث توظيف أصحاب أطفيّش الأوسع لعلوم قواعد اللّغة و البلاغة و الآثار الأدبيّة بالمقارنة بنظيره .

و خلاصة القول أنّ (المنار) يختلف عن (التّيسير) من حيث معالجته لمسائل العصر و كانت خطوة رائدة خطاها مؤلّفاه نحو التّجديد ، و الثّورة على التّقليد ، و جعل القرآن كتاب هداية ، و تشريع ، و اصلاح و ان كانا لم يتخلّصا تمام التّخلص ـ لا سيما رشيد رضا ـ من التأثيرات المذهبيّة و العقائديّة .

---

1) المنار 1/07 مقدمة رشيد رضا .
2) ن م . 1/256 .
3) ن م . 08/ 432 ـ 439 .

ومن المنهجيّة الّتي سلكها من سبقهما ، والّتي كانت موضوع نقدهما ، فلو اختار في تأليفه منهجيّة تتلاءم والهدف الّذي حدّداه لكان لتفسيرهما تأثير أكبر على المجتمع الاسلاميّ ، ولعلّ من الأسباب الّتي جعلت هذا التّفسير يحيد عن الخطّة الّتي رسمها له محمّد عبده على وجه الخصوص ، تأثّر رشيد رضا ببعض المصلحين السّابقين ، الّذين عاشوا في ظروف تختلف كلّ الاختلاف عن ظروفه مثل ابن القيّم وابن تيميّة (1) والشّوكانيّ وغيرهم ، على الرّغم من محاولة تجنّبه لمطالعة كتب التّفاسير السّابقة خوفا من التّأثّر بها إلّا بعد أن يحدّد فهمه للآية .

ومع ذلك فإنّ هذا التّفسير قد سجّل تقدّما واضحا بالمقارنة بتفسير (التّيسير) الّذي تقيّد فيه صاحبه بمنهجيّة من سبقه من المفسّرين متأثّرا بهم ومقتفيا آثارهم ، مع وجود بعض أفكار التّجديد فيه ، وكان يجمع بين النّقل والعقل في معالجة بعض المسائل العقائديّة والغيبيّة ، الّتي وإن عالجها نظيره بنفس الطّريقة ، لكنّ ما كان يلجأ مؤلّفه الى حسم النّزاع باللّجوء الى الحلّ السّهل وهو ما كان عليه السّلف في حدّ تعبيره المتمثّل في " الايمان بظاهرها (2) ، مع تنزيه الله تعالى عمّا يوهمه ذلك الظّاهر ، وتفويض الأمر فيه الى الله تعالى " (3) ، وكان مع ايمانه بمذهب السّلف يلجأ الى التّأويلات الّتي يريدها دفض حجج المتكلّمين والفلاسفة معتمدا خصوصا على مؤلّفات ابن تيمية وابن القيّم ، فهذه المنهجيّة — في رأينا — تتنافى مع طبيعة الاسلام والعقيدة الّتي تستدعي استخدام العقل بجانب النقل للوصول الى الاقتناع ، وتجنّب التّقليد الأعمى ، والّا ما استطاع أن يصارع التّيارات الفلسفيّة والفكريّة المختلفة ، والقرآن نفسه يدعو الى استخدام العقل ، وتورع المحجّة بالحجّة والتّأويل لا يتناقض مع تفويض الأمر الى الله بعد البحث والاقتناع وهذا — في نظرنا — من شيمة المحقّق البصير والنّزيه .

---

1) ومن اعترافاته بهذا التّأثّر قوله : " انّني لم يطمئنّ قلبي بمذهب السّلف تفصيلا الّا بممارسة هذه الكتب " مشيرا الى مؤلّفات ابن تيمية وابن القيّم ، المنار 1/253 .

2) الصفات تعود على صفات الله .

3) المنـــار 3/196 .

الخاتمة

— الخاتمـــــــــة —

ما يمكن استنتاجه من هذا البحث ، اعتبار محمد بن يوسف أطفيش مفسرا كسائر مفسري مدرسة السلف ، التي استغلت المصادر المعروفة لديها لتفسير القرآن الكريم واستجلاء معانيه ، ولذلك جاءت هذه التفاسير تحمل مميزات مشتركة كثيرة حتى لا يكاد يفرق الدارس بينها ، وقد لاحظنا هذا التشابه بين تفاسير أمحمد بن يوسف أطفيش وتفاسير أخرى الناتج عن التأثير، وهذه سمة مشتركة بين معظم تفاسير هذه المدرسة ، التي هي تكرار لما سبق أو تلخيص لها ، أو جمع لآراء السابقين ، والتفسير الذي درسناه تطغى عليه الميزة الأخيرة ، فمن الصعب تحديد اتجاه المفسر لجمعه لشتى المعارف من فقه ، وحديث ، وعلم كلام ، وأدب ، وقواعد ، وتاريخ ، ونحوها .

فاذا كنا قد صنفنا تفسيره في اتجاه معين وألحقناه بمنهجية محددة ، فذلك من باب مراعاة هدف المفسر من تأليفه من جهة ومن باب اعتبار الميزة الغالبة عليه من جهة أخرى ، ولهذا صنفنا تفسيره " التيسير " في صنف " التفسير التعليمي " الذي خاض فيه المفسر في مسائل مختلفة مستهدفا من ذلك افادة دارس هذا العلم ، غير أن الطابع المميز لهذا التفسير هو تصويره لوجهة نظر الاباضية في مسائل مختلفة ، لا سيما العقائدية فهو بذلك يمثل تفسير احدى المدارس الاسلامية ، وقد تعمد المفسر فيه الدفاع عن هذه المدرسة وابراز فضلها وحججها وأدلتها لاثبات صحة آرائها ، كما حاول تفنيد أدلة مخالفيهم ، مستعملا — أحيانا — بعض عبارات العنف ، عزونا ذلك الى عاملين :

1) ايمان المفسر بصحة هذه الآراء ، وهذه عادة كل مدافع عن فكرة مؤمن بها ، لا سيما في المسائل العقائدية والدينية التي تتطلب الايمان الراسخ واليقين الصادق .

2) تعرض هذه المدرسة الى اتهامات ، وهجومات استهدف منها تمييعها وابعادها عن الخط الاسلامي والجماعة المسلمة ورميها بالزيغ والضلال وما الى ذلك من نعوت .

ومقابل ذلك رأيناه يدعو صراحة الى توحيد كلمة المسلمين ، وتجاوز الخلافات ، كما دعا — عمليا — الى ذلك بعرض آراء المدارس الأخرى مع بيان أدلتها ، والاستفادة منها .

ولا يخلو تفسيره من بعض آرائه الخاصة في بعض المسائل الدينية أو العلمية أو الاجتماعية ، التي تبرز من خلالها شخصيته ، غير أن ذلك قليل بالمقارنة بتفاسير المدرسة الاصلاحية المعاصرة ، أو التي عرفت فيما بعد تطورا واضحا في المضمون والمنهجيـــة .

.../...

فهذا ما يمكن استنتاجه وملاحظاته من خلال دراسة مضامين تفسيره ، فأمّا من حيث المنهجية التي سلكها فيه ، فقد لاحظنا بوضوح طغيان منهجية التفسير بالدّراية ، وتتجلّى خاصة في تأويله للآيات التي يفهم منها التّشبيه ، واستعمال أسلوب الاستدلال والتعليل والقياس غير أنّه كان يعتمد من حين لآخر منهجية التفسير بالمأثور .

ومما لاحظناه - أيضا - عدم اعتنائه كثيرا بذكر المصدر والسند ، وافراطه - أحيانا - في سرد بعض الروايات الضعيفة أو غير الموثوق في صحتها متصديا - تارة - لنقدها ، وتاركا الحكم عليها للقارئ تارة أخرى .

وهذا يعود الى ثقافة المفسّر ورغبته في جمع المعلومات واحترازه من تكذيب الرّوايات التي قد تكون صادقة .

ورغم المآخذ الملحوظة في تفسيره شأنه شأن معظم مفسّري مدرسة التفسير بالرأي السّلفيّة ، فان تفسيره يعتبر دائرة معارف لآراء أشهر المفسّرين السابقين ، الّذي جمع فيه وجهات نظر معظم المدارس الاسلاميّة وكذا بعض الفرق ، مع ابراز وجهة نظر الاباضيّة . من هذا تظهر أهميته بين كتب التفاسير في العالم الاسلامي ، وتعتبر - أيضا - بالنسبة للمدرسة الاباضية مرجعا لا يستغني عنه باحث ودارس لهذه المدرسة ، وقد غطّى فراغا واضحا عرفته مكتبة هذه المدرسة للأسباب التي ورد ذكرها في هذا البحث ، ولعل أهمية هذا المرجع يستمدها من هذا العامل ، ولولاه لآخذنا المفسّر على التّمسك بطريقة السّلف في التفسير ، وابتعاده عن معالجة واقعه وخوضه في مسائل لا تخدم مقاصد القرآن الكريم لكنه يعتبر من جهة لبنة في احياء التراث ودراسته يعطي صورة ولو متأخرة عن وجهة نظر الاباضيّة في العصور السابقة ، غير أنّ المفسّر لو خصّص أحد تفاسيره ، لا سيما الأخير لاصلاح الفرد والمجتمع تحقيقا لما جاء في قوله تعالى : "وإنّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم" الآية 09 / الاسراء ، لكانت مساهمته أكثر فائدة في هذا المجال ، وان كان تحقيق هذا الغرض ليس أمرا سهلا ، اذا أخذنا بعين الاعتبار التأثيرات المختلفة في المفسّر وخوفه من التّقول على الله ، وصعوبة التّخلص من المعتقدات وهذا ما رأيناه في تفسير " المنار " الّذي حاول فيه صاحباه التحرّر من ذلك ولكنهما لم يفلحا ، مما جعلهما ، لا سيما رشيد رضا يتخليان عن المنهجيّة التي سطراها في المقدمة .

.../...

ومن هنا نخلص الى القول بأنّ تغيير منهجية التّفسير أصبح ضرورة ملحة ، بغية تحقيق أهداف القرآن الكريم في هداية البشرية و تجسيد تعاليمه في الحياة عملا بقوله تعالى :" اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه أولياء" الآية 3 / الأعراف.

وحتى لا تبقى التفاسير مجرد معارف لها صلة بالتراث أكثر من صلتها بحياة الانسان ومساعدته على الاستنارة بالقرآن الكريم في كل زمان ومكان مصداقا لقوله تعالى :" هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون " الاية 20/الجاثية .

الفهارس

القرآن الكريم

الأحاديث النبوية

الأعلام

البلدان والأماكن

المذاهب والفرق والأمم

المصادر والمراجع

الموضوعات

- فهرس القرآن الكريم -

السورة	الآيــــــة	رقم الآيـات	الصفحــة
	. ومن لم يطعمه فانه مني ...	249	132
	. وان كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة	280	205
	. يأيها الذين أمنوا اذا تداينتم ..	282	141
	. يحاسبكم به اللـــه ...	284	229
آل عمران (3)	. وأنزل التورية والانجيل	03	155
	. هو الذي أنزل عليك الكتاب منه ..	07	203، 206
	. انك أنت الوهـاب	08	126
	. من النساء والبنين والقناطير المقنطرة	14	153
	. فنادته الملائكة وهو قائم	39	196
	. وامرأتـي عاقـر	40	196
	. ان الله اصطفاك وطهرك ..	42	196
	. أنى يكون لي ولـد ...	47	196
	. ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون	78	246
	. من قبل أن تنزل التوريــة	93	192
	. ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم ...	105	206، 219، 252
	. ولو آمـن أهل الكتاب ...	110	139
	. الذين ينفقون في السراء والضراء .	134	165
النساء (4)	. فانكحوا ما طاب لكم من النساء ..	03	154
	. وآتوا النساء صدقاتهن ...	04	156
	. وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح	06	155
	. وللنساء نصيب مما ترك الوالدان ..	07	226
	. وله أخ أو أخـت ...	12	152
	. ثم يتوبون من قريـب ...	17	235
	. يأيها الذين أمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكـارى	43	148
	ان الله لا يغفر أن يشرك بـه ...	48	234

السورة	الآية	رقم الآيات	الصفحة
	• ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه	82	182، 183
	وإذا ضربتم في الأرض ..		
	• فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة	101	211، 214
	• ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء	116	130
	• وإن يتفرقا يغن الله كلا ...	130	210
	• ولن يجعل الله للكافرين على المومنين	141	210
	• ان المنافقين في الدرك الأسفل من النار	145	149
	• فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ..	153	206
	• وقلنا لهم لا تعدوا في السبت ..	154	177
	• لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل	165	212، 222، 228
	• وروح منه ...	171	246
المائدة (5)	• ومن لم يحكم بما أنزل الله ..	46	02
	• الا ما يتلى عليكم ..	01	145
	• يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر ..	30	84، 149، 217
	• حرمت عليكم الميتة والدم ..	03	145
	• والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب	05	150
	• ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا	09	110
	• وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا .	12	240
	• والسارق والسارقة ...	33	234
	• ومن لم يحكم بما أنزل الله	44	254
	• فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه	54	202
	• انما وليكم الله ورسوله ..	55	225
	• ولتجدن أقربهم مودة ...	82	248
	• يأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر	90	148
	• يأيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم ..	101	277
	• لا أعذبه أحدا من العالمين ..	115	257

الصفحة	رقم الآيات	الآية	السورة
153	118	. ان تعذبهم فانهم عبادك ..	
145	61	. حتى اذا جاء أحدكم الموت توفته	الأنعام (6)
209	90	. فبهداهم اقتده	
183	103	. لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار	
120	107	. ولو شاء الله ما أشركوا ...	
139	125	. فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره	
		. للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا .	
143	133	. ويستخلف من بعدكم ما يشاء ..	
178	151	. ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ..	
178	152	. ولا تقربوا مال اليتيم ..	
150	154	. ثم اتينا موسى الكتاب تماما	
207	158	. لا ينفع نفسا ايمانها لم تكن امنت من	
		قبل أو كسبت في ايمانها خيرا	
272،225،117،116	159	. ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا	
213	09	. ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا	الأعراف (7)
151	10	. وجعلنا لكم فيها معايش	
232،228	12	. قال ما منعك الا تسجد اذ امرتك قال	
		أنا خير منه ..	
274	19	. ويآدم اسكن أنت ..	
162	20	. وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة	
240	22	. وناديهما ربهما ألم انهكما	
257	24	. قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو	
255	43	. وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله	
279	58،57	. وهو الذي يرسل الرياح نشرا بين	
		. يدي ... لقوم يشكرون ..	
240	64	. فأنجيناه والذين معه في الفلك	
241	85	. والى مدين أخاهم شعيبا	

السورة	الآيـــــة	رقم الآيات	الصفحـــة
	. قال لن تراني ...	143	264
	. ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون ...	159	243
	. ولله الأسماء الحسنى	180	130
	. اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم	03	283
الانفال (8)	. وما النصر الا من عند الله ..	10	200
	واذا تتلى عليهم اياتنا قالوا قد سمعنا	31	121
	. فامطر علينا حجارة من السماء	32	147
	. اذ يريكهم الله في منامك قليلا ..	43	120
	. ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم	46	272،247،217،215
	. ورئاء النـاس ...	47	119
	. حتى يغيروا ما بأنفسهم ..	53	118
	. يأيها النبيء حسبك الله ومن اتبعك من المومنين	64	123
التوبة (9)	. فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم	05	149
	. يأيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا	28	149 ، 118
	. قاتلوا الذين لا يومنون بالله ..	29	278
	. وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح بن الله ذلك قولهم بافواههم .. ولو كره المشركون ...	33،30	277،150
	. ان عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهرا	36	118
	. الا تنصروه فقد نصره الله	40	132
	. وما هم منكم	56	118
	. المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يامرون بالمنكر وينهون عن المعروف	67	118
	. والذين اتبعوهم باحسان ..	100	132

السورة	الآيـــة	رقم الآيات	الصفحة
	. الذين اتبعوه في ساعة العسرة . .	117	250
	. وما كان المؤمنون لينفروا كافـة .	122	129
	. ولو أرادوا الخروج لاعدوا له عدة	46	02 الهامش 04
يونس (10)	. ان هذا لسحر مبين . . .	02	183
	. ثم استوى على العـرش . .	03	220
	. ما لهم من اللـه من عاصم .	27	177
	. فماذا بعد الحق الا الضـلال .	32	85
	. أفمن يهدي الى الحق أحق أن يتبع	35	85
	. فان كنت في شك مما أنزلنا اليك	94	197
	. ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا	99	227
هــود (11)	. فاتنـا بما تعدنـا . . .	32	147
يوسف (12)	. اني رأيت أحد عشر كوكبا . .	04	260
	. وجاؤا على قميصه بدم كذب . .	18	120
	. لقد كان في قصصهم عبرة . . يومنون	111	161 ، 163
الرعد (13)	. الله الذي رفع السموات بغير عمد	02	207
الحجر (15)	. ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين	02	165
	. لأزينن لهم في الأرض . منهم مخلصين	39، 40	232
	. قال هذا صراط علي مستقيـم .	41	232
	. فوربك لنسألنهم أجمعين . .	92	183
النحل (16)	. وتحمل أثقالكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس . . .	07	259
	. من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا	66	188
	. وجعل لكم السمع والابصار والأفئدة	78	193
الاسراء (17)	. انّ هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم	09	282
	. ان ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر	30	140
	. ولا تجعل مع الله الها اخر فتلقى في	39	142

الصفحــــــة	رقم الآيـات	الآيــــــــــة	السورة
		جهنم ملوما مدحورا	
154	111	. وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا	
167	09	أم حسبت أنّ أصحاب الكهف والرقيم . .	الكهف (18)
173	10	. وهيّ لنا من أمرنا رشـــدا	
157	18	. ولملئت منهم رعبا . .	
153	24	. الا أن يشاء الله	
173	77	. حتى اذا أتيا أهل القرية استطعما أهلها	
174	90	. حتى اذا بلغ مطلع الشمس	
مقدمة أ	01	. الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب	
124	65	. هل تعلم له سميــا . . .	مريم (19)
163	09	ـ وهل اتيك حديث موسى . .	طـه (20)
148	10	. لعلّي ءاتيكم . .	
146	18	. قال هي عصاي أتوكؤا عليها وأهش	
		بها على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى . .	
183	20	. فاذا هي حيّة تسعى . .	
163	61	. قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا	
36	67، 68	. فاوجس في نفسه . . . أنت الأعلى	
168	85	. وأضلهم السامريّ . .	
162	120	. هل أدلك على شجرة الخلد . .	
147	08	. وما جعلناهم جسدا الا يأكلون الطعام	الانبياء (21)
147	09	. وأهلكنا المسرفين . . .	
208	28	. ولا يشفعون الا لمن ارتضى	
274	37	. خلق الانسان من عجل . . .	
241	83	. أني مسّني الضر . .	
159	98	. انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم	
160	101	. ان الذين سبقت لهم منا الحسنى . .	

السورة	الآيــــــة	رقم الآيات	الصفحة
الحج (22)	. ان زلزلة الساعة شيء عظيم . . .	01	137
	. وهدوا الى الطيب من القول . .	24	147
المومنون (23)	. ثم انشأنه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين . . .	14	36، 228
	. فأخذتهم الصيحة بالحق . .	41	167
	. كل حزب بما لديهم فرحون . .	53	221، 246
النور (24)	. الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . .	02	36، 149
	. والذين يرمون أزواجهم . . الصدقين	06	159
	. والخامسة أن غضب الله عليها ان كان من الصادقين . .	09	264
	. وليضربن بخمورهن على جيوبهن . . ليعلم ما يخفين من زينتهن . .	31	169 ، 213
	. مثل نوره كمشكوة	35	170
	. كما استخلف الذين من قبلهم . .	55	224
	. فليحذر الذين يخالفون عن أمره . .	63	265
الفرقان (25)	. ما لهذا الرسول ياكل الطعام و يمشي في الاسواق . .	07	147
	. ونزّل الملائكة تنزيلا . . .	25	266
	. أولئك يجزون الغرفة . .	75	147
الشعراء (26)	. فاذا هي ثعبان مبين . .	32	183
	. واذا مرضت فهو يشفين . . .	80	236
	. والذي أطمع ن يغفرلي خطيئتي يوم الدين	82	236
	. أفبعذابنا يستعجلون . .	204	147
	. انهم عن السمع لمعزولون . .	212	148
	. والشعراء يتبعهم الغاوون . .	224	174
	. وانهم يقولون ما لا يفعلون . .	226	175
النمل (27)	. وهم في الاخرة هم الأخسرون . .	05	148
	. أواتيكم بشهاب قبس	07	148
	. واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من . .	82	197، 247، 255

السورة	الآيـــــة	رقم الآيات	الصفحة
	الأرض . . .		
	. الا من شاء اللـه	87	152
	. صنع الله الذي أتقن كل شيء . .	88	156
	. وأن اتلوا القرآن	92	153
القصص (28)	. كـأنهـا جان . . .	31	183
الروم (30)	. ومن ءايته يريكم . . .	24	147
	. فطرت الله التي فطر الناس عليها .	30	153
	. أولم يروا أن الله يبسط الرزق . . لقوم يؤمنون . . .	37	171
لقمان (31)	. ومن كفر فان الله غني حميد	12	143
	. وصاحبهما في الدنيا معروفا . .	15	171
	. والبحر يمده من بعده سبعة أبحر .	27	190
	. يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا . . . ولا يغرنكم بالله الغرور .	33	144
	. ان الله عنده علم الساعة	34	144
السجدة (32)	. قل يتوفاكم ملك الموت . .	11	145
	. فمأويهم . فمأويهم النار . .	20	181
الأحزاب (33)	. وما جعل أدعياءكم أبناءكم . . .	04	125
	. وأزواجه أمهاتهم . . .	06	226 ،210
	. يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا . يصلح لكم . . .	71 ، 70	141 ، 140
سبأ (34)	. اعملوا ءال داوود شكرا . .	13	173
	. فلما خر تبينت الجن أن لوكانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين .	14	248 ، 130
	. وقال الذين استضعفوا . .	33	141
	. وهم في الغرفات ءامنون . .	37	147

السورة	الآيــــــــــة	رقم الآيات	الصفحـــة
فاطر (35)	. الذين اصطفينا من عبادنا ..	32	225
	. الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن	34	147
	. أروني ماذا خلقوا من الأرض	40	146
يس (36)	. لقد حق القول على أكثرهم ...	07	138
	. والشمس تجري لمستقر لها	38	191 ، 190
	. وكل في فلك يسبحون ..	40	260
	. وما علمناه الشعر وما ينبغي له ..	69	181
الصافات (37)	. وجعلنا ذريته هم الباقين ...	77	240
	. فلما بلغ معه السعي	102	146
	. سبحان ربك رب العزة عما .. والحمد لله رب العالمين .	180 - 182	138
ص (38)	. ولات حين مناص ..	03	170
	. انه أواب ..	30	250
الزمر (39)	. الله يتوفى الانفس حين موتها ..	42	145
	. لئن اشركت ليحبطن عملك ..	65	146
غافر (40)	. أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عقبة الذين كانوا من قبلهم	21	180
	. وان المسرفين هم أصحاب النار	43	147
	. قالوا فادعوا ..	50	180
	. فاما نرينك بعض الذي ..	77	169
فصلت (41)	. لا ياتيه الباطل من بين يديه ..و ذو عقاب أليم ..	43 ، 42	184
الشورى (42)	.. ليس كمثله شيء ..	11	205 ، 203
	. ويعفوا عن السيئات ويعلم ما يفعلون	25	253 ، 221
الزخرف (43)	. انكم في العذاب مشتركون ..	39	168
	. ولما ضرب بن مريم مثلا اذا قومك منه	57	160 ، 159

السورة	الآيـــة	رقم الآيات	الصفحة
	يصدون		
	. يا عبادي لا خوف عليكم ..	68	168
	. وأنتم فيها خالدون ...	71	168
	. قل ان كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين	81	245
الجاثية (45)	. ويل لكل أفاك أثيم ..	07	158
	. وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعا منه ...	13	246
	. هذا بصائر للناس وهدى ورحمة .	20	283
الأحقاف (46)	. وبشرى للمحسنين ..	12	143
	. ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا	13	143
	. ويجركم من عذاب أليم ...	31	222
	. ومن لم يجب داعي الله ...	32	177
محمّد (47)	. ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل	03	172
	. وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم	38	202
الفتح (48)	. فمن نكث فانما ينكث على نفسه ..	10	215
الحجرات (49)	. يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ..	01	218
	.وان طائفتين من المومنين اقتتلوا فاصلحوا	09	166
	. يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن	12	155
ق (50)	. رجع بعيد ...	03	142
	. القيا في جهنم كل كفار عنيد ..	24	170
الذاريات (51)	. وذكر فان الذكرى تنفع المومنين ..	55	249
النجم (53)	. لقد رأى من آيات ربه الكبرى ..	18	220
	. وانه هو أمات وأحيا ..	44	171
القمر (54)	. ان المجرمين في ضلل و سعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر انا كل شيء خلقناه بقدر ه	47–49	237

السورة	الآيـــــــــــة	رقم الآيات	الصفحـــة
الرحمن (55)	. الشمس والقمر بحسبان ...	05	191
	. ووضع الميزان ...	07	155
	. الا تطغوا في الميزان	09،08	139
	. والارض وضعها للانام ...	10	155
	. والحب ذو العصف والريحان ..	12	155
	. فبأي آلاء ربكما تكذبان	13	153
	. رب المشرقين ورب المغربين ..	17	193
	. و يبقى وجه ربك ذو الجلال والاكرام	27	99
	. يسأله من في السماوات والارض كل يوم	29	194
	. فيومئذ لا يسأل عن ذنبه ...	39	183
	. يطوفون بينها وبين حميم آن ..	44	242
	. ذواتا أفنان	48	184
	. فيهن قاصرات الطرف ...	56	195
الواقعة (56)	. والسابقون السابقون ...	10	195
	. لا بارد ولا كريم	44	121
	. انهم كانوا قبل ذلك مترفين	45	197
	. أفرايتم ما تحرثون	63	124
	. أم نحن الزارعون	64	124
	. فلولا اذا بلغت الحلقوم	83	145
	. فسبح باسم ربك العظيم ...	96	138
الحديد (57)	. هو الاول والآخر والظاهر والباطن	03	235
المجادلة (58)	. قد سمع الله قول التي تجادلك ..	01	141
	. وللكافرين عذاب أليم ...	04	143
	. ان الذين يحادون الله ورسوله ..	05	143
	. الم تر الى الذين نهوا عن النجوى	08	142
الحشر (59)	. فاعتبروا يأولي الابصار ...	02	84
	. والذين جاءوا من بعدهم يقولون	10	234
	. ولئن نصروهم ليولن الادبار	12	146

السورة	الآيـــــــة	رقم الآيات	الصفحـــــة
الصف (61)	. كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون	03	143
	. و مبشرا برسول يأتي من بعده اسمه أحمد	06	243 ، 133
	. تؤمنون بالله ورسوله و تجاهدون في سبيل الله ...	11	146
	. نصر من الله وفتح قريب وبشر المومنين	13	146
الجمعة (62)	. يأيها الذين ءامنوا اذا نودي للصلاة من يوم الجمعـة فاسعوا الى ذكر الله	09	256، 146
	. واذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها وتركوك ..	11	159
الملك (67)	. ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح	05	260
	. ءامنتم من في السماء أن يخسف ..	16	258، 203
القلم (68)	. ن والقلم وما يسطرون	01	242
الحاقة (69)	. وانشقت السماء فهي يومئذ واهية	16	266
المعارج (70)	. سال سائل بعذاب واقع للكافرين ليس	02، 01	150
نوح (71)	. رب اغفر لي ولوالدي ...	28	248
الجن (72)	. وانه كان رجال من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا	06	248
	. وانا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وانا كنا .. رصدا	09، 08	148
المزمل (73)	. ونصفـه وثلثـــه ...	20	151
المدثر (74)	. فاذا نقر في الناقور فذلك .. غير يسير	08 ـ 10	165
	. انها لاحدى الكبر ...	35	250
	. وما تذكرون الا أن يشاء الله	56	137
القيامة (75)	. وخسف القمر وجمع الشمس والقمر	09، 08	235
	. وجوه يومئذ ناضرة الى ربها ناظرة	23، 22	265، 204، 183

السورة	الآيـــــة	رقم الآيات	الصفحة
الانسان (76)	. هل اتى على الانسان حين من الدهر	01	121،122 و 236
	. من نطفة أمشاج ...	02	192
	. عاليهم ثياب سندس...	21	236
عبس (80)	. قتل الانسان ما أكفره ...	17	133 ، 175
التكوير (81)	. وما صاحبكم بمجنون ...	22	195
الانفطار (82)	. اذا السماء انفطرت ..	01	266
	. ما شاء ركبك ...	08	174
المطففين (83)	. إذا تتلى عليه ءاياتنا قال أساطير الاولين ...	13	143
الانشقاق (84)	. اذا السماء انشقت	01	266
	. إنه كان في أهله مسرورا.....	13	177
البروج (85)	. والسماء ذات البروج	01	266
	. وهم على ما يفعلون بالمومنين شهود	07	213
الاعلى (87)	. اسم ربك الاعلى	01	124
الغاشية (88)	. تصلى نارا حامية . لا يسمن ولا يغني من جوع .	04 ـ 07	139
الفجر (89)	. ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد .	06، 07	163
الليل (92)	. فأما من طغى .. فسنيسره لليسرى	05ـ10	139
الضحى (93)	. ووجدك عائلا ...	08	266
البينة (98)	. لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ..	01	150
الهمزة (104)	. في عمد ممددة ...	09	179
الفيل (105)	. الم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل	01	165
الاخلاص (112)	. قل هو الله أحد .	01	160

مطلع الحديث أو موضوعه	مصدره	الصفحة
آية العز الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا	الجامع الصغير 1/04 جامع الشمل 1/128	15
اتقوا الله تعالى فان الله تعالى فاتح لكم وصانع	أخرجه الطبراني والحاكم	156
اتقوا مواقع التهم .	الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة 1/145 (مواضع) قال لا أصل له الشوكاني الفوائد المجموعة /251 .	155
أجر المجتهد	جامع الشمل 2/166 شرح السنة 10/115 مسلم 12/ 13المجلد 6	249
اذا استكمل المولود خمس عشرة سنة . . .	نيل الأوطار 5/249 رواه البيهقي عن أنس .	155
أسقه عسلا .	بخاري 10/139 ترمذي 8/135، 136 حديث حسن صحيح المستدرك 4/402 صحيح على شرط مسلم .	156 ، 189
اشرق ثبير اشرق ثبيرا	روته أسماء بنت عميس	226
اللهم اني اسألك مما سألك . . .		
أصبح من عبادي مومن وكافر . .	بخاري 2/522 الربيع الجامع/1 17،13 مسلم 2/ 59 — 60	127 الهامش/ 05
أطلبوا العلم ولو بصين . .	الربيع الجامع 01/09 . الألباني سلسلة الأحاديث الضعيفة 413 قال : (حديث باطل) اللآلي 1/ 139	155
. اعلم أبا مسعود فان الله أقدر عليك . . .	الربيع — الجامع 2/65 مسلم 11/130 المجلد 11	126
. افترقت اليهود . . .	الجامع الصغير/ 48 سلسلة الاحاديث الصحيحة 1/ رقم الحديث 203 . ابن ماجه 2/1322 .	116 ، 127

.../...

مطلـــع الحديث أو موضـــوعه	مصـــدره	الصفحـــة
افترقت المجـــوس ...	انفرد به أبو يعقوب	117
أمر الرسول صلّى الله عليه وسلّم عليا بتطليق من شاء من زوجاته بعد موته .	اعتراف عائشة يوم الجمل بوصية الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي على أهله . أخرجه الطبراني اللآلي 1/ 360 .	226
أمسك أربعا وفارق سائرهنّ ..	شرح السنة 9/ 89 الموطأ / 173 المستدرك 2/ 192 ، 193	154
آمنوا بمتشابهه	بخاري 8/ 209 ، 210 ابن حجر روي البخاري حديثا في هذا المعنى .	203
إن أحق الشروط أن يوفي ما استحللتم به الفروج	بخاري 5/ 323 ، الجامع الصغير 1/ 87 . النسائي 6/ 93 ابن ماجه 1/ 623 . وفاء الضمانة 3/ 109 .	156
أنت مني بمنزلة هرون من موسى ..	مسلم 15/ 174 ترمذي 13/ 175 بخاري 07/ 71 ابن ماجه 1/ 45 .	226
إن كل ابن آدم يفنى إلا عجم الذنب ...	الربيع الجامع 2/ 71 . شرح السنة 14/ 392 ، 15/ 122 بخاري 3/ 551 ، 552 مسلم 18 / 91 ، 92 .	127 ، 128
إن لكل صـــلاة طهـــارة ..	رواه في هذا المعنى البغوي شرح السنة 1/ 447 ترمذي 1/ 77 ، 78	238
— ب —		
بين كل أرض وأخرى خمسمائة عام .	ترمذي 12/ 183 حديث غريب	192
بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة قائما اذ قدمت عير المدينة ...	بخاري 2/ 422 أحمد 5/ 85 أبو داود 34	159

مطلع الحديث أو موضوعه	مصدره	الصفحة
ت —		
تفسير قوله تعالى: " إلا من شاء الله "	وفاء الضمانة 3/78 منهاج الصالحين 712.	152
تفسير قوله تعالى: " فطرت الله ..."	بخاري 08/512.	153
تفسير قوله تعالى: " القنطار ..."	المستدرك 2/178 حديث صحيح على شرط الشيخين ابن ماجه 2/ رقم الحديث 1207.	153
تكرير الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاته قوله تعالى: "إن تعذبهم ..."	شرح السنة 4/ 26 المستدرك 1/ 241	153
ث —		
...ن القدية (المروق من الدين)	الربيع الجامع 1/12 مسلم 7/ 169 - 174 المجلد 4. شرح السنة 10/ 226 سنن أبي داود 2/ 284 ابن ماجة 1/ 59 نيل الأوطار 11/ 157.	01
ج —		
...ا وز الفرسخين من المدينة الى ذي الحليفة..	الربيع - الجامع - 4/ 09	214، 126
ح —		
...جبك هـا أدخلك الجلسة.	شرح السنة 4/ 475 المستدرك 1/ 240 صحيح على شرط مسلم ترمذي 11/ 27.	154
ذ —		
... ذي الخويصر.	بخاري 12/ 290 شرح السنة 10/ 225.	04

مطلع الحديث أو موضوعه	مصدره	الصفحة
— ر —		
رؤية الباري .	الربيع الجامع 1/ 17 ، 18 بخاري 13/ 419 ، 420 مسلم 3/ 25 — 29 شرح السنة 2/224 المجلد 2 . ابن ماجة 1/ 63 — 73	205 ، 220 ، 265
رفع الايدي والقبض في الصلاة . .	بخاري 1/218 ، 219 ، 224 شرح السنة 3/20 ، 21 ، 26 ، 29 ، 30 ، 33 .	219
— ز —		
الزلزال	أحمد 3/ 310	187
— س —		
سبب نزول سورة الاخلاص .	الربيع الجامع 3/ 14 المستدرك 2/ 540 صحيح الاسناد	160
سبب نزول قوله تعالى :" ألم ترالى الذين نهوا عن النجوى .	نسب هذه الرواية الالوسي الى ابن عباس روح المعاني 23 / 25 .	142
سبب نزول قوله تعالى :"إن الذين سبقت لهم منا الحسنى .	رواه ابن مردوية والواحدى عن ابن عباس روح المعاني 17/95 .	159 ، 160
سبب نزول آيــة اللعان .	المستدرك 2/ 202 صحيح على شرط البخاري الربيع الجامع 2/ 49 بخاري 08/ 443 ، 449 مسلم 10/ 119 ، 134 المجلد 5 وفاء الضمانة 2/177 ابن ماجــة 1/ 668 سنن أبي داود 1/ 351 .	159

مطلـــــــــــع الحديث أو موضـــــــوعه	مصـــــــــدره	الصفحـــــة
• سجود الرسول صلّى الله عليه وسلّم في قوله تعالى :" وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون"	بخاري 2/ 556	126
سجود الشمس تحت العرش	بخاري 6/297 وفاء الضمانة 3/ 364 شرح السنة 15/ 94. مسلم 2/ 195، 196.	189
ش —		
الشيخ والشيخة اذا زنيا فارجموهما البتة نكالا من الله ...	مسلم شرح النووي 11/ 191 المجلد 06. بخاري ابن حجر12/143 المستدرك 2/415 صحيح الاسناد ابن ماجة 2/853	149
ص —		
صلاته بسورتي (الكافرون) و (الاخلاص) في سنة الفجر.	شرح السنة 3/ 455 ترمذي 2/ 210 ابن ماجـة 1/ 363	137
• صلاته بوضـــوء واحد	بخاري 1/315، 316 مسلم 3/177 المجلد 2 شرح السنة 1/ 443 ترمذي 1 / 79، 80 ابن ماجـة 1/ 170	238
• صلّى الظهــــر بالمدينــة.	الربيع الجامع 4/ 09 بخاري 2/ 569 3/ 407 مسلم 5/ 191، 192المجلد 3.	126
• صنفان من أمتي ليس لهما في الاسلام نصيب.	ترمذي 316/03 حديث غريب حسن صحيح ابن ماجة 1/ 24	237
ف —		
• فضل تلاوة سبحان ربك رب العزة...	ابن ماجة أدب 56 الترمذي دعوات 57، 65 الدرامي صلاة 90.	138

مطلـــع الحديث أو موضـــوعه	مصـــدره	الصفحـــة
ـ ق ـ		
قرأ اسم ربك الاعلى فقال سبحان ربي الاعلى .	شرح السنة 3/104 المستدرك 2/521 حديث صحيح على شرط الشيخين .	124
القدرية خصمـاء الرحمـن .		237
القدرية مجـوس الأمـة .	الربيع الجامع 3/10 شرح السنة 1/ 152 سنن أبي داود 2/270 ابن ماجة 1/ 35 الجامع الصغير 1/08 .	227
ـ ك ـ		
كل ابن آدم (انظر آن كل ابن ...)		
ـ ل ـ		
لا أخاف على أمتي الا ثلاث خلال ...	أخرجه الطبراني في معجمه الكبير .	126
لتتبعن سنن من قبلكـم ...	بخاري 6/ 495 ، 13/ 300 مسلم 16/ 219 ، 200 المجلد 08 شرح السنة 14/ 392 ابن ماجة 2/ رقم الحديث 1322	248
لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ..	بخاري 5/291 ، أحمد 4/ 136 شرح السنة 1/ 268 . سنن أبي داود 2/ 124	242
لو تعلّق الدين بالثريا لنا له رجال من أبناء فارس .	مسلم 16/100 ، 101 المجلد 08 . شرح السنة 14/ 200 .	202
لا يقولن أحد كم زرعت ولكن ليقل حرثت ..	أخرجه البزار ، وابن جرير ، وابن مردوية ، وأبو نعيم ، والبهقي وابن حيمان	124

.../...

مطلع الحديث أو موضوعه	مصدره	الصفحة
	روح المعاني 27/ 148	
م —		
ما كنا ندعوه الا زيد بن محمد	بخاري 08/517. طبقات ابن سعد 3/ 29	125
ما الكوثر ؟ ... قال هذا نهر ...	وفاء الضمانة 1/ 163 رواه أنس.	154
مالي أسمع الجن أحسن ...	ترمذي 12/177 رواه بهذا المعنى في المستدرك 2/ 473	153
من أصدق امرأة صداقا وهو مجمع ...	رواه الطبراني منهاج الصالحين/ 335	156
من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه ..	الجامع الصغير 2/178 الالباني سلسلة الأحاديث الضعيفة 1/304 ضعفه .	137
. من قرأها مائتي مرة محيت عنه ذنوب خمسين سنة الا ...	جامع الشمل 1/ 168 ترمذي 11/ 25 الالباني ، سلسلة الأحاديث الضعيفة 1/ 314 .	153
. من لم تنهه صلاته ...	الربيع الجامع 4/ 15 الجامع الصغير / 131 الالباني سلسلة الأحاديث الضعيفة 1/14 باطل	127
. من نام على يمينه وقرأ مائة ...	ترمذي 11/25 حديث غريب.	153، 154
. من وجد لقطة ..	شرح السنة 3/315 نيل الاوطار 5/ 338 سنن أبي داود 1/ 270 ابن ماجة 2/337	155
— ن —		
. النظر الى الخطيبة ..	مسلم 09/209، 210 المجلد 5، ترمذي 4/305 المستدرك 2/165 نيل الاوطار 6/109، 110	154

.../...

مطلـــــع الحديث أو موضـــوعه	مصــــــدره	الصفحـــة
نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن تعليم سورة يوسف للنساء ".	ابن ماجة 1/599 ، 600	136
و —		
وتر الرسول صلى الله عليه وسلم بسورة الاعلى	ترمذي 2/247 ،248 سنن النسائي 3/244 ، 246 المستدرك 2/520 صحيح على شرط الشيخين سنن أبي داود 1/ 225 ابن ماجة 1/ 370 ،371	138
وجوب السعي ..	بخاري 3/ 497 ، 498 مسلم 09/ 20 — 23 المجلد 05 نيل الاوطار 5/ 50 ابن ماجة 2/994 ،995.	222

— فهـــرس الأعــــلام —

— أ —

.../...

.../...

.../...

.../...

.../...

.../...

— ذ —

.../...

و. المعروف أن عبد الله بن وهب روى عن عبد الرحمن، جامع البيان 26/10 المجلد 6.

- زيد بن حارثة 140
- زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (79 — 122هـ)(698 — 740م). 131
- زيـــد = يحتمل أن يكون هو زيد بن مهلهل بن يزيد (حوالي 650م) المدعو زيد الخيل، ويؤكد هذا الاحتمال استشهاد الالوسي في تفسير نفس الآية ببيت من قصيدته وفي نفس الموضوع، سماه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد اسلامه (زيد الخير) 122
- زينب بنت جحش (20هـ) 140

— س —

- سالم بن حمـــود 21
- السامـري = الرجل الصائغ الذي صنع لقوم موسى عجلا جسدا له خوار فسجد له بعضهم بعد ذهاب موسى عليه السلام الى الجبل لمناجاة ربه عز وجل، لباب التأويل 131/2. 163
- سيبويه = عمرو بن عثمان بن قنبر مولى بني الحارث بن كعب (179هـ). 122، 132
- السيرافي = الحسن بن عبد الله المرزبان، أبو سعيد (270 — 368هـ). 122،132
- أبو ستـــة = محمد بن عمر القصبي الجربي من علماء القرن الحادي عشر المعروف عند اباضية المغرب بالمحشي لكثرة حواشيه، وكتاب "الذهب الخالص" للمفسر وهو مختصر كتابي القواعد وحاشية أبي ستة ـ القواعد 1/ ج د. 87
- سعيد بن جبير بن هشام الأسدي (45هـ — 95هـ)(665 — 714م) 33، 121، 158، 195.
- أبو سعيد الخدري = سعد بن مالك بن سنان (10 ق هـ — 74هـ) (613 — 693). 156، 189.
- سعد الله (أبو القاسم) (ولد 1930م). 44؛ 48.
- سعد بن مالك بن أبي وقاص بن أهيب ويقال وهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كـــلاب القرشي (23ق. هـ — 55 هـ)(603م — 675م). 152
- سعفـــص من أسمـاء الحروف بالمغاربة الفهرست / 57. 241
- سلمـة بن سعد (سعيد) أول داعية الى المذهب الاباضي في المغرب في أواخر القرن الأول الهجري وأوائل القرن الثاني الهجري، استطاع تكوين بعض تعلمية ما لاباضية في الجزائر 17/1. 19

.../...

.../...

.../...

.../...

.../...

.../...

.../...

ـ قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي البصري (61 ـ 118هـ) (680 ـ 736م)؛	122
ـ قرشـــت	241
القرطبي = محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرج الانصاري الخزرجي الاندلسي أبو عبد الله القرطبي (671هـ 1273م).	71، 110.
ـ القسطلاني = محمد بن أحمد بن علي بن محمد القيسي الشاطبي أبو بكر(614 ـ 686هـ)(1218 ـ 1287م	250
ـ قطري بن الفجاءة التميمي (حوالي 78، 79هـ).	18
ـ ابن قيم الجوزية = محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن سعد الزرعي الدمشقي أبو عبد الله شمس الدين (691 ـ 751هـ)(1292 ـ 1350م).	134، 200.
ـ ك ـ	
ـ ابن كيسان = عبد الرحمن بن كيسان أبو بكر الأصم المعتزلي (نحو225هـ/840م).	195
ـ ابن كثير = اسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي الدمشقي أبو الفداء عماد الدين (701 ـ 774هـ) (1302 ـ 1373م).	123، 274.
ـ الكرديسال لا فيجري	41
ـ الكسائي = علي بن حمزة بن عبد الله بن عثمان الأسدي بالولاء الكوفي أبو الحسن الكسائي، (189هـ/805م).	116، 122.
ـ كعب الأحبار (حوالي 32، 35هـ)	191، 242.
ـ الكلبي = محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي أبو النصر(146هـ/763م).	36
ـ كمنوس أبو محمد	131
ـ كلمـــن	241.

.../...

— ل —

— لــوقا = قديس ورفيق بولس في أسفاره (نحو 70م) كتب أنجيل لوقا. | 246

— م —

— ابن ماجـة = أبو عبد الله محمد بن يزيد بن عبد الله بن ماجة (209 هـ — 273 هـ). | 125، 126

— المازني = بكر بن محمد بن بقي مازن بن شيبان ابن ذهل بن ثعلبة كانت وفاته بين (247 ، 230 هـ) | 120

— ما سكراي أميل مستشرق قام بطبع كتاب سير الأئمة وأخبارهم لأبي زكريا مترجما الى اللغة الفرنسية سنة 1878. | 96.

— أبو مالك الأشعري | 126

— ابن مالك = محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي (672هـ — 1273م). | 31، 132.

— موسى (النبي عليه السلام) | 140، 150، 163، 168، 177، 205، 244.

— موسى بن عامر بن علي بن عامر بن سيفاو الشماخي تخرج على أبيه له كتاب (ترتيب اللفظ) شرحه المفسر وسماه (تفقيه الشامر بترتيب لفظ بن عامر). | 32، 211.

— أبو المؤثر = الصلت بن خميس الخروصي، وفاته كانت في أواخر القرن الثالث الهجري، أحد أعلام الاسلام في عمان وكان أحد رجال الشورى الذين بايعوا الامام الصلت بن مالك، ومعاصرا لمحمد بن محبوب. اعلام الاسلام 1/80 الهامش 1. | 21، 22، 23.

— المأمون = عبد الله بن هارون بن المهدي بن المنصور بن محمد بن علي (170 — 218هـ) (786 — 833م). | 170

— المبـــــــرد = محمد بن يزيد بن عبد الاكبر بن عمير بن حسان الثمالي الأزدي، أبو العباس (210 — 286هـ) (825 — 899م). | 122

.../...

.../...

.../...

- هـ -

.../...

- فهرس البلدان والأماكـــن -

.../...

ـ ك ـ

ـ كرمــــا ن	162
ـ الكعبـــــة	164

ـ ل ـ

ـ ليبيــــريـج	28
ـ ليبيـــا	43

ـ م ـ

ـ مديـــن	241
ـ المدينـة (المنورة)	159 ، 66
ـ مراكـــــش	193
ـ المسجـــد الحرام	164
ـ مصــــر	256،246،93،78،73،56 .
ـ مضـــا ب (أنظر وادى ميزاب)	78 ، 59
ـ معهـد الملـل	83،79،78 ،70،49،41،23،21 ،
ـ المغرب (الاقصى ـ العربي)	218،193،
ـ مكـــة	224 ،202،125 .
ـ مليكة (مدينة من مدن ميزاب السبعة غرداية)	74، 70

ـ و ـ

ـ وادي ميزاب (مضـــا ب)	125، 96،77،70،68،55،44،43،28 ، 246 ،199 ،190 ،174 .
ـ ورجـــلا ن (ورقلـــة)	249 ،78، 75 ،67 ،59 ،27 .

- فهرس المذاهب والفرق والأمم -

- أ -

— المصادر والمراجع —

أ. الكتب:

- ابراهيم أنيس (الدكتور)
- عبد الحليم منتصر (الدكتور)
- عطية الصوالحي
- محمد خلف الله أحمد
  • معجم الوسيط
  الاشراف على الطبعة
- حسن علي عطية
- محمد شوقي أمين
  دار المعارف ط 3 مصر 1393 هـ / 1972 م.
- ابراهيم بكير بحاز
  • الدولة الرستمية (160 – 296 هـ) (777 – 909م)
  مطبعة لافوميك ط 1 الجزائر 1985
- ابراهيم بن عمر بيوض
- ابراهيم بن سعد العبري
  • أجوبة وفتاوي
  منشورات دار الدعوة نالوت ط 1 ليبيا 1390هـ/ 1971م
- ابراهيم بن محمد أطفيش (أبو اسحاق)
  • النقد الجليل للعتب الجليل
  (المطبعة غير مذكورة) 1342/ 1924
- أحمد أمين
  • فجر الاسلام
  دار الكتاب العربي ط 10 بيروت لبنان 1969م
- أحمد توفيق المدني
  • كتاب الجزائر
  المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984
  المطبعة العربية

.../...

- أحمد بن حمد الخليلي
• جواهر التفسير أنوار من بيان التنزيل
مكتبة الاستقامة ط 1 روي سلطنة عمان 1404 هـ / 1984 م.
- أحمد بن سعيد الدرجيني (أبو العباس)
• طبقات المشائخ بالمغرب
تحقيق ابراهيم طلاي
مطبعة البعث قسنطينة الجزائر 1394 هـ/ 1974 م
- أحمد بن شعيب بن علي بن يحي النسائي (أبو عبد الرحمن)
• سنن النسائي
شرح : جلال الدين السيوطي وحاشية الامام السندي
دار الكتب العلمية بيروت لبنان.
- أحمد شلبي
• المجتمع الاسلامي
مكتبة النهضة المصرية ط 1 القاهرة 1958
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (أبو الفضل)
• فتح الباري شرح صحيح البخاري
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع
• تهذيب التهذيب
مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية ط 1 الدكن الهند 1325 هـ
- أدوار مونتيه
• تفصيل آيات القرآن الكريم
نقله الى العربية
- محمد فؤاد عبد الباقي
دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 2 بيروت 1374هـ/1955
- اسماعيل حقي البروسوي
• تفسير روح البيان المجلد 1
دار الفكر

- الحسين بن مسعود الفراء البغوي (أبو محمد)
  - شرح السنة

  تحقيق : زهير الشاويش — شعيب الارناؤوط

  المكتب الاسلامي ط 2 1403هـ/ 1983م
- الربيع بن حبيب
  - الجامع الصحيح

  على ترتيب يوسف بن ابراهيم الورجلاني (أبو يعقوب)

  المطبعة السلفية ط 2 القاهرة 1349 هـ
- سالم بن حمود
  - أدنى المناهج في تمييز الاباضيّة من الخوارج

  (المطبعة غير مذكورة) أول رجب 1385 مطوح عمان
- سعد الله أبو القاسم
  - تاريخ الجزائر الثقافي القرن 10 — 14 هـ 16 — 20 م

  الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981
  مطبعة أحمد زبانة
  - الحركة الوطنية الجزائرية ج 2

  الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط 3 الجزائر 1983
  - محاضرات في تاريخ الجزائر الحديث

  الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ط 3 الجزائر 1982
- سليمان أبو الربيع الباروني
  - مختصر تاريخ الاباضيّة

  المطبعة غير مذكورة) سنة 1936
- سليمان بن عبدالله الباروني
  - كتاب الأزهار الرياضية في أئمة وملوك الاباضيّة

  مطبعة الازهار البارونية مصر

.../...

ـ اسماعيل بن موسى الجيطالي النفوسي

• قناطر الخيرات ج 3

المطبعة البارونية طيلمون مصر 1307 هـ.

• قواعد الأسلام ج 1

قام بتصحيحه والتعليق عليه

ـ عبد الرحمن بن عمر بكلي

المطبعة العربية ط 1 غرداية الجزائر 1976 .

ـ أنور الجندي

• الفكر والثقافة المعاصرة في شمال افريقيا

الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1385هـ / 1965م

ـ أ . ي ونسنك

• مفتاح كنوز السنة

نقله الى العربية : ـ محمد فؤاد عبد الباقي

دار احياء التراث العربي بيروت 1402 هـ/ 1983م

ـ وله ـ و ي ب منسنج

• المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي

عن الكتب الستة وعن مسند الدارمي وموطأ مالك ومسند أحمد بن حنبل

اتبع نشره : ي . بروخمان

دار الدعوة دار سحنون

استنبول 1987م تونس 1987م .

ـ جابر بن زيد

• فقه الأمام جابر بن زيد

تقديم وجمع وتخريج : يحي محمد بكوش

المطبعة العربية ط 2 غرداية 1408هـ/ 1988م .

ـ الحاكم النيسابوري (أبو عبد الله)

• المستدرك على الصحيحين وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي

دار الكتاب العربي بيروت .

.../...

— شــــوقي ضيــف

• تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)

دار المعارف ط 3 مصـــــر

• تاريخ الأدب العربي (العصر الأموي)

دار المعارف ط 3 مصـــــر

• الفن ومذاهبه في الشعر العربي

دار المعارف ط 3 مصـــــر.

— صابـر طعيمـة

• الاباضيـة عقيدة ومذهب

دار الجيـل بيروت 1406هـ/1986م

— صبـــري المتولـــي

• منهج ابن تيميـة في تفسير القرآن

عالم الكتب 1401 هـ/ 1981م

— عادل نـويهـض

• معجـم أعـلام الجزائر

مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر ط 2

بيروت لبنـان 1400 هـ/ 1980 م.

• معجـم المفسرين من صدر الاسلام حتى العصر الحاضر

مؤسسة نويهض الثقافيـة... ط 1 1403 هـ/ 1983 م

— عامـر بن علي الشماخي

• الايضـاح ج 1

مطبعـة الوطن بيروت 1391 هـ/ 1971م

— الناشر: دار الدعـوة نالـوت

— عبد الحميـد زوزو

• نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر (1830 — 1900م)

المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984

المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية وحدة الطبع المتعددة

ورشـة أحمد زبـانـة.

.../...

- عبد الحي بن العماد الحنبلي (أبو الفلاح)
  • شذرات الذهب في أخبار من ذهب
  دار احياء التراث العربي بيروت
- عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (جلال الدين)
  • الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير
  دار الكتب العلمية ط 4
  • اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعة
  دار المعرفة للطباعة والنشر ط 3 بيروت 1401 هـ/ 1981م
- عبد الرحمن الثعالبي
  • الجواهر الحسان
  تحقيق : عمار طالبي
  المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1985.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي
  • تاريخ الجزائر العام ج 3
  دار الثقافة بيروت لبنان 1400 هـ/ 1980 م.
- عبد العزيز الدميني (ضياء الدين)
  • كتاب النيل وشفاء العليل
  صححه وعلق عليه : عبد الرحمن بن عمر بكلي
  المطبعة العربية لدار الفكر الاسلامي ط 2 الجزائر
  1387هـ/ 1967 م
- عبد الله بن حميد السالمي (أبو محمد)
  • شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب بن
  عمرو الفراهيدي الازدي.
  صححه وعلق عليه : عز الدين التنوخي
  المطبعة العمومية دمشق 1383 هـ/ 1963م
- عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله (ابن عقيل)
  • شرح ابن عقيل على ألفية بن مالك
  دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ط 16.

.../...

- عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي الشيرازي
  - أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المطبعة العثمانية سنة 1305 هـ

- عبد الوهاب عبد الوهاب فايد
  - منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم

منشورات المكتبة العصرية صيدا بيروت 1393هـ/ 1973 م

- علي بن محمد بن ابراهيم البغدادي الخازن (علاء الدين)
  - لباب التأويل في معاني التنزيل

المطبعة المصرية 1318 هـ

- علي موسى ، مخلص الريس
  - علم الفلك مفاهيمه وأسسه

دار دمشق للطباعة والنشر بيروت لبنان

- علي يحيى معمر
  - الاباضيّة بين الفرق الاسلامية

الناشر: مكتبة وهبة القاهرة
مطابع : سجل العرب ط 1 1396 هـ/ 1976م

  - الاباضيّة (دراسة مركزة في أصولهم وتاريخهم)

المطبعة العربية غرداية الجزائر 1985

  - الاباضيّة في موكب التاريخ (الاباضيّة في الجزائر)

صححه : أحمد عمر اوبكة

المطبعة العربية غرداية الجزائر 1985

- عمرو بن جميع (أبو حفص)
  - مقدمة التوحيد

شرحها : أحمد بن سعيد الشماخي (أبو العباس)
داود بن ابراهيم التلاتي (أبو سليمان)

صححها وعلق عليها : ابراهيم أطفيش أبو اسحاق.
(المطبعة غير مذكورة) القاهرة 1353.

.../...

ـ عمار طالبي
• آراء الخوارج الكلامية

الموجز : لأبي عمار عبد الكافي
الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1398هـ/ 1978م
مطابع الشروق بيروت

ـ كارل بروكلمان
• تاريخ الأدب العربي ج 3

نقله الى العربية د / عبد الحليم النجار.
دار المعارف ط 3 القاهرة مصر.

ـ مالك بن أنس الأصبحي (أبو عبد الله)
• موطأ الإمام مالك

رواية محمد بن الحسن الشيباني

تعليق و تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف

دار القلم بيروت لبنان

ـ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي شمس الدين (أبو عبد الله)
• معرفة القراء الكبار على الطبقات والاعصار

المحققون : بشار عواد معروف
شعيب الارناؤوط
صالح مهدي عباس
مؤسسة الرسالة ط 1 1404 هـ/ 1984م

ـ محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (أبو الوليد)
• فصل المقال

تقديم : أبو عمران الشيخ ،
جلول البدوي

الشركة الوطنية للنشر و التوزيع الجزائر 1982

ـ محمد بن اسحاق النديم
• الفهرست

المحقق : د / مصطفى الشويمي

الدار التونسية للنشر تونس
المؤسسة الوطنية للكتاب ط 1 الجزائر
مطبعة أوميقا للنشر 1406 هـ/ 1985م

— محمد البهي

• الفكر الاسلامي في الحديث وصلته بالاستعمار الغربي

الناشر : مكتبة وهبة مطبعة مخيمر

— محمد بن جرير الطبري (أبو جعفر)

• جامع البيان في تفسير القرآن

دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت لبنان 1403 هـ/1983م

— محمد جواد مغنية

• معالم الفلسفة الاسلامية

دار العلم للملايين ط 1 بيروت لبنان 1960

— محمد حسين الذهبي

• التفسير والمفسرون ج 1

دار الكتب الحديثة ، مطبعة السعادة ط 1 1381 هـ/ 1961م

• التفسير والمفسرون ج 2

مطبعة دار الكتاب العربي القاهرة مصر 1381 هـ/ 1962م

— محمد بن الحواري (أبو الحواري)

• الدراية وكنز الغاية في منتهى النهاية

وبلوغ الكفاية في تفسير خمسمائة آية

دار اليقظة العربية دمشق 1974

— محمد رشيد رضا

محمد عبده

• تفسير المنار

دار المعرفة ط 2 بيروت

— محمد الشيخ بلحاج

• القرآن الكريم تفسيره ومفسروه

النشأة روايتها وروا تفسيرها عند الاباضية

المطبعة العربية غرداية 1984م

.../...

— محمد علي دبوز

• أعلام الإصلاح في الجزائر

مطبعة البعث ط 1 قسنطينة 1396 هـ/ 1974 م

• تاريخ المغرب الكبير

دار احياء الكتب العربية ط 1 1383 هـ/ 1963 م

• نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ج 3

المطبعة التعاونية ط 1 1385 هـ/ 1965 م.

— محمد علي الشوكاني

• الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة

تحقيق : عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني

مطبعة السنة المحمدية

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

• نيل الاوطار من أحاديث سيد الأخيار شرح منتقى الاخبار

دار الكتب العلمية بيروت لبنان

— محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي
(أبو عيسى)

• الجامع الصحيح للترمذي

بشرح ابن العربي المالكي

دار الكتاب العربي بيروت

— محمد كامل

• قائمة مطبوعات الوزارة 1986/ 1987

وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان

— محمد محمد أبو زهو

• الحديث والمحدثون أو عناية الأمة الاسلامية بالسنة النبوية

دار الكتاب العربي بيروت 1404 هـ/ 1984 م

.../...

- محمد ناصر الألباني
  - سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة

    المكتب الاسلامي ط 5 1405 هـ/ 1985 م
- محمد بن مكرم بن منظور جمال الدين (أبو الفضل)
  - لسان العرب

    دار صادر للطباعة والنشر
    دار بيروت للطباعة والنشر ط 1 بيروت 1388 هـ/ 1968 م
- محمد بن يوسف أطفيش
  - ازهاق الباطل بالعلم العاطل .

    طبعة حجرية 1317 هـ
  - ان لم تعرف الاباضية يا عقبي

    مطبوع بحواشي وتعليقات : عبد الله بن حميد السالمي
    المطبعة العلمية ط 2 تونس 1321
  - تقييد القاموس بترتيب لفظ ابن عامر

    طبعة حجرية 1319 هـ
  - تيسير التفسير

    طبعة حجرية ط 1 الجزائر 1325، 1326هـ/ 1905
  - جامع الشمل في حديث خاتم الرسل

    دراسة وتحقيق : محمد عبدالقادر عطا
    دار الكتب العلمية ط 1 بيروت 1407 هـ/ 1987 م
  - حكم الدخان والمخطوط

    طبعة حجرية 1326 هـ
  - داعي العمل ليوم الأمل

    مخطوط مكتبة الشيخ أطفيش بني يسقن .
  - الذهب الخالص المنوه بالعلم القالص

    تعليق : أبو اسحاق ابراهيم أطفيش
    دار البعث للطباعة والنشر ط 2 قسنطينة الجزائر 1400 هـ/1980م

.../...

- الرد على الصفرية والأزارقة

طبعة حجرية 1314

- رسالة الشافية

طبعة حجرية 1326 هـ

- رسالة موجهة الى أهل عمان

مخطوطة

- رسالة موجهة الى السلطان عبد الحميد

مخطوطة

- رسالة في الرد على الانجليزي المنكر للقرآن

سماها: " قذف الحجر على أهل الخير "
مخطوطة

- شامل الأصل والفرع

تصحيح وتعليق: أبو اسحاق ابراهيم أطفيش
المطبعة السلفية القاهرة 1348 هـ

- شرح الدعائم لابن النظر العماني

طبعة حجرية 1326 هـ

- شرح النيل وشفاء العليل

مكتبة الارشاد جدة
دار الفتح ط 2 بيروت 1393 هـ/ 1973 م

- القنوان الدانية في مسألة الديوان الحاتية

طبعة حجرية 1314 هـ

- كشف الكرب

وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان
1405 هـ/ 1985م

- مجموع القصائد

طبعة حجرية 1314 هـ

.../...

• عميان الزاد الى دار المعاد

المطبعة السلطانية زنجبار 1305 هـ ـ 1314 هـ

ـ محمود بن عبد الله بن محمد بن درويش الحسني الآلوسي

• روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني

دار الفكر بيروت 1403 هـ/ 1983 م

ـ محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشري

• الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل من وجوه التأويل

تحقيق وتعليق : محمد مرسي عامر

دار المصحف ، شركة مكتبة ومطبعة عبد الرحمن محمد القاهرة

1397 هـ/ 1977 م

ـ مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري

• صحيح مسلم

شرح النووي

دار احياء التراث العربي بيروت

ـ معمر بن المثنى التيمي (أبو عبيدة)

• مجاز القرآن

تحقيق وتعليق : محمد فؤاد سزكين

مؤسسة الرسالة ط 2 بيروت 1401 هـ/ 1981 م

ـ مناع القطان

• مباحث في علوم القرآن

منشورات العصر الحديث 1391 هـ/ 1971 م

ـ نجلاء عز الدين

• العالم العربي

اشترك في ترجمته مجموعة من الأساتذة

دار احياء الكتب العربية بالاشتراك مع

مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر القاهرة ـ نيويورك

الطبعة الأولى 1957

الطبعة الثانية 1962

.../...

– محمود بن محكم الهواري

. تفسير القرآن ج 3

مخطوط مكتبة الشيخ أطفيش بني يسقن رقم 14/4 .

– يحي بن أبي بكر (أبو زكريا)

. سير الأئمة وأخبارهم

تحقيق وتعليق : اسماعيل العربي

المكتبة الوطنية الجزائر 1399 هـ/ 1979 م

مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

مطبعة أحمد زبانة الجزائر

– يحي بن أبي الخير الجناوني (أبو زكريا)

. الوضع : مختصر في الأصول والفقه .

تحقيق : أبو اسحاق ابراهيم أطفيش

مطبعة الفجالة الجديدة ط 1

– يوسف بن ابراهيم الورجلاني (أبو يعقوب)

. الدليل والبرهان

المطبعة البارونية طالون مصر 1306 هـ

– يوسف خلفون المزاتي (أبو يعقوب)

. أجوبة ابن خلفون

تحقيق وتعليق : د/ عمر وخليفة النامي

دار الفتح للطباعة والنشر ط1 بيروت 1394 هـ/ 1974 م

ب : محاضرات :

– ابراهيم محمد طلاي

. تفسير محمد بن يوسف أطفيش للقرآن الكريم

محاضرة : ألقيت في مهرجان القطب (المفسر) 1401 هـ/ 1981 م

– بكير حلمي

. مواقف القطب ضد السلطة الاستعمارية ومعاينة الأحداث في الأقطار الاسلامية .

محاضرة : ألقيت في نفس المهرجان .

.../...

ـ بلحاج عدون شريفي

. التفسير ومناهجه عند علماء الاباضية

محاضرة ألقيت في ملتقى الخامس عشر للفكر الاسلامي الجزائر

2 ـ 8 ذو القعدة 1401 هـ

وزارة الشؤون الدينية مديرية البحوث الاسلامية والملتقيات.

ـ سليمان داود بن يوسف

. التفسير ومناهج المفسرين

محاضرة : ألقيت في نفس الملتقى

ـ عبد الرحمن بكلمي

. محاضرة (بلا عنوان) ألقيت في مهرجان القطب 1401هـ/

1981م.

ـ محمد أيوب صدقي

. ردود ومواقف

محاضرة : ألقيت في نفس المهرجان

ـ محمد الشيخ بلحاج

. الاجتهاد في المذهب الاباضي

محاضرة : ألقيت في ملتقى السابع عشر للفكر الاسلامي قسنطينة

1403 هـ/ 1983م.

ـ يحي محمد بكوش

. شرح النيل دائرة معارف في الشريعة الاسلامية

محاضرة : ألقيت في مهرجان القطب 1401 هـ/ 1981 م

المطبعة العربية غرداية.

.../...

جـ الدوريّات :

— مجلة الأصالة
مطبعة البعث قسنطينة الجزائر
تصدرها وزارة الشؤون الدينية .
— الحبيب الجحماني
. حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن 19.

عدد : 16 السنة الثالثة شعبان ، رمضان 1393 هـ
سبتمبر ، أكتوبر 1973 م
— سليمان داود بن يوسف
. مجهودات الدولة الرستمية في نشر الحضارة الاسلامية وتركيزها

عدد 49 ، 50 السنة السادسة رمضان ، شوال 1397 هـ
سبتمبر أكتوبر 1977 م
— جريدة الشعب (يومية ، وطنية ، اخبارية)
المؤسسة الوطنية للصحافة الجزائر .
— سعد الله أبو القاسم
. شيخ الاسلام عبد الكريم فقون

عدد 6969 السنة 24 الاربعاء 1 رجب 1406 هـ الموافق
12 مارس 1986 .
— مجلة المنهاج : (مجلة علمية سياسية اجتماعية نصف شهرية)
مطبعة الشباب — مصر —
صاحبها : أبو اسحاق ابراهيم أطفيش عدد 3 ، 4 السنة 7
1344 هـ / 1950 م .
— أبو اسحاق ابراهيم أطفيش
. داعي العمل ليوم الأمل

. مسألة الأذان بين أمل غرداية
والجالية المذهبية والمرزوقية .

— ٥ — فهرس الموضوعات — ٥ —

.../...

الموضوع	الصفحة

.../...

.../...

الموضوع	الصفحة

الفصل الثالث :

(مكانة تفسيره بين بعض التفاسير)